

أَمْراءُ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ

فِي الْبَعْضِ الْقَبَائِسِ

أَيُّوبُ الْقُدْسِيُّ

أَمْراءُ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ
فِي
الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ

أُمراءُ الشَّعرِ العَرَبِيّ في المَصْرِ القَبَائِيّ

وهو دراسة تحليلية لأدب ثمانية من أشهر شعراء العرب
وللجوّ الذي نشأوا فيه

تأليف
أنيس المقدسي

استاذ شرف للأدب العربي في جامعة بيروت الأميركية
وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق وجمع اللغة العربية بالقاهرة
وإستاذ سابق للأدب في معهد الدراسات العربية العالية بمصر
شبكة كتب الشيعة

دار العلم للملايين
بيروت



shiabooks.net

رابطه يديتل < mktba.net

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة العاشرة

بيروت ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥

توطئة

في الغرض من هذا الكتاب

لدرس الادب طريقتان : الأولى الطريقة الاجالية ، وهي المتبعة في المدارس الثانوية والاطواسط الأدبية العامة . ويراد بها الاطلاع على كل ما أنتجته قرائح الأدباء والعلماء في مختلف العصور . وقد كان المرحوم العلامة جرجي زيدان أول من نظم هذه الطريقة في تاريخ الأدب العربي ، ثم تلاه جملة من الاساتذة والأدباء ، فعُتِنوا بذلك ووضعوا من المؤلفات ما يفي بمحاجات الطلبة والمتأدبين .

والطريقة الثانية التقصي الدقيق ، وهي المتبعة في معاهد البحث الخاصة في الجامعات وسواها . وفيها ينحصر جهد الباحث في وجهة معينة يتقنها - كأن ينصرف مثلاً إلى فرع معين من فروع البلاغة ، أو باب من أبواب الفيلولوجيا (فقه اللغة) - أو يقتصر على حياة شخص من أشخاص التاريخ كالمتنبي أو الفزالي أو ابن خلدون ، أو كتاب خاص من كتب الأدب كالعقد الفريد أو العمدة أو اللزوميات . وبهذه الطريقة يُدرَّب الطالب على جمع المعلومات من شتى المصادر ، ويخرج في أصول النقد وسلوك السبيل العلمي في الكتابة . وهنا يشترك الاستاذ والطالب توصلاً إلى هدف واحد هو دقة الاستقراء والنظر في الاصول نظراً لا تشوبه شائبة التغرُّض أو المتابعة العمياء .

وبين هاتين الطريقتين طريقة وسطى نطلق عليها اسم « التخصص

الأولي . وفيها يُعتمد إلى فرع واسع من فروع الأدب كالشعر مثلاً ، فيُختار للمتأدّب نخبة من امرائه ، ويُدرس كل منهم درساً وافياً يجمع بين البحث العلمي والتحليل الأدبي جمعاً يمكن المتأدّب من الانتقال بعدئذ إلى درجة التقصّي الدقيق .

وقد حاولنا في هذا الكتاب ان نحقّق هذه الغاية فاخترنا الشعر في العصر العباسي ، وتناولنا من امرائه ثمانية فدرسنا عصرهم وشعرهم على الطريقة التحليلية الحديثة ، وقرّنا ذلك بذكر أهمّ المصادر التي يُرجع إليها في دراستهم ، وبطائفة كبيرة من روائعهم الشعرية . فتمّ لنا بذلك غرضان : غرض علمي وهو الجري في ميدان البحث الحرّ ، وغرض أدبي وهو التفقّه بالأدب نفسه .

ونحن نعلم ما سنستهدف له بسبب اختلاف الآراء . فلما لمقاييس البحث في الادب ليست مقاييسه في العلوم الطبيعية والرياضية . وإنّا نحن نعرض هذه الاتجاهات للمتأدّبين المفكّرين ، ولطلاب التخصص الاولي مدرجةً إلى التخصص العالي وسعياً وراء الحقيقة العلمية . وإنّا لنرحّب بكل انتقاد مبني على الدرس والانصاف وأصول البحث والمنطق .

وقد كان معولنا في اختيار هؤلاء الثمانية شهرتهم ، وانهم أعمق أثراً من سواهم في تاريخ الشعر العباسي . ولا يعني ذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء من يرتفع الى درجتهم أو من يفوقهم في بعض المناحي ، وإنّا يعني انهم يمثلون العصر العباسي أفضل تمثيل ، وفي درسهم درس لذلك العصر ودرس للحركة الأدبية فيه .

وها نحن نتقدم الى العالم العربي بالطبعة السابعة من هذا الكتاب بعد ان بذلنا الجهد في ضبطها وتنقيحها . نفعل ذلك نزولاً عند رغبة كثير من الأدباء والعلماء والأساتذة وحباً بدراسة وافية لهذه السلسلة الشعرية العظيمة التي تعكس لنا العواطف العربية في أخصب العهود الأدبية .

العوامل السياسية في الحضرة العباسية



نظرة عامة

حكم العباسيون في بغداد خمسة قرون كان عرشهم فيها ملعباً للأهواء والحركات السياسية المختلفة . وقد رأينا تمهيداً لهذا البحث ان نقسم مدة حكمهم أقساماً توضح لنا العوامل التي كانت تعمل فيها والتي أدّت أخيراً إلى انحلالها . وهي عند التحقيق خمسة نطلق عليها اسم « أدوار سياسية » .

الدور الأول - دور القوة المركزية

أي قوة الخلافة . ويمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل ، فيشغل نحو قرن من الزمان بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهرها . وفي هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد من حدود الهند إلى افريقيا (تونس) .

الدور الثاني - دور الجندية

كان الخليفة المعتصم قد نظم من فتيان الاتراك جنداً يعتمد عليه في

حماية العرش . فلما مات المعتصم أصبح نفوذ أمراء الجند شديداً في الخلافة . ولم يكد يُقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ حتى أصبح الخليفة في قبضتهم يتصرفون به كما يشاؤون . ويمتد هذا الدور إلى سنة ٣٣٤ هـ . على ان الخلافة بقيت برغم استبداد الجند محافظة على شيء من رونقها ، وكان لها وزارة وعمّال . ومما يُذكر في هذا الدور ان ديوان الخلافة كان قد نقله المعتصم سنة ٢٢١ هـ إلى سامرا وبقي فيها نحواً من ٥٨ سنة ثم أعيد إلى بغداد .

الدور الثالث - الدور البويهى (٣٣٤ هـ - ٤٤٧)

وفيه كانت السلطة الحقيقية في أيدي بني بويه ، وصارت الوزارة من جهتهم والاعمال اليهم ، وأصبح الخليفة لا يملك من المال إلاّ راتباً يتقاضاه . على ان البويهيين كانوا أهل سياسة ودهاء ، فأبقوا للخلافة نفوذها الاسمى وصاروا يحكمون في الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء . وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة .

الدور الرابع - الدور السلجوقي (٤٤٧ هـ - ٥٩٠)

فيه كانت السلطة للسلاجقة ، وهم دولة تركية قويّة عرضت مملكتها واستولت على الامر في بغداد وضربت باسم سلاطينها النقود وخطب لهم على المنابر . على انهم كانوا كالبويهيين يحافظون على الخلافة ويظهرون التبجيل لصاحبها .

الدور الخامس - دور الاحتضار

انقرضت دولة السلاجقة من بغداد أيام الناصر ، ولكن الانحلال كان قد تمكّن من جسم المملكة العباسية . فلما ذهب بنو سلجوق لم يبق للخلافة في بغداد سوى بعض النحاء العراق . فكانت الخلافة في طور

الاحتضار ، ولم تزل كذلك حتى جاءها المغول سنة ٦٥٦ هـ فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحو ما كان قائماً من معالمها .

* * *

هذه نظرة عامة نلقيها عن بعد على العصر العباسي . وإنما نحن في ذلك كالواقف على ربوة مشرفة على سهل عامر يسرّح نظره في مناحيه العامة ويتبين معالمه الرئيسية دون أن يتغلغل فيه ليطالع على دواخله وخوافيه . وغايتنا من ذلك معرفة الخطط السياسية العامة تمهيداً لدرس حالة العصر النفسية ، وتوصلاً إلى فهم آدابه . فنحن هنا إنما نحاول درس الجو الذي نشأ فيه أدب القوم لا تاريخهم السياسي ، وإلا فالأفضل الرجوع إلى المطولات التاريخية كالطبري والمسعودي وابن الأثير ومسكويه وابن الطقطقي والذهبي وابن خلدون وسواهم ممن خاضوا عباب هذا البحث وجاءوا بالاخبار الواقية .

* * *

ولما ألقينا نظرنا العامة على هذه القرون الخمسة ظهر لنا في حياة الدولة العباسية وما تقلّب عليها من غيّر الدمر ظواهر كبرى تمثل لنا ما نحن بصددده . أهمّها ما يلي :

١ - التنافس على السيادة بين مختلف العناصر والأعراق .

٢ - ضعف الخلافة وتجزؤها إلى امارات مستقلة .

٣ - الحركات الهدامة الداخلية .

٤ - غارات الروم والافرنج على أطرافها .

وقد كان يحذر بنا ان نتجاوز ذلك إلى الكلام عن أحوال الممالك الاسلامية ، ولا سيما البلاد العربية بعد سقوط بغداد ، ونربط ذلك بقيام العثمانيين وانتزاعهم الخلافة من العباسيين في مصر ، وما كان من أحوال الادب في أيامهم ، ثم نسوق الكلام إلى حالة الناطقين بالعربية في العصر الأخير ، وما كان لهم من النهضة بعد الحرب الكبرى . وإنما ذلك

خارج عن موضوعنا فنتركه لغير هذا المقام^١ . ونعود الآن إلى الظواهر السياسية الكبرى في العصر العباسي .

التنافس بين العناصر العرقية

وأخصها العربي والفارسي

في الفتوح الإسلامية الأولى وُضع حجر الزاوية لبناء الملك العربي العام . فبعد أن كان معظم العرب في جاهليتهم قبائل متفرقة ضاربة في أجواز الفلاة ، وبعد أن كانت حكوماتهم في العراق والشام وسواهما خاضعة لإحدى الدول السائدة من فرس أو روم أصبحوا في عهد الراشدين دولة واحدة ذات سيادة . فنا فيهم حب الفتح والسلطان ووصل إلى أشده في دمشق أيام الامويين ، واستمر على ذلك في بغداد إلى أيام المعتصم . فعصر السيادة العربية لم يفتقر بفترة^٢ بانتهاء الدولة الأموية بل بقي نحو قرن بعدها . نعم ان عوامل الضعف كانت قد بدأت تعمل في جسم الدولة والخلافة ، ولكن سيادة العنصر العربي لم تهبط إلا تدريجياً وبقي العرب على شيء كبير من القوة والنفوذ طيلة العصر العباسي الأول .

في هذا العصر بلغت الخلافة أوج قوتها ، فكانت بغداد كما كانت دمشق قبلها عاصمة سلطنة مترامية الأطراف لا تقل عن سلطنة رومة في إبتان مجدها ، وكان الخليفة العربي الحاكم المطلق يتصرف بشؤون الدولة وأمورها كما يشاء .

أما الروح الفارسية التي كانت تمثل عظمة الفرس الماضية وآمالهم في استرجاعها فقد كانت في أحط دركاتها أيام الامويين ، ولكنها أخذت تقتنعش في أواخر حكمهم ، ولم تلبث أن تجسّمت بروح الثورة الخراسانية

١ راجع كتابنا الجديد «الانجماات الأدبية في العالم العربي الحديث» .

يقودها أبو مسلم الخراساني لنصرة العباسيين . وعرف العباسيون ذلك للفرس فاتكوا عليهم في الادارة والوزارة ، ولذا رأينا نفوذهم يتعاظم ورأينا التنافس بينهم وبين العرب يشتد . وعلى ذلك يعدّ الجاحظ دولة العباسيين أعجوبة خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية^١ . وقال ابن خلدون : « كان بنو امية يستظهرون في حروبيهم وولاية اعمالهم برجال العرب مثل عمر بن سعد وعبدالله بن زياد والحجاج بن يوسف والمهلب بن ابي صفرة وخالد القسري وابن هبيرة وبلال بن ابي بردة ونصر بن سيار وأمثالهم . وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيه أيضاً برجال العرب . فلما صارت الدولة للانفراد بالمجد وكُبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل وبني طاهر وسواهم^٢ .

على ان العباسيين الاولين كانوا أصحاب بطش وقوة ، فإنهم مع اتكالمهم على الفرس لم يستسلموا لهم ، بل أبقوا للخلافة العربية جلالها . بذلك على ذلك ما فعله المنصور بأبي مسلم حين خشي منه الطفيان^٣ ، وكذلك ما فعله الرشيد بالبرامكة حين أخذته الفيرة من تعاضلهم واتبه دولتهم^٤ ، والمعتصم بالأفشين لطمعه أو لأنه على ما قيل كاتب بعض أمراء العجم وأحب أن ينقل الملك اليهم^٥ : بل كانت سياستهم حفظ التوازن بين المضرة واليمنية والخراسانية منعاً لاستبداد فريق بالدولة^٦ . وكانت جيوشهم مؤلفة من عرب وفرس ثم جاء المعتصم فقطع عن هؤلاء المال وجعل جنده من الاتراك .

١ البيان والتبيين (تحقيق السندوبي) ٣ - ٢١٧ .

٢ مقدمة ابن خلدون (بيروت) ١٨٣ راجع هنا قصيدة المهلب في رثاء التوكل ، المقدم (المطبعة

الجمالية) (١٣٣١) ٢ - ١٨٦ .

٣ المسعودي (باريس) ٦ - ١٨٣ .

٤ المقدمة ١٦ و ١٧ الفخري (مصر ١٣١٧) ١٩٠ .

٥ مختصر الدول لابن العبري (١٨٩٠) ٢٤٢ واليعقوبي (لندن) ٢ - ٥٨٢ .

٦ ابن الاثير ، حوادث ١٥١ .

ومما يدل على هذا التنافس بين العنصرين ، العربي والفارسي ، مدائح الشعراء الذين نبغوا في ذلك العصر . فاذا اعتبرت أهم شعرائه تجدهم في أول الامر يتسابقون إلى باب الخليفة ويتنافسون في مدحه ، ثم تجدهم يتحولون إلى أمراء الدولة من عرب وفرس . ويزداد هذا التحول مع الزمن إلى العنصر الاخير . فقد نبغ بين أيام المأمون والمعتضد ثلاثة من أكبر شعراء العرب هم أبو تمام والبحتري وابن الرومي ، وكان أكثر مديح الاول (وهو أقدمهم) في المعتصم وبعض كبار العرب كأبي سعيد الثوري والقاضي أحمد بن دؤاد وخالد بن يزيد ومالك بن طوق وأبي ذؤيف العجلي . ومدح الثاني المتوكل واختص به ، ومع ذلك كانت مدائحه في كبار الدولة من الفرس تفوق مدائحه في أمراء العرب . أما ابن الرومي فليس له في الخلفاء شيء يذكر ، وأهم ممدوحيه من الاعاجم كال وهب وآل طاهر وأمثالهم . وسأتي تفصيل ذلك في كلامنا عن الشعراء وأحوال ممدوحيههم .

ولو تحرّيت الاسباب التي آلت إلى وهن العرب - وهم أصحاب الخلافة - ومنافسة الأعاجم لهم في الرئاسة والادارة ، ثم تغلبهم عليهم لرأيت من أهمها - عدا انقسامهم بين يمنية ومضرية - تناحرهم على الامر بين عباسية وعلوية ، بل العباسيون انفسهم لم يكونوا يداً واحدة ، فراجت بينهم سوق الاغتيال والدسائس والفتن : من ذلك قتل المنصور لعمه عبدالله ١ ، وفتنة الامين والمأمون ، وثورة ابراهيم بن المهدي عم المأمون وطلبه الخلافة ، وما كان من قتل المتوكل وغير ذلك من الحركات السياسية التي أوهنت قوى العنصر السائد ، ومهدت السبيل لانحلال عصبيته .

* * *

بدأ نفوذ الفرس في الدولة العباسية منذ نجاح الخراسانيون في الدعوة لبني

١ ابن الاثير ، حوادث ١٤٧ .

المباس ومبايعة السفاح . وقد ظلت كفة العرب وكفة الفرس متكافئتين حتى انتصرت خراسان مرة أخرى وجلس المأمون على العرش . فتعاضد نفوذ الفرس جداً وما زال كذلك حتى بلغ أوجه أيام عضد الدولة البويهى الذي قبض على زمام الأمر في بغداد ، فتحول الأمر بعد ذلك إلى نزاع بين الفرس والترك انتهى بقيام السلاجقة كما سيذكر في حينه . ولم يبق للعرب في الدولة من قوة تذكر إلا في بعض امارات حكموها ، كإمارة بني حمدان في حلب وإمارة بني الاغلب في تونس ، وسواهما من الامارات التي ستذكر في كلامنا على تجزؤ الدولة العباسية .

ضعف الخلافة

وتجزؤها الى امارات مستقلة

كانت خلافة الراشدين زعامة دينية دنيوية والدين فيها أقوى وأظهر ، وأصبحت في عصر السيادة العربية (العصر الأموي وصدر العصر العباسي) ملكاً عظيم الشأن واسع الاطراف ذا قوة مركزية عظيمة . فلما انقضى هذا العصر ، وفست عصبية العرب التي كانت ركن القوة الحربية في الدولة ، أخذت الخلافة تتحول تدريجياً من سلطة ملكية مهيمنة إلى زعامة دينية مستضعفة . قال ابن خلدون : ثم تغلب المعجم الاولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف الديلم اليها وملكوها وصار الخلائف في حكمهم ، ثم انقرض أمرهم وملك السلاجوقية فصاروا (أي الخلفاء) في حكمهم^١ .

وجاء في الفغري قول صاحبه واصفاً دولة بني بويه : «فدوت تحت الأمم واذلت العالم واستولت على الخلافة ، فعزلت الخلفاء وولتهم ،

واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم والعراق ، واطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق ^١ . وكذلك كان السلاجقة كما ذكر ابن خلدون ، على ان هذه الدول المسيطرة لم تتطاول إلى مقام الخلافة فكانوا يدينون بطاعة الخليفة تبركا ^٢ . وكانوا على ما ذكر القلقشندي مع غلبتهم على أمر الخلفاء يقتصرون على متعلقات الملك في الجهاد والتصرف بالاموال ، ويكلون أمر الولايات إلى الخليفة يباشرها بنفسه فتسكتب عنه المهود والتقاليد على ما يشهد به الموجود من انشاء الصابي وغيره ^٣ .

وقد وصف صاحب كتاب الفخري هذه الحالة أحسن وصف إذ قال : « ثم طرأت عليها (أي على الدولة العباسية) دول كدولة بني بويه وفيها كبشهم وفحلهم عضد الدولة ، ودولة بني سلجوق وفيها مثل « طغرل بك » ، وكالدولة الخوارزمشاهية وفيها مثل علاء الدين ، وجريدة عسكره مشتملة على اربعمئة الف مقاتل ... » إلى أن يقول : « ولم تقوَ دولة على ازالة ملكهم ومحو أثرهم بل كان الملك من هؤلاء المذكورين يجمع ويحشد ويحرر العساكر العظيمة حتى يصل إلى بغداد . فاذا وصل التمس الحضور بين يدي الخليفة ، فاذا حضر قبل الارض بين يديه . وكان قصارى ما يتمناه ان يولّيه الخليفة ، ويعقد له لواءً ويخلع عليه » . فمن كل ذلك نستنتج ان هؤلاء الملوك كانوا يتصرفون بأمور الدولة كما يشاؤون إلا انهم كانوا يظهررون التبجيل لصاحب الخلافة فيقدّمونه ويقبلون يديه ويتبركون به ، وهم في الواقع أصحاب الأمر ليس للخليفة منه شيء ، وإنما كانوا يفعلون ذلك لما كان للخلفاء من المنزلة الدينية في نفوس الناس .

* * *

ولم يكد يدخل القرن الرابع الهجري حتى ضعفت الحكومة المركزية في

١ الفخري (مصر ١٣١٧) ٢٥٠ .

٢ المقدمة ٢٠٨ .

٣ صبح الاعشى (المطبعة الاميرية - مصر) ١١ - ٧٣ .

٤ الفخري ١٢٤ .

بغداد جداً ولم يبقَ للخلافة من نفوذ فعلي في المملكة . فكانت خلافة الرازي ، وبلاد فارس في يد بني بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طُفج ثم في أيدي الفاطميين ، وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية . وثمة امارات أخرى ، واليك ذلك ببعض التفصيل :

الامارات المستقلة في بلاد فارس

وقد نشأت وانقرضت في مدد مختلفة بين سنة ٣٠٥ هـ و ٤٣٤ هـ وهي :

الطاهرية في خراسان الصفارية في فارس
السامانية في ما وراء النهر الساجية في اذربيجان

الزيارة في جرجان

أما الامارة الفارسية الكبرى فقد مر ذكرها وهي البويهية (٣٢٠ هـ - ٤٤٧) ويرجع نسب ملوكها إلى أبي شجاع بويه بن فناخسرو من ولد يزديجرد آخر ملوك الفرس^١ . نشأت في بلاد الديلم وأخذت بالتقدم حتى استولت على بلاد فارس ثم استولت على بغداد وأصبح لها الامر والنهي في العراق وفارس . وكان الخليفة يعيش في ظلها من إقطاع يعينه له الملك البويهي^٢ . وهذه الدولة شيعية لكنها لم تتعرض للخلافة العباسية (وهي سنية) بل أبقتها على حالها وأبقت للخلفاء حتى اصدار المراسيم والخلع . وهذا كبيرهم عضد الدولة لما استولى على بغداد وعلى شؤون الدولة ، لم يرَ بدأ من تعظيم الخلافة^٣ مع انه لا يعتقد باطنياً بحق العباسيين فيها . وقد زوج الخليفة ابنته ونمضه ان تلد ذكراً فيجعله ولي العهد وتكون الخلافة في ولده^٤ .

١ ابن العبري ٢٧٩ .

٢ ابن العبري ٢٩١ .

٣ مسكويه - تجارب الأمم (مصر ١٩١٥) ج ٢ ص ٣٤٤ .

٤ مسكويه ج ٢ - ٤١٤ .

الامارات التركية

ومنہا الطولونية في مصر والشام ۲۵۴ھ - ۲۹۲ھ .

الاشيدية في مصر والشام ۳۲۳ھ - ۳۵۸ھ .

الغزنوية في خراسان و افغانستان ثم الهند ۳۵۱ھ - ۵۸۲ھ .

قال ابن خلدون وقد بلغت هذه الدولة من العز المبالغ العظيمة^۱ .

اما الامارة التركية الكبرى فهي السلجوقية . وقد نشأت أولاً في

تركستان ثم جمع جدهم سلجوق عشيرته ونفر بهم من بلاد الترك إلى بلاد

المسلمين ، فلما دخلها أظهر الاسلام وعلى ذلك نشأ أولاده . وما زال

أمرهم يعظم حتى ملك طغرل بك (وهو أول سلاطينهم) بلاد المعجم وكان

قيامه في خلافة القائم العباسي ، ثم تقدم إلى بغداد بدعوة من القائم لينصره

على نثر اسمه الباسيري^۲ . فاستولى عليها وخطب له بالسلطنة على منابر

بغداد وذلك سنة ۴۴۷ھ . وتولى خلفاؤه الأمر بعده ، وما زالوا يسوسون

الامور في بغداد حتى ضعف أمرهم . ثم زالت دولتهم في خلافة الناصر

سنة ۵۹۰ھ وكان السلاجقة في إبان مجدهم أصحاب شوكة عظيمة .

وهم عدة فروع امتد سلطانهم من افغانستان إلى البحر المتوسط . ولما

ضعف أمرهم استبد عمالهم (الاتابك) بالاحكام في اماراتهم المختلفة ،

ولم يبق لهم بعد ذهاب دولتهم في بغداد وغارة المغول على المملكة العباسية

إلا آسيا الصغرى . فقد حفظوها حتى جاء الاتراك العثمانيون فاستولوا عليها

وأسسوا على انقراض السلاجقة سلطنتهم العظيمة ، ثم لم يعتموا ان أصبح

سلاطينهم خلفاء العالم الاسلامي ودخلت أكثر البلدان العربية في حوزتهم .

ولهم تاريخ خاص لا يدخل في بحثنا هذا .

الامارات العربية

نشأ في الدولة العباسية بضع امارات عربية مستقلة ، على انها - إذا

۱ ابن خلدون (تصحيح الهوريني) ۴ - ۳۶۰ .

۲ ملك هذا النثر الامر حيناً في بغداد ودعا فيها للفاطمين .

استثنيت العلوية والادريسية منها - كانت جميعها تخطب للخليفة العباسي وتعدّه الزعيم الاسلامي الاكبر . ومنها :

الادريسية - في مراکش ١٧٢ هـ - ٣٧٥ وكانت معادية للعباسيين .

الاغلبية - في تونس ١٨٤ - ٢٨٩ امراؤها من تميم .

الحمدانية - في حلب ٣١٧ - ٣٩٤ شيعية وامراؤها من تغلب اشهرهم

سيف الدولة ممدوح المتنبّي .

المزيدية - في الحلة ٤٠٣ - ٥٤٥ وهم من بني أسد .

العقيلية - في الموصل ٣٨٦ - ٤٨٩ دولة مضرية .

المرداسية - في حلب ٤١٤ - ٤٧٢ وهي مضرية وامراؤها من بني كلاب .

على ان أهم الدول العربية التي نشأت في أثناء العصر العباسي اثنتان ،

الفاطمية والاندلسية . واليك كلمة وجيزة في كل منهما :

الدولة الفاطمية (٢٩٦ هـ - ٥٦٧)

وهي علوية اسماعيلية . بذلك يقول ابن خلدون^١ وابن الاثير^٢ وابن

الطيطقتى^٣ ويشك غيرهم في أصلها العلوي .

وكان بدء أمرها في افريقيا أيام المقتدر العباسي ، ثم انتقلت (في

٨٣٥ هـ) إلى مصر وبقيت هناك حتى أزالتها صلاح الدين الايوبي

٥٦٧ هـ . وهذه الدولة عظيمة الشأن ، تختلف عن سواها من الدول التي

نشأت أيام العباسيين انها قرنت الملك بالدين فنشأت خلافة تزاحم الخلافة

العباسية . وقد تبسّطت فاستولت على افريقيا ومصر وسوريا والحجاز ،

وبعبارة ابن خلدون : « قاسمت العباسيين شقّ الأُبُلّة » ، ثم أخذت بالانحدار

وما زالت كذلك حتى استولى صلاح الدين على مصر . فلما مات العاضد

(آخر خلفائها) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وحوّلها إلى العباسيين .

١ ابن خلدون ٤ - ١١ .

٢ ابن الاثير (ليدن) ٨ - ١٨٧ .

٣ الفخري ٢٣٧ .

وللدولة الفاطمية يد على الأدب العربي ، فهم الذين انشأوا الجامع الأزهر ، وكانوا ينشطون العلماء والأدباء بالمعطف عليهم واقتناء المكتبات الكبرى وفتح أبوابها لهم .

الدولة الأموية الاندلسية (١٣٨ - ٥٤٢٨ هـ)

تبدأ بعبد الرحمن الداخل (حفيد هشام بن عبد الملك بن مروان) الذي فرّ من وجه العباسيين إلى إفريقيا ، ثم تمكّن من دخول الاندلس والاستيلاء عليها . وما زال الملوك من آله يتوارثون الحكم فيها حتى قام عبد الرحمن الناصر فبلغت به الدولة الأموية في الاندلس أوجها ، وهو أول من طمع بالخلافة من أمراءها فلقتب بأمر المؤمنين^١ . قال مسكويه فعل ذلك لما ضعف أمر الأمة ووهت أركان الدولة العباسية وتغلّبت القرامطة والمبتدعة على الاقاليم^٢ . وقد ازدهرت في أيامه الاندلس أيّما ازدهار ، وبقيت كذلك أيام ابنه الحكم المستنصر . ثم أخذت دولة بني أمية تضعف وأخذ الفساد يستولي على خلافتهم ، فتجزأت وأصابها ما أصاب الدولة العباسية من ضعف العرش واستبداد الأمراء باماراتهم المختلفة . ولهذه الدولة تاريخ خاص خارج عن تاريخ الدولة العباسية ، وقد نشأ فيها من الآداب والعلوم والفنون ما يقتضي سِفْراً خاصاً . وانما ذكرناها في عرض هذا البحث زيادة للايضاح وتتمة للكلام على الدول العربية التي انفصلت عن الخلافة العباسية .

* * *

ومن الامارات المشهورة التي كان لها شأن يذكر في الخلافة العباسية الدولة الكردية المعروفة بالايوبية (٥٦٤ - ٥٦٤٨ هـ) وأشهر ملوكها مؤسسها السلطان صلاح الدين الذي اشتهر بوقائعه مع الصليبيين .

١ ابن خلدون ٤ - ١٢٢ .

٢ تجارب الامم ج ٢ - ٦٠ .

تأثير هذا التجزؤ في الادب العربي

وكان من نشوء هذه الدول في العالم الاسلامي ان الأدب تحول عن بغداد إلى مراكز أخرى . فكان الخليفة الراضي الذي بويع ٣٢٢ هـ آخر خليفة دوّن له شعر ، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجّابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين^١ . ومعنى ذلك ان العرش العباسي لم يعد الموئل الاكبر للأدب والأدباء ، وانه نشأ في الامارات المستقلة حواضر زاحت بغداد في الشعر والعلم . نذكر من ذلك بلاط سيف الدولة في حلب ، وتلك الحلقة الأدبية التي كانت تحيط به مثل ابن خالويه وابن نباتة وأبي فراس والمنتبي والنامي والفارابي والسري الرفاء والخالديين ، وبلاط آل بويه ومن كانت يتصل بهم كابن العميد والصايي والصاحب ابن عباد ، وامراء سامان وما كان لهم من عطف على العلم والعلماء .. وقس على ذلك سائر الامارات في مصر والعراق والاندلس وفارس والمغرب ، فان اللغة العربية ظلت إلى أيام العثمانيين لغة الأدب والدين والسياسة في أكثر الممالك الاسلامية . وكان الامراء من عرب وغير عرب يتنافسون في العطف على الأدباء والعلماء ، وفي جمع الكتب وخدمة العلم . وأظهر من فعل ذلك من غير العرب الملوك الايوبيون في اماراتهم المختلفة^٢ . وهذا التنافس على الأدب يفسّر لنا تلك الظاهرة التاريخية الغريبة - استمرار الأدب العربي مع ضعف العرب وذهاب السيادة من أيديهم . واليك بعض أمثلة من رجال العلم في ذلك العصر توضح لك ما نحن بصدده :

ابن سينا الطبيب الفيلسوف توفي ٤٣٨ هـ . كان في بخارى في خدمة

نوح بن منصور الساماني

وفي خوارزم عند مأمون

ابن مأمون .

١ الفخري ٢٥٢ .

٢ زيدان - تاريخ آداب اللغة ٣ - ١١ .

البيروني - الفلكي المشهور توفي ٤٣٠ هـ . كان في الهند وأقام مدة في خوارزم وقد قدم بعض كتبه للسلطان محمود الغزنوي .

الجوهري - صاحب الصحاح توفي ٣٩٨ هـ . كان في نيسابور وقد ألف كتابه لأبي منصور البشيري .

ابن فارس - اللغوي المشهور توفي ٣٩٠ هـ . ألف كتابه الصاحبي للصاحب بن عباد .

ابن دريد صاحب الجهرة والمقصورة توفي ٣٢١ هـ . صحب ابن ميكال أمير فارس وألف له بعض كتبه .

المسعودي - المؤرخ المشهور توفي ٣٤٦ هـ . نشأ في بغداد وطاف البلدان ثم استقر في مصر .

مسكويه (أو ابن مسكويه) - المؤرخ والمفكر توفي ٤٣١ هـ . صحب ابن العميد وخدم بني بويه .

ابن البيطار - النباقي المشهور وكان في خدمة الملك الكامل الايوبي . وأمثال هؤلاء الاعلام كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم . اما المدن التي شاركت بغداد او زاحتها في الادب والعلم فنذكر منها - القاهرة وحلب ودمشق وقرطبة واشبيلية والقيروان وخوارزم ونيسابور وبخارى . ومن الامراء الذين اشتهروا بميلهم إلى الأدب وعطفهم على العلماء ركن الدولة البويهى ومنصور الساماني وشمس المعالي قابوس ومحمود الغزنوي والعزيز والحاكم الفاطميّان ، وصلاح الدين الايوبي وغيرهم .

الحركات الهدامة الداخلية

كانت الدولة العباسية منذ نشأتها مرتعاً خصباً للثورات ، وتاريخها وثيق

الارتباط بها . وهذه الثورات تظهر في مظهرين كبيرين : حركات الخوارج والحركات العلوية .

حركات الخوارج

ويرجع تاريخها كما هو معروف إلى أيام صفين والتحكيم . من ذلك الحين ظهر الخوارج وأنشأوا حزباً معادياً للخلافة فحاربوا الإمام علياً بعد أن كانوا قبلاً من أنصاره . ولهم مع الامويين وقائع مشهورة ، وقد كانوا من أشد الاخطار على دولتهم حتى قهرهم الحجاج بن يوسف والمهلب ورجاهما فضعف أمرهم وتشتتوا في أنحاء مختلفة ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك حتى خلافة المنصور العباسي . ففي أيامه خرجوا في عُمان بقيادة زعيمهم شيبان بن عبد العزيز ، ولكن المنصور أرسل لمحاربتهم جيشاً قوياً فهزمهم وقلّ جيوشهم .

ولما كانت خلافة المعتمد - والعرش العباسي في حال اضطراب من جراء المستبدّين به - عادوا إلى حركاتهم فخرجوا في ولاية الموصل بقيادة مساور بن عبد الله ، وتمكنوا سنة ٢٥٥ هـ . من دخول الموصل والاستيلاء على كثير من أنحاء العراق . وبلغ من أمرهم أن زحفوا على بغداد نفسها ، لكن جيوش الخليفة ردّتهم فتراجعوا . وأقام مساور في الموصل حتى اغتيل سنة ٢٥٨ هـ ، ولم يبق للحركة الخارجية بعد ذلك من قوة سياسية في العراق . على أنها بقيت في الجزيرة العربية وفي افريقيا تحت اسم الأباضية (وهي فرع منها) قوة لا يستهان بها . ثم اعتراهم الوهن فتضعفت أحوالهم ، ولم يلبثوا أن انسحبوا من معترك الجهاد السياسي والحربي^١ .

الحركات العلوية

وهي إما ثورات قام بها آل البيت أنفسهم خروجاً على الخلافة القائمة

١ وأخبارهم متفرقة في أمهات كتب التاريخ العربي : ومن الكتب الحديثة مختصر تاريخ الخوارج لحمد شريف سليم ، والحوارج في الاسلام ، بيروت (مكتبة المعارف) ، وسواهما .

أو حركات هدامة مؤسسة على المبدأ العلوي . وقد بدأت الاولى (ثورات الائمة) منذ انتزع الامويون الملك من آل البيت . ومنها قيام الحسين إلى الكوفة ومقتله في كربلاء ، وما تبع ذلك من دعوات وثورات طيلة الحكم الاموي ، كثورة المختار في العراق ثم الثورة الخراسانية ، وكانت علوية في أول الأمر ثم تحولت إلى العباسيين .

ولما قام العباسيون وانفردوا بالملك دون العلويين رجع النزاع إلى ما كان عليه بين الشيعة والخلفاء . فتحركت الشيعة حركات عدّها العباسيون عصياناً ، كخروج النفس الزكية في المدينة أيام المنصور ، وخروج يحيى ابن عبد الله في الديلم أيام الرشيد ، ويحيى بن عمر بن يحيى في الكوفة أيام المستعين ، وظهور الكوكبي بقزوين وطرده آل طاهر^١ . لكن الخلفاء تمكنوا من التأثيرين وقتلهم .

وفي بدء خلافة المأمون (وذلك قبل أن يقدم من خراسان إلى بغداد) كثرت حركات الشيعة حتى رأى أن يعهد بالأمر بعده لعلي الرضا^٢ ، ولكن استياء العباسيين وموت علي الرضا ، حالاً دون ذلك . ثم كثر خروجهم في الحجاز واليمن والعراق وفارس وتتابعت دعواتهم . وهم ، ولئن لم يستطيعوا تقويض العرش العباسي ، فقد أحدثوا فيه اضطراباً شديداً كان من جملة الاسباب التي أدت إلى انحلال الدولة . ولا يخفى ان الخلافة الفاطمية التي ذكرناها آنفاً كانت من ثمار الحركات العلوية ومن أشدّ الضربات على الخلافة العباسية .

* * *

أما الحركات الهدامة المؤسسة على المبدأ العلوي فقد قامت بها هيئات منظمة أحدثت تأثيراً كبيراً في الدولة العباسية ، وأهمها حركات الزنج والقرامطة والحشاشين (الباطنية) .

١ الطبري ، أخبار سنة ٢٥١ .

٢ ابن خلدون ٤ - ٩ .

الزنج

حوالى منتصف القرن الثالث الهجري في أيام الخليفة المعتمد قام رجل اسمه علي بن محمد يدعي النسب العلوي . فاستمال اليه قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها وأفسدهم على مواليتهم حتى اجتمع اليه منهم ومن سواهم خلق كثيرون ، وما لبث حتى عظم شأنه واشتدت شوكته . واتفقت له حروب وغزوات نصّر بها ، فتفاقم شرّه ، وانبثت عسكره السودان في البلاد العراقية والبحرين والأهواز . وفي ٢٥٧ هـ أغاروا على مدينة البصرة فنهبوها وأحرقوها وأحدثوا فيها فظائع ذكرها ابن الرومي في قصيدة ستذكر في حديثنا عن هذا الشاعر . وكانت بينهم وبين جنود الخلافة حروب عظيمة دامت سنين كثيرة وذهب فيها الوف من القتلى ولكنها انتهت سنة ٢٧٠ هـ بقهرهم وتحرير البلاد من شرهم . وكان قائد العباسيين الاكبر في حروبهم الموفق اخا الخليفة المعتمد . ومن كبار رجاله موسى بن بفا ، وابراهيم بن المدبر ، وابو العباس ابن الموفق ، وسواهم ممن يرد ذكرهم في مدائح الشعراء^١ .

القرامطة

كان ابتداء ظهورهم سنة ٢٧٨ هـ بسواد الكوفة ، وقد قاموا يدعون لآل البيت . وقوي أمرهم هناك ثم ظهر منهم جماعة في البحرين وعاثوا في البلاد ينوون البصرة . فحاربهم عمال العباسيين ولكن القرامطة انتصروا عليهم واستفحل أمرهم في العراق ، فانضم اليهم جموع من اعراب الشام وهاجموا دمشق . وكان بينهم وبين عامل الطولونيين فيها وقائع شتى . وما زال أمرهم يتعاظم ونفوذهم يتسع في العراق والشام والجزيرة العربية حتى أمست طرق الحج بأيديهم فصاروا يعتدون على الحجاج . وفي سنة ٣١٧ هـ

١ لزيادة الاطلاع راجع ابن خلدون ٤ ص ١٨ - ٢٢ ، الفخري ٢٢٧ ، الطبري في اخبار سنة ٢٥٥ و ٢٦٧ الخ ...

دخلوا مكة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم اقتلوا الحجر الاسود من الكعبة وحملوه إلى هجر فبقي عندهم اثنتي عشرة سنة . قال ابن الاثير فلما بلغ ذلك الخليفة الفاطمي المهدي كتب إلى زعيمهم أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول : « قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والاحاد بما فعلت ، وان لم تردّ على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وتردّ الحجر الاسود إلى مكانه ، وتردّ كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة . » فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الاسود واستعاد ما أمكنه من الاموال .

وبقي أمرهم الشغل الشاغل لولاة الامر في بغداد أكثر القرن الرابع الهجري ، وانك لتعرف مبلغ ما أحدثوه في نفوسهم من كتاب كتبه الصابئ على لسان الخليفة^١ . ثم ضعف أمرهم وتفرقوا في البلاد^٢ .

الحشاشون

وهم من الباطنية . ظهوروا أولاً في ساوه أيام ملكشاه السلجوقي فناضلهم أولو الامر لكنهم لم يستطيعوا قهرهم . فلما مات ملكشاه استفحل أمرهم في أصبهان . وفي ٤٩٣ هـ استولى زعيمهم ومؤسس فرقتهم الحسن بن الصباح على قلعة الموت وهي من نواحي قزوین وجعلها مقر الحكم الاسماعيلي ، منها تصدر الأوامر إلى كل النواحي . وكان يدعو للخليفة الفاطمي بمصر . وفي ٤٩٨ هـ ظهر أمرهم في الشام فتملكوا حصن افامية وقطعوا الطرق . وأخذت شوكتهم تتعاظم حتى كانت سنة ٥٢٠ هـ فاستولوا على بانياس ثم على أماكن أخرى وكان بطشهم شديداً بالمسلمين والافرنج الصليبيين ، وكان دأبهم اغتيال الامراء والزعماء . ومما يدل على شدة شكيמתهم ان

١ راجع رسائله (المطبعة المئانية ١٨٩٨) ٢٤٦ .

٢ راجع بعض أخبارهم في ابن خلدون ٤ ص ٨٤ - ٨٨ و ص ٣٠٩ و ٤٥٧ .

صلاح الدين الايوبي حاربهم في الشام ثم رأى ان يصلحهم .
وقد ظلوا أصحاب قوة وبطش وظلّ نفوذهم عظيماً من تركستان إلى
البحر المتوسط حتى أواخر الدولة العباسية وقيام دولة التتر، فهاجم
هولاكو في العراق وخرّب قلاعهم وأغار عليهم في الشام الملك الظاهر
ملك مصر . وهكذا خضعت شوكتهم وتشتتوا شرادم في الاقطار الاسلامية
وذلك بعد أن اضطربت لهم ملوك المسلمين والصليبيين نحواً من قرن
ونصف .

والباطنية التي ينتمي اليها الحشاشون تعضد المذهب الشيعي فكانت لذلك
من أكبر أنصار الدولة الفاطمية ، ومن أفعال العوامل دينياً وسياسياً في
تقويض سلطة الدولة العباسية .

العوامل الهدامة الخارجية ومنها غارات الروم

كانت بلدان الشرق الادنى المتاخمة لبحر الروم قبل الفتح الاسلامي
جزءاً من مملكة الرومان الشرقية (بيزنطية) . فلما حدث الفتح الاسلامي
تقلص ظلّ الروم أمام العرب الفاتحين . فاحتل العرب مصر وسوريا
وانتزعوا جزءاً من الاناضول وبقي أكثره تابعاً للروم لأن العرب لم يستقرّوا
هناك . ولمتاخمة الاناضول لسوريا والجزيرة العراقية نشأ بين الفريقين منذ
المئة الأولى الهجرية حروب متواصلة كان النصر فيها سجلاً . ففي أيام
معاوية مثلاً توغلت جيوش العرب حتى القسطنطينية ثم تراجعت^١ ،
واضطر معاوية سنة ٣٢ هـ أن يصلحهم على مئة ألف^٢ . وفي أيام عبد الملك
هجم الروم على سوريا فبلغوا حماء وقنسرين والعواصم ثم هاجموا السواحل
حتى خضع لهم قسم من الجبل . قال البلاذري وصالح عبد الملك الروم ،

١ الطبري ٥ - ٢٨٨٨ وابن خلدون ٢ - ٢٢٨ .

٢ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

بعد موت أبيه وطلبه الخلافة ، على شيء كان يؤديه اليهم ^١ . وفي أيام سليمان بن عبد الملك عاد العرب فهاجموا القسطنطينية ^٢ . وبقي الحال على هذا المتوال بين الروم والمسلمين أكثر أيام العباسيين . ولا يتسع المقام هنا لذكر الوقائع أو لتعداد المدن والحصون التي كانت تتداولها أيدي الفريقين . على انه لا بدّ من القول انه كان لهذه الحروب أثر كبير في الأدب العربي . يكفي أن نشير هنا إلى ما سنذكره من روائع أبي تمام والبحري والمثنبي في انتصارات المعتمد والمتوكل وسيف الدولة . ولم تنج الممالك الاسلامية من خطر الروم الذين كانوا يواصلون الغارات من الشمال حتى استقر الاتراك في الاناضول وحالوا دون تقدم الروم نحو الجنوب .

غارات الصليبيين

وبينما كان الروم يتهددون الدولة العباسية من الشمال الغربي ، وكان السلاجقة يوطّدون نفوذهم في عاصمتها ، اتفق الافرنج على اكتساح الشام وما اليها بحجة انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين . وهكذا بدأت الحروب الصليبية وأخذ الاوروبيون يواصلون الغارات على الانحاء الساحلية من سوريا وفلسطين ومصر .

* * *

ويمتد عصر الحملات الصليبية من ١٠٩٦ م - ١٢٩١ م وقد كانت الخلافة العباسية في أوائله متفككة العرى ، والفاطميون في مصر يترتبصون الفرص للايقاع بها . وكانت سوريا - المعترك العام يومئذ - قد خرجت من حكم الدولة السلجوقية الرئيسية وأصبحت أمارات يتنازعها ائابكهم وخلفاء مصر . فاغتم الافرنج تلك الفرصة وغزوها أولاً عن طريق الروم ثم عن طريق البحر ، ولم يعمموا أن احتلوا القدس وأسوا فيها مملكة لاتينية

١ فتوح البلدان ١٨٨ .

٢ ابن الاثير ، في حوادث سنة ٩٨ .

بقيت نحو قرن ونصف (١١٠٠ م - ١٢٤٣ م) . ولم يكتفوا بذلك بل مدوا نفوذهم على القسم الغربي من سوريا إلى ما وراء انطاكية ، فأسسوا الامارات المختلفة وابتنوا القلاع الحصينة ، ساعدهم على ذلك تنازع الحكم في البلاد وضعف الخلفاء في بغداد والقاهرة ، ولكن الصليبيين كانوا من عناصر وبلدان شتى ، فنشبت بينهم منازعات كثيرة أدت أخيراً إلى فشلهم وخروجهم من البلاد^١ .

ومن كان له اليد الطولى في خضد شوكة الافرنج صلاح الدين الايوبي ملك مصر وأخوه الملك العادل ، ووقائعهما مع الصليبيين في مصر والشام مشهورة . ولصلاح الدين وآله في الأدب العربي أثر كبير يظهر في المدائح التي نالوها من شعراء زمانهم . نذكر منهم ابن الساعاتي^٢ وابن النبيه وابن قلائس وابن مفرج النابلسي وابن التعاويذي (وقد ذكره ابن خلكان ذكراً خاصاً في سيرة صلاح الدين وذكر بعض مدائحهم) . ناهيك بالرسائل التي كان يتبارى بها منشئو ذلك الزمان وأشهرهم القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني وضياء الدين ابن الاثير^٣ .

وبرغم ما كان بين الشرق والغرب في خلال تلك الحروب من العداء المستحرق والنزاع المستمر ، خرج الفريقان من غمارها بفوائد اجتماعية أدبية عظيمة . وربما كانت فائدة الغربيين أعظم ، فانهم رجعوا عن الشرق العربي وقد اقتبسوا من حضارته يومئذ ما كان له أثر كبير في حياتهم الاجتماعية .

والخلاصة

إن الدولة العباسية لم يكد يمضي عهد خلفائها الثمانية الأول حتى ظهرت

١ قال ابن الجوزي في مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٤٨ أخبار سنة ٥٨٢ هـ وفيها ظهر الخلاف بين الفرنج وتفرقت كلمتهم وكان لسعادة الاسلام .

٢ نشرنا ديوانه في جزأين عن نسخ خطية فريدة فليراجع .

٣ راجع أخبار صلاح الدين في مرآة الزمان للجوزي ج ٨ ص ٢٧ - ٢٨٠ في أخبار سنة ٥٨٩ هـ وراجع الكلام على الرسائل في تطور الاساليب النثرية للمؤلف ، وفي ما نشره من رسائل ابن الاثير .

فيها عوامل الفساد التي أدّت إلى انحلالها . وهذه العوامل داخلية وخارجية فالداخلية هي :

- ١ - ضعف السلطة المركزية لتسلط المستبدّين بها من عجم وأتراك .
 - ٢ - استقلال الامارات المختلفة وتنازعها .
 - ٣ - عوامل الفتن والثورات من خوارج وعلوية .
- والخارجية : غارات التتر من الشرق ، وغارات الروم والصليبيين^١ من الغرب . وهناك عوامل أخرى يرجع فيها إلى المطوّلات التاريخية .

-
- ١ من أراد التوسع في الحروب الصليبية فليراجع من بين المصادر الكثيرة :
- مرآة الزمان للجوزي ج ٨ .
- ما ورد في الجزء الخامس من ابن خلدون .
- أخبار الصليبيين في دوائر المعارف ولا سيما البريطانية والاسلامية .
- كتاب The Crusaders in the East للمؤرخ ستيفنسن (Stevenson)
- رسائل الكتاب أيام صلاح الدين في صبح الأعشى .

نظور الحياة الاجتماعية

في العصر العباسي

الحضارة في فجر الاسلام

من المعلوم ان بلاد العرب لم تكن في زمن الجاهلية خلوأ من حضارة ما . وفي القرآن الذي هو نص تاريخي صادق نجد الدليل على ذلك في ذكر المتاجر البرية والبحرية والشركات والاحتكارات والشورى والصنائع والكتابة والملاهي والنقود وبعض المعارف . فإذا اضيفت ذلك إلى ما نقله المؤرخون من أخبار اليمن وقريش والامارات العربية القديمة في العراق وحواران وتدمر وسواها ، عرفت انه كانت للعرب قبل الاسلام اتصال بالعمران السائد يومئذ . فلما جاء الاسلام وحدثت الفتوح ازداد هذا الاتصال وتنظم ، وكان له بعد ذلك آثاره المعروفة .

بيد ان الروح الدينية كانت في فجر الاسلام قوية جداً ، فوفقت بهم قليلا عن الأخذ بأسباب الرخاء الحضري ، وكان لها أثر بيتن في تنظيم حكومتهم الأولى ، حتى كان بعض امرائهم الأولين يسلكون مسلك التقشف ويشددون في تنفيذ أحكام الدين يلبسون المرقع من الاثواب ويتجافون عن أطايب الطعام ويسرون في الاسواق كعامّة الناس . والشواهد على ذلك

من أقوال المؤرخين كثيرة متعارفة لا يسمها هذا المقام^١ . نكتفي منها بمثال رواه لنا الطبري عن عمر قال : « ان سلمة بن قيس بعث برسولٍ إلى عمر ينبئه بفتح بلاد الاكراد ويحمل اليه حلى وجواهر . قال الرسول فأثيت أمير المؤمنين وهو يغذي الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعي ، وهو يدور على القصاع ويقول يا يرفأ (خادمه) زد هؤلاء لحماً ، زد هؤلاء خبزاً ، زد هؤلاء مرقة . فإذا طعام فيه خشونة . ثم اتبعت إلى داره فإذا هو جالس على مسح ، متكئ على وسادتين من آدم محشوتين ليفاً فنبذ إليّ احدهما فجلست عليها ، وإذا بهو في صفة فيها بيت عليه ستر . فقال يا ام كلثوم (زوجة عمر) غداً أنا . فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق ، إلى آخر الحديث^٢ .

على ان هذا التحرج كان على أشده في خلافة عمر . ذكروا انهم استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل ، فقال افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطالوا في البنيان والزمو السنة^٣ . وماذا يراد بالسنة هنا غير ما عهده من مقتضيات التقشف اتباعاً لأحكام الدين ؟ وتأيداً لذلك نقل العلماء الأولون كالك و ابن حنبل وابن سعد وسواهم كثيراً من الاحاديث النبوية التي تحض على البساطة والتقشف . فلما جاء عهد عثمان أخذوا يتساهلون في ذلك ، فقد روى المسعودي ان الصحابة أيام عثمان اقتنوا الضياع والمال وابتنوا الدور ذات الشرفات^٤ . ولما حدثت الفتنة على ذلك الخليفة أراد خصومه ان يستغلوا هذا التساهل العمراني فذكروا من جملة ما نقومه عليه بناء الدار^٥ . وقد فسر ذلك المستشرق كاسانوفاً بقوله : « ان القوم الذين

١ راجع وصف حالهم في مقدمة ابن خلدون ٢٠٤ والفخري ٦٥ .

٢ الطبري (ليدن) ج ١ - ٢٧١٦ .

٣ مقدمة ابن خلدون ٣٥٨ .

٤ المسعودي (باريس) ٤ - ٢٥٣ .

٥ البيهقي ٢ - ٢٠٢ .

نشأ فيهم عثمان (أي الامويين) كانوا أقل اهتماماً بأمور الدين والآخرة منهم بأمور الدنيا ، فكان مهمهم الفتح وجمع المال ،^١ . ولعل الاصول ان نقول ان التحرج الديني ضد الحضارة والرفاهية أمر غير طبيعي فلا يلبث ان يزول . وهكذا كان بعد الحكم العمري ، برغم ان بعض الصحابة والتابعين ظلوا على سنة عمر .

الدولة الاموية

ولما انتقل مركز الخلافة إلى الشام خطا العرب إلى الامام في سبيل الحضارة السياسية والاجتماعية « وكان معاوية مؤسس الدولة الاموية أول من أقام الحرس والشرطة والبوابين في الاسلام وارخى الستور ، ومثني بين يديه بالحراب وجلس على السرير والناس تحته »^٢ . وقد ظهر على معاوية الميل إلى محاكاة الاعاجم في ابتهتهم منذ كان عاملاً على الشام . ذكر ابن خلدون انه لما لقي معاوية عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام في ابتهه الملك وزيته من العديد والمدة استنكر ذلك وقال : « أكسروية » يا معاوية ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين انّا في ثغر تجاه العدو ، وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة »^٣ .

وبعد ان كانوا في المدينة لعهدهم الاول يحسبون التجاني عن الرفه والرخاء واجباً دينياً صاروا لما استقر ملكهم في الشام يتأنقون في أسباب الحياة الحضرية ، فلبسوا الحلل المزركشة وأقاموا الابنية الفاخرة ، وانصرفوا إلاّ القلائل منهم إلى الملاهي . ولم ينحصر ذلك في دمشق بل نراه في كثير من الحواضر كالكوفة والبصرة والمدينة ومكة . ومن البديهي ان يُقبل الخاصة ومن يليهم من العامة على ما يقبل عليه امراؤهم ، حتى ان بعض أبناء

١ Moh, et la fin du monde 58

٢ اليعقوبي ٢ - ٢٧١ الفخري ٧٨ .

٣ المقدمة ٢٠٣ .

الصحابة واحفادهم أصبحوا من أكثر الناس استمتاعاً بالملاهي .
ومن أمثلة ذلك عبد الله بن جعفر بن ابي طالب فقد تشاغل بالفناء
والجواني حتى عيب عليه سعيه في هدم مروءته . ومنهم الوليد بن عتبة
أخو عثمان بن عفان فقد شهد عليه أهل الكوفة انه صلى بهم الصبح
ثلاث ركعات وهو سكران ، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب حذره عمرو
ابن العاص بمصر لشرب الخمر . ومنهم الوليد بن عثمان بن عفان ، وحفيده
العرجي الشاعر ، وابن ابي عتيق حفيد ابي بكر ، وغيرهم من أبناء
الصحابة الذين اقتضت السياسة الاموية منعمهم من الاشتغال بالسياسة
فاندفعوا في سبيل اللهو والمجون^١ . وصار اللهو الشغل الشاغل لبعض
المترفين حتى في مناسك الحج^٢ . وهذا الاقبال من الامراء ومن دونهم
على الدنيا كان له بلا شك تأثير كبير في تنشيط الصناعة والتجارة والادب ،
فاقبل على دمشق وسائر الحواضر العربية عدد من الصناع والمغنين والجواري
والشعراء مما زاد حركة الاعمال وأحدث فيها حالة اجتماعية لم يعهدها
الراشدون .

ومع كل ذلك بقيت للبدادة نزعة في نفوس الأمويين . فلم يكن امراؤهم
برغم سياستهم التي كانت ترمي إلى تعظيم البيت الأموي يترفعون عن
معاشرة رعاياهم ومخالطتهم والسماح لهم بالكلام عندهم . فقد نقل عن
الوليد بن يزيد والفهر أخيه انها لما مات مَعْبِد (المغني المشهور) مشايبين
يدي سريره حتى أخرج من دار الوليد^٣ . وكان عبد الملك أول خليفة منع
الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه^٤ . ولا غرابة فقد

١ و ٢ راجع أخبارهم في ما يلي :

- الكامل للبزد (مصر ١٣٠٨) ١ - ٣٩٢ و ٣٩٣ .

- المقد (بولاق) ٣ - ٤٠٦ و ٤٠٧ والنوري (دار الكتب المصرية) ٤ ص

١١٣ - ١١٩ .

٣ الاغانى (دار الكتب) ١ - ٣٧ .

٤ البيان والتبيين (ص) ٢ - ١٩٢ .

كان بعضهم يكلمته بما لا يُسكِّم به الملوك ، كما روى الجاحظ عن رجل من بني مخزوم وكان زُبَيْرِيا . قال دخل على عبد الملك فقال له عبد الملك : « أليس قد ردَّك الله على عقبيك ؟ » فقال : « أو مَنْ رُدَّ اليك فقد رد على عقبي ؟ » فاستحى وعلم انه قد اساء^١ . ودخل كثير على يزيد بن عبد الملك يسأله عن معنى بيت للشماخ فاستحقه وأخرجه^٢ . ويثبت ذلك انهم كانوا حتى أيام الوليد يسمّون خلفاءهم بأسمائهم . قال اليعقوبي : « كان الوليد يقول لا ينبغي لخليفة أن يناشد ولا يكذب ولا يسميه أحد باسمه . » وعاقب على ذلك^٣ . وعن ابن خلدون انهم تجافوا عن ألقاب التعظيم مع الغضاضة والسذاجة لأن العروبة في منازعها لم تفارقهم حينئذٍ ، ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة^٤ ، وقال : كانت اعطيتهم أكثرها الابل أخذاً بمذاهب العرب وبدواتهم ، ومثلهم كان عمالهم .

وقد نقل ابن خلدون حديث الحجاج ووليته في إختتان بعض ولده ، قال فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائهم الفرس فقال شهدت بعض مرازية كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة ، اربعاً على كل واحد ، تحمله اربع وصائف ، ويجلس عليه اربعة من الناس . فاذا طعموا أتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها . فقال الحجاج ، وقد علم انه لا يستقل بهذه الابهة ، يا غلام انحر الجزر^٥ . ويظهر مما ذكره في موضع آخر ان نظامهم الحربي ظل بدوياً فكانت أسفارهم لحروبهم وغزواتهم بظمونها وسائر حللهم واحيائهم من الأهل والولد^٦ . ومع ما درّقه الفتوح عليهم من مال وما مهّدت لهم

١ البيان والتبيين (س) ٣ - ٢٦٧ .

٢ البيان والتبيين (س) ٢ - ١٩٦ .

٣ اليعقوبي ٢ - ٣٤٨ .

٤ المقدمة ٢٢٨ .

٥ المقدمة ١٧٤ .

٦ المقدمة ٢٦٨ .

من سبل الحضارة لم يخرجوا خروجاً تاماً عن منازع البادية في حياتهم . إلا أنهم توسعوا كثيراً في الملاهي فتنظمت في الامصار المختلفة حركة الغناء واللعب على الآلات ، ونشأت في المدن المختلفة ولا سيما مدن الحجاز مجالس خاصة وحلقات خاصة من مغنين ومغنيات اتخذت الغناء مهنة ترتزق بها . وقد بلغ ذلك منهم حتى صار فيهم دور خاصة للملاهي والمطالعة . جاء في كتاب الاغاني ان عبد الحكيم بن عمرو الجُمَحِي اتخذ بيتاً في المدينة فجعل فيه شطرنجات ونردات وقِرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم^١ . وإذا قابلت ذلك بما كانت عليه المدينة أيام أبي بكر وعمر مثلاً تجد فرقاً كبيراً في اتجاه الافكار نحو الملاهي .

أما في دمشق - عاصمة الدولة يومئذ - فقد كان الخلفاء أنفسهم إلا القليل منهم ينفشون هذه الحركة . وكان يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي في الاسلام من الخلفاء وآوى المغنين وشرب الخمر^٢ . واشهرهم في ذلك سليمان بن عبد الملك ، ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد^٣ . وفي أيامهم كثرت الملاهي ولم تنحصر في الخاصة بل تعدتها إلى العامة ، فنشأت طبقة من المتخصصين في صناعة الطرب كانت لهم اتباع يدربونهم على الغناء والآلات تدريباً فنياً . وظهر في الحجاز جماعة من المغنين بلغوا من الشهرة مبلغاً عظيماً - منهم :

ابن مِسْحَج (مكي) وابن مُحرز (مكي) وطُويس (مدني) وابن سُرَيْج (مكي) ومَعْبِد (مدني) وجميلة (وكانت معلمة القينات في المدينة) وعَزَّة الميلاء وحُنين والفَرِيض واضراهم من تجد أخبارهم بالتفصيل

١ الاغاني (بولاق) ج ٤ - ٥٢ .

٢ الاغاني ١٦ - ٧٠ .

٣ السطرف (بولاق) ٢ - ١٨٨ .

في كتب الادب^١.

وقد رافق تقدم الغناء في هذا العصر تقدم الشعر الغزلي ، ولا غرو فهما ربيبا عاطفة واحدة . ومن الشعراء الذين عرفوا بالفضل والتشبيب وما إلى ذلك من هو ومجون :

الاحوص وهو مدني من الأوس .

يزيد بن الططيرة وهو شاعر بدوي .

نُصيب مولى عبد العزيز بن مروان وقد اشتهر أيضاً بالغناء .

عمر بن أبي ربيعة وهو مشهور ، واختص شعره بوصف النساء وحاله

معهن .

العرجي وقد مرّ ذكره وكان شغوفاً باللهو والصيد والتشبيب .

ومن طبقتهم كثيرون لا يتسع لهم المقام^٢ .

ومن مظاهر التطور الاجتماعي أيام الامويين نشوء دور التعليم وازدياد عدد المتعلمين . فقد كان العرب في أول أمرهم أميين ، إلاّ أفراداً قلائل بلغوا في الحجاز أول الدعوة الاسلامية سبعة عشر شخصاً^٣ . ثم أخذ عدد القراء والكتبة يتزايد : قال ابن خلدون : « لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا الكوفة والبصرة واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه ، وتداولوه فترقت الاجادة به^٤ . »

وطبيعي أن تتقدم القراءة والكتابة ، وان ينشأ في مساجد الحواضر حلقات تعليمية ويكون فيهم معلمون لصبيانهم . وقد ورد ذكر معلم

١ راجع كتاب الاغاني، ج ١ - ١٥٢، ج ٣ - ٨٤، ج ٧ - ١٤٤ وأماكن أخرى فيه. ونهاية

الارب للنوري (دار الكتب المصرية) ج ٤ ص ٢٣٢ - ٢٩٠ .

٢ ونجد أخبارهم في الاغاني ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، ووفيات الاعيان وسواها .

٣ البلاذري (ليدن) ٤٧١ .

٤ المقدمة (بيروت) ٤٢٠ .

الكتاب في شعر جرير إذ قال : « هذي دواة معلّم الكتاب » .
وفي أخبار الوليد بن عبد الملك انه مرّ بمعلّم صبيان يعلم
جارية^١ الخ ...

وذكر الجاحظ أمثال الناس عن المعلمين . وفي دفاعه عنهم جعلهم
ثلاث طبقات : مؤدبي أولاد الملوك ، ومؤدبي الخاصة ، ومعلمي كتابات
القرى . وذكر بضعة من كبار المؤدبين في العصر الأموي مثل الجهمي
والشعبي وعبد الصمد الأعلى وكيت بن زيد وقيس بن سعد وعطاء بن
أبي رباح وعبد الحميد الكاتب والحجاج بن يوسف ، يوم كان يعلم في
الطائف^٢ . وبعبارة أخرى فرّق بين الاساتذة المؤدبين وبين معلمي الكتابات
الذين لم يبلغوا مكانة في العلم والتأديب . وقال ان أمثال العامة قد تصدق
على بعض هؤلاء لا على الطبقة الأولى التي ينتمي إليها كبار العلماء والفقهاء
وقادة الافكار .

وقد نقل ابن قتيبة وصايا بعضهم لمعلمي العصر الأموي فلتراجع^٣ .
وبذلك على انتشار التعليم في هذا العصر نشاط حركة النسخ والتدوين :
ذكروا انه في معركة صِفّين رفع نحو خمسمئة نسخة من القرآن^٤ . ومع
انه لم يصلنا شيء يذكر مما دوّن في هذا العصر فلا شك ان التدوين سابق
للعصر العباسي . ومن أدلة ذلك نقلهم الدواوين الاميرية إلى اللغة العربية .
ويحدثنا يعقوبي ان زياد بن ابيه كان أول من دوّن الدواوين ووضع
النسخ للكتب^٥ .

وفي هذا العصر بدأت حركة النقل والترجمة ، وأول من فعل ذلك

١ البيان والتبيين (س) ٢ - ١٦٤ .

٢ البيان والتبيين (س) ٢١٠ .

٣ عيون الاخبار (دار الكتب) مج ٢ - ١٦٦ .

٤ المسعودي (باريس) ٤ - ٣٧٨ .

٥ يعقوبي ٢ - ٢٧٩ .

خالد بن يزيد . ففي الفهرست لابن النديم نقل له الكيمياء رجل اسمه اسطفان^١ . ويقول ابن النديم ان سالماً كاتب هشام نقل بعض رسائل ارسطو وذكر كتباً في مواضيع مختلفة دوت في هذا العصر .

فما مرت نستنتج ان احتكاك العرب بسواهم أحدث فيهم ميلاً إلى الاخذ عنهم ، فزاد فيهم عدد المتعلمين وكثر الاقبال على القراءة والكتابة وأصبح كثير من المساجد مراكز تعليمية للعلوم اللسانية والدينية .

على ان المدارس لم تكن قد تنظمت تماماً وذلك :

١ . لعدم توفر الادوات الكتابية واقتانها .

٢ . لقصر مدة الامويين ولانشغالهم بالحروب والفتن .

* * *

وبقي الامر كذلك حتى قام العباسيون وانتقلوا إلى بغداد ، ثم انصرفوا إلى العلوم والمدارس فتنظمت أسباب التعليم والتدوين والتصنيف ، وحدثت تلك الحركة الفكرية المشهورة .

فالعصر الاموي عصر انتقال اجتماعي تطورت فيه نوعاً عادات العرب ومعارفهم ، ودخل اللغة كثير من المصطلحات الادارية والاجتماعية والعلمية التي لم يكن للجاهلية عهد بها^٢ .

١ الفهرست (ل) ٢٤٢ و ٢٤٤ .

٢ راجع أمثلة ذلك في تاريخ اللغة العربية لزيدان ص ٢٠ - ٣٠ .

حضارة العصر العباسي

في هذا العصر بلغ التطور الاجتماعي أوجه ويظهر ذلك في ما يلي :

- ١ - نشوء قومية عربية جديدة .
 - ٢ - عمران بغداد وسواها من الحواضر .
 - ٣ - اتساع الثروة وترف الخاصة .
 - ٤ - النهضة الفكرية العامة .
- ولنشرح كلا من هذه الظواهر الاجتماعية بالتفصيل .

نشوء قومية عربية جديدة

وأساس هذا النشوء :

- ١ - انتشار العرب في الامصار بعد الفتح .
- ٢ - امتزاجهم عن سبيل الزواج بعناصر أخرى .
- ٣ - تعرّب الامم المغلوبة .

خرج العرب من جزيرتهم فاتحين فانتشروا في الاقطار التي افتتحوها وأنشأوا فيها معسكرات صارت بعدئذ حواضر عامرة كالبصرة والكوفة والانباء والقيروان ، كما أسسوا عدداً من المدن المعروفة كواسط وبغداد والقاهرة . وكانوا في أول أمرهم يرحلون في أثر الفتوح قبائل وعشائر فيقيمون في

الامصار ويتحضرّون . والظاهر ان هذه الهجرة إلى البلدان المغلوبة كانت من سياسة القادة والامراء . فقد ذكر البلاذري مثلاً ان ابا عبيدة رتب ببالس (بناحية حلب) جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فاسلموا بعد قدوم المسلمين ، وقوماً لم يكونوا من البعث نزعوا من البوادي من قيس^١ . وذكر ان مسلمة بن عبد الملك أسكن مدينة الباب في الحزر اربعة وعشرين الفا من أهل الشام^٢ ، وان هرثة اختط الموصل وأسكنها العرب^٣ . وقال المقدسي كانت قدعى أولاً خولان حتى وصل بها العرب عمارتهم ومصرّوها^٤ . وقد سبق هذه الهجرات الاسلامية الاولى إلى الامصار المجاورة لبلاد العرب هجرات قديمة ؛ يدلنا على ذلك انه قبل الاسلام وجدت امارات وقبائل عربية في العراق وسوريا وفلسطين كاللخمين والغساسنة والتدمريين والانباط وسواهم . وكثير من هؤلاء القبائل تحضرّ واصطبغ بصبغة البلاد الدينية والاجتماعية .

واستمر الامر على ذلك شطراً من الدولة العباسية . فقد بنى المنصور ملطية من ثغور الروم (وكان قد رتب فيها معاوية رابطة من المسلمين ثم خرجت) واسكن فيها الوفاً من أهل الجزيرة^٥ . وفي أيام المهدي غزا الحسن بن قحطبة بلاد الروم بجيش مؤلف من أهل خراسان والموصل والشام وامداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز ، وبنى طرطوس (وكانت قد خربت) ومصرّوها^٦ . وما يشعر بسياسة التمسير هذه انه لما أراد المأمون غزو الروم قال : « اوجّه إلى العرب فآتي بهم من البوادي ، ثم أنزلهم كل مدينة افتتحها حتى أضرب إلى القسطنطينية . » على ان الاجل لم يمهله ان

١ البلاذري ١٥٠ .

٢ البلاذري ٢٠٧ .

٣ البلاذري ٣٣٣ .

٤ أحسن التقاسيم (ليدن) ١٣٩ .

٥ البلاذري ١٨٧ .

٦ البلاذري ١٦٩ .

يتم هذا الفتح^١ .

ومن ذلك تحرك العصبية في الامصار المختلفة كربيعة ومضر أيام الوليد في خراسان ، والقيسية واليانية أيام المأمون في مصر ، ولحم وجذام سنة ٢٥٧هـ في فلسطين . ناهيك بمن كانت قد رحل من العرب إلى افريقيا والاندلس .

وإلى انتشار العرب بعد الفتوح واستقرارهم في الامصار يشير ابن خلدون في قوله : « وكان قد وقع في صدر الاسلام الانتماء إلى المواطن فيقال جند قنسرين وجند دمشق وجند العواصم ، وانتقل ذلك إلى الاندلس . ولم يكن (ذلك) لاطراح العرب أمر النسب وإنما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب . ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ، ثم تلاشت القبائل ودثرت العصبية بدورها وبقي ذلك في البدو كما كان »^٢ .

وإذا نظرت إلى هذا الامتزاج من جهة أخرى وجدت ان الجزيرة العربية لم تكن مركز الملك العربي إلاّ نحواً من ربع قرن . ثم تحول الأمر إلى دمشق وبغداد . ونشأت على اثر ضعف الخلافة في بغداد حواضر لامارات مستقلة . ومعنى ذلك من الوجهة الاجتماعية ان العنصر العربي الفاتح استقر قسم كبير منه بعد الفتح خارج الجزيرة حتى قدّر بعضهم من دخل سوريا منه بنحو ربع مليون^٣ . ولا نستطيع ان نجزم بصحة هذا العدد ولكننا لا نشك ان الفتح سهّل للعرب الانتشار والاستقرار في البلاد التي افنتحوها ، ولا يعقل أن يحدث ذلك دون امتزاج أو احتكاك قوي بالامم الأخرى . ففي الشام كان الروم والسريان واليهود ، وفي العراق الاراميون

١ اليقوي ٢ - ٥٧٣ .

٢ راجع اليقوي ٢ - ٣٩٩ و ٥٦٧ و ٦٢٣ .

٣ المقدمة ١٣٠ .

والفرس ، وفي مصر الاقباط ، وسواهم في سوى ذلك . وقد اتصل العرب بهذه الامم اتصالاً وثيقاً واختمروا بثقافتهم وحياتهم الاجتماعية . وكان أكثر امتزاجهم بالفرس - أولاً لاسراع هؤلاء باعتماد الاسلام ، وثانياً لما كان لهم من التأثير السياسي بعد أن أصبحت بغداد عاصمة الخلافة .

وإذا تحريت ذلك من الوجهة اللغوية اوضح لك وجه الامتزاج - فان أكثر الالفاظ المقتبسة إما يونانية أو فارسية . على ان اليونانية راجعة بالاكثـر إلى حياة اليونان العلمية والفلسفية دلالةً على ان الامتزاج كان على هذا السبيل^١ . اما الالفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي . وقد تحرينا أكثر من مئة لفظة فارسية الاصل فوجدنا معظمها من باب المأكل والمشرب والملبس والمفرش والملهي ومن الادوات المنزلية والصناعية وما إلى ذلك ، مما يدل على شدة تأثيرهم من حياة الفرس الاجتماعية^٢ .

وإذا نظرت إلى البلدان العربية اليوم وجدت في الفاظها العربية الحديثة قياساً منطقياً لما حدث في الماضي . فأكثر الفاظها العلمية مقتبسة عن لغات أوروبا الحديثة . اما الاجتماعية ففي العراق تكثر منها المقتبسات الفارسية والتركية ، وفي سوريا الايطالية والافرنسية ، وفي مصر التركية والاوروبية . وما وجود هذه الالفاظ إلا دلالة على احتكاك سكانها بالامم التي اقتبسوا عنها . وذلك ما حدث للدولة العربية في بغداد وسواها . وهذا الامتزاج اللغوي الاجتماعي طبيعي بين الشعوب تتبادل فيه الالفاظ كما تتبادل السلع . فكما ان العرب أخذوا أولاً عن الفرس والروم والسريان والاقباط الذين استقروا بينهم كثيراً من الفاظهم ومصطلحاتهم ، عاد هؤلاء فأخذوا من العربية ما لا يمكن حصره هنا ، ولا سيما الفرس الذين أصبحت

١ تجد كثيراً من هذه الالفاظ في الكتب الطبية والعلمية لذلك العهد .

٢ راجع المقتبسات الاعجمية في «شفاء الغليل» للخفاجي وفي «المعرب» للجوابي و«الالفاظ المعربة» لادي شير وسواها .

الفاظ لغتهم مزيجاً من الفارسية القديمة والعربية . وكذلك أخذ غيرهم كالأتراك والاسبان . وكل ذلك دليل على تبادل أسباب الحياة الاجتماعية . ويكون الاقتباس عموماً على أحد سبيلين :

١ - الامم المغلوبة من الامم الغالبة .

٢ - اللغات المتأخرة في نوع من أنواع الحضارة من اللغات المتقدمة فيه .

الامتزاج بالزواج

ولم تقف عملية المزج في الاقطار الاسلامية عند هذا الحد ، بل تمدتها إلى ما هو أعمق ، فقد اختلط الجنس العربي بسواه عن طريق الزواج - اختلط أولاً بالامم التي اعتنقت الاسلام من فرس وترك وبربر وسواهم ، ثم بالامم الاخرى عن طريق السبايا والجواري اللواتي لعبن دوراً مهماً في تاريخ الاسلام الاجتماعي . وقد كان الامويون أولاً يتعصبون على أبناء الاماء ولا يستخلفونهم . فقد أنجب عبد الملك علي بن الحسين لتزوجه جارية ، وعيّر هشام زيد بن علي بن الحسين بقوله : أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وأنت ابن أمة^١ . ولما زوج ابراهيم بن النعمان بن بشير الانصاري يحيى بن حفصة مولى عثمان بن عفان ابنته على عشرين الف درهم قال قائل يعيره^٢ :

لمعري لقد جلّلت نفسك خزيةً وخالفت فعل الاكثرين الاكارم
ولو كان جدّك اللذان تتابعا ببدراً لما صنيع الألائم
على ان ذلك لم يمنع حتى بعض الخلفاء الامويين من التزوج بالاماء . فكانت أم يزيد بن الوليد فيروزا شامي ابنة شيرويه^٣ ، وام يزيد بن

١ السعدي ٥ - ٤٦٨ .

٢ كامل المبرد (لينك) ج ١ - ٢٧١ .

٣ عن الجاحظ (راجع رسائل الجاحظ ، مطبعة السعادة مصر ص ٥١) .

عبد الملك شاهفريد بنت فيروز ابن كسرى^١، وكانت جدة مروان بن محمد كردية . أما بنو العباس فكثروا ذلك بينهم ، حتى كان كثير من حنائهم ابناء اماء^٢ . منهم المنصور والرشيد وابراهيم بن المهدي والمأمون والمنتصر والمستعين والمنتصر والمهتدي والمقتدر والمكتفي والمستضيء والناصر . وقس على ذلك سائر الطبقات التي اختلط فيها الدم العربي بسواه اخلاصاً واسع النطاق .

تعرب الامم المغلوبة

من هذه الامم من تعرب تعرباً جزئياً وقتياً كفارس والاندلس مثلاً . ومنها من تعرب تعرباً كلياً دائماً كمصر والشام والعراق وشمالى افريقيا . وقد حدث هذا التعرب فيها تدريجاً - بدأ منذ الفتوح الأولى وقبلها بهجرة العرب واشتد بفشر الاسلام ، ثم بتحول دواوين الحكومة أيام الأمويين ، وبما كان للعرب أو للمسلمين من امتيازات في المملكة الاسلامية . وأخذت حركة التعرب تتقدم مع الايام حتى استقرت العربية في هذه الاقطار والمشاهد ان ذلك جرى في الاقطار السامية الاصل أو التي تمت إلى الساميين بنسب متين ، أما في سواها فلم يكن إلاّ جزئياً كما ذكرنا ، ولوقت معين . فلما زالت شوكة العرب زالت الصبغة العربية عنهم وبقي اثرها في لسانهم ومدنيتهم . وهكذا نشأ في الاقطار الاسلامية العربية (ما نسميه اليوم بالشرق العربي) قوميات شتى ، تجمعها جامعة معنوية قوية هي جامعة اللغة والثقافة . وليس من نسميهم اليوم ابناء العرب (خارج الجزيرة العربية) إلاّ مزيجاً من عناصر شتى اصطبغت بالصبغة العربية وارتبطت بتاريخ العرب وميراثهم الأدبي . وهذا الامتزاج القومي اللغوي التاريخي أثر في الادب العربي تأثيراً بيتناً ، فكثرت فيه الاقتباسات الاجنبية ، واختمرت

١ تاريخ التمدن الاسلامي (لزبدان) ٤ - ١٥٣ .

فيه الحياة الفكرية اختاراً أدّى إلى نشوء الحضارة العربية المعروفة في القرون الوسطى .

حضارة بغداد عاصمة العباسيين

كانت بغداد في أيام الفرس قرية يقوم بها سوق لهم ، فأغار عليها المثنى فانتسفها^١ ، ثم لم تلبث بعد ان اختارها المنصور العباسي مركزاً لدولته وبنى فيها مدينته ، حتى زخرت بال عمران وأصبحت من أعظم العواصم في القرون الوسطى . وإنما نحن نذكرها هنا ذكراً خاصاً لعلاقتها الكبيرة بالشعراء الذين ندرس حياتهم وشعرهم ، ولأنه فيها تتجلى الحضارة العربية في أبهى ظواهرها .

وقد مرّ بنا في عرض كلامنا عن « العوامل السياسية في الدولة العباسية » ما كان من تنازع العناصر المختلفة في بغداد ، وان أهمها ثلاثة :

- ١ - العرب : ويمثلهم البيت المالك وبعض الامراء والعمال .
- ٢ - الفرس : ويمثلهم الوزراء والكتبة ومعظم رجال العلم ثم امراء الديلم المتغلبون .

٣ - الاتراك : وكان منهم امراء الجند ثم السلاجقة ورجالهم .
ففي بغداد التقت عناصر شتى وأجناس كثيرة تتنافس على السيادة والرزق وكان لهذا التنافس أثره في أحوالها الاجتماعية . ولما كانت هذه المدينة عاصمة الخلافة والدولة ، ولا سيما في القرنين الاولين من العصر العباسي ، كان من الطبيعي ان تتدفق فيها أموال الاقاليم عن طرق شتى أهمها : الجباية والمصادرة والتجارة والزراعة . ولنتناول كلا منها بقليل من الاسهاب .

الجباية والمصادرة

بلغت رقعة المملكة العباسية في ابان قوّتها حداً عظيماً من الاتساع

١ مرآة الاطلاع (ليدن) ١ - ١٦٣ .

فكان يجبى إليها مما وراء النهر إلى المغرب الأقصى . قيل وقد حسب خراج الروم للمعتصم فبلغ أقل من ثلاثة آلاف الف . فكتب إلى ملك الروم : « ان أخسّ ناحية ، عليها أخسّ عبيدي ، خراجها أكثر من خراج أرضك »^١ . وإذا صحّت هذه الرواية لم يكن المعتصم مبالغاً ، فقد ترك لنا قدامة بن جعفر قائمة مسببة في الخراج لعهد المعتصم يبلغ مجموعها أكثر من ٣٣٨ مليون درهم^٢ . وأحصى ابن خلدون الخراج أيام المأمون وفصله اقليماً اقليماً فاذا مجموع يزيده على الاربعمئة مليون درهم^٣ . وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية مطلقي التصرف بالاموال والارواح ، تجبى اليهم الاموال الطائلة فينفقونها في رجالهم وحاشيتهم وملاهيهم ، ويختزنون منها ما يرونه حين الحاجة . فان المنصور خلف لابنه المهدي ما يزيد عن ٦٠٠ مليون درهم و ١٤ مليون دينار^٤ . وخلف الرشيد نحو ٩٠٠ مليون درهم^٥ . هذا مع كل ما اشتهر به من السخاء والاسراف ، حتى قال الطبري عنه انه لم يُرَ خليفة اعطى منه^٦ . وكانت غلة أمّه الخيزران في العام ١٦٠ مليون درهم . أما عمال الخلفاء ووزرائهم فكانوا يحصلون الاموال الطائلة ويتبارون في انفاقها . فقد بلغت عمالة الفضل ابن سهل أيام المأمون على ما رواه الطبري نحو ثلاثة ملايين درهم ، وذهب الفضل بن يحيى البرمكي ألف الف درهم لمحمد بن ابراهيم العباسي^٧ . والبرامكة مشهورون بكرمهم ورخائهم ، وكانوا أصحاب الدولة والمجد حتى نكسبهم الرشيد واستصفى أموالهم . على ان الكرم والفنى لم ينحصرا فيهم .

١ أحسن التقاسيم للقدمي (ليدن) ٦٤ .

٢ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ - ٥٦ .

٣ المقدمة ١٧٩ - ١٨١ .

٤ المسعودي ٦ - ٢٣٣ .

٥ ابن الاثير ٦ - ٧٦ والطبري جم ٣ - ٧٦٤ .

٦ الطبري جم ٣ - ٧٤١ .

٧ الفخري ١٥١ .

ومن يراجع أخبار الوزراء والعمال يدهش لكثرة ما كان يصلهم من المال ، وما كانوا ينفقونه في سبيل مآربهم وملذاتهم . جاء في « سراج الملوك » للطارطوشي ان العامل (أي الحاكم) أيام عمر بن الخطاب كان راتبه مع معاونيه ٦٠٠ درهم في الشهر^١ ، فصار العمال أيام الامويين يتقاضون الرواتب الكبيرة . على انهم لم يبلغوا عموماً مبلغ زملائهم في العصر العباسي . ولم يكن هذا المال عن طريق الجباية المشروعة فقط بل كان للمصادرة شأن كبير في العصر العباسي . والمصادرة مال يقبضه السلطان من الوزير وهذا من العمال ، والعمال من الرعية .

وقد بلغت في الدولة العباسية ان انشأوا لها ديواناً خاصاً . وأخبار بني العباس حافلة بذكر المصادرات ، وكذلك أخبار وزراءهم وعمّالهم . من أمثلة ذلك قائمة ما قبضه ابن الفرات وهي انموذج لأنواع المصادرة ومقاديرها ويبلغ مجموعها ملايين الدراهم^٢ . وقد نال ابن الفرات من ذلك ما نال سائر الكبراء . فقد قال عن نفسه : تأملت ما صار إلى السلطان من مالي فوجدته عشرة آلاف ألف دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري بن الجصاص فكان مثل ذلك . واليك أمثلة أخرى مما يرويه العقوبي : سخط المتوكل على الفضل بن مروان وقبض ضياعه وأمواله وأنفاه ، ثم رضي عليه ورده ، وسخط على احمد بن خالد المعروف بأبي الوزير فاستصفى ماله ثم رضي عليه . ولما سخط على الكتاب قال لاسحق ابن ابراهيم انظر لي رجلين أحدهما لديوان الخراج ، والآخر لديوان الضياع (المصادرة) ، ثم يذكر ما فعله هذا الخليفة بإيتاخ التركي وهرقة عامل مصر ، ويقول : « ووجه بالحسين بن اسماعيل مكان عمه محمد بن ابراهيم ، وأمره أن يعذبه حتى يستخرج الاموال التي صارت اليه ، فعذب حتى مات . » وفي مكان آخر يذكر قبضه ضياع ابن ابي دؤاد وأمواله ، وانه

١- سراج الملوك (١٢٨٩) ٢٢٥ .

٢- راجع عصر المأمون للرقاعي ١ - ٤٣١ .

أحضر إلى بغداد فلم يقيم قليلاً حتى مات^١. وفي الفخري أمثلة كثيرة على هذه المصادرات. منها مصادرة المعتمد للوزير أبي الصقر بن بلبل، وأم المقتدر لكتبتها ابن الحبيب، وابن الفرات لابن مقلة على مئة ألف. قال وفي أيام المقتدر وأيام وزيره أبي القاسم كثرت المصادرات ولم ينج الوزير نفسه منها فصادره الخليفة وأبعده. وأعجب من ذلك ما فعله القاهر بأمر المقتدر. فقد عذبها وصادر منها مئة وثلاثين ألف دينار^٢. هذا عدا ما صادره الاتراك والديلم وكثير من الوزراء وكبار العمال مما لا يسعه هذا المقام^٣.

وكانت هذه الأموال الوفيرة ينفق أكثرها في بغداد فليس من الغرابة أن نسمع عن كثرة البذخ والسخاء في دوائر الخلفاء والأمراء^٤. وقد تناول زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي^٥ نفقات الدولة العباسية، وبعد أن بحث فيها بإسهاب ونقل ما نشره فون كيرير عن أحمد بن محمد الطائي، وما اشترطه هذا على نفسه أن يقدمه من ضمانات لبيت المال (وفيه ما كان ينفقه بيت المال أيام المعتضد)، وجد أن مجموع النفقات كانت نحو مليونين ونصف مليون دينار في السنة، باعتبار سبعة آلاف دينار لكل يوم. فإذا حسبنا أن النفقات كانت متقاربة أيام المأمون والمعتصم والمعتضد وأخرجنا ذلك من معدل ارتفاع الجباية كما أوردها ابن خلدون وقدامة، استنتجنا أن نحواً من ٣٠٠ مليون درهم كانت تبقى في بيت المال يتصرف بها الخليفة كما يشاء. فهل يستغرب أو ينكر بعد هذا دفعهم (حق في أيام ضعفهم) الوف الدنانير للشعراء والمغنين والعلماء، أو في سبيل الجواري

١ تاريخ اليعقوبي ج ٢ من ٥٩٢ - ٥٩٧.

٢ كتاب الفخري في أخبار المقتدر والقاهر.

٣ راجع أمثلة ذلك في تجارب الامم لمسكويه في أخبار سنة ٣٥٠ و ٣٦١.

٤ راجع مثلاً لذلك بذخ المتوكل - المسعودي ٧ - ٢٢٨.

٥ ج ٢ - ص ٦٥ - ٧٢.

وسائر الملاهي التي اشتهروا بها وراجت سوقها في زمانهم ؟ وايضاحاً لذلك
ننقل بعض أمثلة من بذخهم .

ملابس الموفق والمكتفي

اشتهر هذان الخليفان بكثرة ما جمعا من الاثواب وبكثرة التأنق في
الملبس حتى كان للموفق ستة آلاف ثوب من جنس واحد^١ ، وكان
للمكتفي من الاثواب ما يبلغ عشرات الالوف^٢ .

جواهر المقتدر واسرافه

كانت خزانة الدولة في أيامه مترعة بالجواهر ، من جملتها الياقوت
الذي اشتراه الرشيد بثلاثمئة الف دينار ، والدرة اليتيمة التي كان وزنها
ثلاثة مثاقيل إلى غير ذلك من الجواهر النفيسة ، ففرقه المقتدر وأتلفه في أيسر
مدة^٣ . ولا عجب فقد كان له احد عشر الف خادم من الروم والسودان
وهم بمثابة حاشيته وحرسه .

بذخ ام جعفر وام المستعين

ذكر المؤرخون انه كان لأم المستعين بساط فيه نقوش على أشكال
الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر ، وقد قدروا
قيمته بنحو ١٣٠ الف الف دينار^٤ . وذكر ابن خلكان ان ام جعفر
البرمكي كانت في أيام عزها تمشي ووراءها اربعمئة وصيفة ، وقد يكون
في ما ذكروه مبالغة ولكنه يشير إلى غنى وافر وبذخ عظيم .

١ الفخري (١٣١٧) ٢٢٨ .

٢ راجع تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الاسلامي ٥ - ١٠٧ .

٣ الفخري ٢٣٤ .

٤ المستطرف (بولاق) ١ - ١٩١ .

الهادي والرشيد والواثق ومطربوم

قيل ان الهادي أعطى ابراهيم الموصل في يوم واحد ١٥٠ الف دينار^١ .
وغنى ابن محرز في حضرة الرشيد بأبيات مطلعها « وأذكر أيام الحمى
ثم انثني ، فاستخف الرشيد الطرب وأمر له بمئة الف درهم ، وفعل مثل
ذلك لدحمان الاشقر^٢ . وهبات هذا الخليفة لندمائه وشعرائه أكثر من ان
تخصى هنا . واقتدى الواثق بجدّه فوهب اسحق وقد غنى في حضرته ،
مئة الف درهم^٣ .

الولائم والافراح والمساكن

ذكروا ان المال الذي أنفق يوم زفاف بوران إلى المأمون على القواد
فقط بلغ نحواً من خمسين الف الف درهم^٤ .
وذكر صاحب التكملة ان ابا الفضل الشيرازي عمل دعوة انفق فيها
الفي الف درهم ووهب فيها جوارى وغلماً وضياً الخ ...
وفي يوم زفاف ابنة القاسم بن عبيد الله إلى أحمد ابن المكتفي أرفق
ما يزيد على عشرين ألف دينار^٥ .
أما المساكن فنكتفي منها بذكر دار الوزير ابن الفرات التي أنفق عليها
مئتي الف دينار ، ومثلها على ما قيل دار ابن مقلة^٦ .

* * *

وإنما هذه أمثلة قليلة سقناها على ما قد يكون فيها من مبالغة لتوضح ما نحن
بصدده من توفر المال لدى الخاصة ولا سيما قبل انحلال الدولة . وفي اخبار العباسيين

١ الاغانى ٥ - ٦ .

٢ المستطرف ٢ ص ١٨٢ - ١٨٤ .

٣ المستطرف ٢ - ١٨٥ .

٤ الطبري جم ٣ - ١٠٨٣ وتزيين الاسواق للانطاكي ٣ - ١١٧ .

٥ صلة الطبري آخر أخبار سنة ٣٠٦ .

٦ صلة الطبري أخبار سنة ٣١٨ .

ورجالهم مما تجده في تضاعيف كتب الادب والتاريخ ما يملأ صفحات عديدة . ولم يكونوا يستطيعوا القيام بهذه النفقات الطائلة وهذه الالبّة العظيمة (مهما كان مبالغاً فيها) لولا تدفّق الاموال عليهم من الاقاليم المختلفة ، وقد بقي لهم حتى في أيام ضعفهم وخروج السلطة من أيديهم حظ وافر من المال . فان البويهيين لما استولوا على الامر ببغداد عيّنوا راتباً للخليفة خمسة آلاف درهم كل يوم^١ . وفي سنة ٣٣٤ هـ عيّن للمطيع الفسا درهم^٢ ، وهو مبلغ كبير إذا قيس برواتب الحكام . ولم يكن ما يقبضه الخليفة المستضعف يومئذ إلا شيئاً يسيراً بالنسبة إلى ما كان يتقاضاه صاحب الامر وعمّاله . وهذه الاموال الطائلة كان ينفق أكثرها في بغداد ، وكان نصيب الادب منها وافراً . ولما تجزأت الدولة إلى امارات مستقلة لم يتغير الحال كثيراً على الادباء والعلماء وارباب الفنون ، إذ أصبحت حواضر هذه الامارات تنافس بغداد في الغنى والبذخ والاتفاق على العلم والادب ، وان لم تبلغ ما بلغته العاصمة الكبرى في إبان مجدها .

الممران التجاري والزراعي

لم تكن بغداد مركزاً للخلافة والسلطنة فحسب بل كانت مركزاً كبيراً للتجارة أيضاً ، وساعدها على ذلك مركزها الجغرافي على نهر كبير صالح للملاحة وانها في نقطة وسطى بين الشرق والغرب . والمعروف ان المسلمين كانوا في العصر العباسي سلاطين البحار تمخر سفنهم إلى سومطره وزنجبار وكلكتا وجزائر الهند والصين^٣ ومدغسكر ، وتجوب البحر المتوسط إلى الأندلس وسواها . وقد تركوا أثر تفوقهم التجاري في المصطلحات التي

١ ابن الاثير ، أخبار سنة ٣٣٤ .

٢ تجارب الامم ، أخبار ٣٣٤ .

٣ ترجم مؤرخاً في روسيا كتاب صيني يرجع إلى القرن الحادي عشر معظمه عن تجارة الصين مع العرب - راجع كتاب زويمر A Moslem Seeker After God p. 30 وفيه انه وجد مسكوكات كوفية في اسكندنافيا ترجع إلى القرن الحادي عشر .

اقتبستها لغات الغرب عنهم مثل :

حرّاقة Garracca

حبل السفينة Cable

تعريفة Tarif

أمير البحر Admiral

موصلين Musline

دار الصناعة Arsenal

دمقس Damask

وما أشبه من الالفاظ التي دخلت أوروبا عن طريق التجارة^١ .

ويوازي أساطيلهم التجارية في الأهمية قوافلهم البرية التي كانت تحمل
المتاجر من كل الجهات ، وقد ذكر المقدسي في أحسن التقاسيم أنواع
التجارات من الاقاليم المختلفة وأهمها :

الياقوت والاماس والعقاير والارز من الهند

الؤلؤ من البحرين

المنسوجات من ايران

الحصر والقباطي والقراطيس من مصر

الزجاج والخزف من البصرة

المسك والكافور من الصين

الرقيق الابيض من تركستان والاندلس وبلاد

الصقالبة وسواها

الرقيق الاسود من السودان

وغير ذلك من المتاجر الواسعة التي لا يتسع المقام لذكرها . ولا شك انه
كان لبعضهم يدٌ كبرى في التجارة . فان جوهرياً من الكرخ ساومه
يحيى البرمكي على سفت من الجواهر بمبلغ سبعة ملايين درهم^٢ . وقد
عُرف من كبار التجار آل الجصاص (مر ذكرهم في باب المصادرة) -

١ راجع كتاب فون كريم The Orient Under The Caliphs Tr.

Bukhsh 362

٢ راجع المقتطف ، ديسمبر ١٩٣٠ ص ٥٣١ .

والشريف عمر - ذكر ابن الاثير ان دخله السنوي كان الفي الف وخمسمئة الف درهم . وكانت ثروات بعض تجار المراكب في البصرة تقدر بالملايين . وقد دفعت التجارة بعضهم إلى أقصى البلاد : ذكر المقسري ان علي بن بنادار البرمكي قدم الاندلس تاجراً سنة ٣٢٧ هـ . وأمثال هذا التاجر كثيرون ممن كانوا يرحلون من الشرق إلى الغرب وبالعكس . وكان لبغداد نصيب وافر من ذلك ، تعكسه لنا بعض قصص الف ليلة وليلة ، فهي وإن تكن أساطير لا صحة لها فإنها تمثل روح العصر الذي بلغت فيه بغداد والبصرة أوج حضارتها التجارية .

أما الزراعة فقد كانت أيام العباسيين على درجة عظيمة من الارتقاء . فانهم على ما يُستدل من أخبارهم جعلوا همهم احتفار الأنهر وإنشاء الجسور والترع ، حتى جعلوا ما بين دجلة والكوفة سواداً مشتبكاً غير مميز تحترقه انهار الفرات^٢ . وقد ذكر المؤرخ مسكويه في عرض كلامه عن عضد الدولة تلافيه بغداد بالمهارة بعد ان خربت لكثرة الفتن والمصادرات والاضطرابات . قال : « وكان ببغداد انهار كثيرة (ذكر منها نحو عشرة بعضها من دجلة وبعضها من الدجل) فاندفنت مجاريها وعفت رسومها » . ثم ذكر مصالح السواد وتعمير القناطر على انهاره وحماية مزارعه وما بلغ بهمة عضد الدولة من العمران بعد الخراب^٣ . وفي كل ذلك إشارة إلى عهد زراعي راق عرفته بغداد والعراق عموماً أيام زهو الخلافة .

ومثل ذلك في كتاب القاضي ابي يوسف إلى هارون الرشيد كما نقله فون كيرمر في كتابه ، والشرق تحت حكم الخلفاء^٤ . فان ابا يوسف يذكر من واجبات الحاكم تعمير الاقنية للري وتنظيف الانهر التي تحمل المياه من الفرات والدجلة إلى السواد ، وما إلى ذلك من الجسور والسدود والقناطر

١ نفع الطيب (بولاق) ٢ - ٧٢٢ .

٢ الاصطخري (طبعة بريل) ٨٥ .

٣ تجارب الامم ، أخبار سنة ٣٦٩ .

٤ اللسخة الانكليزية ٢٣٨ (ترجمة Bukhsh)

والملاحه . ويؤيد ما ذكرناه من هذا العمران الزراعي ان ارتفاع الحراج من السواد أيام المعتمد (كما في قائمة قدامة بن جعفر) بلغ من القمح والشعير نحو ثلث ارتفاع الاقاليم كلها ، أي حوالى ١١٥ مليون درهم ، وبقي على هذه النسبة إلى أواسط القرن الثالث الهجري (راجع قائمة ابن خردادبة) . وليس ذلك دليلاً على ثقل الجبايات فقط ، ولكن على عمارة الأرض أيضاً وتمكّن الناس من القيام بما يتطلب منهم للدولة . ولم ينحصر هذا العمران الزراعي في السواد العراقي ، بل نراه أيام عزّ العباسيين في أقاليم أخرى كخراسان ومصر وسواها .

فبالتجارة والزراعة ، وبما كان يحبى إلى بغداد أيام عزّها ، توفرت فيها أسباب العمران حتى فاقت سواها وأصبحت عروس الحواضر في القرون الوسطى ، أو كما قالت دائرة المعارف الاسلامية (في كلامها عن بغداد) « انها بلغت في أيام زهوها المقام الاول بين المدن في العالم المتمدن يومئذ . » وقد زارها أيام المستنجد السائح اليهودي بنيامين الطليطلي وقال عنها (ولم تكن يومئذ في ابّان مجدها) : « انها أفخر مدن العالم لا يقابلها إلا القسطنطينية » . وزارها الرحالة ابن جبير الاندلسي سنة ٥٧٠ هـ أي في أواخر العصر العباسي وقال عنها : « واما حماماتها فلا تحصى عدّة : ذكر لنا أحد اشياخ البلد انها بين الشرقية والغربية نحو الالفى حسام وكذلك مساجدها لا يأخذها التقدير ، والمدارس فيها نحو الثلاثين ، وما فيها من مدرسة الاّ ويقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها واشهرها النظامية . » إلى أن يقول : « فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف وأن هي مما كانت عليه - هي اليوم داخلة تحت قول حبيب (ابي تمام) :

لا انتِ انت ولا الديار ديار خفّ الهوى وتولّت الاوطار »

ويحق لابن جبير ان يقول ذلك متأسفاً نادياً عمران بغداد . فقد ذكر

الخطيب البغدادي بغداد في أيام المأمون وقال : « كان فيها خمسة وستون ألف حمام^١ » . ويظهر لنا في ذلك بعض المبالغة ، ولكنه مهما كان ، فهو يدل على عظمة المدينة واتساع عمرائها حتى لقد قُدِّرت مساحتها بنحو ستة عشر ألف فدان ، وعدد سكانها بنحو مليون ونصف أو أكثر^٢ . ولم ترتق هذا الارتقاء العظيم في مدة لا تتجاوز الستين سنة إلا لأنها كانت مركز دولة تسيطر على أقاليم وشعوب تضارع ما كانت عليه الدولة الرومانية في عنفوان قوتها . ويؤيد ذلك ما نجده من وصف أقاليمها في كتب الاضطخري وابن حوقل والمقدسي وابن جبير وابن خرداذبة وقدامة وسوام من أرباب الرحلات وكتاب الخراج .

بعض صور اجتماعية يعكسها الادب العباسي

١ - كثرة الجواري والغلمان : من نتائج المال والترف في العصر العباسي اقتناء الجواري والغلمان . وكان في بغداد - كما كان في البصرة وسواها من الحواضر الكبرى - سوق لبيع الرقيق من عبيد واماء : حكى عن أبي دلالة الشاعر انه مرّ بنخّاس يبيع الرقيق فرأى عنده من كل شيء ، فانصرف مهموماً ودخل على المهدي فأنشده قصيدة منها :

ان كنت تبغي العيش حلواً صافياً فالشعر أعزّ به وكن نخّاساً^٣

وذكر الاصفهاني انه كان للرشيد زهاء ألفي جارية^٤ ، وعن المسعودي كان للمتوكل اربعة آلاف جارية^٥ . ولم يقصّر الفاطميون في مصر عن العباسيين في بغداد . فقد كان في قصر أخت الحاكم بأمر الله ثمانية

١ نقل ذلك زيدان عن ابن خلدون وعن سير الملوك ، (راجع تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٢ - ١٩٠) .

٢ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ - ١٩٢ .

٣ الأغاني ٩ - ١٢٨ (في أخبار أبي دلالة) .

٤ الأغاني ٩ - ٨٨ (في أخبار علي) .

٥ مروج الذهب ٧ - ٢٧٦ .

آلاف جارية^١ . ومثل هؤلاء ملوك الاندلس وسواهم . على ان ذلك لم ينحصر في قصور الملوك والامراء ، بل تعداهم إلى منازل الخاصة وارباب اليسار من تجار وملاكين وعلماء ، ومن يليهم من طبقات الشعب . وكانت أثمان الجواري تختلف من عشرات الدنانير إلى الألوف . وقد يبلغ الشغف ببعض الامراء ان يدفع مئات الالوف من الدراهم في سبيل احداهم . وكانوا يتهادون الجواري ، فقد أهدي طاهر إلى المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف^٢ ، بل كانت الامراة أحيانا تهدي زوجها بعض الجواري كما فعلت زبيدة مع الرشيد^٣ . وقد بلغ اهتمامهم بثلثيف الجواري والفلمان وتعليمهم مبلغا عظيما إذ كان ذلك يزيد اثمانهم ويعود بالربح على المتجرين بهم .

ومع اننا نجد في العصر العباسي بعضا من النساء الراقيات علما وثقافة ، وانبا نجد في كتب التاريخ شواهد على انه كان يتاح للفتاة ان تتعلم كالفتى ، لا نجد الأدب العباسي يعكس لنا من حالة المرأة ما يجعلها في مقام رفيع : خذ الشعر مثلاً تجده من هذا القبيل نوعين : الهزلي والجدّي . فالهزلي كشعر ابي نواس وأضرابه أكثره مقرون بحياة الجواري اللواتي كن يشتري ويتهادى بهنّ ، وهو يصور لنا عبث الشباب الماجن . أما الجدّي كشعر المعريّ فتشائم ينظر إلى المرأة في المنزل نظرة سوداء ، ولعله متأثر مما بلغته من التأخر الاخلاقي بعد ان زاحتها الجارية فاعتقلت وحيل بينها وبين الرقي العلمي والادبي . ويظهر ذلك في الادب المنثور كما يظهر في الشعر ، ولا يستثنى من هذا الحكم إلاّ قلائل لا يبنى عليهن حكم عام .

ومما يذكر هنا ما بلغه بعضهم من التهنك والانحطاط الاخلاقي

١ خطط المقرئ (مصر ١٣٢٤) ج ٢ - ٢٣٣ .

٢ المسعودي ٧ - ٢٨١ .

٣ الأغاني ١٦ - ١٣٧ (في اخبار دنانير) .

الاجتماعي ، حتى صاروا يستخدمون الغلمان كالجواري ، ومن ذلك نشأ غزل المذكر كما نراه في شعر بعض من مهتكي ذلك العصر .

٢ - مجالس الشرب والغناء : توفرت في الحواضر ولا سيما بين الخاصة في بغداد مجالس الشرب ، ولم تكن تخلو منها قصور الحكام . وكانت بعضهم يتدرّج إلى ذلك -- على مناقضته لأوامر الدين -- بأن الشرع حلّل نبيذ التمر . وعليه بنى ابن خلدون دفاعه عن الرشيد إذ قال : « وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة . وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار الواهية فيها » . إلى أن يقول : « وحال ابن اكثم والمأمون في ذلك حال الرشيد ، شراهم إنما كان النبيذ ، ولم يكن محظوراً عندهم » . على أن شرب الخمر على أنواعها كان شائعاً كما يتبين من درس الشعر العباسي ، وكذلك مجالسة الندماء والمغنين والقيّينات . ولم يكن ذلك بدعة في الدولة العباسية ، فقد سبقهم إلى ذلك الامويون ، وأخبار يزيد والوليد وسليمان وغيرهم كافية للدلالة على ما ذكرناه . فبعد أن كانت المسلمون أيام الراشدين يتحرّجون من الخمر ويعاقبون شاربها ، أصبحوا بعد ذلك يرون في بعض خلفائهم وزعمائهم ما يسهّل لديهم معاقبتها - نعم ظلت الشريعة نافذة في حد السكاري ، ولكن ذلك لم يمنع الناس من تعاطي المسكر وارتياح الحانات . ومهما كان من المبالغة في ما ينقلونه عن الهادي والرشيد والامين والواثق والمتوكل ، ومن جرى مجراهم من الملوك أو نادمهم من الشعراء والمغنين ، فاجماع أكثر المؤرخين على شربهم الخمر وبلوغ بعضهم من ذلك درجة التهلك ، حتى روى الأبشيهي ان الواثق كان يرقد في المكان الذي يشرب فيه ، ويرقد معه ندماءه^٢ . وكان الشراب عادة مقروناً بالغناء ، ففي كل مجلس طرب عند الخاصة يحضر اولو الفن

١ المقدمة ١٨ .

٢ المستطرف للأبشيهي (بولاق) ٢ - ١٨٧ .

فيغنون أو يرقصون ، ويشرب الحاضرون ، ويقضون وقتهم على ذلك .
وهن أمثلة ذلك ما نقله ابن الاثير عن الأمين انه أمر يوماً قيّمة جواريه
ان يوزن له مائة بارية فتصعد اليه عشراً عشراً بأيديهن الميدان يغنين
بصوت واحد ، وادب الادب ملأى بأخبار المغنين والمغنيات ، وما كان
يبتذل لهم من الاموال الطائلة ، وسلمت بشيء من ذلك في كلامنا عن
الشعراء

٣- نشوء حركة زهدية مضادة لترف العصر : وسنتكلم عنها في
عيد هذا المقام .

٤ - البأتق في الفنون الحضرية : ويدخل تحتها تشييد المنازل ونسج
التياب والمفروشات وطهو الطعام وبناء المراكب وصنع الآلات الموسيقية ،
وما إلى ذلك من أسباب الحضارة . وقد بلغت البلدان الإسلامية من ذلك
في العصر العباسي مبلغاً عظيماً : يدل ذلك على ذلك وصف القصور والمساجد
التي كان يبنونها الملوك والامراء في الحواضر الكبرى ، مما يعكسه لنا الشعر
النثري في ذلك العصر كما سترى عند كلامنا عن الشعراء . وكذلك وصف
الولائم والرياش وسائر أسباب الحضارة الصناعية .

ذكر ابن خلدون انه كان للملوك دور في قصورهم لتسج أثوابهم تسمى
دور الطرار ، وكان القاتم عليها ينظر في أمور الصنّاع فيها وتسهيل
الانهم واجراء أرزاقهم^٢ . ولما احتك الصليبيون بالشرقيين وجدوا في
رفق الشرق الصناعي والاجتماعي والزراعي ما حداهم إلى اقتباس كثير من فنونه
وعوائده ، وقد رجعوا إلى أوروبا يحملون معهم من الشرق ما كان له
تأثير في نهضة أوروبا الاجتماعية في القرون الوسطى : كترية دود الحرير
وصناعة النسيج والسجاد والسكر والزجاج والخزف والبارود ، وما إلى ذلك

١ ابن الاثير ، ٦ - ٢٠٦ (في سيرة الامين) .

٢ القدسة ١٦٧ .

ما تجده مفصلاً في المباحث الخاصة عن الحروب الصليبية^١.

٥ - انتشار المدارس والعلوم : ذكرنا قبلاً ان الأمية كانت سائدة في العرب قبل الاسلام ، وانهم أخذوا بعد ذلك يخطون في سبيل الثقافة ، وما عتَمُوا ان أنشأوا حلقات العلوم الدينية واللغوية في المساجد والكتاتيب البسيطة في القرى . ولما استقر الامر للعباسيين زادت حركة التعليم والتثقيف وتنظمت دور العلم في الامصار المختلفة ، ولا سيما في بغداد ومصر : قال المقرئ : « والمدارس مما حدث في الاسلام ولم تكن تُعرف في زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الاربعمئة من سني الهجرة^٢ » ثم يذكر بعض المدارس المهمة ، ويتناول مدارس مصر خاصة فيصفها مدرسة مدرسة . ولا شك ان المقرئ يعني بالمدارس هنا مؤسسات تعليمية خاصة توقف لها الاوقاف والاموال ، وتجري على نظم معينة كالنظامية في بغداد ، ودار العلم والازهر في مصر ، والا^٣ فان التعليم سابق للدولة العباسية ، ولكنه لم ينتظم إلا^٤ بعد القرن الرابع الهجري . وأهم مراكز التعليم في العصر العباسي : بغداد ودمشق ومصر والكوفة والبصرة وقرطبة والقدس ، يليها حلب وطرابلس ومدائن كثيرة من امصار مختلفة^٥ .

* * *

ومن أسباب الرقي العلمي في هذا العصر تلك الحركة الكبيرة - أعني حركة النقل العلمي عن اليونان والفرس والهنود التي عرفت أهل العربية بالعلوم الكونية القديمة وأخرجت منهم بعدئذ مشاهير في الطب^٦ والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافيا وسواها . ولما كنا قد خصصنا الفصل التالي للبحث في هذه الحركة

١ راجع دائرة المعارف البريطانية تحت Crusades

٢ المقرئ (مصر ١٣٢٦) ج ٤ - ١٩٢ .

٣ راجع هنا القائمة التي نظمها خليل طوطح في كتابه :

The Contribution of the Arabs to Education p. 23.

الفكرية فاننا نجتزئ هنا بالاشارة اليها وبذكر ظواهرها العامة وهي :

١ - تنافس الامراء في العالم الاسلامي على بناء المدارس والكتليات والسخاء عليها .

٢ - نمو حركة النسخ والتدوين وازدياد عدد الكتب وانتشارها^١ .

٣ - انشاء المكتبات العامة والخاصة .

٤ - حظوة العلماء والادباء لدى الملوك والامراء .

٥ - الرحلات العلمية من الاندلس إلى الشرق وبالعكس .

٦ - المذاهب الفكرية المختلفة ونشاط أربابها في الدفاع عنها .

٧ - اختار العقلية العربية بالعلوم الطبيعية والفلسفية .

كل ذلك أحدث في العصر العباسي تجديداً ظاهر الأثر في الشعر الذي يمثل تأثر الامة بما يحيط بها من أسباب العمران .

١ راجع مقدمة ابن خلدون في صناعة الرواقه .

مجاري الحركة الفكرية

ليس للحركة الفكرية في أمة من الأمم منبثق خاص تتدفق منه تدفق ينباع من جوانب التلال . بل هي كسيول الاودية تمدّها المياه القليلة المتحدّرة من هنا ومن هناك فلا تلبث أن تصير عجاجة شديدة الشكيمة . كذلك حياة العرب الفكرية كثيرة الاصول متشعبة الروافد ، وهيات ان نحاول الآن البحث عن كل أصل وكل رافد منها فانها متصلة بظلمات يتيه فيها الاستقراء العلمي والقياس المنطقي . فما تاريخها الذي نبسطه هنا إلا وصف اجمالي للمجاري الكبرى التي تمثل لنا طور البلوغ في حياة الناطقين بالعربية .

على اننا لا نرى مندوحة عن القاء نظرة إلى الماضي العريق في القدم لنطلع على بعض العوامل الرئيسية التي كان لها يد في ترقية هذه الحركة الفكرية العربية ، فنربط الماضي بالحاضر ربطاً يسهل لنا فهم مبادئها والنظر في رجالها ، ما أخذوا وما أعطوا . وذلك ما حدثنا إلى ان نجعل كلامنا في مبحثين رئيسيين :

- ١ - المصادر الرئيسية التي استمدت منها العربية مجاريها الفكرية .
- ٢ - وصف بعض المجاري الكبرى مما له أثر يذكر في الادب العربي .

في المصادر الرئيسية

وهو يتناول ما استمدّه العرب من فلسفة اليونان من الحركات الفكرية في الهند وإيران ، وهو بحث واسع نلخصه لطلاب الادب فيما يلي استناداً إلى مراجع تذكر في حينها .

المصدر اليوناني

كان الجو الذي ظهرت فيه النهضة العربية (الاسلامية) مشبعاً بالنظريات اليونانية . فمنذ أغار الاسكندر على آسيا زاحفاً إلى الهند ، أخذت العلوم اليونانية تنتشر في الشرق^١ ، وتخمّر عقول المفكرين بمبادئ الفلاسفة الذين أنجبتهم بلاد اليونان . ولما نهض الرومان ومدّوا رواقهم على شاطئ البحر المتوسط — على البلدان التي ورثها خلفاء الاسكندر — قضوا على سيادة العنصر اليوناني السياسية ، لكنهم لم يقضوا على مدنيّة اليونان ، لأن الرومان أنفسهم كانوا يعدّون اليونان أساتذة لهم في العلم والحضارة . فكان في العالم الروماني مركزان كبيران للحركات الفكرية : أثينا في الغرب ومجرى الفلسفة فيها أدبي اجتماعي ، والاسكندرية في الشرق ومجرى الفلسفة فيها ديني روحي^٢ . وكان طلاب العلم يقصدون هذين المركزين للتبحّر في العلوم والفلسفة ، حتى الرومان أنفسهم كانوا يؤمنونها لهذه الغاية^٣ .

وفي أوائل القرن السادس للميلاد اشتد اضطهاد الحكومة الرومانية على مفكري أثينا الذين كانوا يتشيّعون للتعاليم اليونانية القديمة (الوثنية) ، فاضطر هؤلاء إلى هجرة الاوطان والضرب في رحاب الارض ، ولسان حالهم ينشد :

Huart, Histoire des Arabes (Paris 1913) 2 — 363 ١

Alexander - Short Hist. of Philosophy 117 ٢

Mosheim, Ecclesiastical Hist. (1832) 1 — 77 ٣

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلي متعزلاً
فساقتهم الاقدار إلى بلاط كسرى انوشروان ، ذلك العاهل الفارسي المحب
للعلم والفلسفة ، فازلهم على الرحب والسعة ، ولم يعتموا أن أحدثوا
في بلاده حركة فكرية جديدة ظهر آذيتها في مدرستي نصيبين
وجنديسابور^١ . ولكنها لم تلبث أن ضعفت لرجوع هؤلاء المفكرين
إلى بلادهم .

وكأنما قدر لغير فارس أن تكون الصلة بين الشرق والغرب ، وهذا
الفخر الذي فات العنصر الفارسي انقلب إلى العنصر السرياني (السوري)
الذي عرف الشرقيين بفلسفة اليونان وعلومهم . ففي أوائل القرن السابع
للميلاد كانت بلاد العرب تتمخض بمولود جديد — بمدينة دينية مركزها
الحجاز ، حتى إذا ترعرعت وامتد سلطانها واستولت على سوريا ومصر
وسواها من بلدان البحر المتوسط ، استقرت تطلب غير الفتح المادي
من أسباب التقدم والحضارة . فانصرفت إلى تحصيل العلم والفلسفة
واتخذت ادلتها في ذلك وأساقذتها مفكري اليونان الذين كانت تعاليمهم
كما ذكرنا قد ملأت العالم المتمدن شرقاً وغرباً ، ولا سيما تعاليم فيثاغورس
واقلاطون وارسطو . ذكر ابن القفطي ان خمسة هم اساطين الحكمة ،
وهم ابيدقليس وفيثاغورس وسقراط واقلاطون وارسطوطاليس^٢ . ولا شك
ان الاخيرين أشدهم علاقة بحياة العرب .

قلنا انه كان في العالم القديم قبل الاسلام مركزان رئيسيان للعلم والفلسفة
هما أثينا والاسكندرية ، على انها لن يكونا الوحيدين . ففي القرن الخامس
للميلاد كان للعلم والفلسفة بضعة مراكز أهمها ، عدا أثينا والاسكندرية ،
القسطنطينية وانطاكية وروما والرها (اورفا) وهي في القسم الشمالي الغربي

١ Arabic Thought (N. Y. 1922) 42 — . Les penseurs
de l'Islam 111 — 7

٢ القفطي ، أخبار الحكماء ٦٠ .

من الجزيرة ، ونصيبين في شمالي الجزيرة ، وجنديسابور في بلاد فارس ، وحرّان . وكان للفلسفة اليونانية الحظ الاوفر في هذه المراكز العلمية ، إذ على فلاسفة اليونان كان المعمول في الطبيعيات والإلهيات والرياضيات . قال موسيم في كلامه عن العلم والفلسفة في القرن الخامس بعد الميلاد : « كان طلاب الشرائع يؤمّون بيروت ، وطلاب الطبيعيات والكيمياء يؤمّون الاسكندرية . وقد اشتهر معلمو القسطنطينية والرها والاسكندرية في فن التعليم . على ان أساتذة البيان والشعر والفلسفة وسواها من الفنون لم ينحصروا في هذين المركزين بل انتشروا في كل الجهات وأنشأوا لأنفسهم نوادي ومدارس » .

فالشرق الأدنى قبل الدعوة الاسلامية كان تحت تأثير الروح اليونانية الفلسفية . نعم ان تلك الروح كانت تتباين مظاهرها بالنسبة إلى أماكن ظهورها ، ففي مدارس القسطنطينية اليونانية ، وفي مدرسة حرّان الصابئية ، ومدرسة جنديسابور الفارسية ، والرها السريانية ، وفي مدرسة الاسكندرية الوثنية كان الفكر اليوناني سائداً ولكن سيادته كانت على درجات متفاوتة .

في هذا الجو اليوناني نشأت حياة العرب الفكرية مستمدة من الشرق روحها وعواطفها الدينية التي يعكسهم لنا الشيخ السجستاني بقوله : « ان الشريعة مأخوذة من الله عزّ وجل بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي وباب المناجاة وشهادة الآيات وظهور المعجزات . وفي أثناءها ما لا سبيل إلى البحث عنه والفوص فيه ، ولا بدّ من التسليم المدعوّ اليه ، وهناك يسقط لِمَ ويبطل كيف الخ ... »^١ ، ومستمدة من الغرب نظرياتها الفلسفية ومبادئها العلمية المبنية على المنطق والنواميس الطبيعية . وقد دخلت هذه النظريات إلى الآداب العربية عن طريق النقل أو الترجمة وكان لها

١ - 380 - Ecc. Hist. - Mosheim

٢ الفهرست (ل) ٢٤٣ .

في حياة العرب الفكرية تأثير بعيد المدى . ومن المعلوم أن نقل المعلوم أو الفلسفة بدأ منذ العصر الأموي^١ ، على أن العصر الأموي لم يتسع لتقدم هذه الحركة ، فلما انتقلت الخلافة إلى بغداد أخذت حركة النقل تنمو نمواً سريعاً ، وزادها نشاطاً تنظيم بيت الحكمة في بغداد والاهتمام بطلب الكتب العلمية من بلاد الروم^٢ . وبرعاية الخلفاء ولا سيما المأمون أخذ جماعة من (السريان) يترجمونها إلى العربية ، وقد اشتهر منهم جماعة كانوا من أركان النهضة العلمية في ذلك الحين ، وتبعهم سواهم حتى بلغت الترجمة أوجها في القرن الرابع الهجري . ومن أراد الاطلاع على أسماء النقلة والكتب التي نقلوها فليراجع كتاب الفهرست لابن النديم فإنه جمع فأوعى . وقد تناول النقل الطب والرياضيات والفلك وأصناف العلوم الفلسفية .

ولم تقف النهضة عند هذا الحد بل أخذ العلماء من الناطقين بالعربية يدرسون هذه المنقولات ويشرحونها ويصنفون الكتب في موضوعاتها ، وتوسعوا في بعض الفروع إلى درجة بعيدة فجاءوا بما يذكر لهم في تاريخ الفكر العام .

ومع أن أكثر الناقلين عن اليونانية والسريانية كانوا من السريان وأكثر المصنفين يمتون بانسابهم إلى غير العرب ، فإن اللسان العربي كان الأداة التي استعملت في النقل والتصنيف ، فأصبح لغة العلم والثقافة في ظلمات القرون الوسطى ، وتسرب إليه كثير من الألفاظ الجديدة والمعاني الجديدة مما يعكسه لنا الشعر والنثر في العصر العباسي .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن الذين تأثروا من أبناء العربية بالفكر اليوناني كانوا فرقتين : فرقة اعتمدت فلاسفة اليونان ، ولا سيما أرسطو ، فشرحت أقوالهم وانصرفت إلى درس نظرياتهم استكشافاً لأسرار الحكمة وسعيًا وراء

١ الفهرست (ل) ٢٤٣ وأخبار الحكماء ١١٩ .

البحث العلمي ، وهؤلاء هم المعروفون بالفلاسفة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وأضرابهم . وفرقة اعتمدت نظرياتهم وأساليبهم في النضال الروحي أو الكلامي وهم المتكلمون الذين سيمر بنا شيء من أقوالهم وآرائهم .

فلنتقدم من هنا إلى ذكر شيء عن المصادر الشرقية التي استمد منها العرب كثيراً من حركاتهم الفكرية .

المصدر الفارسي

قال الاستاذ جاكسون استاذ اللغات الايرانية الهندية في جامعة كولومبيا سابقاً : « ان فتح المسلمين لفارس أشبه بفتح النورمان لانكلترا . وما معركتنا القادسية ونهاوند إلا مثال لمعركة هاستنغس »^١ . وكأنه بذلك يعني ان العرب وان كانوا اخضعوا فارس وحكموا العنصر الفارسي ، لم يستطيعوا ان يقتلوا الروح الفارسية الفكرية فبقيت متقدة في صدور الشعب تظهر كلما سنحت لها فرصة . ولا شك ان الآداب العربية ربحت شيئاً كثيراً من الفرس ، يدلّك على ذلك العدد الكبير من رجالها الذين هم من أصل فارسي . قال ابن خلدون في مقدمته^٢ : « ان حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم المعجم ... وكان صاحب النحو سيبويه والفارسي ، والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم في انسابهم ، وكذا حملة الحديث . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يبق بحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس . » ولم يزل ذلك في الامصار (أي حمل المعجم للعلم) ما دامت الحضارة في المعجم وبلادهم من العراق وخراسان وما

١ Jackson, Early Persian Poetry (N. Y. 1920), p. 14

٢ المقدمة ٥٤٣ و ٥٤٤ .

وراء النهر . فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة ذهب العلم من المعجم ، ا هـ . والذي يحقق النظر في علاقة المعجم بالعرب سياسياً ودينياً وفكرياً لا يستطيع إلا أن يرى ان التيار الفكري من قبل المعجم كان قوياً في حياة العرب ، وظهر ما يكون ذلك فيما يلي :

١ - في ان الاقطار المعجمية هي الحقل الذي نمت فيه بذور الشيعة وانتشار الشيعة بين المعجم اكتسبت اللغة العربية كثيراً من المواطن والافكار الفارسية . قال الدكتور مور أستاذ التاريخ الديني في جامعة هارفرد سابقاً : « ان ما نراه من الغلو والتعصب عند بعض الطوائف الشيعية ناشئ بلا ريب عن أن كثيراً من أتباع زرادشت انضوا إلى الاسلام تحت لواء الشيعة » . وفي ذلك إشارة إلى ما تسرب إلى اللغة العربية من ديانة المعجم القديمة بانضمام المجوس إلى الاسلام وتعرهم .

٢ - في ان زعماء الحركة الفكرية العربية أكثرهم من المعجم ، وقد تقدمت الإشارة إلى ما ذكره ابن خلدون من ذلك . ونزيد هنا ان ملوك بني ساسان ، ولا سيما كسرى انوشروان الذي سبق الدعوة الاسلامية بقليل من الزمن ، كانوا قد اهتموا جداً باحياء العلوم والآداب الايرانية ، وان العرب أنفسهم كانوا ينظرون إلى المعجم نظراً الى قوم متقدمين عليهم في الحضارة والعلم ، وعندهم لكسرى المذكور مقام فريد . وكانت في البلاد المعجمية قبل الاسلام مراكز مهمة للعلم أهمها جنديسابور حيث التقت تحت رعاية العرش الفارسي الفلسفة الهندية بالفلسفة اليونانية ، وقد مرّ الكلام على هذه المدرسة في كلامنا عن المصدر اليوناني .

٣ - في الكتب التي نقلت عن الفارسية . ذكر ابن النديم ما يزيد على اربعين كتاباً أكثرها يرجع الى أصل فارسي ، والباقي كتب تحت رعاية

الفرس^١. ومن أهم ما تسرّب من الفرس الى حياة العرب الأدبية الرسائل ' أو الكتب التي تبحث في الفلسفة الأدبية ككتاب مسكويه « أدب العرب والفرس ». قال العلامة الروسي انوستانوف ان هذا الكتاب يرجع الى أصل فارسي. وكذلك كتاب الادب لابن المقفع وكتب أخرى في هذا الباب. ومن أراد معرفة أسمائها فليراجعها في الترجمة الانكليزية لكتابه : « تأثير ايران في آداب العرب »^٢.

وقد ذكر الفهرست أسماء الذين نقلوا من الفارسية الى العربية ، نخص منهم هنا ابن المقفع المشهور وآل نوبخت - موسى ويوسف ابني خالد - ابا الحسن علي بن يزيد التميمي - حسن بن سهل الفلكي - البلاذري - جبلة بن سالم كاتب هشام - اسحق بن زيد - عمر بن قريظ - وسواهم^٣. ولو ان المقام يقتضي الاسهاب في ذكر أعمالهم وشرح ما نقلوه لذكرنا هنا الكتب التي نقلوها كتاباً كتاباً ولكن ذلك ليس غرضنا هنا.

٤ - في العلاقة الجغرافية والتاريخية التي نراها بين الفرس والجاهلية . من ذلك ان مملكة الحيرة العربية كانت مركز النفوذ الفارسي بين عرب الجزيرة ، وان ذلك اقتضى أن يكون بين الجنسين احتكاك أدبي اجتماعي . ومما يشير الى هذا الاحتكاك ما ذكره القفطي^٤ عن الحارث بن كلدة طبيب العرب ان أصله من ثقيف من أهل الطائف وقد رحل الى فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار . من أهل جنديسابور وغيرها . ومن يدري انه لم يكن غير الحارث من عرب الجاهلية الذين رحلوا الى فارس في طلب العلم ؟ وهذه الصلة الادبية لم تنقطع بظهور الاسلام فان

١ الفهرست (ل) ٣١٣ - ٣١٦ .

٢ Iranian Influence on Moslem Lit. (Tr. Nariman ٢ 1918) p. 53

٣ الفهرست ٢٤٤ .

٤ أخبار الحكماء ١١٣ .

انتشار العرب بالفتح في الاقطار الفارسية جعل احتكاكهم بالفرس أشد مما كان قبلاً . ومع ان القسم الكبير من كتب الفرس ذهب بعد انحلال دولتهم فقد حافظ المجوس على عدد مهم منها بقي في الدولة العباسية الى أيام عبدالله بن طاهر الذي أطلق يد التلف فيها^١ . والذي يدقق في تاريخ فارس يرى ان الآداب والعلوم والتقاليد الوطنية الفارسية بقيت سالمة بعد الفتح الاسلامي في الولايات الشرقية والجنوبية كخراسان وفارس ، ويدلنا على ذلك ان خراسان كانت بؤرة الحركات السياسية التي أدت الى اسقاط الامويين .

أما ولاية فارس (وهي في جنوبي ايران) فقد كانت حصن المجوس . هناك حُفِظت كتبهم ومعتقداتهم الدينية والفلسفية وكان بعض مؤرخي العرب يرجعون اليهم^٢ . وقد وصف جغرافيو العرب كالاخطري وابن حوقل والمقدسي وياقوت واليعقوبي تلك البلاد وصفاً يدل على ان المجوس (اتباع زرادشت) كانوا يتمتعون بالحرية الدينية في ولاية فارس ، وانهم كانوا لا يزالون محافظين على الشيء الكثير من الكتب الفارسية القديمة .

وهنا لا يسعنا الا أن نذكر « الشعبية » وهي جماعة من أصل عجمي كانت طبعاً تتعصب للمعجم وتفضلهم على العرب . ولا شك انها كانت من حملة الروح الفارسية الى اللغة العربية ، وكذلك كانت الزنادقة الذين كانت يُستهم بمذهبهم بعض من أكابر الادباء والشعراء كبشار وابن المقفع وسواهما . وكانت الزنادقة تطلق بالاكثَر على المجوس أو الثنوية^٣ ، أي على اتباع زرادشت أو اتباع ماني الحكيم وكلاهما فارسيان .

١ Browne, Lit. Hist. of Persia (1928) I - 347

٢ Iranian Influence 21, 25, 26

٣ عن لسان العرب والقاموس .

يصعب تعيين السبيل الذي جرى فيه الفكر الهندي إلى نفوس الناطقين بالعربية ولكن بما لا ريب فيه انه كان للفلسفة والعلوم الهندية تأثير شديد في تكوين الفلسفة العربية . وقد تقدم معنا ان مدرسة جنديسابور كانت قبل الاسلام ، وخصوصاً في أيام كسرى انوشروان ، مركزاً علمياً التقت فيه علوم الهند بعلوم اليونان ، ومنه حمل الشيء الكثير إلى العرب . ونلمح شيئاً من العلاقة الفكرية بين الهند وأمم الشرق الأدنى قديماً في ما القاه سكرتير المتحف التجاري في فيلادلفيا على الجمعية الفلسفية الاميركية حيث يقول ان الهنود كانوا يرسلون سفراء إلى سلوقية وانطاكية واسكندرية وغيرها ، وكان هؤلاء السفراء أيضاً دعاة دينيين^١ . على ان احتكاك العربية بالعقلية الهندية لم يبلغ كماله إلا بعد الاسلام ، فان امتداد العرب بالفتح قرّب العناصر الهندية من العناصر السامية العربية وجعل بينها علاقة كبيرة في التجارة والعلم والدين .

من أيام بني أمية إلى أيام محمود بن سبكتكين (أواخر القرن الرابع للهجرة) كان الفتح الاسلامي باباً لتسرّب المبادئ الفلسفية الهندية إلى نفوس العرب . وقوام الفلسفة الهندية التي ظهر أثرها في تاريخ الفكر العربي الزهد والفناء الروحي ، وقد انتشرت هذه المبادئ الروحية بانتشار البوذية في ولايات ايران الشرقية واحتكاكها هناك بالاسلام بعد الفتح^٢ . وإذا اعتبرنا ما أخذه افلاطون وفيثاغورس من فلسفة الهنود يحق لنا أن نقول ان شيئاً من فلسفة الهنود وتعاليمهم وصل إلى العرب عن طريق اليونان أيضاً .

وفي فهرست لابن النديم ذكر الكتب الهندية المشهورة والذين نقلوا

Early Communication Between China and the Medit. ١
(1921)

Moore, Hist. of Religion 447 ٢

منها إلى العربية، ومنها كتب الطب والخرافات والأسماء والاحاديث، والتوهم أو السحر، والمواعظ والحكم، ومنها كتاب ملل الهند واديانها^١. وجاء فيه نقلاً عن الكندي: «حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وإن يكتب له أديانهم فكتب له هذا الكتاب». قال محمد بن اسحق: «الذي عني بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة، واهتمامها بأمر الهند واحضارها علماء طبها وحكامها^٢». ويذكر الجاحظ عن لسان أبي الأشعث أن يحيى بن خالد اجتلب أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندبار وفلان وفلان^٣.

والخلاصة أن مجرى الفكر العربي له روافد ثلاثة كبرى، اليونان وهو أهمها ثم الفرس والهند، وأن ما اكتسبه العقل السامي العربي من هذه المصادر غير السامية أيقظ فيه حركة قوية ظهرت ثمارها الفلسفية والعلمية في إبتان التمدن الاسلامي. وسنشير إلى كل من هذه المصادر في سياق كلامنا على المجاري الرئيسية في حياة العرب الفكرية.

المجاري الفكرية العامة

للمحركة الفكرية عند العرب ثلاثة مجاري كبرى: الفلسفة والكلام والتصوف. وغاية الفلسفة التوصل إلى المبادئ الأولى عن طريق العلم، وأصحابها في الغالب اتباع اليونان، وتجد لهم في الشعر العربي نفثات تم على آرائهم كقصيدة ابن سينا في النفس التي يقول فيها^٤:

١ الفهرست (ل) ٣٠٥ و ٣١٥ - ٣١٧.

٢ الفهرست ٣٤٥.

٣ البيان والتبيين (س) ١ - ٩٠.

٤ راجعها في دائرة المعارف للبستاني تحت: ابن سينا.

هبطت اليك من المحلّ الأرفع
محجوبة عن كل مُقلة عارفٍ
وصلت على كره اليك وربما
أُذِفَت وما أُلِفَت فلما واصلت
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى
ومنها :

فلأيّ شيء أهبطت من شاطئ
إن كان أهبطها الاله لحكمة
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدّما
فكانها برقٌ تالت بالحمى
سامٍ إلى قعر الحضيض الأوضع
طويت عن الفطن اللبيب الأروع
قفصٌ عن الأوج الفسيح الأرفع
ثم انطوى فكانت لم يلمس

وفي الشعر العربي كثير من الاشارات الفلسفية والاضاع العلمية التي
كانت شائعة في العصر العباسي .

كقول ابي القاسم الاصفهاني يصف حماماً في دار صديق له ١ :
ودخلت جنته وزرت ججيمه
والبشر في وجه الغلام نتيجة
وقول ابي علي المهندس ٢ :

تقسّم قلبي في محبة معشر
كان فؤادي مركز وهم له
بكل فتى منهم هواي منوط
محيط وأهوائي لديه خطوط

ولم ينحصر ذلك في أقوال العلماء والفلاسفة بل تعدّاهم إلى أهل الادب ،
كقول المتنبي مشيراً إلى اختلاف المفكرين في مصير النفس :
تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجبٍ والخلف في الشجب

١ الففطي ٢٢٤ .

٢ الففطي ٢٦٧ .

فقبل تخلص نفس المرء سالمةً وقبل تشريك جسم المرء في العطب
وقوله ذاكرأ فلاسفة الاقدمين :

مَنْ مبلغ الأعراب اني بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارسَ كتبه متملكاً متبدياً متحضراً
ولقيت كلَّ الفاضلين كأنما ردة الإله نفوسهم والاعصراً
وقول المعري في عالم الافلاك :

العالم العالي برأي معاشر كالعالم الهاوي بحسّ ويعلم
زعمت رجال ان سياراته تسيق العقول وانها تتكلم
وقوله - أركان دنيانا غرائز أربع جُمِلت لمن هي فوقنا أركاناً
وقوله - في مصير الروح :

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
ان كان يصحبها الحجي فلعلها تدري وتظن للزمان وعته
أو لا فكم هذيان قوم غابر في الكتب ضاع مداده في كتبه
وللمعري كثير من النفثات الفلسفية وسترى ذلك في حينه .

ولو تحررنا جميع ما دخل الشعر العربي من هذا الباب لعرفنا ما كان
للفلسفة والعلوم الطبيعية من التأثير في الأدب . وقد كنا نود ان نثبت هنا
زبدة الآراء الفلسفية التي اقتبسها العرب عن سواهم ولا سيما عن افلاطون
وأرسطو والافلاطونية الجديدة . ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إليها ونحيل
المتعمق إلى مصادرها الرئيسية .

أما الكلام فجاء شتى فخص منها بالذكر المعتزلة والأشعرية .

المعتزلة

ظهر الاسلام فاعتنقه العرب وامتد بالفتح الأولى إلى غير العرب ، ولم

يكن كل الذين اعتنقوه وقاموا بفروضة ونوافله في درجة واحدة من خلوص الايمان والاعتقاد ، بل كان شأنهم في ذلك شأن المسيحيين أيام قسطنطين الكبير . فان انقلاب الدولة الرومانية بغتة من الوثنية إلى المسيحية ليس بدليل على ان كل الذين دانوا يومئذ بالدين الجديد استأصلوا من أعماق نفوسهم مبادئ مذاهبهم الأولى ، بل بقي بعضهم محافظين باطناً على معتقدات غير مسيحية لم تلبث أن ظهرت في تاريخ المسيحية واشتد خطرها على المبادئ الحقيقية ، حتى كان ما كان من الإصلاح ، وما نجم عنه من التطورات الجديدة .

هكذا الاسلام اعتنقه كثيرون من بقي في نفوسهم أثر من غيره ، ولكن ذلك الأثر لم يظهر إلا بعد ان صلح له الجو ، ولا سيما بعد ان خرجت الدولة العربية تدريجياً من بساطتها الأولى إلى حياة الحضارة والعلم . هذه أمور ليس بالهين إقامة الدليل التاريخي عليها لأنها من قبيل العوامل الخفية التي ندرکها بالاجتهاد والاستنتاج ، ولكن لا بد من ذكرها قبل التبسط في الحقائق الراهنة . والذي لا جدال فيه انه في الدولة الأموية بدأت تبشير حركة فكرية لم تعهد في أيام الراشدين ، وما ذلك إلا لأن العقل كان قد بدأ يستنير بأنوار جديدة . وصحب هذه الاستنارة تطورات فكرية - منها حركة المعتزلة التي نحن بصدها . وأول معتزليٍّ حسب النص التاريخي هو واصل بن عطاء وكان من أتباع الحسن البصري ، ثم أخذ مذهبه في الانتشار حتى بلغ إبطانه في أيام المأمون العباسي ، ولكنه عاد إلى التقهقر والضعف حتى قضى عليه ، ولم يعد إلى الظهور كمذهب خاص .

والمعتزلة ، على اضطراب كثير من نظرياتها ، تحاول اخضاع النظريات الدينية لحكم العقل . وهي بلا ريب نتيجة منطقية لاحتكاك الفلسفة بالدين . فقد جاء الاسلام وتعاليمه واضحة ونصوصه محدودة ، وهي مبنية كسائر النصوص الدينية على التسليم لله والايمان بوحية المنزل . ولم يخامر قلوب المؤمنين الأولين شك فيها ولا شغلهم بمحت عن أسرارها ، فلم يهمهم ازاء

تقواهم البسيطة الخالصة من شوائب الريب ان يحكموا النقد العقلي في كل ما آمنت به قلوبهم واطمأنت اليه نفوسهم - وتلك مزية الايمان الراهن . وانك إذا استقصيت أخبار الدعوات الدينية وجدته من الصفات الملازمة للدعاة الأولين . فلما لعبت في الجو الاسلامي رياح الفلسفة ، وتسرب إلى العقول شيء من نظريات الحكمة اليونانية^١ ولا سيما المشائية شرع المفكرون يبحثون ويقيسون ويقولون علامَ ولمَ ؟ فقادهم ذلك إلى مسائل أبعدتهم عن بساطة المعتقد المبني على التنزيل^٢ . من هذه المسائل - مسألة خلق القرآن ومسألة صفات الله ، وحرية الارادة ، وقدم العالم وكيفية المعاد وما شاكل . وقد رفض المعتزلة أزلية القرآن وجعلوه مخلوقاً^٣ ، وكانت من أهم أنصارهم في ذلك المأمون وأمره مشهور .

وكذلك نفوا الصفات الالهية وهي العلم والحياة والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام . قال ابن خلدون في كلامه عن المعتزلة : « فقصوا بنفي صفات المعاني لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم » ذلك لأنهم نظروا إلى الصفات كموجودات يلزم عنها تحديد وجود الله المطلق وهذا عندهم منافي للاحكام العقلية .

على ان منهم من لم ينكر صفات الله وانها سرمدية بل ذهب مذهب العلاف (المتوفى ٥٢٣هـ) في ان صفات الله ليست بشيء خارج عن جوهر الله بل هي اشكال يتشكل فيها ذلك الجوهر . وكان يقول ان علم الله هو الله ، وان قدرة الله هي الله^٤ . فالارادة مثلاً ليست صفة خارجية يتصف بها الخالق بل هي صورة أخرى لعله ، وهكذا جميع الصفات

١ راجع الكلام عن النظام في كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى ١١٣ . وعن الجاحظ في الملل والنحل للشهرستاني .

٢ فقد العلم والعلماء ٩٠ (مصر ١٣٤٠) والبغدادى ٩٤ .

٣ مقدمة ابن خلدون ٤٦٤ وفلسفة ابن رشد ٥٧ .

٤ راجع مقدمة ابن خلدون تحت : علم الكلام .

٥ فقد العلم والعلماء ٨٨ .

مظاهر مختلفة لجوهر واحد . وقد زاد على ذلك أحد أئمتهم ابراهيم النظام المتوفى ٥٢٣١ هـ ، فقال ان الله لعله السرمدي بالخير لا يريد غيره - ان ارادة الله هي علمه . فالطلق عندهم (الله) لا يوصف بنفي ولا اثبات ، فلا يقال هو واحد أو أكثر . ولا يوصف بالقدم عندهم غير الله . ومع ان بعضهم أثبتوا لله أحوالاً أربعة هي العالمية والقادرية والحيلية والموجودية ، فقد فرقوا بين الثبوت والوجود بالذات وقالوا انها موجودات غير موجودة ^١ : فكأنهم يعنون بذلك ان هذه الصفات حالات تظهر فيها الذات لصفات زائدة عليها . وهذا قريب من مذهب ابي هاشم الجبائي المتوفى ٥٣٢١ هـ ، إذ جعل لجوهر الله أحوالاً شتى يظهر فيها . ومع ان هذه الاحوال لا توجد بنفسها ولا تتصور بدون الجوهر فهي تمتاز عنه وبها يعرف الجوهر ^٢ . ومنهم من يذهب إلى أن الله يعلم جمل الاشياء ولا يعلم تفاصيلها وانه لا يقدر ان يخلق الذات ، وإنما هو قادر أن يخرجها من العدم إلى الوجود ^٣ .

فالمعتزلة في ذلك تخالف الصفاتية ، أي التي تثبت الصفات لله . والارادة عندهم حرة ، وقد فسّر الجاحظ (وهو معتزلي) الارادة بأنها حال من أحوال المعرفة ، وحرية العمل أو الارادة أن يعرف العمل من فاعله . فالانسان عند المعتزلة مخير لا مسير ، وهو مسؤول عن أعماله ، وانه على اكتسابه يترتب العقاب والثواب ^٤ .

ويضادّهم في ذلك الجبرية . وهم يقولون لا علة ولا معلول في الاشياء التي نراها أو نشعر بها ، لأن كل شيء مسبّب مباشر عن الله . فاذا نعست فالنعاس وُضع فيّ بعمل خاص من الله ، وإذا كتبت فتحرّيك القلم وارادة الكتابة وما يتعلق بها قد اتصلت بي رأساً من الله . فلا

١ شرح تهذيب الكلام ١١١ .

٢ الملل والنحل للشهرستاني هامش ابن حزم (مصر ١٣١٧) ١ - ١٠٢ .

٣ نقد العلم والعلماء ٨٨ .

٤ فلسفة ابن رشد ١٠٥ .

دافع لما يريد الله ، وما الانسان إلا واسطة لتنفيذ ارادة الله^١ . وعلى ذلك الأشاعرة الذين يذهبون إلى ان الله يخلق كل عمل . وزاد عليهم الباقلاني تطرفاً بقوله بل الله يحدد كل شيء (حتى اللون مثلاً) كل لحظة . فما يفعله الله الآن وما يخلقه قد يحمي في اللحظة التالية ما يناقضه - كل شيء ، كل عمل ، كل حركة في الكائنات متوقف مباشرة على ارادة الله .

هذه التعاليم التي تُرجع كل شيء إلى ارادة الله مباشرة تبرز لنا شريعة القضاء والقدر في أعظم مظاهرها . وليست المعتزلة على ذلك ، لأن القول بحرية الارادة وبمسؤولية الانسان يناقضه . وحبّتهم انه لو كان العبد غير خالق لأفعاله الاختيارية لكان القول بالثواب والعقاب لنواً .

قديم العالم

وهذه المسألة نراها في كل نظام فلسفي ، فالفلسفة المادية مثلاً تجعل العالم قديماً (أي ازلياً لا بداية له) والروحية تجعله محدثاً . وواضح ان الدين والكلام يذهبان إلى حدوث الكون بقدرة الخالق المبدع المريد . فما قول المعتزلة في هذا الشأن ؟ قال ابن رشد في كلامه عن المعتزلة^٢ : « واما المعتزلة فانه لم يصل إلينا من كتبهم في هذه الجزيرة (الاندلس) شيء نقف منه على طريقهم في هذا المعنى ويشبه ان يكون طريقهم من جنس طرق الاشعرية » . فكأنه يقول ان المعتزلة والاشعرية سيّان في نظرهما إلى قدم العالم . فانهم وسائر المتكلمين سواء في هذا الصدد ، إلا ان نظرهم إلى الله غير نظر أهل السنة . فهم أميل إلى جعله مصدراً للعقل الفعال الذي تفيض منه عوالم النفس والطبيعة . وهذا يجعل الجنة والخلود والجحيم في نظرهم غير الأحوال المحسوسة التي يصورها الدين . ولا ريب

١ الشهرستاني هامش ابن حزم ١ - ١١٠ .

٢ راجع فلسفته ٤٥ .

ان للفلسفة اليونانية تأثيراً ظاهراً في مبادئهم ، فالقول في أزلية صفات الله وتفسيرهم تلك الصفات بأنها هي نفس جوهر الله أو انها اعراض لجوهر واحد ، وقول شيخهم النظام ان النفس مجسم الجسد وعلى شكله تتخلل دقائقه كما تتخلل الزبدة دقائق اللبن ، مأخوذ من قول ارسطو في المادة وصورتها . وقول معمر السلمي في صفات الله يقود إلى القول بالشمول (أي ان الله والعالم واحد) الذي هو أثر من آثار الافلاطونية الجديدة مصبوغ بالصيغة الهندية . واما نظرية بعضهم ان الله لمعرفته الكلية بالخير لا يستطيع ان يريد غيره لعباده فيقرب ان يكون نفس ما علّم به الرواقيون^١ . وللنظام رأي في^٢ الحق يكاد يكون نفس الافلاطونية الجديدة . والخلاصة ان الاعتزال مبدأ فكري يحاول ان يستنير بالعقل ويُخضع كل شيء لأحكامه ، لكنه أراد ان يجمع بين العقل والنقل متمسكاً بكليةها فلم يوفق تماماً ، ولذلك كثر اضداده ومنتقدوه .

الأشعرية

وهم ينتسبون إلى أبي حسن الأشعري المتوفى ٩٥٣ م ، وكان من تلامذة المعتزلة في بغداد ولكنه لم يبق كذلك بل انقلب عليهم وصارت فرقته أشد الفرق في منازلتهم^٢ ، واليك بعض أوجه النضال بين الفرقتين .

في ماهية الله

كان الجمهور من المؤمنين ينظرون إلى ما ذكره الكتاب المنزل عن أعضاء الله الجسدية كاليد والعين والاذن نظراً حرفياً . أما المعتزلة فانخذت

١ راجع النظامية في الفرق بين الفرق ١١٣ والبهشية ١٦٩ .

٢ ابن خلكان ١ - ٣٢٦ .

ذلك من قبيل التأويل ، فقالوا لا يد حقيقة الله وإنما هي إشارة إلى قوته وبسطته ، وهكذا فسّروا سائر الاعضاء . فقام الأشعري وعلم أن الله لا يمكن رؤيته في الآخرة وإن له سمعاً وبصراً ويدين ووجهاً الخ ، ولكن ماهية تلك الاعضاء خارجة عن معقول الانسان أو هي وراء العلم^١ .

المعاد

ذهبت المعتزلة إلى أن الدليل العقلي هو الهادي الذي يهديننا إلى معرفة ما وراء الطبيعة^٢ ، وأن حالة النفس من عذاب أو نعيم إنما هي حالة عقلية لا جسدية . فقال الأشعري بل العقل لا يستطيع الهداية ، فما علينا إلا التصديق والايان بالوحي المنزل وأن الأمور التي ذكرها الكتاب كجلوس الله على العرش والحوض والموقف والفردوس والملائكين المنكر والنكير وما شاكل - كل ذلك حقيقة راهنة لا صور خيالية كما يدعي المعتزلة .

صفات الله

وفي هذا الباب يسلك الأشعري مسلكاً وسطاً بين السنة والمعتزلة فهو يقول بصفات الله وقدّميتها على أن تلك الصفات اشكال أو تكيّفات لجوهره ، فلا هي عين ذاته ولا هي غيرها^٣ .

رأيه في القرآن

سلك في ذلك مسلكاً أصبح معوّل أهل الكلام ، وهو أن القرآن

١ الشهرستاني هامش ابن حزم ١ - ١٣١ و ١٣٢ .

٢ راجع مناقشات ابن تيمية في ذيل فلسفة ابن رشد ٨ .

٣ أو كما يقولون هي منه بنسبة الواحد إلى العشرة فهو ليس بالعشرة ولا غيرها .

كلام نفسي قديم غير مخلوق ، وإنما المخلوق هو الصور اللفظية لذلك الكلام النفسي .

الجبر والاختيار

(القضاء والقدر وحرية الارادة) . ليس عند الاشاعرة من ارادة حرة . فالله (القديم الازلي) عندهم هو المطلق المدبّر لكل حركة - خالق الانسان واعماله وما الانسان إلا آلة في يد الله ، مستيراً عقلاً وجسماً بآرادته الالهية ، وليس له من عمل إلا الكسب - وهو كما في القاموس « تعلق قدرة العبد وآرادته بالفعل المقدور » أي تطبيق ارادة الله على العمل . وهذا طبعاً يقود إلى الاعتقاد بأن الله خالق الخير والشر ، وهو مخالف لمبدأ النظام المعتزلي القائل بأن الله لا يستطيع ان يريد غير الخير ، وان الخير والشر يدركهما الانسان بالعقل وعلى ذلك فهو مسؤول عن أعماله .

ومبدأ الاشعرية ينفي نظام السببية المادية ، لأنه يجعل الله علة كل شيء ، صغيراً كان أم كبيراً ، جسدياً أم عقلياً . فاذا مسست النار مثلاً لم تحرقك النار لأن الحرق من طبيعتها ، بل لأن الله يخلقه عند مسك إياها . وعليه لا يستغرب أو لا يستحيل ان يجعلك تشعر بالبرودة عند مسك النار . لان نوع الحس راجع رأساً إلى ارادته فما العجائب اذن بخوارق لنظام الكون ، بل هي من أعمال الله غير المألوفة عندنا .

قلنا ان المبدأ الاشعري معول أهل الكلام . والنضال الذي احتدم بين الاشعرية والمعتزلة انتهى بانتصار الاولى ، ولم ينقض القرن الرابع للهجرة حتى انقرض معه عصر المعتزلة .

التصوف

تباينت الآراء في أصل هذه الكلمة فذهب بعضهم إلى انها من صفاء النفس ، وهو قول المتصوفة . وقال غيرهم بل هي من أصل يوناني معناه

الحكمة . على ان ابن خلدون يرى كما يرى كثيرون غيره ان اشتقاق اسمهم من الصوف^١ .

كان المؤمنون الأولون من الصحابة والتابعين معروفين بالقناعة عاكفين على الصلاة والعبادة معرضين عن زخرف الدنيا وزينتها ، فلما تقدم المسلمون في الحضارة ومالوا إلى الترف في العصر الأموي وما بعده ، نشأت بين أهل الدين حركة مرماها الرجوع إلى بساطة الايمان الاولى ونبذ الشهوات العالمة . على ان هذه الحركة لم تكن إلاّ توطئة للتصوف الحقيقي الذي عرف بعدئذ . فانتا نراه في ابانه نظاماً روحياً خاصاً يمت بشيء من القرابة إلى أنظمة روحية سابقة . فما هي هذه الانظمة ؟ قال المستشرق فون كيرير^٢ ان اصل الصوفية عربيّ يرجع إلى نظام الزهد والتنسك الذي كان شائعاً في المسيحية قبل الاسلام . والدليل على ان عرب الجاهلية احتكوا بزهاد المسيحيين وعرفوهم ، ما ورد في أشعارهم عنهم .

والذي يظهر لنا ان في كلام فون كيرير بعض الحقيقة لا كلها . فقد يكون نساك المسيحية المثال الذي تحذاه متصوفو الاسلام ، ولكن النظام اللاهوتي الصوفي لا يقف عند ذلك ، بل يرجع إلى مصادر يونانية وهندية وفارسية . فالافلاطونية الجديدة التي مرّ ذكرها آنفاً كانت قد خّرت الحركة الفكرية الشرقية بكثير من المبادئ اللاهوتية ، ومنها التجسد ، وعودة النفس الى أصلها (العقل الفعال أو الله) . أما الاثر الهندي في التصوف فتراه واضحاً في فكرة الاتحاد الروحي . فالفلسفة الهندية تعلّم ان الروح الاعظم والعالم المادي واحد (وحدة الوجود) وكل ما في العالم يجري من ذلك الروح واليه يعود - هو الوجود الساطع الذي يرى في قرص الشمس

١ راجع المقدمة الصوفية لابن الوردی ومقدمة ابن خلدون ٤٦٧ ودائرة المعارف البريطانية تحت Sufism . ويظهر ان لبس الصوف قديم في الاسلام فقد ذكره ابن قتيبة في عيون الاخبار وارجعه إلى زمن الحسن البصري .

O'leary, Arabic Thought (1922) 185 ٢

كما يرى في عين الانسان . هو النور الوضاء الذي يضيء في السماء وفي الارض وفي نفس الانسان ، وهو الذات العاقلة الخالدة السعيدة .

على ان الرجوع إلى الروح الأعظم يقتضي فهم اسفاره المقدسة (الفيدا) وممارسة الطقوس والعبادات الخاصة ، ولا سيما مراسيم التقوى والتوبة . وإنما يطهر العقل من كل فساد بممارسة الفضيلة من غير النظر إلى ثواب . ولا يستحق الاتحاد بالروح الاعظم (برهما) الا الذي يتصف بالصفات التالية :

- ١ - التمييز بين ما يبقى وما يفنى .
- ٢ - عدم الاكتراث لثواب أو مسرة .
- ٣ - الحصول على السكوت التام وضبط النفس .
- ٤ - الرغبة في الخلاص .

فهناك شبه بين الاتحاد الصوفي والفناء الهندي « النرفانا » ، ولكن الاختلاف بينهما يتن ، لأن الاول يقضي باستقلال ذاتية النفس في الوجود الاعظم ، وان يكن قد توغل بعضهم في القول بالوحدة^١ ، والثاني يقول بتلاشيها . وسترى في شرح الصوفية بعد أن فيها أثراً كبيراً من التعاليم الهندية التي كانت منتشرة في بلاد المعجم والهند قبل الاسلام ، والتي جعلت للتصوف صبغة غير الصبغة الزهدية التي عُرِف بها أتقياء المسلمين الأولين . هؤلاء لم يؤسسوا لاهوتاً جديداً ولا خرجوا عن نصوص القرآن في ماهية الله وحالة النفس بعد الموت .

أما الأثر الفارسي فقد ذهب بعضهم إلى انه يرجع إلى المانوية والمزدكية اللتين كان للزهد فيها شأن يذكر^٢ . ولعل أهم أثر فارسي في الصوفية وفي سواها من الحركات الفكرية في الاسلام ان الذين قاموا

١ راجع مقدمة ابن خلدون ٤٧٢ و ٤٧٣ .

٢ Arabic Thought, p. 190

بهذه الحركات أكثرهم من أهل فارس ، فهم ورثة العقلية الفارسية التي كانت قد تأثرت من تعاليم الهند ومن تعاليم الرعماء الروحانيين ، كما في الحكيم وسواه . وماني ثنوي ، وخلاصة تعليمه كما شرحه ابن النديم^١ : ان للكون مبدأين : النور والظلمة ، ولكل من هذين المبدأين أجزاء ، وباشتباك الاجزاء النورانية بالأخرى حدث الكون ، فالخلاص (أو السعادة) قائم على تطهير العالم من أجزاء الظلمة المشتبكة بأجزاء النور . وسيظهر أثر ذلك في الصوفية .

يؤخذ من تعاليم أئمة المتصوفين ان نقطة الدائرة في نظامهم هي الوحدة^٢ أي اتحاد النفس بالله . وهذا المبدأ يوافق المبدأ الهندي كما مرّ معنا ، والمبدأ اليوناني (الافلاطونية الجديدة) ، إلا انه يختلف عن هذا بأن الحصول على الوحدة لا يتوقف بالاكثّر على العقل بل على التقوى وقمع الشهوات . قال الجنيد البغدادي : « التوحيد معنى » تضمحل فيه الرسوم وتندرج العلوم ويكون فيه الله كما لم يزل^٣ . وأخذ عنه الحلّاج المتوفى ٣٠٩ هـ وذهب مذهب الغلاة من الشيعة ، وقال بالحلول أي حلول الله في الاجسام وبالتناسخ ، وقد قُتل بافتاء أكثر علماء عصره^٤ .

وفكرة الحلول ظاهرة تماماً في كلام ابي زيد البسطامي وهو أول من قال بالفناء^٥ ، أو الذي خطا الخطوة الاولى من التصوف إلى الحلول^٦ . ومن مبادئهم ان الله هو الموجود الحقيقي - لا وجود حقيقي سواه (افلاطونية) ، ولكن في الانسان نفساً عاقلة هي صورة معكوسة عن

١ الفهرست (ل) ٣٢٧ - ٣٣٨ .

٢ ابن خلدون ٤١٣ .

٣ الرسالة القشيرية (مصر ١٣٣٠) ١٣٥ .

٤ ابن خلكان ١٠ - ٢٠٦ وابن النديم ١٩٠ .

٥ دائرة المعارف البريطانية تحت Sufism

Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, p. 390

نفس الله ، وهي قادرة ان تقترب من الحقيقة الالهية . وبما انه لا وجود حقيقي لغير الله فعرفة الله لا تحصل بواسطة مادية (بالكسب أو الدليل) بل بإلهام روحي ، ان هذا الالهام يحصل في حالة التجرد عن الدنيا . ومع انه لا وجود حقيقي لغير الله نجد هذا الوجود ممتزجاً بغير الحقيقي . وهذا الامتزاج أساس العالم المادي (قابل ذلك بالمناوية) . فالشر نتيجة لازمة لامتزاج هذين الوجودين . وغاية النفس الاتحاد بالله ، وكل ما يساعد على بلوغ هذه الغاية فهو صالح ، وكل ما يحول دونها فهو شرير (وبهذا تتفق جميع الاديان والمذاهب) . وهذا الشوق إلى الاتحاد بالحقيقة الالهية هو الحب الذي يتغنى به الصوفيون ، ويجعلونه أساس إيمانهم (راجع اشعار ابن الفارض أكبر شاعر متصوف عند العرب) .

ومن أكبر المتصوفين عند العرب محيي الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ . كان أولاً من أتباع ابن حزم المشهور . واما في تصوفه فيظهر مبدأ الحلول والوحدة تمام الظهور . فمن أقواله في الله :

« فلذلك قال تعالى أنا عند ظن عبدي بي - أي لا أظهر له إلا - في صورة معتقده فان شاء اطلق وإن شاء قيد . فإله المعتقدات تأخذه الحدود وهو الاله الذي وسعه قلب عبده ، فان الاله المطلق لا يسهه شيء ، لأنه عين الاشياء وعين نفسه . والشيء لا يقال فيه يَسَعُ نفسه ولا يسعها » ٢٥١ .

ومن شراح ابن العربي عبد الرزاق المتوفى ٧٣٠ هـ ، وهو يقول بحرية الارادة لأن النفس البشرية عنده فيض من روح الله ، فهي تشارك الله في القدرة على الاختيار ، وان العالم على أحسن ما يمكن أن يكون ، وان الاشياء ستفنى أخيراً في وجود الله الكائن الحقيقي الوحيد . ويقسم البشر

١ . فلسفة ابن رشد ٤٤ ، ومقدمة ابن خلدون (التصوف) .

٢ خاتمة كتاب « نصوص الحيك » لابن العربي .

إلى ثلاثة أصناف وهم :

العالميون - أي محبّو الذات الذين تدور حياتهم حول نفوسهم وهؤلاء لا يكثرثون للدين والمبادئ الروحية .

العقليون - وهم أهل الفكر الذين يرون الله بنور العقل في مظاهر الوجود .

الروحيون - وهم الذين يرون الله بالكشف أي بإلهام روحي يوافيهم من الحضرة الربانية .

* * *

والخلاصة ان الصوفية بدأت مظهرأ من مظاهر الورع الديني ، ولكنها انتهت في غُلّاتها بتعاليم بعيدة عن تعاليم السنّة . ومحور مذهبهم الكشف الرباني بالتجرّد عن العالم وبالحب الالهي . وقد علق عليهم من تعاليم الهند والروم الوحدة والحلول والفناء في وجود الله ، على انهم تمادوا في مسألة الكشف والكرامات إلى حد ان بعضهم صار يستعمل لذلك طرق الشعوذة والسحر والتدليس .

من أراد التوسع في درس الحركة الفكرية في هذا العصر فليراجع :

Browne, Lit. Hist. of Persia	برون
Le Dogme et la Loi	كولدزير
O'Leary, Arabic Thought	اوليري
Carra du Veau, Les Penseurs de l'Islam	كارا دي فو
Nichelson, The Mystics of Islam	نكلسون
الملل والنحل	- ابن حزم
الملل والنحل	- الشهرستاني
الفرق بين الفرق	- البغدادي
نقد العلم والعلماء	- ابن الجوزي
المقدمة	- ابن خلدون
	دوائر المعارف المختلفة

القسم الثاني

الشعر في العصر العباسي



مزايه - أمراؤه (دراسات تحليلية وانتقادية) - المختار من دواوينهم

بحث تمهيدى

في

خصائص الشعر العباسي

إذا وازنت بين الشعر القديم والشعر المولّد فلا شك انك تجد في الاخير اثر التقدم ظاهراً للعيان ، على ان ذلك لم يبلغ به مبلغاً يخرج به عن المناهج التي اختطها الاقدمون . خذ الوصف مثلاً فانك تجد عريقاً في الشعر يرجع إلى ما قبل الاسلام . على انه كان قديماً ينحصر في البداوة وما يشاكلها ، فصار - بعد ان اتسع الأفق العمراني لدى المسلمين ، وبعد ان طما ببحر الرفه على بغداد وسواها من حواضر العصر العباسي - يتفنن في نعت أسباب الحضارة كالقصور والبرك والجنائن والولائم والجيوش والمراكب . ومثل ذلك تفتنه في الحمر وأنواع الغزل والمديح ، وما إلى ذلك من ضروب النظم . ولا ينكر ان المولدين فاقوا الاقدمين في ذلك ، ولكنهم لم يبتدعوا أساليب جديدة أو مواضيع جديدة تجوّز لنا ان نقول ان الشعر طرأ عليه في زمانهم تطور كبير .

والشعر نوعان رئيسيان : وجداني وموضوعي . فالوجداني يدور على نفس الشاعر - على تأثره من أمر ما ، واظهار ذلك التأثر بالكلام المنظوم .

ومن ذلك مدحه لأميّره ، أو تنزّله بفتاته ، أو هجاؤه لعدوّه ، أو وصفه لما تقع عليه عينه ، أو تحريضه على ما يشعر بصلاحه .

أما الموضوعي فيدور على شيء خارج عن نفسه - على صفات يتخيّلها أو يراها فيما حوله من ظواهر الطبيعة أو النظر في حياة الانسان ، وما إلى ذلك من المواضيع الاخلاقية والادبية التي تمثّل للجمهور ما يشعر به في الحياة ، أو تحمّلهم على أجنحة الخيال إلى ما وراء المحسوسات ، فتثير فيهم حب الجمال وتدفعهم في سبيل الكمال .

وأنت إذا رجعت إلى معظم دواوين الشعر في العصر العباسي ، ثم دققت في المقاييس الأدبية التي وضعها علماء البلاغة ونقّدة الشعر أمثال قدامة والاصفهاني والآمدي والمسكري والثعالبي والجرجاني وابن الاثير واضرايهم ، رأيت ان التجدد الشعري في العصر العباسي لم يتعدّ في الاغلب صناعة الشعر ، وانه منحصر في الوجداني منه . وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر :

(١) رقة العبارة .

(٢) التفنن في المعاني .

(٣) التوفّر على البديع اللفظي .

وقد يضاف إليها التوسع في المصطلحات اللفظية .

على انه من الانصاف ان نقول ان الشعر المولّد يمثل لنا أيضاً تجديداً في الناحية الروحية من الشعر ، ناحية الزهد والورع والاصلاح - وتلك حركة خاصة سنتناولها في غير هذا المقام .

رقة العبارة

وحكمنا من هذا القبيل اجمالي لا حصر فيه . فلا المهد القديم يتفرّد بمخشونة الاسلوب وضخامة الالفاظ ، ولا المولّد بالنعومة والسلامة وعذوبة العبارة . ومن البيّن ان العبارة كثيراً ما تتوقف على الموضوع . فالشاعر

القديم (بدوياً كان أم حضرياً) إذا تغزل أو رثى أو تأمل جاء بالرقيق
الناعم ، كقول عروة يصف ما فعل به الوجد :

جعلت لعرّاف اليامة حكمه وعرّاف نجدٍ ان هما شفياني
فقالا نعم نشفي من الداء كله وقاما مع العوّد يبتدران
فما تركا من رُقِيّةٍ يعلنانها ولا سلوةٍ الا وقد سقياني
فما شفيا الداء الذي بيّ كله ولا ذخرا نصحاً ولا ألواني

وقول عمر بن ابي ربيعة من قصيدته المشهورة في فتاته نغم :

وبتّ اناجي النفس أين خباؤها وكيف لما آتني من الامر مصدرُ
فدلّ عليها القلب ريتا عرفتها لها وهوى النفس الذي كاد يظهرُ
وقول ابي ذؤيب في رثاء بنيه :

والنفس راغبة إذا رغبتُها وإذا تُردّ إلى قليل تنفعُ
وإذا المنية أنشبت اظفارها الفيت كل قيمةٍ لا تنفعُ

إلى ما يجري مجراه من الشعر العذب الذي لا يمكن حصره هنا . فإذا
تعمّدت ذلك إلى ما يختص بعميشة الاعراب ووصف منازلهم وأدواتهم
أصبح الشعر خشناً متوعراً ، كالذي تجده في صفات الطلول والجمال
والقسيّ وأوابد الفقر ، وما إلى ذلك مما يمجّ به الشعر القديم .

وكذلك الشعر المولد تجده في أدوار تختلف باختلاف مواضعه وأحوال
قائليه . فمنه الذي يسيل عذوبة ويبلغ الدرجة العليا من الاناقة ، وسيمر
بنا كثير منه . ومنه ما يمتّ بنسب متين إلى العهد القديم ، تقرأه فتجد
فيه عنجبية البداوة وتوعّرها كقول ابن دريد يصف حصانه :

ومشرف الاقطار خاطِرُ نخضه حابي القصيرى جُرْشعُ عرد النسا^١
سامي التليل في دسيعٍ مُفعم رحب اللّيان في أمينات المعجى^٢

١ حصان مرتفع الجوانب ضخم شديد المصب .

٢ مرتفع العنق واسع الصدر قوي الارساخ .

ومنها في وصف حاله :

ما خلتُ ان الدهر يثني على ضرة لا يرضى بها ضب الكدى^١
ارمت العيش على برض فان رمت ارتشافاً رمت صعب المرتقى
في كل يوم منزل مستوبل يشف ماء مهجتي أو مجتوى
وقول المعري في سقط الزند :

لعل نواها ان تبيع شطونها وان يتجلى عن شمس شطونها^٢
إذا ما أنخنا حرة فوق حرة بكى رحمة الوجناء فيها وجينها^٣

وللمعري ولا سيما في شعر شبابه كثير من هذا الضرب .

ومثله أبو تمام ، وستناول ذلك في دراسته وتحليل شاعريته ، وانما نكتفي
هنا بأبياته التالية في وصف قتال حدث في الشتاء :

لقد انصعت والشتاء له وجه^٤ يراه الرجال جهماً قَطوباً
سَبَرَات^٥ إذا الحروب أبيخت هاج صنبورها فكانت حروبا
فضربت الشتاء في أخذعيه ضربة عاودته قوداً ركوبا

وهذا أبو نواس وهو في طبيعة المولدين ديباجة ورونقاً لا يخلو شعره
أحياناً من النزعة الأعرابية كقوله :

إننا اليك من الصليق فداسم طلع النجاء بنا وجيف الأيتى
يتبعن مائة الملاط^٥ كأنما ترون بعيني مقلّة لم تفرق
وسنرى ذلك في درس شعره .

فنحن إذن في نعمتنا الشعر المولد بالركة لا ننفي الحشونة البدوية من

١ الكدى الصخور .

٢ راع رجع . شطون بعيد . شطون دجون .

٣ حرة أي ناقة كريمة . حرة أرض سوداء . الوجناء الناقة . الوجين الأرض النليظة .

٤ سبرات غدوات باردة . أبيخت خمدت .

٥ ناقة مضطربة الاعضاء .

بعضه ، ولا نحصر النعومة والسلامة فيه . على اننا برغم ذلك نجد ان التطور الاجتماعي قد انشأ في العصر العباسي جوّاً حضرياً راقعاً ، ففضى على الفاظ وتمايز وانشأ عوضها ما هو أشد ملائمة لروح العصر . ومن ذلك ميل الادباء عن اسلوب النظم القديم . وهو كما وصفه ابن قتيبة : « ان يبتدىء الناظم بذكر الديار والدمن والآثار فيشكو ويبكي ويخطب الربع ويستوقف الرفيق ... ثم يصل ذلك بالنسيب فيشكو شدة الشوق وألم الوجد والفراق ثم يرحل ويشكو النصب والسهر وسرى الليل وانضاء الرحلة الخ » . ومع ان هذا الميل إلى التجدد لم يكن شاملاً ، فان له اثرأ بيتاً في المباحث النقدية التي عني بها علماء الشعر في ذلك العصر . ويوضح لنا ذلك ما ذكره ابن رشيق يصف الحالة الشعرية في زمانه ، أي في القرن الخامس الهجري (وقد سبقه إلى ذلك نقدة الشعر منذ القرن الثالث) - قال :

« وليس بالحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها والقفار ومياها وحمر الوحش والبقر والظلمات والوعول وما بالاعراب وأهل البادية ، لرغبة الناس في هذا الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم ان الشاعر إنما يتكلفها تكلفاً ليجري على سنن الشعراء قديماً ... إلى ان يقول : « والاولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلها وما كان مناسباً لهما ، كالكوؤوس والقناني والاباريق وفتاح التحيات وباقات الزهر ، إلى ما لا بد منه من صفات الحدود والقدود ... ثم صفات الرياض والبرك والقصور وما شاكل المولدين »^٢ .

وله في العمدة مقابلة جيدة بين طريقة القدماء وطريقة المولدين في « باب المبدأ والخروج والنهاية » ، فلترجع هناك^٣ .

١ الشعر والشعراء (مصر ١٣٣٢) ص ٧ .

٢ العمدة (مصر ١٩٢٥) ٢ - ٢٢٧ .

٣ العمدة ١ ص ١٤٥ - ١٦١ .

ومن دلائل التجدد اللفظي في العصر العباسي ظهور النقد البياني الذي جعل أساس البلاغة في الالفاظ السهولة والحلاوة والجزالة . وأمثلة ذلك ما جاء لأبي هلال العسكري في كتابه «الصناعتين» إذ قال : « فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة ، والسهولة والرصانة ، مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يعجبه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع ... والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن إلى المألوف ، إلى آخر كلامه ^١ . ومثل ذلك قول الجرجاني : « وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ فلا يكاد يعدو خطاً واحداً وهو ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً أو عامياً سخيلاً » ^٢ .

ولا ينكر ان «النقد البياني» لم يصبح فنّاً ذا قواعد مرعية إلاّ في القرن الرابع الهجري وما بعده ، بيد ان الروح النقدية التي تمثل التطور الصناعي في الشعر قديمة ترجع إلى أوائل العصر العباسي .

التفنن في المعاني

ويعنون بالمعاني الشعرية ضروب التمثيل والتشبيه والاستعارة . أما التمثيل فيراد به أن يعمد الشاعر إلى حكمة عقلية ادركها الناس بالفطرة أو عرفوها بالاختبار ويسبكها في قالب لفظي جميل ، كقول المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظام

١ كتاب الصناعتين (الاستانة ١٣٢٠) ٤١ .

٢ أمرار البلاغة (تصحيح رشيد رضا ١٣٢٠) ٣ .

والمثل في الشعر العربي كثير ، وقد تفننوا في العصر العباسي ، فتركوا لنا من أقوالهم جواهر غالية . ويكثر ذلك في شعر أبي العتاهية وأبي تمام وابن الرومي والمتني والمصري وأصراهم ، وسلم بالكثير منها عند درسنا هؤلاء الشعراء ، وهو داخل عند الجرجاني في قسم المعاني المعقولة .. ويقابله عند ذلك الإمام القسّم التخييلي ، وهو كما قال : « مفتن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يُحصَر إلا قريبا ولا يحاط به تقسيما وتبويبا ، ثم انه يحى طبقات ويأتي على درجات . فنه ما يحى مصنوعا قد تُلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطي شها من الحق وغشي رونقا من الصدق ^١ » ... الى أن يقول : « جملة الحديث الذي أريده بالتخييل هنا ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويرها ما لا يرى ^٢ » ، ومع انه يخرج الاستعارة من هذا الحد ترى معظم أمثله تدور على ضروب من التشبيه والاستعارة والمجاز .

ولابن الأثير في المثل السائر بحث ضاف في توليد المعاني بسط فيه المراد بسطا وافيا ، وخلاصته ^٣ : ان المعاني على ضربين ، ما ينتزع من شاهد الحال ، وما ينشأ من غير شاهد الحال ، واليك أمثلة ذلك : فمن القسم الأول :

بكروا وأسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجّار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدأ على سفر من الاسفار
وهذا المعنى (أي تشبيه المصلوبين بالفوارس الراكبين ولا يبرحون مكانهم) استخلصه أبو تمام من رؤية بعض الثائرين على الخليفة المعتصم مصلوبين على أخشاب عالية .

١ راجع أسرار البلاغة ٢١٦ .

٢ أسرار البلاغة ٢٢٣ .

٣ المثل السائر (بولاق) ١٨٧ - ١٩٧ .

مثال ٢ :

وزائرتي كأنّ بها حياة فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
كأنّ الصبح يطردها فتجري مدامها بأربعة سِجّام

شعر المتنبي بالحقى ، وشاهد كيف كانت تزوره ليلاً وتدبّ في جسمه ، وكيف كانت تهبط صباحاً ويبتلّ جسمه بالمرق من جراء ذلك ، فوصفها كزائرة ذات حياة لا تزور حبيبها إلا ليلاً ، وتخيل الصبح يطردها فتهدل لذلك مدامها .

مثال ٣ :

ضربت لسيف الدولة خيمة عظيمة ، فهبت ريح شديدة فسقطت ، وكان المتنبي حاضراً فقال في ذلك :

أيقده في الخيمة العذّل وتشمل من دهرها يشمل

الى أن يقول :

رأت لون نورك في لونها كلون الغزالة لا يفسل
وان لها شرفاً باذخاً وان الخيام بها تحجل
فلا تنكرن لها صرعة فمن فرح النفس ما يقتل

فانظر كيف جعل سقوطها مسبباً عن شدة ما نالها من الفخار والزهو ثم ساق الكلام الى قوله :

ولما أمرت بتطينيها أشيع بانك لا ترحل
فما اعتمد الله تقويضها ولكن أشار بما تفعل

فجعل تقويض الله لها تكذيباً لما أشيع عند تطينيها من أنك لا تنوي غزواً لعدو . وقد أجاد المتنبي في انتزاع هذا المعنى والبأسه ثوب المجاز والخيال .

ومن القسم الثاني (أي المعاني المبكرة من غير شاهد حال) قول علي
ابن جبلة مادحاً :

تكفل ساكن الدنيا حميدٌ فقد أضحت له الدنيا عيالا
كان أباه آدم كان أوصى إليه ان يعولهم فعلا

أراد أن ينعت ممدوحه بالكرم العظيم الشامل ، فجعل العالم عياله وتخيل
ان آدم ابا البشر أوصاه بإعالتهم ففعل .

وقول أبي تمام يمدح اميراً أقام على بابه حاجباً يمنع الناس :
يا أهما الملك النائي برويته وجوده لمراعي جوده كسب
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي املاً ان السماء ترجى حين تحتجب
وقوله في الحاسد والمحسود :

واذا أراد الله نشرَ فضيلة طويت ، اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العود

ومثل ذلك في الحسن قول ابن الرومي :

كل امرئ مدح امرءاً لنواله واطال فيه فقد أساء هجاء
لو لم يقدر ثم بعد المستقى عند الورود لما اطال رِشاء

ومن لطيف المعاني قول ابن بقيّ الاندلسي :

بأبي غزالاً غازلته مقلتي بين العذيب وبين شطبي بارق
حتى اذا مالت به سِنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانقي
ابعدته عن أضلع تشاقه كي لا ينام على وساد خافق

وأمثلة ذلك كثيرة في الشعر المولد . واذا تأملتها تجد أكثرها أو كلها
من قبيل التفنن في المجاز والتشبيه ، ولعلّ للأخير النصيب الاوفر مما
يدخل في باب المعاني . وقد خصه ابن رشيق بالذكر اذ قال : « ان
المعاني انما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالاسلام في أقطار

الارض ، فمضروا الامصار وحضروا الحواضر وتأنقوا في الملابس والمطاعم ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلّتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره . وانما خصصت التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر وأبعدها متعاطى^١ . وقال في موضوع آخر يقابل المحدثين بالقدماء : « واذا تأملت ذلك تبين لك ما في اشعار جرير والفرزدق وأصحابها من التوليدات والابداعات العجيبة ، ثم أتى بشار بن بُرد وأصحابه فزادوا معاني ما مرّت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا اسلامي . والمعاني أبدأ تتردّد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضاً^٢ . ولم يرد ابن رشيق بالمعنى الشعري غير ما ذكرنا من التصرف في وجو الصناعة المعنوية وأهمّها عنده التشبيه . والذي يطالع دواوين كبار الشعراء في العصر العباسي ، ويقابلها بما نُظِم في العهد الاموي وما قبله ، يجد صحة ما ذهب اليه ابن رشيق وسواه من تفوق المولّدين في ذلك . ولا نظن الا ان هذه المعاني التخيلية أخذت تتضاءل بعد عصر الشعر الذهبي ، وقد ضعفت جداً بعد القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد وبقيت كذلك الى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم أخذت بالانتعاش على يد شعراء القرن العشرين .

التوفر على البديع اللفظي

وما يقال عن رقة العبارة واختراع المعاني ، من حيث ان المولّدين فاقوا بها الاقدمين ، يقال عن البديع اللفظي - فقد جعلوا الاخير فناً معروفاً وجروا فيه الى الغاية . وأنواع البديع كثيرة وقد أُلِّفَ فيها كتب تدارسها الطلاب في كل جيل . وأول من صنّف فيها عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور (في القرن الثالث الهجري) فجعل منها بضعة عشر نوعاً ، ثم قدّامة بن جعفر فجعم منها نحو عشرين ، وجاء العسكري في القرن الرابع فجعلها

١ . العمدة ٢ - ١٨٣ .

٢ . العمدة ٢ - ١٨٥ .

خسة وثلاثين . ثم أخذ البيانيتون والبديعيون يتفننون فيها حتى بلغت ما يزيد على المئة والخمسين . وأصبح للبديع في أواخر القرن العباسي سيطرة كبيرة لا على الشعر فقط بل على النثر ايضاً ، كما يتضح من الرسائل الديوانية والادبية في القرنين السادس والسابع .

على ان المولدين لم يبتكروا البديع ابتكاراً بل توسعوا فيه حتى بزوا سوام : قال المسكري في كتاب الصناعتين رداً على الذين يعزون فضل ابتكاره للمحدثين (أي أدباء العصر العباسي) : « فهذه أنواع البديع التي ادعى من لا روية ولا رواية عنده ان المحدثين ابتكروها وان القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد ان يفخّم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع إذا سلم من التكلف وبرىء من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة »^١ . والمسكري كما مر بنا من أهل القرن الرابع الهجري ، وكان الشائع في زمانه على ما يفهم من دفاعه ، ان أدباء العصر العباسي هم الذين ابتكروا أنواع البديع فنفى ذلك وقال بوجودها في الشعر القديم . وذلك معلوم ، ولكنه لا ينفي ان هذا الفن الكلامي لم ينظم ولم ينضج إلا في العصر العباسي . ولا نعرف عسراً بلغ فيه ولوع المنشئين والشعراء بالبديع اللفظي كذلك العصر . فمنذ أيام مسلم وابي تمام إلى أيام ابن الفارض وصفي الدين الحلي تجدد ولع الناس بالبديع يزيد مع الاجيال . وبقي كذلك إلى أيام ابن معتوق ثم إلى مستهل النهضة الاخيرة ، ولم يقض عليه غير ما أصاب الادب في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد وفي القرن العشرين من التطور اللفظي والخيالي .

ولا يتسع المقال لذكر كل أنواع البديع اللفظي والتمثيل عليها ، بيد انه لا بدّ من القول ان الطباق والجناس هما الركنان الاساسيان وعليهما يحوم أكثر الشعراء ، ويليهما رد المعجز على الصدر ، والعكس ، والترصيع فسائر الانواع .

وقد تناول ابن رشيقي أمر المقابلة بين القدماء والمحدثين فقال : « ان المحدثين أكثر ابتداءً لأن الملك الاسلامي عظم في أيامهم » . وأكثر النقاد يقولون ذلك ، ويعنون به ان اتساع الحضارة فتح للشعراء أبواباً جديدة للمعاني ، كأوصاف الحمر والنساء والفلمن والغناء وسائر أسباب اللهو والقصف ، وان ذلك انشأ في نفوس البعض شعوراً معاكساً لما بهم إلى الزهد والتصوف وانكار الملذات - وفي ذلك ما فيه .

على اننا عند التحقيق نجد ان هذا التجدد في المعاني انحصر بالاكثر في مجاري البديع لم يتعدّها إلى الفنون الخيالية العليا المبنية على معرفة أوسع في الكون والانسان ، وعلى نظرات أدق في الطبيعة والعرمان . ولم تكن الاشعار الروحية والادبية عموماً تأملات فلسفية في الحياة ، بل خطرات تأتي في سياق وعظ أو انتقاد ، أو لغير ذلك من المناسبات .

التوسع في المصطلحات اللفظية

وهذا باب واسع يعسر الخوض فيه هنا ، وهو بمباحث تاريخ اللغة وتطورها أولى . على ان الناظر في تطور الشعر المولّد لا يسهه إلا أن يقف قليلاً عند هذه الظاهرة الادبية العامة ، وهي تمثّل أمرين : ١ - اختلاط العرب بالأعاجم . ٢ - الميل إلى التحرر من بعض القيود اللغوية . أما الاول فقد مرّ معنا في الكلام عن تطور الحياة الاجتماعية ، فلا لزوم لاعادته . ويكفي هنا أن نقول ان هذا الاختلاط كان له أثره في الالفاظ الشعرية : قال الجرجاني في الوساطة ، « ان المحدثين قد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد لما احتاجوا إلى الإفهام ، وكانت تلك الالفاظ أغلب على أهل زمانهم وأقرب من أفهام من يقصدون ، وقد أفرط ابو نواس حتى استعمل زغروده - ويازينده - وباريكنده الخ » .

ومن ذلك لابن الرومي شير وهي الاسد في الفارسية - زرياب أي ماء الذهب - الدوشاب وهو التبيذ الاسود - الكوش أي الأذن . وللمعري

١ الوساطة (تصحيح أحمد الزين) ٣٥١ و ٣٥٢ .

فرزان وفرازين وبياذق من أسماء الشطرنج - والزيج والاسطرلاب من أدوات الفلك وبعض الفاظ عامية مثل آرا بمعنى نعم وأمثالها .
وقد كان القدماء يستعملون الفاظ العجم عند الحاجة ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما بلغه المولدون^١ . وعن الجاحظ : « كان الشاعر يتملح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان^٢ » .

* * *

وأما الخروج عن نصوص اللغة فما يلفت النظر وقد اشتهر بذلك بعضهم كالمتنبي وابن الرومي فمن كلام الاول قوله :

ادلت له	بدل ادلته من
اخاطره في روعي	بدل اراهنه
فريص	جمع فرائص
يتفارسن	أي كل يطلب افتراس الآخر
فرد رجل	أي رجل واحدة
الحذور والجلوب والتروك وما يشاكل هذه الصيغ	
العلم المبرح (ولعله أول من وصف العلم بالتبريح)	
النطق	أي اللسن
وعشرات مثلها تجدها في تضاعيف ديوانه ^٣ .	
ومن أمثلة الثاني :	

مفاتش - يزندقون - الاشرابات - الأذهاب - هجيج - نهارك انهر -
الايام الاطاول - العلاجم - اللعاء جمع لاعب ، وكثير غيرها .
وليست هذه الظاهرة شاملة ولكنها تكاد تكون عامة في العصر العباسي ،

١ المصدر السابق .

٢ البيان والتبيين (س) ١ - ١٣١ .

٣ راجع ما أنكره العلماء من شعره في كتاب الرواظة للجرجاني ٣٢٩ - ٣٦١ .

ولها أسباب لا تدخل في بحثنا الآن . ويدخل فيها المصطلحات والمسميات الجديدة التي نشأت بتقديم الحضارة . ولا شك ان هذا التجدد اللفظي بدأ في اللغة منذ أقدم عهودها وجرى فيها مع الزمن ، حتى كانت النهضة العلمية الاجتماعية في العصر المباسي ، فظهر فيها بظهر كبير ، كما ظهر في نهضتنا العلمية الحديثة . ومع تخرج الشعر في المحافظة على الاوضاع اللغوية الصرفية لم يستطع التخلص من تأثير الاوضاع الاجنبية ، كما تشهد بذلك النصوص الشعرية في كل زمان .

امراء الشعر المولد

ابو نواس - ابو العتاهية - ابو تمام - البحتري - ابن الرومي - المتنبي -
المعري - ابن الفارض



يختلف الباحثون في من المقدم من شعراء العصر العباسي . ولا سبيل
الآن إلى البحث في اختلافاتهم والنظر في أسبابها فلكل نظر خاص ،
ولكل آراء يدعمها بحجج مقبولة . على اننا قد اخترنا منهم لدراستنا
التحليلية هؤلاء الثمانية ، وهم بلا جدال من الطبقة الاولى بين
المولدين .

وقد كان معولنا في اختيارهم شهرتهم ، وانهم أعمق أثراً من سواهم
في تاريخ الشعر العباسي . ولا نقصد بذلك انه لا يوجد بين سائر الشعراء
من يرتفع إلى درجتهم أو يفوقهم في بعض المناحي كإبي فراس مثلاً أو
الشريف الرضي ، بل انهم يمثلون العصر العباسي أفضل تمثيل ، وفي
درسهم درسٌ لذلك العصر والروح الشعرية العامة فيه .

ابو نواس

الحسن بن هاني

ولد بين (١٤١ و ١٤٥) هـ - وتوفي بين (١٩٦ و ٢٠٠) هـ

حوالي (٧٦٠ - ٨١٦) م



مصادر دراسته - بيئته - ميله الشعوبي - مقامه الادبي - شخصيته الشعرية

مصادر دراسته

- ١ - ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٩٠ م) الشعر والشعراء ، المطبعة العمومية ، مصر ١٨٩٨ ليدن ١٩٠٢
- ٢ - ابن المعتز توفي ٢٩٦ هـ (٩١٠ م) طبقات الشعراء ، نشره عباس اقبال ، ١٩٣٩ ص ٨٧ - ٩٩
- ٣ - الطبري توفي سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١
- ٤ - الاصفهاني توفي سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) الاغاني ، بولاق ج ١٨ ، ومتفرقات في ج ٦ و ١٦
- ٥ - الجرجاني توفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) الواسطة ، صيدا ١٢٣١
- ٦ - المرزباني توفي سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) الموشح ، مصر ، ١٣٤٣ ، من ص ٢٤٢
- ٧ - ابن النديم توفي سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) الفهرست ، ليبسك ص ١٦٠
- ٨ - ابن شرف القيرواني توفي سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٩ م) اعلام الكلام ، ص ٢٢ - ٢٣
- ٩ - الخطيب البغدادي توفي سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) تاريخ بغداد مج ٧ ، من ص ٤٣٦
- ١٠ - ابن عساكر ٥٧١ هـ (١١٧٦ م) تهذيب التاريخ الكبير مطبعة روضة

الشام ١٣٣٢ ، ج ٤ ص ٢٥٤ - ٢٧٩

١١ - الانباري توفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) طبقات الادباء من ص ٩٦

١٢ - ابن خلكان توفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) وفيات الاعيان (ميري)

ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٢

١٣ - ابن منظور توفي سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) اخبار ابي نواس (مصر

(١٩٢٤ -)

١٤ - النويري توفي سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) نهاية الارب (دار الكتب المصرية

١٩٢٥) ٤ - ص ١١٩ - ١٢٣

١٥ - طاش كوبري زاده توفي سنة ٩٦٨ هـ (١٥٦١ م) مفتاح السعادة

(حيدر آباد)

١٦ - البغدادي توفي سنة ١٠٩٣ هـ (١٦٨٢ م) خزانة الادب (بولاق)

١ - ١٦٨ .

وفي مواضع شتى من الكامل للبرّاد ، والعمدة لابن رشيق ، والفخري

لابن الطيّق ، وزهر الآداب للحصري ، ومختصر مقدمة الشعر لابن

منقذ ، ومعاهد التنصيص للعبّاسي (تجد زبدة الاخيرين في ذيل ديوان

مسلم للمستشرق ذي غويه Goeji) .

وقد ترجم له مؤرخو الآداب المتأخرون كالبستاني في دائرة المعارف ،

وزيدان في آداب اللغة ، وسواهما .

ومن تناوله في دراسات نقدية طه حسين في حديث الاربعاء ، وعبّاس

مصطفى عمار في كتابه (ابو نواس حياته وشعره) وعمر فروخ في كتابه

(ابو نواس) .

بيئته وعناصر شخصيته

ولد شاعرنا في خوزستان من بلاد المعجم ، وانتقل به ذرو أمره وهو طفل إلى البصرة فنشأ فيها . ويظهر ان اياه مات وتركه صغيراً في كفالة أمه ، فسلمته إلى عطّار ليتعلم عنده مهنة المطارة . ولا نعرف شيئاً كثيراً عن عهده «المطاري» ، فان التاريخ يتخطى ذلك سريعاً ويبرزه لنا في صحبة الشاعر والبة بن الحباب . ثم لا نلبث أن نراه حوالى الثلاثين من عمره ، وقد استقرّ في بغداد ومدح الرشيد واتصل ببلاطه . ويقول ابن رشيّق انه كان نديم الامين طول خلافته^١ . أما كتاب الفخري فينقل لنا انه كان من شعراء الفضل بن الربيع المنقطعين اليه^٢ . وليس من تناقض بين القولين : فان الفضل كان حاجب الرشيد ومن رجال دولته والوزير المقرب في دولة الامين ، فقد يكون اتصل به أولاً ثم نادى الامين ومدحه . وتوفّي في الفتنة قبل قدوم المأمون من خراسان .

نشأ ابو نواس في العصر الذهبي للخلافة العباسية - عصر القوة والرخاء . وقد رأينا في كلامنا عن تطور الحياة الاجتماعية كيف كانت بغداد في ذلك العصر ، من حيث غناها وعمرانها وبذخ المترفين فيها . ومن يطالع أخبار الامراء والوزراء ومن اليهم من أرباب الفنى ، وكيف كانوا يتمتعون بأسباب الحضارة من عبيد وجوار وقصور ، ويسترسلون في

١ العمدة ج ١ ص ٢٢ .

٢ الفخري (مصر ١٣١٧) ١٩٢ .

سبل اللهو من شرب وغناء ورقص ، يعرف شيئاً عن الجو الذي وجد فيه شاعرنا والذي أثر في اخلاقه ايّما تأثير .

طُبع ابو نواس على الظرف والمجون ، وأوقعته الاقدار في صحبة ابن الحباب ، فأخذ عنه مذهبه في الشعر والحياة . وكان الشعر آنئذ في أيدي عصابة من أهل الاسراف والخلاعة ، نذكر منهم مطيع بن إياس - حمّاد عجرد - مسلم بن الوليد - داود بن رزين - الواسطي - الحسين ابن الضحاك - الفضل الرقاشي - عمر الوراق - الحسين الخياط - علي ابن الخليل - اسماعيل القراطيسي وأمثالهم . وفي القراطيسي يقول الاصفهاني : « كان مألفاً للشعراء فكان ابو نواس وابو العتاهية (طبعاً قبل تزده) ومسلم وطبقتهم يجتمعون عنده ويقصفون ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان »^١ .

في عصابة كهذه العصابة وقع شاعرنا . وليس شعره لدى التحقيق إلا مرآة لحياته وأحوال معاصريه . ولقد بلغ من التماذي في عبثه وتهتكه ان صار مثلاً في ذلك .

روى الحصري « انه لما خلع المأمون أخاه الأمين ووجهه بطاهر بن الحسين لمحاربتة كان يعمل كتباً بعميوب أخيه تقرأ على المنابر بخراسان . فكان مما عابه به ان قال انه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هاني ، استخلصه ليشرّب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم » ، ثم يقول : « ويقوم بين يديه رجل فينشد اشعار ابي نواس في المجون »^٢ . واننا لنظلم أبا نواس إذا حصرنا حياته وأدبه في هذه الدائرة التي وضعته فيها كتب المأمون . فقد كان غير ذلك (كما سنذكر في كلامنا عن قدرته اللغوية) ولكن المجون غلب عليه ، وصرف في سبيله مواهبه .

١ الاغاني ج ٢٠ ص ٨٨ .

٢ زهر الآداب (شرح زكي مبارك) ج ٢ - ١١١ .

قال ابو عبد الله الجتاز يصف ابا نواس^١ :
 « كان أظرف الناس منطقاً ، وأغزرهم أدباً وأقدرهم على الكلام ،
 وأسرعهم جواباً ، وأكثرهم حياة » . وبعد أن يصف شكله ولونه
 يقول :

« كان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الالفاظ ، حلو الشائل ،
 كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للشعار علّامة
 بالاختبار ، كأن كلامه شعر موزون » .

كان الرجل واسع المعرفة - متصلاً بحياة عصره السياسية والفكرية
 ولكن انصرافه إلى الخمر واسترساله في الموبقات حالا دون أن يترك لنا
 أثراً أدبياً كبيراً في غير سخائف الحياة .

ميله في أدبه إلى الشعبوية

قد تعجب من هذا الزعم بعد أن عرفت أنه كان يلزم الفضل بن
 الربيع والأمين بن الرشيد ، وهما معقد العصبيّة العربية في ذلك الوقت .
 ولكن لا عجب فأبو نواس كما مر معنا من أم فارسية ، وقد ولد في بلاد
 فارس ، ونشأ لا تُعرف له عصبيّة واضحة في العرب . وهم ينسبونه إلى
 قبيلة حَكَمَ اليمنية فيقولون الحكمي ، ولكن ابن منظور صاحب أخباره
 يقول : « كان أبو نواس دعيّاً يخلط في دعوته^٢ ، أي أنه لم يكن ثابت
 الانتساب إلى أصل من الأصول ، فهو تارة يدّعي النسب اليمني ، كقوله
 في حديث له مع الخُمّار :

فلما ان رأى زقتي أمامي تكلم غير مذعور اللسان
 وقال أمن تميم ؟ قلت كلاً ولكنني من الحيّ اليمني
 وتارة يهجو اليمنية كقوله في هجاء هاشم بن حُديج وهو كِندي من

١ زهر الآداب ١ - ٢٠٤ .

٢ أخبار أبي نواس ١٦ .

صميم اليمن :

يا هاشم بن حُديج لو عددت أبا مثل القلّس لم يعلق بك الدنس
والقلّس أحد رؤساء كنانة ، وهي من غير اليمن كما هو معروف . وفي
هذه القصيدة يعدد كرماء نزار الذين يفتخر بهم ، ويستغرب ذلك بمن له
عصبية شديدة في اليمن . ونقل ابن منظور « انه كان يتنَزَّر ويدّعي
للفرزديق ، ثم انقلب على النزارية وادعى انه من « حاء وحكم » فزجره
يزيد بن منصور الجعيري خال المهدي وقال له : « انت خوزي (أي من
خوزستان) فما لك ولحاء وحكم » ، فقال : « انا مولى » فتركوه . وقال
بعضهم لبعض انه ظريف اللسان غزير العلوم ، فدعوه ، وبهذا الولاء
يتعصب لنا ويكابد عنا ويهجو النزارية ، فكان كما قالوا . وكان يكنى
أولاً بأبي فراس فعُدل عن ذلك واكتنى بأبي نواس تشبهاً بكنية
ذي نواس ، كما كانت اليمن تكني وقيل غير ذلك^١ . ويذكر في محل
آخر انه كان في دعاويه يتاجن ويبعث ويخفي اسمه واسم أمه لئلا يهجي ،
وذلك مشهور عنه . والمذكور من أمره انه كان مولى الحكميين يفتخر
باليمن ويمدحهم لذلك ، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم^٢ .

فما ذكر آنفاً نستدل ان أبا نواس كان من أصل وضع وانه كان
ينسب إلى الحكميين بالولاء . والأمر الراهن انه فارسي يأخذ بإخذ
الشعوبية في الاستخفاف بالحياة العربية . ويزيدنا ثقة بذلك انه كان يأخذ
العلم عن أبي عبيدة ويمدحه ويذم الاصمعي^٣ . وإلى ذلك ذهب ابن
رشيق إذ يقول : « وكان شعوبي اللسان وما أدري ما وراء ذلك ، وإن في
اللسان وكثرة ولوعه بالشيء لشاهدًا عدلاً لا تردّ شهادته » . ويروي له

١ أخبار أبي نواس لابن منظور ٣٧ وخزانة الادب ١ - ١٦٨ .

٢ أخبار أبي نواس لابن منظور ٤٧ . وقد عده الجاحظ (في كتاب الموالى) من الموالى - راجع

المقد ٣ - ٢٦٩ .

٣ مفتاح السعادة ١ - ٩٣ .

٤ العمدة ج ١ - ١٥٥ .

ابن عبد ربه أبياتاً ويقول انه قالها على مذهب الشعوبية^١ . ونقل الطبري ان الرشيد حبسه لهجائه قريش^٢ . وانك لتلص في شعره استهزاء بالعرب كقوله :

عاج الشقيّ على رسمٍ يسائله وبتّ اسأل عن ختّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لا درّ درّك قلّ لي من بنو اسد
ومنّ تميم ومن قيس ولفتهما ليس الأعراب عند الله من احد
سخرية أليمة تظهر فيها شعوبيته الشعرية . وهو يكثر من هجائه الاعراب والاعرابيات ، ولا سيما إذا قابل حالهم بمحضارة الفرس الغابرة كقوله :

دع الرسم الذي دثرا يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلاً أضاع العلم في اللذات والخطرا
ألم ترّ ما بنى كسرى وسابور^٣ لمن غبرا
منازة بين دجلة (م) والفرات أخصها الشجرا
لأرضٍ بأعد الرحمن عنها الطلح والعشرا^٤
ولم يجعل مصايدها يرابيعاً ولا وَحْراً^٥
ولكنّ حُور غزلانٍ تراعي بالفلأ بقرا
فذاك العيش لا سيّد^٦ بقفرتها ولا وبرا^٧
إذا ما كنتَ بالأشياء في الاعراب معتبرا
فانك آتِماً رجلٍ وردتَ فلم تجد صدرا

ويأخذ من هنا بدمّ أهل البادية رجالاً ونساء . وشعره يعجّ بما يدل على شغفه بتاريخ الفرس وأناقة الحضرة ، ونفوره من الحياة البدوية التي

١ راجع المقد ٢ - ٨٧ .

٢ الطبري (ليدن) ج ٣ - ٩٥٩ .

٣ من أشجار القفر .

٤ الوحر من المظاء (كالحواذين وسام ابرص) .

٥ السيد : الذئب ، والوبر : حيوان اصفر من السنور .

كان يتغنى بها الاقدمون . ومن ذلك أيضاً قوله :

دع الملقى يبكي على طَلَلِهِ وخلّ عَوْفاً يقول في جَمَلِهِ
وقل لَكُلثُومُ^١ المفضل بالشعر يطيل الإعراض عن حِلَلِهِ
واغْدُ على اللهو غير متتدٍ عنه فهذا أوان مقتبَلِهِ
أما ترى جدّة الزمان وما ابدع فيها الربيع من عملِهِ
وافى وجوه الزمان غاديةً عند اقتراب الشتاء من أجلِهِ
فاشرب على جدّة الزمان فقد وافى بطيب الهوى ومُعتدِلِهِ
من قهوة تذكّر السرورَ وتُنسي الهمَّ عند اعتراض مشكلِهِ
وقوله :

لقد جُنّ من يبكي على رسم منزل ويندب أطلالاً عفونَ يجرولِ
فان قيل ما يبكيك قال حمامة تنوح على فرخٍ بأصوات مُعولِ
تذكرني حياً حلالاً بقفرةٍ وأخيه^٢ شُجّت بِفهر وجندلِ
وما يشعر بمِـلِهِ إلى الفرس وانحرافه عن مذاهب العرب قوله من
قصيدة :

دع الاطلاع تسفيها الجنوبُ وتبكي عهد جدّتها الخطوبُ
وخلّ لراكب الوجناء ارضاً تُحَثّ بها النجبية والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً ولا عيشاً فعيثهم جديب
ثم يصف خشونة عيشتهم ويقابل ذلك بصفاء العيش في الحضارة والتمتع
بالحجر ، إلى أن يقول :
فهذا العيش لا عيش البوادي وهذا العيش لا اللبن الحليب

١ هو المتناهي الشاعر المشهور .

٢ أخيه أي عود دقيق يوضع بين حجارة الحائط لتشد اليه الدابة ، والفهر الحجر ، وكذلك الجندل .

فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميسادين الزروب

* * *

كان النضال في عصره مستحراً بين المحافظين والمجددين -- بين الذين يرون التمسك بمقاييس الشعر القديمة ، وبين الذين يرومون استبدالها بمقاييس أخرى ، فوقف إلى جانب هؤلاء . على أنه لم يفعل ذلك في كل شعره ، وسرى أنه تابع المحافظين حيناً وجرى معهم بعض الأحيان في سبلهم المعهودة .

قلنا إن أبا نواس كان يأخذ في شعره إخذ الشعوبية . وعلى ذكر الشعوبية نقول أنها حركة قام بها في صدر الدولة العباسية جماعة من المنتمين إلى أصل فارسي ، وغايتهم تعظيم الفرس وحضارتهم ومقاومة ما كان قد نشأ في نفوس العرب (ولا سيما أيام الأمويين) من روح التفوق والاستئثار بالجد . وقد قام من الفريقين جماعة يناضلون عن مذهبهم ويرمون خصومهم بأليم سهامهم . نذكر من الفريق العربي ابن قتيبة والجاحظ وابن دريد ، ومن الفريق الشعبي أبا عبيدة وسهل بن هرون والبيروني وحمزة الاصفهاني ، ولقد كان لهذه الحركة السياسية الاجتماعية تأثير ملموس في الأدب ، وقد اشرنا إلى تأثيرها في أبي نواس .

مقامه الأدبي واسلوبه الشعري

ذكرنا سابقاً أنه كان واسع المعرفة متصلًا بحياة عصره الفكرية . وفي شعره ما يُشعر باطلاعه على آراء الفلاسفة والمتكلمين . على أن أهم ما يذكر له هنا تبجّره في العلوم اللغوية والاسلامية ، حتى قال الجاحظ : « ما رأيت رجلاً أعلم باللغة من أبي نواس وأفصح لهجة مع مجانبه الاستكراه »^١ . وقال بعض الرواة : « كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر وكان فحلاً راوية عالماً »^٢ . وقال عن نفسه : « ما قلت الشعر

١ أخبار أبي نواس لابن منظور ٦ .

٢ أخبار أبي نواس لابن منظور ٥٣ .

حتى رويت لستين امرأة من العرب غير الحنساء ، فما ظنك بالرجال ؟
واني لأروي مئة أرجوزة لا تعرف ^١ .

ولقد تزول دهشتنا واستنكارنا ذلك إذا عرفنا ان أساتذته كانوا من
مشاهير العلماء والمحدثين . منهم ابو زيد الانصاري وابو عبيدة ابن المثني
وعبد الواحد بن زياد وازهر السمان ويحيى القطان . ومنهم خلف الأحمر
الذي لزمه مدة غير يسيرة ^٢ . ولم يكنف بذلك بل قصد بادية بني أسد
وأخذ اللغة عن أعرابها ^٣ وقد روى عنه جماعة من أدباء ذلك العصر
وعلمائه .

أما النظم فيشهد بعلو كعبه فيه كبار أهل العربية . حدث الآمدي عن
المبرد قال : « ما تعاطى الشعر أحد من المحدثين أحذق من ابي نواس » .
وحكى ابن الجراح عن ابن عكرمة عامر الضبتي عن ابن السكيت ان
ابا عمر الشيباني قال : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الارفاك لاحتججت
بشعره لأنه كان يُحْكَم القول ولا يخلطه ^٤ » . ولابن الاعرابي وابي عبيدة
وابن خالويه شهادة كهذه الشهادة ^٥ . وإذا علمت ان الرواة وعلماء اللغة
لم يكونوا يحتجون بما بعد العصر الاموي علمت منزلة شاعرنا في نفوسهم .

وقد ننقل عن العتابي قوله : « والله لو أدرك هذا الخبيث الجاهلية
لما فضلت عليه أحد ^٦ » . ولكي تعرف شيئاً عن نفسية اللغويين في
ذلك العصر ونظرهم إلى المحدثين ننقل لك عن الحصري القصة التالية ^٧ :

١ أخبار ابي نواس لابن منظور ٥٤ .

٢ ابن منظور ٢٣ و ٢٧ .

٣ ابن منظور ١٢ .

٤ ابن منظور ص ٢ و ٥٨ .

٥ راجع هذه الشهادات أيضاً لمزة الاصفهاني في مقدمة ديوان ابي فراس (مصر) .

٦ ابن منظور ٥٧ .

٧ زهر الآداب ١ - ٢١٨ .

كان أبو عبد الله بن زياد الاعرابي يطعن على أبي نواس ويعيب شعره ويضعفه ويستلينه . فجعله مع بعض رواة شعر أبي نواس مجلس ، والشيخ لا يعرفه . فقال له صاحب أبي نواس : أنترف أعزك الله أحسن من هذا ، وأنشده شعراً ، فقال : لا والله . فلن هو ؟ قال : الذي يقول :

رسم الكرى بين الجفون محيلُ عفى عليه بكأ عليك طويل
يا ناظراً ما اقلعت نظراته حتى تشحط بينهن قاتل

فطرب الشيخ وقال له : ويحك لمن هذا ؟ فوالله ما سمعت أجود منه لقديم ولا لحدث ؟ فقال : لا أخبرك أو تكتبه ، فكتبه . فقال : للذي يقول :

ركب تساقوا على الاكوار بينهم كأس الكرى فانتشى المسقي والساق
ساروا فلم يقطعوا عقداً لراحلة حتى اتاخوا اليكم قبل اشراق
من كل جائلة الطرفين ناجية مشتاقه حملت اوصال مشتاق

فقال : لمن هذا ، وكتبه . فقال : للذي تدمه وتعيب شعره أبي علي الحكمي . فقال الشيخ : اكنم علي ، فوالله لا أعود لذلك أبداً . وهذه القصة إذا صحت تدل على تعصب « الأعرابيين » (أي الميالين إلى شعر الاعراب) على المحدثين كأبي نواس واضرابه .

وكان اسحق بن ابراهيم الموصلي يتعصب على أبي نواس ويقول : « هو يخطيء » ، وكان اسحق في كل أحواله ينصر الاوائل ، فكنت أنشده جيد أقوال أبي نواس ، فلم يحفل به ، لما في نفسه . فأنشدته :

وخيمة ناطور برأس منيفة تهم يدا من رامها بزيل

فكان على أمره . فقلت : والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لجمعتهما أفضل شيء سمعته قط ^١ .

والغريب ان ما أصاب أبا نواس من تعصّب اسحق أصاب اسحق نفسه من تعصّب أهل اللغة^١ . وهذا التعصّب تجده في كل عصر وفي كل جيل .

فن كل ما ذكر يؤخذ ان أبا نواس كان من كبار أهل اللغة وما منهم من الاحتجاج بقوله الا إرفائه وانه من المحدثين . وقد وصف اسلوبه الفني بالسلاسة وبعده عن التكلف . قال محمد بن داود الجراح : « كان أبو نواس أجود الناس بديهة وارقتهم حاشية ، لسيناً بالشعر يقوله في كل حال ، والرديء من شعره ما حفظ عنه في سكره^٢ » . ومثل ذلك قول ابن رشيق : « لم يكن يؤثر التصنع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة ، وإنما يجيء بالشعر على سجيته^٣ » . وقد انحنى ابن عبد ربه على المبرّد باللائمة لسوء ما اختاره من شعر أبي نواس ، وقال : « قلما يأتي له بيت ضعيف لركة فطنته ، وسبوطه بنيته ، وعدوبة الفاظه . وكل أشعاره المخريات بديعة لا نظير لها » . ونقل ما ذكره الجاحظ في كتاب الموالي من ان أبا نواس أقدر الناس على الشعر واطبعهم فيه^٤ . على ان ابن شرف القيرواني يخالف من تقدم ويصف شعر أبي نواس بالضعف وانه « نافق » عند العوام كاسد عند النقاد^٥ .

ومع ما في أقوال هؤلاء العلماء مما يهمننا في درس شاعرنا لا نستطيع أن نعتمد عليها كل الاعتماد ، لأنهم كثيراً ما يكيلون الكلام جزافاً ، وكثيراً ما يدفهمهم إلى القول نكتة في شعر أو جمال وصف في عبارة . ولسنا نرى آراءهم - على صحة الكثير منها - مستندة إلى دراسة نقدية يصح قبولها . فلا بدّ إذن من الرجوع إلى ديوان الشاعر والتحقيق فيه . وقد

١ راجع حديثه مع الاصمعي في ابن عساكر ٢ - ٤٢٤ .

٢ عن حمزة الاصفهاني مقدمة الديوان (مصر ١٨٩٨) .

٣ الممددة ١ - ٢٠٠ .

٤ راجع تفصيل ذلك في المقدم ٣ - ٢٦٨ و ٢٦٩ .

٥ راجع تفصيل ذلك في اعلام الكلام (مصر ١٩٢٦) ٢٢ .

ظهر لنا منه ان ابا نواس يقف في شعره موقفين متناقضين : موقف المقلد وموقف المجدد . ففي فئة من قصائده يسير على سنن القدماء ، حتى كأنه أحدهم . وفي فئة أخرى ينزع إلى التجدد ، فينكر الاساليب القديمة ، ويدتها ويحاول القضاء عليها . ولنتقدم إلى تأييد ذلك بأدلة من ديوانه :

الموقف الأول

وفيه (كما ترى في أكثر شعره المدحي والرثائي) يتكلف الاسلوب الأعرابي ، فيقف في مدحه على الطلول ، ويركب النياق ، ويقطع الهواجل ، ويأتي بمتوَعَر الالفاظ ، مما يدل على سعة معرفته بأوابد اللغة وانه متأثر من محفوظاته الواسعة . وربما كان موقفه هذا هو الذي حمل الشيباني وسواه من علماء اللغة على التنويه بمقدرته اللغوية واحلاله المحل الرفيع بين أربابها . قال من قصيدة يمدح بها الرشيد :

يا حبذا سفوان ^١ من متربّع	ولربما جمّع الهوى سفوان ^٢
وإذا مررت على الديار مسلماً	فلغير دار أميمة الهجران
انّا نسبنا والمناسب ظنّة	حق رُميت بنا وانت حصان ^١
لما نزعْتُ عن الغواية والصبا	وخذتُ بي الشدنيّة المذعان ^٢
سبطُ مشافرها دقيق خطمها	وكأنت سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى في جلدها	يققُ كقرطاس الوليد هجان

ثمّ يصل على هذه الناقّة إلى الممدوح ويعدد فضائله .

وله من قصيدة في مدح الأمين :

أقول والعيس تعرّوري الفلاة بنا صُعر الأعنة من مثني ووحدان

١ نسبنا أي تغزلنا في الشعر .

٢ الشدنية المذعان أي الناقّة السلسة الرأس .

لذات لَوثٍ عَفْرَاةٍ عَذَاةٍ كَأَن تَضْبِيرُهَا تَضْبِيرُ بَنِيَانٍ^١
يا نَاقٍ لَا تَسْأَلِي أَوْ تَبْلَغِي مَلَكًا تَقْبِيلَ رَاحَتِهِ وَالرَّكْنَ سَيَّانَ
وَقَالَ يَمْدَحُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ مِنْ قَصِيدَةٍ
مُطْلَعَهَا : « أَيُّهَا الْمُنْتَابُ مِنْ عَفْرَةٍ » :

ذَا وَمَغْبِرٌ غَارِمُهُ تَحْسِرُ الْإِبْصَارُ عَنْ قُطْرِهِ^٢
لَا تَرَى عَيْنُ الْبَصِيرِ بِهِ مَا خَلَا الْأَجَالَ مِنْ بَقَرِهِ
خَاضَ بِي لُجْئِيٍّ ذُو جَرَزٍ يُنْفَعُ الْفَضْلَيْنِ مِنْ ضَفْرِهِ^٣
يَكْتَسِي عَشُونَهُ زَبْدًا فَنَصِيلَاهُ إِلَى نَحْوِهِ^٤
ثُمَّ يِعْتَمُ الْحَجَّاجُ بِهِ كَعَتَمَ الْفَوْفُ فِي عُثْرِهِ^٥
كُلُّ حَاجَاتِي تَنَاوَلَهَا وَهُوَ لَمْ تَنْقُصْ قُوَى أَشْرِهِ
ثُمَّ ادْنَانِي إِلَى مَلِكٍ بِأَمْنٍ الْجَانِي لَدَى حُجْرِهِ
وَمِثْلُ ذَلِكَ أَرْجُوزُهُ فِي الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَأَوَّلُهَا « وَبِلَدَةٍ فِيهَا زَوَّارٌ »
وَهِيَ طَوِيلَةٌ يَصِفُ رُكُوبَهُ وَرَحِيلَهُ إِلَى الْمَدُوحِ فِي عِدَّةِ أَبْيَاتٍ مِنْهَا :

عَسَفْتُهَا عَلَى خَطَرٍ وَغَرَّرَ مِنَ الْغَرَرِ
بِأَزَلٍ حِينَ فَطَرَ هَزَّهَ جَنِّ الْأَشْرِ^٦
لَا مَمْتَلِكَ مِنْ سَدَرٍ وَلَا قَرِيبَ مِنْ خُورٍ^٧
كَأَنَّهُ بَعْدَ الضَّمْرِ وَبَعْدَ مَا جَالَ الضَّفَرِ

-
- ١ ذات لوث أي ذات شدة . عفرانة شديدة كالاسد . تضبیرها أي اكتناز اللحم فيها .
 - ٢ يصف اتساع الصحراء ويريد بغبر الخارم أي قفر كالح الطرق تكل الابصار دونه .
 - ٣ و ٤ ذو جرز أي جل مكتنز اللحم شديد . الضفر جمع ضفار وهو حزام الرجل . العثون : الذقن . النصيل ، الحنك .
 - ٥ الحججاج ، ما حول العين . والفوف القشر . والعشر شجر . ومعنى الابيات : قطعت إلى المدوح صحراء واسعة لا يسكنها غير البقر الوحشي وكنت ممتطياً جلاً لقي من المشاق والحر ما لقي وهو مع ذلك لم يزل في نشاطه حتى بلغت به إلى ملك ... الخ .
 - ٦ البازل الجمل الذي طلع ثابه . جن الاشر عنقوان البطور .
 - ٧ الصدر تحير النظر من شدة الحر . والخور الضعف .

وانمَجَ فيّ فحسراً^١ جأب رباغ المشتغراً^٢

وكلها على هذا المنوال .

فأنت ترى في كل هذه القصائد محاكاة للشعراء الاعراب من وصف ناقة أو فرس يركبها توصلاً إلى أميره . وربما كان يقصد ذلك أحياناً تعزيزاً لمركزه الأدبي بين أدباء ذلك العصر . قال ابن رشيق بعد أن ذكر أن المولّد كان يتكلف ذلك ليجري على سنن الاقدمين : « وقد صنع ابن المعتز وابو نواس قبله ، ومرت معها في تلك الطرايق ما هو مشهور في اشعارهم^٣ » .

ويظهر ذلك في رثائه لاستاذه خلف الاحمر ، ولراويته ابي البيداء الرباحي . فمن رثائه للأول :

لا تتل العصم ^٤ في الهضاب ولا	شغواء تغزو فرخين في لجف ^٤
تحنو بجوشوشها على ضرم	كقعدة المنحني من الحرف ^٥
ولا شبوب باتت تؤرقه	النثرة منها بوابل قصف ^٦
غدا كوقف الهلوك ، ينهت	القطقط عن منبتيه والكثف ^٧
وفي مرثاته لأبي البيداء يقول :	
هل مخطىء حثفه غفر بشاهقة	رعى باخياها شتاً وطباقاً ^٨
أو لقوة أم انهمين في لجف	شبيبتها شفا خطم وآماقاً ^٩
أو ذو شياهم اغنّ الصوت ارقه	وبلّ سري ماخض الودقين غيدا
أو ذو نحائض اشباه اذا نسقت	مناسجاً وثنت ملطاً واطباقاً

١ أي جرى فأعيا .

٢ حار وحش فتي .

٣ العمدة ٢ - ٢٢٧ .

٤ - ٧ الشغواء العقاب . الجوشوش الصدر . الضرم فرخ العقاب . الشبوب الثور . النثرة اسم لثلاثة كراكب . القطقط المطر . وقف الهلوك أي أسوار الغانية شبه به للاستة .

٨ غفر أي وعّل . والشط والطباق نباتان .

٩ لقوة عقاب . ام نهمين أم فرخين . اللجف سرة الراوي . وما يلي وصف لبعض حيوانات القفر .

شَتُون حتى إذا ما صِفَن ذكَّرها من منهلٍ مُورداً فاشتقن واشتاقا
يَوْمَ عِيناً بها زرقاء طامية يرى عليها لجين الماء اطراقاً^١
زار الحِمام ابا البدياء مخترماً ولم يغادر له في الناس مطراقاً^٢

إلى آخر هذه الأبيات وهذا الكلام الاعرابي القحّ . تأمل ذكره في الرثاء للعفر ترعى الشثّ والطباق ، واللّفة أمّ الانهيمين في لجف عال ، والوبل الغيداق الماخض الودقين والشغواء تحنو بجؤشوشها على ضرم ، والشعوب (الثور) ينهت القطقط عن كتفه فترى ان شاعرنا الظريف خرج هنا عن « حضارته البغدادية » إلى خشونة البداوة ، ولم يكتف بمجاراة الأولين في ألفاظهم بل أخذ إخذهم في تشابيههم وصورهم الشعرية . ولا نرى تعليلاً منطقياً لذلك إلا ان نقول : ان ابا نواس ، على ميله إلى الاسلوب الحضري الجديد وعلى كرهه للاعراب وحياتهم ، لم يتحرر حلاً من اسلوبهم إما لشدة ما علق في ذهنه من محفوظات الشعر القديم ، أو لثبوت للرواة واللغويين مقدراته في اللغة . والذي يطالع ديوانه بتدقيق ويعارض ذلك بآراء العلماء فيه يرى متانة النظم وحسن الصناعة في مدائحه ومراثيه ، ولكنه لا يراه هناك ذا شخصية شعرية مستقلة - في هذا الموقف من شعره يظهر لنا الشاعر مقيّداً بقيود الزمان خاضعاً لاحكام العادة سائراً في مجرى « التقليد » العام . وإنما ابو نواس ابو نواس في موقفه الثاني .

الموقف الثاني

وهو مجلى عواطفه الطبيعية ووجدانه الحقيقي . وأكثر ما يكون ذلك في مجالس اللهو والسرور . وقد صدق إذ قال عن نفسه : « لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مؤنق وعلى حال ارتضيها من صلة أو وصل أو وعد بصلة . وقد قلت وأنا على غير هذه الحال

١ مركباً ببعضه فوق بعض .

٢ مطراق ، نظير .

أبياتاً لا أرضاها^١ :

فالشاعر الذي يحيى بالوصف الشائق والظرف الساحر ، فيجري الكلام من قلبه بلا كلفة ولا تصنع ، إنما يتجلى لنا عندما يجاري طبيعته ، كما يتجلى أبو نواس في خرباته وملاهيه . هنا يترك التحذلق والتنطّس ويرسل عواطفه عبارات راققة كقوله :

أترك الاطلاع لا تعباً بها	إنها من كل بؤس دانيه
واشرب الخمر على تحريمها	إنما دنياء داراً فانيه
من عقار من رآها قال لي	صيدت الشمس لنا في باطيه

وقوله :

وختر أنخت اليه راحلي	إناخة قاطن والليل داج
فقلت له اسقني صباء صرفاً	إذا سُرجت توقد كالسراج
فقال فان عندي بنت عشر	فقلت له مقالة من يناجي
أذقنيها لأعلم ذاك منها	فأبرز قهوة ذات ارتجاج
كان بنان مُمسِكها اشيمت	خضاباً حين تلمع في الزجاج

فشاعرنا في هذا الموقف يخرج عن الطريقة القديمة ، طريقة الوقوف على الطول وقطع الفاوز وتجشّم الاهوال توصلاً إلى مدح المقصود ، وعلى ذلك قوله :

صفة الطول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم
ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر وأخذ عليه ان لا يذكرها في شعره قال :

أعبرْ شعرك الاطلاع والمنزل القفرا	فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى نعت الطول مسلطاً	تضيق ذراعي ان اردّ له امرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة	وان كنت قد جشمتني مركباً وعرا

« فهو يحاهر بأن وصفه الاطلاع والفقر إنما هو خشية الامام والا-
فهو عنده فراغ وجهل^١ » .

ولم يكن ابو نواس على علو كعبه في وصف الخمر ومجالسها نسيج
وحده في ذلك . فقد تقدمه في الجاهلية والاسلام من وصف الخمر وأحوال
شاربيها ، نذكر منهم الاعشى وعديّ بن زيد ، ثم الاخطل والوليد بن
يزيد . والذي يراجع اشعار الوليد يرى بينها وبين اشعار ابي نواس من
أوجه الشبه ما يحملنا على الحكم بأن شاعرنا تأثر بطريقة الوليد . بل قد
ذهب أبو الفرج الاصفهاني إلى أبعد من ذلك فقال : « انه سلخ معاني
الوليد فجعلها في شعره وكررها في عدة مواضع^٢ » . ولتبيان ما نذهب اليه
من تأثر ابي نواس بطريقة الوليد ننقل للأخير الابيات التالية ونترك
للقارئ مقابلتها بالشعر النواسي ، وهي على حد قول الاصفهاني تنبىء
عن نفسها^٣ . قال :

اصدع شجيّ الهموم بالطربِ	وانعمْ على الدهر بآبنة العنبرِ
واستقبل العيش في غضارتهِ	لا تقفْ منه آثار مُعْتَقِبِ
من قهوة زانها تقادُها	فهيَ عجوزٌ تملو على الحِقَبِ
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها	من الفتاة الكريمة النَّسَبِ
فقد تجلّت ورقّ جوهرها	حتى تبدّت في منظرٍ عجبِ
فهي بغير المزاج من شرّ	وهي لدى المزج سائل الذهبِ

والوليد اشعار كثيرة في الخمر والغزل تتلصّس فيها روح شاعرنا وطبقته
من مولّدي العصر العباسي^٤ .

* * *

ومع انصراف ابي نواس للعبث النسائي والغلماني لا نجد له في ذلك

١ العمدة ١ - ١٥٥ .

٢ و ٣ الاغاني ٦ - ١١٠ .

٤ راجع الاغاني ٦ ص ٩٨ ١٣٦ .

من جمال الشعر ما يضارع شعره الحمري . فغزله ، على عذوبته أحياناً وظرفه ، متخنت ضعيف . ولعله في الغزل الغلاني أصدق عاطفة منه في النسائي ، على انه في كليهما لا يحلو لنا غير الغرائز الحيوانية السفلى التي تمّ عن تحرق شهواني يصل إلى درجة الاسفاف أحياناً وشتان ما بينه في ذلك وبين كبار شعراء الغزل من عذريين وغير عذريين . ففي اشعار هؤلاء قد تجد ما يشير فيك عواطف النفس ، ويريك جمال الحب ، ويصور لك المرأة تصويراً يروقك أو يستهويك . أما في غزل شاعرنا النواصي فلا ترى غير جوارٍ مهتكات وغلان فاسدين ، وأوصاف تدل على ما بلغه بعض القوم يومئذٍ من الانحطاط الاجتماعي .

أما خبرياته فتدل ، برغم ما يشوبها أحياناً من سوء المجون ، على خفة روح عرف بها ابو نواس في عصره . وقد وصفه بعض معاصريه بقوله : « بأنه كان أظرف الناس منطقاً . مليح الكلمة حسن الإشارة فصيح اللسان عذب الالفاظ حلو الشبائل » . « حق قيل : « ولم يكن شاعر في عصره إلا » وهو يحسده ليل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته . « ويقرن هذه الخفة الروحية بجمال فني يستهوي القارىء ، ويستثير فيه حاسة الطرب والاعجاب .

اتبعه إلى حانة وانظر كيف يدخلها مع رفاقه خفية . (والحانات عادة في ضاحية منزوية وأصحابها من اليهود والنصارى) ها هو يلاطف صاحبيتها وقد تكون من اصبح النساء ، فيداعبها ويسترق منها قبلة أو يربت على ظهرها ، وفي يده الدنانير يضعها أمامها ، ويستخفها إلى تقديم أفضل الخمر الممتقة . ثم انظر كيف يقودك معه إلى قبو قديم تحت الحانة فيريك نسيج المنكبوت على الدنان ، ثم يريك الخمار وقد ضرب بالبلزل بعضها فخرجت الخمر صباء مشرقة تطرد الظلام .

فجاء بها زيلية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا

ولست أشك أن الشاعر يصف حوادث واقعية في غرائه الحمرة ،
وان أكن أميل إلى الاعتقاد انه أحياناً يخترع الحديث إيهاجاً لزملائه . وفي
كلتا الحالتين ترى شعر أبي نواس الحقيقي وترى تدفق شعوره الصريح .
واليك تلخيص خمرية أخرى توضح ما نقصد إليه :

وليلة مظلمة قصدت ورفاقاً لي إلى بيت ختار ، فأخذنا نسير من
زقاق إلى زقاق حتى وصلنا إليه وقد هجع هو وأهل بيته . قرعنا الباب
فاستيقظ مذعوراً وتوجّس شراً من ادلاجنا في مثل تلك الساعة فلم يشأ
أن يخبئنا بل :

تناوم خوفاً ان تكون سعاية وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار خوفه وأيقن انّ الرحل منه خصيب
وبادر نحو الباب سعيّاً ملتبساً له طرب بالزائرين عجيب

ثم فتحه هاشماً منحنياً أمامنا ، وهو يقول مرحباً بالكرام . وجاء
بالمصباح فقلنا له : أسرع ، لم يبق من الليل إلا بقية قليلة . هات لنا خمر ك
الطيبة :

فأبدى لنا صهباء تم شبابها لها مرح في كأسها ووئوب
فلما اجتلاها للندامى بدا لها نسيم عبير ساطع وهيب

ثم جاءت جارية بيدها ميزهر فأخذت تغني لنا ونحن نشرب . وما
زلنا على هذي الحال ، كأس تذهب وكأس تجيء ، حتى غنّت لنا
« سرى البرق غريباً فحنّ غريب ، ففاضت مدامع العشاق منا وأمسينا
بين مسرور بنشوة الخمر وبالك من شدة الهوى ، حتى لاح الصباح
وقد غابت الشمرى العبور وأقبلت نجوم الثريا بالصباح تؤوب

* * *

ولنسمعه يقص علينا بلسانه الخاص حديث زيارة أخرى الى بعض هذه
الحانات ، ويصف لنا الخمار وامراته وميزانها الفشوم وخرها المعتقد ،

وكيف حل الخمر إلى رفاق كانوا ينتظرونه في بستان ، فأقاموا ردها
من الزمن يمتعون النفس بين الرياحين بعيدين عن أعين الرقباء
والحاسدين . قال :

إذا خطرت منك الهموم فداوها بكأسك حتى لا تكون هموم
إلى قوله :

فشمرت أثوابي وهولت مسرعاً وقلبي من شوق يكاد يهيم
إلى بيت خمار افاد زحامه له ثروة والوجه منه يهيم
وفي بيته زقّ ودنّ ودورق وباطية تروي الفتى وتنيم
ودهقانة ميزانها نصب عينها وميزانها للمشتري غشوم
فاعطيتها صفراً وقبلت رأسها على اني فيما أتيت ملّيم
وقلت لها هزّي الدنان قديمةً فقالت نعم اني بذاك زعيم

وبعد أن تحضر له الخمر من قبو قديم عتقت فيه يقول :

فرحتُ بها في زورق قد كتمتها ومن أين للمسك الزكيّ كتوم
إلى فتية نادمتهم فحمدتهم وما في نِدامي ما علمت لئيم
فتّمت نفسي والندامى بشرها فهذا شقاء مرّ بي ونعيم
لعمري لأن لم يغفر الله ذنبها فانّ عذابي في الحساب أليم

ولو سألت نفسك ما الذي يستخفك في حديث كهذا - حديث الخمر
والعبث والمجون لصعب عليك الجواب ، ولكنه في الحقيقة مستتر في
تضاعيف الابيات - هو هذه الحفة الروحية في الشاعر - هذا الظرف
الادبي الذي كان يحبيه إلى الناس . ولو انه كان غير ذلك - لو كان
سمج الروح واللسان ، لاستقلته ولاشمازت نفسك من استماع أحاديثه .

شخصيته في شعره

ليس لأبي نواس في غير شعره الطبيعي (الغزلي والطردى والخمري)

شخصية خاصة . وقد مرت بنا صورته في غزله ، وانه هناك يحلو لنا ضعف النفس والنزعات البهيمية السافلة . أما طردياته فاراجيز تصف الكلاب والفهود وطيور الباز ، وما إلى ذلك من أسباب الصيد والطرود . وهو فيها شاب مرح يتنعم بقوة الشباب وعشرة أهل الرخاء ، ويقرن ذلك بحمال في الوصف ورشاقة في التعبير . وإليك مثالين من طردياته قال :

لما تجلّى الليل وابيض الأفق^١ وانجاب ستر الليل عن وجه الطرق^٢
 باكرني سهل الحيسا والخلق^٣ ندب^٤ إذا استندبته شهم لبق^٥
 يدعو إلى الصيد ألا قلت انطلق^٦ بأكلب غُضف صحيجات الحدق^٧
 من اصفر اللون ومبيض يقق^٨ كأنما اذناه من بعض الحرق^٩
 لو يلمص الحد باذن لالتصق

وقال ينمت كلباً اسمه خلاب لسعته حية فمات :

يا بؤس كليبي سيد الكلاب قد كان اغنائي عن العقاب^١
 وكان قد اجزى عن القصاب وعن شرائي جلب الجلاب^٢
 يا عين جودي لي على «خلاب» من للظباء المفر والذئاب^٣
 خرجت والدنيا إلى تباب به وكانت عدتي ونابي^٤
 اصفر قد خرّج بالملاب كأنما يدهن بالزرياب^٥
 فبينما نحن به في الغاب اذ برزت كالحة الانياب^٦
 رقصاء جرداء من الثياب لم ترع لي حقاً ولم تحابي^٧
 فخرّ وانصاعت بلا ارتياب كأنما تنفخ من جراب^٨

١ أي بدا النهار على الطريق .

٢ باكرني صديق شهم الخ .

٣ الغضف : المسترخية الأذان من الكلاب .

٤ جلب الجلاب أي المعيد .

٥ الزرياب ماء الذهب . والملاب طيب يشبه الزعفران .

لا أبتُ ان أبتِ بلا عقاب حتى تذوقي أوجع العذاب
وكل طردياته على هذا النمط ، يصف فيها ما كان يتسلّى به أهل
الرخاء من صيد الغزلان وسواها . وهي صورة رشيقة للبيئة التي كان يعيش
فيها الشاعر .

* * *

قلنا انه في غزل ابي نواس تتجلى لنا « بهيمته » ، وفي طردياته
مرحه وترفه . على ان في شخصيته شيئا أعمق من ذلك ننفذ اليه من خلال
اقداحه ومجالس سكره . ففي شعره المخمري يقرن البهيمية والمرح بتشاؤم
قائم يذهب بأناقة الحياة ويحرّدها من كل قيمة وجمال . وانك إذا دقت
في تحليل شعره لتتعرّف به إلى نفسيته الحقيقية تجده - على حبه للحياة -
مستخفّا بها . فهو من طلاب اللذة الساتحة ينصرف إلى الملاهي ليخدر
أعصابه فلا يرى آلام الحياة ومتاعها قال :

غدوت إلى اللذات منهتك السر وافضت بنات السرّ مني إلى الجهر
وهان عليّ الناس فيما أريده بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
رأيت الليالي مرصّات لمديني فبادرت لذاتي بمبادرة الدهر
وقد نقل المرزباني القصة التالية عن الجّاز قال :

كنت عند ابي نواس . قال (ابرونواس) اسمع ابياتا حضرت . قلت
هات ، فأنشدني :

وملحة باللوم تحسب انني	بالجهل أوثر صعبة الشطّار
بكرت عليّ قلومي فأجبتها	اني لأعرف مذهب الابرار
فدعي الملام فقد أطمعت غوايتي	وصرفت معرفتي إلى الانكار
ورأيت إتياني اللذاذة والهوى	وتعجلا من طيب هذي الدار
أحرى واحزم من تنظر آجل	عليّ به رجم من الاخبار

١ أهل الحبث والدعاء .

ما جاءنا أحدٌ يخبرُ انه في جنةٍ مَنْ مات أو في نار

فلما بلغ إلى هذا البيت قلت له : يا هذا ان لك أعداء ، وهم
ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله في نفسك ودع الافراط في
المجون ، واكتمها . قال : لا والله ، لا اكتمها خوفاً ، وان قضي شيء
كان . فمني الخبر إلى الفضل بن الربيع ، ثم إلى الرشيد ، فما كان
بعد هذا إلاّ اسبوع حتى حُبس^١ .

ومن قوله :

أعاذلَ أقصري عن بعض لومي فراحي توبتي عندي يخيب
تعيّرني الذنوب وأي حرٍ من الفتيان ليس له ذنوب
غرّيتِ بتوبتي ولججت فيها فشقي الآن جيبك لا اتوب

هذه هي روح ابي نواس يرى الدهر واقفاً له بالمرصاد - يرى الموت
نهاية كل شيء فيقول لنفسه : وما نفع الحياة وماذا نجد فيها غير الشقاء ؟
ويشعر بقوته وشبابه فيلب إلى غمار المسرات الزائلة ويخوض فيها
وهو يقول :

طربت إلى الصنج والمزهر وشرب المدامة بالأكبر
والقيت عني ثياب الهدى وخضت مجوراً من المنكر
واقبلت اسحب ذيل المجون وأمشي إلى القصف في مثرر

ولا يقف عند الاستخفاف بقيمة الحياة بل يقرنه باستخفاف بنواهي
الادب والشرعية كقوله :

ولاح لحاني كي يحىء ببدة وتلك لعمري خطة لا اطيعها
لحاني كي لا أشرب الخمر انها تورث وزراً فادحاً من يذوقها
فما زادني اللاحون إلا لجاجة عليها لاني ما حييت رفيقها
أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها

فنحن وان لم نسكن الخلد عاجلا فما خلدنا في الدهر الا رحيقها
وقوله :

بكيت وما أبكي على دمنٍ قفر وما بي من عشق فابكي على الهجر
ولكن حديثاً جاءنا عن نبينا فذاك الذي أجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا فلما نهى عنها بكيت على الخمر
فأشربها صرفاً واعلم انني أعزّر فيها بالثمانين في ظهري

ولم يقلل هذا الاستخفاف فيه تقدّمه نحو المشيب ، فمثله لا يقف
عن اعتبار أو نظر في العواقب بل عن ضعف أو كلال . اسمعه يذكر
أيام الشباب ، وكأنك تشعر بأسفه ان الدهر لم يبق له غير القوة على
معاورة الخمر :

كان الشباب مطيّة الجهل ومحسن الضحكات والهزل
كان الجمال إذا ارتدبت به ومشيت اخطر صيت النعل^١
كان المشفع في مآربه عند الفتاة ومدرك التبّل^٢
والباعثي والناس قد رقدوا حتى أبيت خليفة البعل
والآمري حتى إذا عزمت^٣ نفسي أعان يديّ بالفعل
فالآن صرت إلى مقاربة^٣ وحططت عن ظهر الصبارحلي^٣
والراح اهواما وان رزأت بُلغ المعاش وقللت فضلي

إلى ان يقول :

فاعذر أخاك فانه رجل مرنت مسامعه على العذل

* * *

ولكن هل ادرك الشاعر ما يتوخاه من الدنيا ؟ نحن هنا أمام مسألة

١ الصيت شديد الصوت .

٢ التبّل أي الثأر .

٣ المقاربة ترك الغلو وقصد السداد .

عقلية لا يسعنا الاغضاء عنها . والجواب عليها يتناول أحد أمرين :

١ - ان الحياة اثنان ما في أيدينا ، وان سعادتها قائمة على تفهم قيمتها الحقيقية والسعي لادراكها .

٢ - أو ان الحياة مهزلة لا قيمة لها ، وما على العاقل الا ان يتناساها بالانغماس في الملذات الدنيوية .

ولسنا الآن في مقام يمكننا من تحليل هاتين النظريتين تحليلاً فلسفياً وافياً ، على انه لا بد من القول ان الاولى منها نظرة جدية الى الحياة ، نظرة إلى جمالها الحقيقي وفرصها الثمينة ، وان الثانية نظرة استخفاف بها وانصراف الى سخائفها .

في الاولى يحاول الانسان ان يسعى نحو مرمى عالٍ قد لا يحصل عليه ، ولكن السعادة كل السعادة في هذا السعي المتواصل ، وبعبارة أخرى في شعور الانسان بالتقدم نحو المثل العليا . وفي الثانية يتملك الانسان خور العزيمة فيقف فشلاً ويحاول ان يستر فشله بمخدرات الحياة الباطلة . ومن أفضل الامثلة على ذلك ما تراه في رباعيات عمر الخيام من ميل الشاعر المفكر الى نسيان الوجود وآلامه بالخمير . ولعلّ الخيام تأثر بشعر ابي نواس ومذهبه ، وجرفته تيار التشاؤم إلى هذه الحياة السلبية . وانك لتجالس ابا نواس في مجالس لهوه فتسمع قهقهته ونكاته ، ويطربك ظرفه وجمال حديثه ، وتمجيبك خفة روحه بين أقداحه وندمائه ، ولكنك تستشف من وراء ذلك مرارة وتشاؤماً ، ربما كانا سبب عبثه بمحقائق الحياة واسترساله في اسباب الملاهي . ولا يظهر ذلك في ابدان قوته وريمان شبابه ظهوره بعد ان اضعفه الدهر وحط عن ظهر الصبار حله كما قال . ذلك الاستخفاف الذي عرف به وهو في نشاط العمر تحول أيام الضعف إلى اسفٍ مؤلم ، لا عن تقوى ولكن عن شعور بالفشل . كان يشرب الخمر ويقول غير مبالي :

الراح شيءٌ عجيب انت شاربه فاشرب وان حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على حراء صافية صرّ في الجنان ودعني اسكن النارا

ثم خدت فيه قوة الشباب وفارقتهُ أيام الهناء والرخاء فرأى ماضياً
متهتكاً وفرصاً ضائعة ونفساً شائبة بالمعاصي فصاح آسفاً :

دبّ فيّ الفناء سفلاً وعلوا واراني اموت عضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي الا نقصتني بمرها بي جزوا
ذهبت جدتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا
لهف نفسي على ليلٍ وأيامٍ تملتينّ لعباً ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة فاللهمّ صفحاً عنا وغفراً وعفوا

قابل هذه الابيات بما ذكرناه سابقاً وقابلها بقوله :

ردّا عليّ الكأس انكما لا تدريان الكأس ما تجدي
خوفتاني الله ربكما وكخيفتيه رجاؤه عندي
لا تعذلا في الراح انكما في غفلة عن كنه ما تسدي
ان كنتم لا تشربان معي خوف العقاب شربتها وحدي

وقوله من قصيدة :

ألم ترني ابحت الراح عِرضي وعضّ مراشف الظبي المليح
وأني عالم ان سوف تنأى مسافة بين جثماني وروحي

وانظر كيف تحوّل اثره إلى ضعف واستخفافه إلى شعور بالفشل .
وقد ذهب بعضهم انه كان يقترف ما يقترف اتكالا على الله ، ويستشهدون
على ذلك بقوله :

لا تحظر العفو ان كنت امرءاً حرجاً فان حظركه بالدين إزرء
وقوله :

حتى إذا الشيب فاجاني بطلمته أقبح بطلمة شيب غير مبخوت

عند الغواني إذا ابصرن طلعتنه
فقد ندمت على ما كان من خطل
ادعوك سبحانه اللهم فاعف كما
أو قوله من قصيدة :

بادر شبابك قبل الشيب والمار
وحشحت الكاس من بكر لابكار
إلى قوله :

فذاك قبل نزول الشيب عادتنا
لكننا نرتجي غفران غفار
إلى آخر ما نراه من كلامه الزهدي . وليس ذلك بأدل على التوبة
وحب التزهد والتجدد عما هو على الشعور بالضعف والخور والخوف .
جاء في الاغاني عن محمد بن ابراهيم الصوفي قال :

« دخلنا على ابي نواس نعوذه في علته التي مات فيها ، فقال له علي
ابن صالح الهاشمي : يا أبا علي ، أنت في أول يوم من أيام الآخرة وآخر
يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله هنات ، فتب إلى الله عز وجل .
فبكى ساعة ثم قال ساندوني ساندوني . ثم قال أخوف بالله عز وجل ،
وقد حدثني حماد بن مسلم عن زيد الرقاشي عن انس بن مالك ، قال :
قال رسول الله (صلعم) : لكل نبي شفاعة ، واني اختبأت شفاعتي لأهل
الكبائر من امتي يوم القيامة . أفتراني لا أكون منهم ؟ »

هذا الشعور بفشل الابطال هو الذي كان يدفع شاعرنا في أواخر أيامه
إلى الندم والتحسر ، وقد صدق الجرجاني إذ قال : « فلو كانت الديانة
عاراً على الشعر ، وكانت سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر ، لوجب
أن يحى اسم ابي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت
الطبقات » .

على انه لا يجوز ان نحصر الحكم على فن الشاعر في منطقة الشرائع

الروحية والاجتماعية التي اتفق عليها المصلحون والمهذبون . فالشعر لا يتقيد بذلك ، وما جماله قائماً فقط على ما فيه من عبر وارشاد ، بل على ما يتجلّى فيه من شعور وحياة . الادب فنّ تتجلّى فيه خوالج النفس ، وعلى هذا التجلّي تتوقف منزلة الشاعر الفنية .

نعم ان ابا نواس لم يزهد لتجدّد في طبيعته ، بل مات كما عاش . وقد ترك لنا شعراً يحفظ لالسموّ عواطفه ، ولكن لحفّة روحه ، وجمال صنعته ، ولتمثيله الخلاب لحياته وحياة بيئته .

المختار من شعر أبي نواس

١ — خمرياته ومجالس لهوه

وداوني بالتي

دع عنك لومي فلان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها لو مسها حجرٌ مسته سراء

* * *

قامت بابريقها والليل معتكرٌ فلاح من وجهها في البيت لألاء^١
فارسلت من فم الابريق صافية كأنما اخذها بالعين اغفاء
رقت عن الماء حق ما يلائمها لطافة وجفعا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها حق تولد انوارٌ واضواء
دارت على فنية دار الزمان بهم^٢ فما يصيبهم الا بما شاءوا
لتلك ابكي ولا ابكي لمنزلة كانت تحل بها هند واسماء^٣
حاشا لدرة ان تبني الخيام لها وان تروح عليها الابل والشاء^٤

١ قبل هذا البيت بيت محذوف يصف به فتاة ساقية .

٢ وفي رواية — دان الزمان لهم .

٣ أي أنا ابكي عليها لا على الطلول البالية .

٤ درة ، كناية عن الحبيبة .

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة^١ حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء^٢
لا تحظر المغول^٣ كنت امرءاً أخرجاً فان حظركه في الدين إزاء^٤

لها مرح في كأسها

دع الربع ما للربع فيك نصيب^١ وما ان سبتني زينب^٢ وكعوب^٣
ولكن سبتني البابلية^٤ انها لمثلي في طول الزمان سلوب^٥
جفا الماء عنها في المزاج لأنها خيال لها بين العظام ديب^٦
إذا ذاقها من ذاقها حلقت به فليس له عقل يعد^٧ أديب^٨
وليلة دجن قد سريت بفتية^٩ تنازعها نحو المدام قلوب^{١٠}
إلى بيت ختار ودون محله قصور منيفات لنا ودروب^{١١}
ففرّج من إدلاجنا بعد هجمة وليس سوى ذي الكبرياء رقيب^{١٢}
تناوم خوفاً ان تكون سعاية وعأوده بعد الرقاد وجيب^{١٣}
ولما دعونا باسمه طار دُعره وايقن ان الرجل منه خصيب^{١٤}
وبادر نحو الباب سعيًا ملبيًا له طرب بالزائرين عجيب^{١٥}
فاطلق عن ثأبيه وانكب ساجداً لنا وهو فيما قد يظن مصيب^{١٦}
وقال ادخلوا حبيتم من عصابة فمزلكم سهل^{١٧} لدي رحيب^{١٨}
وجاء بمصباح له فأثاره وكل الذي ينبغي لديه قريب^{١٩}
فقلنا أرحنا هات ان كنت بائعاً فان الدجى عن ملكه سيفيب^{٢٠}
فابدى لنا صباه تم شبابها لها مرح في كأسها ووئوب^{٢١}
فلما اجتلاها للندامى بدا لها نسيم عبير ساطع ولهب^{٢٢}
فجاء بها تحمدها ذات مزهر يتوق اليها الناظرون ريب^{٢٣}

١ تعريض بالنظام احد رؤساء المعتزلة المتوفى ٨٢٣١هـ، والمعتزلة تشدد التكبير على مرتكبي المعاصي .

٢ أديب نعت عقل أي ليس له عقل أديب يعد في العقول .

٣ كانت الحانات عادة في غلات بعيدة عن أعين الناس .

٤ ذو الكبرياء أي الله ذو الكبر . والادلاج السير ليل .

٥ أي مغنية تحمل عوداً . والريبب المطيبة أو المنعمة .

فما زال يسقينا بكأس مجدة
وغنّى لنا صوتاً بحسن ترجع
فمن كان منا عاشقاً فاض دمه
فمن بين مسرور وباكٍ من الهوى
وقد غابت الشمى العبور واقبلت
تولّي واخرى بعد ذاك تؤوب
«سرى البرق غربياً فحنّ غريب»
وعاوده بعد السرور نجيب
وقد لاح من ثوب الظلام غيوب
نجوم الثرى بالصباح تثوب

وحسبك ضوءها مصباحا

ذكر الصَّبوحَ بسحرة فارتاحا
أوفى على شرف الجدار بسدقة
بادرُ صباحك بالصَّبوح ولا تكن
ان الصَّبوح جلاء كل غمّر
وخدينٍ لذات معلّل صاحبٍ
نبهته والليل ملتبس به
قال ابغني المصباح قلت له انشد
فسكبت منها في الزجاج شربة
من قهوة^٢ جاءتك قبل مزاجها
صبياء تفترس النفوس فيما ترى
شكّ البزّال^٣ فؤادها فكأنما
عمرت يكاتك الزمان حديثها
فاشاع من اسرارها مستودعاً
فأنتك في صوّر تداخلها البلا
فكانها والكأس ساطعة بها

وأملته ديك الصباح صياحا
غرداً يصفق بالجنّاح جناحا^١
كمسوفين غدوا عليك شحاحا
بدرت يديه بكأسه الاصباحا
يقتات منه فكاهة ومزاحا
وأزحت عنه نقابه فانزاحا
حسي وحسبك ضوءها مصباحا
كانت له حتى الصباح صياحا
عطّلاً فالبسها المزاج وشاحا
منها بهنّ سوى السبات جراحا
اهدت اليك بريحتها تفتحاً
حتى إذا بلغ السكامة باحاً
لولا الملامة لم يكن ليباحا
فازالهنّ واثبت الأشباحا
صبحٌ تقارب امره فانصاحا

١ بسدقة أي قبيل الفجر .

٢ القهوة من أسماء الحر .

٣ حديدة يفتح بها الدن .

روحان في جسد

ما زلت استلُّ روح الدنّ في لُطفٍ واستقي دمه من جوف مجروح
حتى انتثيت ولي روحان في جسدي والدنّ منطرح جسمًا بلا روح

لا جفّ دمع الذي يبكي على حجر

عاج الشقيّ على رسم يسائله وعجت أسأل عن ختارة البلد^١
يبكي على طلل الماضين من أسدي لا درّ درّك قل لي من بنو اسد
ومنّ قيمٌ ومنّ قيسٌ ولفسها؟ ليس الاعارب عند الله من احد
لا جفّ دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين ناعت خمرٍ في دساكرها وبين بالكٍ على نؤيٍ ومنتضدٍ^٢
دع ذا عدمتك واضربها معتقة صفراء قفرق بين الروح والجسد
من كف مضطمر الزنار معتدل كأنه غصن بانٍ غير ذي أوَدٍ
أما رأيت وجوه الارض قد نضرت وألبستها الزرابي نثرة الاسد^٣
حاك الربيع بها وشياً وجلّلتها بيانع الزهر من مثني ومن وحّد
واستوفت الخمر احوالاً مجرّمة واقترّ عيشك عن لذاتك الجدد
فاشرب وجد بالذي تحوي يدك لها لا تدخر اليوم شيئاً خوف فقرٍ غد
يا عاذلي قد أتتني منك بادرة فان تغمدها عفوي فلا تعدّ
لو كان لومك نصحاً كنت أقبله لكنّ لومك موضوعٌ على الحسد

تفتّر عن در

خفيت عليك محاسن الخمر أم غيرتك نوائب الدهر

١ يريد بالشقي هنا الشاعر الذي يبكي على الطول .

٢ ما أعظم الفرق بين من يصف الخمر ومواطنها وبين من يبكي على الآثار . والنؤي الحفرة حول الحيمة . والمنتضد المقام أو ما نضد من متاع الحيمة .

٣ نثرة الاسد اسم لثلاثة كواكب ، يريد بذلك أن مطرها البس الارض بسطاً من الازهار .

فصرفت وجهك عن معتقة^١ تفتّر عن دُرٍّ وعن شذر^١
يسعى بها ذو غنّة غنج^٢ متكحلّ اللّحظّات بالسحر
ونسيت قولك حين تشربها فتزول مثل كواكب النّسر^٣
« لا تحسبن عُنُقار خابية^٤ والهمّ يجتمعان في صدر »

اقننا بها

ودارِ ندامي عطّلوها وادبلّوا بها أثر^١ منهم جديد ودارس^١
مساحب من جر الزقاق على الثرى واضغات رِيحان جنّي ويابس
ولم ارَ منهم غير ما شهدت به بشرق^٢ سابط الديار البسابس^٣
حبست بها صبحي فجذّدت عهدم واني على امثال تلك لحابس
اقننا بها يوماً ويومين بعده ويوماً له يوم الترحّل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية^٤ حبتّها بأنواع التصاوير فارس^٤
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهي تدّريها بالقسيّ الفوارس
فللخمر ما زُرّت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

اجدت ابا عمرو فجود لنا الخرا

وفتيانِ صدق قد صرفت مَطِيّتهم إلى بيت خمار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنّار ان ليس مسلما ظننا به خيراً فظنّ بنا شرّاً
فقلنا على دين المسيح ابن مريم ؟ فاعرض مزوراً وقال لنا هُجرا
ولكن يهوديّ يحبّك ظاهراً ويضمّر في المكنون منه لك الغدرا

١ الشذر قطع الذهب .

٢ كوكب النسر اسم نجم ، أي فتنب في الفم غياب ضوء النجم وراء الأفق .

٣ سابط مكان بالمدائن ، وهذه الابيات قبلت في مجلس هو هناك (زهر الآداب للحصري ،

٣ - ١٧٥) .

٤ عسجدية أي كأس ذهبية عليها صور فارسية .

فقلت له ما الاسم قال سمّوأل
وما شرّفتني كنية عربية
ولكنها خفّت وقلّ حروفها
فقلنا له عجباً بظرف لسانه
فأدبر كالمزورّ يقسم طرفه
وقال لعمري لو نزلتم بغيرنا
فجاء بها زيتيّة ذهبيّة
خرجنا على اتّ المقام ثلاثة
عصابة سوء لا ترى الدهر مثلهم
إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم
ولكنني أكنى بعمرو ولا عمرا^١
ولا اكسبني لا ثناء ولا فخرا
وليس كأخرى إنما جعلت وقرا^٢
اجدت ابا عمرو فجود لنا الحمرا
لأرجلنا شطراً وواجهنا شطرا
للمناكم لكن سنوسعكم عذرا
فلم نستطع دون السجود لها صبرا
فطابت لنا حتى أقننا بها شهرا
وان كنت منهم لا بريئاً ولا صفرا
يحتونها حتى تفوتهم سكرا

رضيت من الدنيا بكأس وشادن

غدوت على اللذات منتهك السرّ
وهان عليّ الناس فيما أريده
رأيت الليالي مُرصداتٍ لمدّتي
رضيت من الدنيا بكأس وشادن
مُدّام ربت في حجر نوح يديرها
صحيح مريض الجفن مُدنٍ مباعده
كانّ ضياء الشمس نبط بوجهه
إذا ما بدت ازرار جيب قميصه
فاحسن من ركض إلى حومة الرغى
فلا خير في قوم تدور عليهم
وافضت بنات السرّ مني إلى الجهر
بما جئت فاستغنيت عن طلب العذر
فبادرت لذاتي مبادرة الدهر
تخيّر في تفصيله فطّين الفكر
عليّ ثقل الردف مطّمر الخصر
يمت ويحيي بالوصال وبالهجر
وبدر الدجى بين الترائب والنحر
تطلّع منه صورة القمر البدر
واحسن عندي من خروج إلى النحر^٣
كؤوس المنايا بالمتقفة السمر

١ أي أدعى ابا عمرو وليس لي ولد بهذا الاسم .

٢ وليست كالكنية الأخرى الثقيلة .

٣ ذاك عندي أفضل من جهاد الحرب وأفضل من أن اخرج إلى نحر الذبايح .

تَحِيَّاتِهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ظَبْيُ الْمَشْرِفِيَّاتِ الْمُزِيرَةِ لِلْقَبْرِ

وَاهْتَدَى سَارِي الظَّلَامِ بِهَا

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ	نَتَّ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَنْسَ ^١
فَاسْقِنِي الْبَكْرَ الَّتِي اخْتَمَرَتْ	بِخَمَارِ الشَّيْبِ فِي الرَّحِيمِ ^٢
ثُمَّتْ انْصَاعَاتُ الشَّبَابِ لَهَا	بَعْدَ مَا جَازَتْ مَدَى الْهَرَمِ
فَهِىَ لِلْيَوْمِ الَّتِي بُوْزِلَتْ	وَهِيَ تَرِبَ الدَّمَرُ فِي الْقِدَمِ
عُتِقَتْ حَتَّى لَوْ اتَّصَلَتْ	بِلِسَانٍ نَاطِقٍ وَفَمٍ
لَا حَتَبَتْ فِي الْقَوْمِ مَائِلَةٌ	ثُمَّ قَصَّتْ قِصَّةَ الْإِمَامِ ^٣
فَرَعَتْهَا بِالْمَزَاجِ يَدٌ	خَلَقَتْ لِلسَّيْفِ وَالْقَلَمِ
فِي نَدَامَى سَادَةِ زُهْرٍ	أَخَذُوا اللَّذَاتِ مِنْ أُمِّ ^٤
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ	كَتَمَشْتِي الْبَرَّ فِي السَّقَمِ
فَعَلَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مَزَجَتْ	مِثْلَ فَعْلِ الصَّبْحِ فِي الظُّلَمِ
وَاهْتَدَى سَارِي الظَّلَامِ بِهَا	كَاهْتِدَاءِ السَّفَرِ بِالْعِلْمِ ^٥

فَهَذَا شَقَاءُ مَرِّ بِي وَنَعِيمِ

إِذَا خَطَرَتْ مِنْكَ الْهَوْمُ فَدَاوَهَا	بِكَأْسِكَ حَتَّى لَا تَكُونَ هَوْمُ ^١
أَدْرِهَا وَخُذْهَا قَهْوَةً بَابِلِيَّةً	لَهَا بَيْنَ بَصْرَى وَالْعِرَاقِ كَرُومُ ^٢
وَلَا عَرَفْتَ نَاراً وَلَا قِيدَرَ طَابَخِ	سَوَى حَرِّ شَمْسٍ إِذْ تَهَيَّجَ سَمُومُ

١ حكم اسم القبيلة التي كان ينتمي إليها .

٢ لهذا البيت عدة تفاسير منها: أن خمار الشيب هو نسج العنكبوت الذي حول الدن . وقد كنى عن الدن بالرحم . ومنها أن الشيب إشارة إلى ما يعاين الكرم من الوبر الأبيض . والكرمة رحم الخمر على الجوار .

٣ أي جلست العرفساء وأخذت تقص عليهم أخبار الأقدمين .

٤ من أمم أي من أقرب الطرق .

٥ كما يهتدي المسافرون بأعلام الطريق .

لها من ذكي^١ المسك ريح زكية
 فشمّرت أثوابي وهرولت مسرعاً
 إلى بيت خمار افاد زحامه^٢
 وفي بيته زق^٣ ودن^٤ ودورق
 فأزقاه سود وجر^٥ دنانه
 ودهقانه^٦ ميزانها نصب عينها
 فاعطيتها صفراً وقبّلت رأسها
 وقلت لها هزّي الدنان قديمة^٧
 الست تراها قد تعفّت رسومها
 ذخيرة دهقان^٨ حواها لنفسه
 فقلت بكم رطل^٩؟ فقالت باصفر
 فرحت بها في زورق قد كتبتها
 إلى فتية نادمتهم فحمدتهم
 فتمتعت نفسي والندامي بشرها
 لعمرى لئن لم يغفر الله ذنبها

فلسها بالروح والريحان

لا تخشعن^١ لطارق الحدائق
 أو ما ترى ايدي السحائب رقت
 من سوسن غص القطاف وأخزم^٢
 وجني^٣ ورد يستبيك بحسنه
 وادفع همومك بالشراب القاني
 حلل الثرى ببدايع الريحان
 وبنفسج وشقائق النعمان
 مثل الشموس طلعت من اغصان

١ افاده أي أربحه مالا .

٢ دهقانة أي سيدة وهي البائعة هنا .

٣ هذا البيت وما بعده يصف قدم هذه الحجرة وانها كانت محفوظة لدهقان في دنات نسج عليها
 المنكبوت نسيجه فأصبحت لا يميز أحدهما من الآخر .

٤ الدهقان كلمة فارسية معناها رئيس الاقليم .

حمرأً وبيضاً يُجتنَيْن وأصفرأً
كمقود ياقوت نُظْمَن ولؤلؤ
ومن الزبرجد حولن ممثلاً
فاذا الهموم تعاورتك فسلفتها
وملوّنأً ببدايع الألوان
اوساطهنّ قلائد العقيان
سمطاً يلوح بجانب البستان
بالراح والريحان والندمان

ديني لنفسي ودين الناس للناس

إني عشقت وما بالعشق من بأس
ما لي وللناس لم يلحونني سفهاً
ما للعداة إذا ما زرت مالكتي
الله يعلم ما تركي زيارتك
ولو قدرت على الاتيان جئتكم
وقد قرأت كتاباً من صحائفكم
ما مرّ مثل الهوى شيء على راسي
ديني لنفسي ودين الناس للناس
كانّ أوجههم تطلّي بأنقاس^١
الا مخافة اعدائي وحرامي
سعيّاً على الوجه أو مشياً على الراس
لا يرحم الله الا راحم الناس

نشقى ويلتذ خيالانا

إذا التقى في النوم طينفانا
يا قرّة العين فما بالنا
لو شئت اذ احسنت لي نائماً
يا عاشقين التقيا في الكرى
كذلك الاحلام غرارة
عاد لنا الوصل كما كانا
نشقى ويلتذّ خيالانا
اقتمت احسانك يقظانا
فأصبعا غضبي وغضبانا
وانما تصدق أحبابنا

ومن أقواله في جنان :

غضبت لهوى في الكتاب كثير
كتب الكتاب على خلاف ضميره
لا والذي ان شاء صيرنا معاً
قالت أراد خيانتني وغروري
فألهو فيه لكثرة التغير
فاداك من حزن هناك مروري

١ انقاس جمع نفس وهو الخبر الاسود .

ما كان ذاك لما أتى من قولها مني ولا للسهو والتقصير
كُتبت يميني والدموع سواكب صفة اللسان بما يكنّ ضميري
فأهوا من قبَل الدموع وإنما تجري دموع العاشق المهجور

وقال :

أين الجواب وأين ردّ رسائلي قالت ستنظر ردّها من قابل
فددت كفي ثم قلت تصدّقوا قالت نعم بحجارة وجنادل
ان كنت مسكيناً فجاوز بابنا وارجع فما لك عندنا من نائل
يا ناهر المسكين عند سؤاله الله عاتب في انتهار السائل

٢ — من مدائح واوصافه

وهو لا يخرج في معظمها عن مذاهب الشعراء المتقدمين

قال يمدح الأمين

يا دارُ ما فعلت بك الأيام ؟ ضامتكِ والايام ليس تضام
عَرِمَ الزمان على التدين عهدتهم بك قاطنين ، وللزمان عُرَام
أيام لا أغشى لأهلك منزلاً الا مراقبة عليّ ظلام
ولقد نهزت مع الفواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث اساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عُصرة كل ذاك إقام
وإذا المطي بنا بلغن عمداً فظهورهن على الرجال حرام
قرّبنا من خير من وطى الثرى فلها علينا حرمة وذمام

١ نهز بالدلو أي ضرب بها الماء لتمتلىء . ومعنى البيت انه شارك الفواة في لهوهم وماشاهم في ضلالهم .

رَفَعَ الحِجَابَ لَنَا فَلَاحَ لَنَاظِرٍ قَرَّ تَقَطَّعُ دُونَهُ الْأَوْهَامِ
مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِجَبَلِهِ لَا يَعْتَرِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ
فَالْبَهْوُ^١ مُشْتَمِلٌ بِبَدْرِ خِلَافَةِ لِبَسِ الشَّبَابِ بِنُورِهِ الْإِسْلَامِ
أَنْ الَّذِي يُرْضِي الْإِلَهَ بِهَيْدِهِ مَلِكٌ تَرُدِّي الْمَلِكَ وَهُوَ غَلَامُ
مَلِكٌ إِذَا اعْتَسَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ رَأَيْ يَفْلُ السَّيْفِ وَهُوَ حَسَامُ
فَسَلْتَ لِلْأَمْرِ الَّذِي تَرْجَى لَهُ وَتَقَاعَسْتُ عَنْ يَوْمِكَ الْإِيَامِ

وقال يمدح الفضل بن الربيع

وعظمتك واعظة القدير ونهتك آية الكبير^٢
ورددت ما كنت استعير ت من الشباب إلى المعير
فالآن صرت إلى النهي وبلوت عاقبة السرور^٣
هذا وبحر تنائف^٤ وعرا الاجازة والعبور^٥
للجن فيه حاضر جم المجالس والسمير^٥
قاربت من مبسوطه بالعتريس العيسجور^٦
لأزور صفو الله في الـ دنيا من الكرم الخطير^٧
يا فضل جاوزت المدى فجعلت عن شبه النظير
انت المعظم والمكبر في العيون وفي الصدور
فاذا العقول تفاظنتك عرض في كرم وخير^٨

-
- ١ البهو البيت المقدم امام البيوت ويراد به هنا قصر الخلافة .
 - ٢ القدير الشيب أو أوله ، والاية المظمة والبهجة والكبر والنخوة .
 - ٣ النهي العقل . وبلوت اختبرت .
 - ٤ التنائف جمع تنوفة وهي المفاضة .
 - ٥ الحاضر من معانيه الحي العظيم . والسمير المسار ولا يكون إلا بالليل .
 - ٦ العتريس الناقة الغليظة الوثيقة . والعيسجور الناقة السريعة .
 - ٧ من الكرم متعلق بصفو . والخطير الربيع .
 - ٨ تفاظنتك تصورتك بفطنة . والخير (بالكسر) الكرم والشرف .

وإذا الميون تأملتكَ صدرت عن طرف حسير
 ما زلت في عقل الكبير وانت في سنّ الصغير
 حتى تعصرتَ الشبيبة واكتسبت من القتيّر^١
 عفّ المداخل والمخا رج والغريزة والضمير
 والله خصّ بك الخلية فاصطفاك على بصير
 فاذا ألاث بك الامور ركفيته قُحِمَ الامور^٢
 من قاس غيركمُ بكم قاس الثأد على البحور^٣
 أين القليل بنو القليل من الكثير بني الكثير
 قوم كفوا ابناء مكة نازل الخطب الكبير
 فتداركوا جزر الخلافة وهي شاسعة النصير^٤
 لولا مقامهم بها هوت الرواسي من ثبير

ومن لطائفه قوله يصف بعض سفن الأمين

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المهراب^٥
 فاذا ما ركبه سرن برّاً سار في الماء راكباً ليث غاب^٦
 اسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرت الشّدق كالحلح الانياب^٧
 لا يعانیه باللجام ولا السوط ولا غمز رجله في الركاب
 عجب الناس إذ رأوه على صرة ليث يمرّ مرّ السحاب

١ تعصرت أي عصرت مرة بعد مرة . والقتيّر الشيب .

٢ الاث بك الامور : استودعك إياها . والقحيم جمع قحمة وهي المهالك والمصاعب .

٣ الثأد الماء القليل .

٤ الجزر قطع الشاة المذبوحة ، أي تداركوا الخلافة من التجزؤ .

٥ صاحب المهراب هو سليمان الحكيم .

٦ كان للأمين ثلاث من السفن المعروفة بالحراقات لركوبه خاصة وهي الليث والعقاب والدلفين كما

هو ظاهر في هذه الابيات .

٧ أهرت الشّدق أي راسه .

سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَتْ عَلَيْهِ كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتَ زَوَرٍ وَمُنْهَرٍ وَجَنَاحِينَ تَشَقُّ الْعُبابِ بَعْدَ الْعُبابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَمْجَلُوهَا بِجَيْثَةٍ وَذَهَابِ
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ وَابْقَا هـ وَأَبْقَى لَهُ رِءَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ هَاشِمِيٌّ مَوْفَقٌ لِلصَّوَابِ

وقوله متظارفاً يخاطب الفضل

أَنْتَ يَا ابْنَ الرَّبِيعِ أَلْزَمْتَنِي الْفَسْكَ وَعَوَّدْتَنِي الْخَيْرَ عَادَهُ
فَارْعَوِي بَاطِلِي وَأَقْصِرْ حَايِي وَتَبَدَّلْتُ عَفْةَ وَزْهَادِهِ
لَوْ تَرَانِي أَذْكَرْتَ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيَّ فِي حَسَنِ سَمْتِهِ أَوْ قِتَادِهِ^١
الْمَسَابِيحِ فِي ذِرَاعِيٍّ وَالْمَصْحَفِ فِي لَبْتِي مَكَانَ الْقِلَادَةِ
فَادْعُ بِي لَا عَدَمْتَ تَقْوِيمَ مِثْلِي وَتَقَطَّنْ لِمَوْعِدِ السَّجَادَةِ
تَرِ إِثْرًا مِنَ الصَّلَاةِ بِوَجْهِ تَوْقِنِ النَّفْسِ أَنَّهَا مِنْ عِبَادِهِ
لَوْ رَأَاهَا بَعْضُ الْمَرَاتِينِ يَوْمًا لَاسْتَرَاهَا يُعَدُّهَا لِلشَّهَادَةِ
وَلَقَدْ طَالَمَا شَقِيتَ وَلَكِنْ أَدْرَكْتَنِي عَلَى يَدَيْكَ السَّعَادَةِ

وله مدائح مشهورة في العباس بن عبيد الله، وابن أبي جعفر المنصور،
وفي الخصب بن عبد الحميد المرادي أمير خراج مصر. فلتراجع في
ديوانه .

من شعره المجدي

وهو يمثل شعوره وقد عجز وسمم حياة الخلاعة والمجون

إذا امتحن الدنيا ليب

إِذَا رُبَّ وَجْهِ فِي التُّرَابِ عَتِيقٍ - وَإِذَا رُبَّ حَسَنِ فِي التُّرَابِ رَقِيقٍ -

١ الحسن البصري وقتادة امامان معروفان من أهل القرن الاول .

ويا رب حزم في التراب ونجدة ويا رب رأي في التراب وثيق
أرى كل حيّ هالكاً وابن هالك وذا حسب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار انك ظاعن إلى منزل نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدوّ في ثياب صديق

وعليك القصد

خلّ جنبك لرام وامض عنه بسلام
متّ بداء الصمت خير لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمزح مغاليق الحمام
ربّ لفظ ساق آجا لّ نيام وقيام
إنما السالم من أجم فاه بلجام
فالبس الناس على الصحة منهم والسقام
وعليك القصد ان القصد ابقى للجّام^١
شبت يا هذا وما تترك اخلاق الغلام
والنبايا آكلات شاربات للأنام

كأنّي لا أعود

ألم ترني أبعتُ اللهو نفسي ودينني واعتكفت على المعاصي
كأنّي لا أعود إلى معاد ولا أخشى هنالك من قصاص

فاني قد شيعت^٢

ايا من بين باطية وزقّ وعود في بدّي غان مغنّي
إذا لم تنه نفسك عن هواها وتُحسن صونها فإليك عنّي

١ أي اعتدل ان الاعتدل ابقى للقوة .

٢ وتروى هذه الايات ايضاً لأبي العتاهية .

فاني قد شبت من المعاصي ومن إدمانها وشبعن مني
ومن اسوا واقبح من لبيب يرى متطرباً في مثل سني

وقال يرثي نفسه وقد شارف الموت

دب فيّ الفناء سُفلاً وعلوا وأراني اموت عُضواً فعضوا
ليس من ساعة مضت لي الاّ نقصتني بمراً بي جزوا
ذهبت جدتي بطاعة نفسي وتذكرت طاعة الله نضوا^١
لهف نفسي على ليالٍ وأيام تملّيتهن لعباً ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة فاللهم صفحاً عنا وغفراً وعفوا

١ النضر الثوب البالي ، اي بعد ان اصبحت عاجزاً .

ابو المناهية

اسماعيل بن القاسم

١٣٠ - ٢١١ او ٢١٢ هـ

(٧٤٨ - ٨٢٨ م)



مصادر دراسته - كلمة في نسبه واتهامه بالزندقة - حياته الادبية - رسالته
الشعرية - مقابلته بأبي نواس - شاعريته - حسناته وسيئاته الفنية

مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٠٥ - ١٠٨
الشعر والشعراء لابن قتيبة (ليدن) ص ٤٩٧ - ٥٠١
مروج الذهب للمسعودي ج ٢ في أخبار المهدي والرشد
الاغاني (بولاق) ج ٣ ص ١٢٦ - ١٨٣
ج ٦ ص ١٨٦
ج ٨ ص ٢٤
ج ١٦ ص ١٤٩ - ١٥٠
الموشح للرزباني ص ١٥٤ - ٢٦٣
زهر الآداب للحصري ج ٢ ص ٣٥ - ٣٩
العمدة (هندية) ٢ - ١٠٦
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (مصر) ج ٦ ص ٢٥٠ - ٢٦٠
وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٠ - ١٠٣
مقدمة ديوان ابي العتاهية ، رواية النمري (طبع الآباء اليسوعيين ، بيروت)
وأخبار متفرقة في الكامل والفهرست والعمدة وغيرها .

نسبه ونشأته

في كل عصر وفي كل قطر ، إذا كثرت أسباب الغنى والترف ، نشأ في المجتمع البشري مجريان متطرفان ، الاول مجرى العبث والحلاعة ، والثاني مجرى الحرص والتقشف .

في الاول ترى المسترسلين في الموبقات والشهوات الجارين مع الاهواء إلى أقصى الغايات ، وفي الثاني ترى الذين عافت نفوسهم ملذّات الدنيا ، فنكسبوا عنها إلى زوايا الزهد ينعمون إلى الناس زخارفها ، ويدعونهم إلى نبذها والنظر إلى ما وراءها . وكما يمثل ابو نواس في عصره الفئة الاولى ويعكس لنا حياتهم وعواطفهم ، يمثل زميله ومعاصره ابو العتاهية الفئة الثانية ويعكس لنا في ديوانه عواطف المتطرفين من الروحانيين والاخلاقيين .

* * *

نشأ شاعرنا في الكوفة ، حتى اذا نضجت صناعة الشعر فيه أمّ بغداد فاتّصل ببلاط العباسيين ومدح المهدي والهادي والرشيد ، ومات في خلافة المأمون وقد بلغ الثمانين . وقبل البحث في شعره نذكر نقطتين لم يوضحها مؤرخوه تمام الايضاح وهما نسبه وزندقته . فقد ذكر بعض المؤرخين وتبعهم المستشرقان نكلسون وهوار^١ ان ابا العتاهية عربي الاصل . واذا راجعت ما أورده الاصفهاني وابن خلكان ومن نقل عنها رأيهم يتفقون على نسبته إلى عنزة بالولاء . ففي الاغاني عن محمد بن موسى قوله : « ولاء ابي العتاهية من قبل أبيه لعنزة ، ومن قبل أمه لبني زهرة »^٢ .

Nicholson, Lit. Hist. 296 - Huart. Hist. of Ar. Lit. 74 ٢

٢ الاغاني ٣ - ١٢٧ .

ولمّل في اسم بلدته التي ولد فيها ما حداهم الى ذلك القول ، فقد ولد في « عين التمر » وهي على ما ذكروا بلدة في الحجاز . والحقيقة ان في العراق بلدة تعرف بهذا الاسم ^١ . والاصح ان تكون هي مسقط رأس الشاعر . فانه نشأ في الكوفة والكوفة وعين التمر كلاهما من سقي الفرات . وما قد يؤيد صحة هذا القول ان بعضهم كان يتهمه بالزندقة ^٢ ، ولم يكن يُتّهم بها عادة الا الذين يمتّون بنسب الى الفرس . ولم يكن ابو العتاهية شديد التمسك بنسبه فكان طول حياة يزيد بن منصور الحيميري يدّعي انه مولى لليمن ويفتني من عزة . فلما مات يزيد رجع الى ولائه الأول ^٣ ، وما ذلك فعل من يقتسب نسباً صريحاً الى العرب .

أما زندقته واتهامه بمذهب الفلاسفة فليس في شعره ما يثبتها ، ولم يذكره ابن النديم في جملة شعراء الزنادقة الذين عاصروا ابا العتاهية . وكل ما رأينا من هذا القبيل ان قوماً من أهل عصره كانوا ينسبونه الى القول بمذهب الفلاسفة ويحتجّون بأن شعره انما هو في ذكر الموت دون الآخرة ، وهو ليس بصحيح . وقد توهّم المستشرق كولنزيهر من البيت التالي :

إذا أردت شريف الناس كلّهم فانظر الى ملك في زي مسكين

ان الشاعر ينوّه بفضله بوذا . والحق ما ذكره نكلسون من ان ذلك لا يراد به غير وصف التقى الزاهد ، دون الاشارة الى شخص خاص ^٤ . وما نسب فيه الى الزندقة الابيات التالية ^٥ :

١ ابن خلكان ١ - ١٠٠ ومعجم البلدان لياقوت .

٢ ابن قتيبة (ليدن) ٤٩٧ .

٣ الاغاني ٣ - ١٤١ .

٤ الاغاني ٣ - ١٢٦ ، راجع ايضاً وفيات الاعيان تحت ترجمة ابن المعتز .

Lit. Hist. of the Arabs 297 .

٦ ابن قتيبة (ليدن) ٥٠١ .

إذا ما استجزت الشك في بعض ماترى فما لا تراه الدهر أمضى واجوز

* * *

وقوله في عتبة ١ :

يا رب لو انسينها بما في جنة الفردوس لم انسها

* * *

ان المليك رآك احسن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقدره نفسه حور الجنان على مثالك

وليس في هذه الابيات عند التحقيق غير مبالغات خيالية قد تجري على لسان المؤمن لتقرير أو إيضاح معنى شعري . ونقلوا عن الصولي قوله بالجوهرين المتضادين كالثنوية ، وقوله بالجبر وما شاكل ٢ . وقد جاراهم العلامة زيدان فقال في تاريخه : « وكان ابو العتاهية سوداوي المزاج كثير التردد في أمر الدين فتقلب على اطوار شتى شأن الذين يحملون أنفسهم من قيود الدين وينظرون فيه نظر الناقد ٣ » . على ان الناظر في شعره لا يجد فيه غير رجل متزيّ بزي الفقراء متغنّ بأناشيد الزهد . وليس فيه أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين .

حياته الأدبية

تظهر لنا حياة ابي العتاهية في مظهرين : حياة الغزل والمنادمة ، وحياة الوعظ والتقصيف . فقد اجمع المؤرخون على ان شاعرنا كان في أول أمره يعيش كسائر شعراء عصره فيمدح ويرثي ويتغزل . وفي القصيدة التي أنشدها يوم تولّى المهدي الخلافة ما يدلّ على علو كعبه في باب المديح ، فقد روي أن الشاعر بشاراً سمعه ينشد هذه القصيدة التي يقول فيها :

١ الاغاني ٣ - ١٥١ .

٢ الاغاني ٣ - ١٢٨ .

٣ تاريخ آداب اللغة ٢ - ٦٨ .

أته الخلافه منقادهً اليه تجرّر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الارض زلزالها
ولولم قطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها
فاهتزّ بشار طرباً وقال لمن حوله : « ويحكم انظروا ألم يطر الخليفة
عن أعواده » .

وله في الغزل أيضاً لطائف تذكر . ولقد انصرف في أول عهده إلى
حياة اللهو والتهاك واشتهر بها حتى زعموا انه كني بأبي العتاهية لانه
كان يحب التهاك والمجون والتعته^١ .
ولكنه لم يكد يبلغ الخمسين حتى تحوّل عن سبيلهم . وكان ذلك على
ما رواه صاحب الاغانى في خلافة الرشيد . قال : « كان ابو العتاهية لا
يفارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، وكان يُجري عليه
في كل سنة خمسين الف درهم سوى الجوائز والمعادن . فلما قدم الرشيد الرقة
(وذلك سنة ١٨١ هـ) لبس الشاعر الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة
والقول في الغزل^٢ . فما الذي دفعه إلى ترك ما كان عليه الشعراء والتزام
طريقة الزهد والتفك ؟ سؤال جدير بالنظر . ولا بد لنا قبل الاجابة
عليه من ان ننظر فيما يلي :

- ١ - حالته النفسية واستعداده الفطري لذلك
 - ٢ - تأثر نفسه بتهتك معاصريه وتماديهم في أسباب الترف
 - ٣ - فشله في حبه لفتاة من جوارى المهدي
 - ٤ - ميله إلى الطريقة الزهدية في الشعر .
- أما استعداد الفطري فليس لنا من دليل صريح عليه ولكننا نستنتج
بما عرف عن أبي العتاهية من حب المال والحرص على الدنيا ، انه كان

١ راجع مجله مع ابي نواس وصريح الغواني في المقد ٣ - ١٦٤ وراجع الاغانى ٣ - ١٢٧ .

٢ الاغانى ٣ - ١٥٧ .

ذا نظر في المواقب وعلى شيء - حق في إبتان شبابه - من ضبط النفس
 بما لا نراه عادة في متهتك عصره فلم يكن شديد الميل إلى الاتفاق في
 سبيل الشهوات ، وبكلمة أخرى لم تكن مشاركته لزملائه في مجونهم أيام
 شبابه لتقتل فيه ميله إلى الحرص والرزانة . جارام ولكن إلى حين ،
 واندفع في تيار الحياة ولكنه لم يرخ لنفسه العنان . ولم يلبث ان رأيناه
 يتراجع عنه مسمئزاً ، مهيباً بالآخرين ان يسلكوا سبيل الرشاد ، وان يعتبروا
 بظروف الزمان . ولا نشك انه كان لعصره تأثير عليه ، وان ذلك التأثير
 تحول إلى عاطفة شعرية مغايرة لمواطف زملائه يومئذ . فترك الغزل والمنادمة ،
 واختط لنفسه اسلوباً آخر أحب ان ينفرد فيه . وانا لنلمح ذلك مما نقله
 لنا ابن منظور عن أبي غنجد الطائي قال : « جاءني أبو العتاهية فقال
 لي ان أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت ان تسأله الا يقول في الزهد
 شيئاً ، فاني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ،
 وللزهد شوقي . فبعثت إلى ابي نواس فجاء إليّ وأخذنا في شأنا . فقلت
 لابي نواس ان ابا اسحق ^١ (ابا العتاهية) من قد عرفت جلالته وتقدمه ،
 وقد أحب انك لا تقول في الزهد شيئاً . فوجم ابو نواس عند ذلك وقال :
 يا ابا غنجد قد قطعت عليّ ما كنت احب ان ابلغه من هذا . . . ولا
 اخالف ابا اسحق فيما رغب اليه ^٢ . فأبو العتاهية اذن اصطنع الزهد
 واتخذ طريقة فنية مندفعاً اليه بشوق نفسه إلى هذا النوع من الشعر . واذا
 صح ما زعمناه لشاعرنا من الاستعداد الفطري ، وانه مجارة لهذا الاستعداد
 رأى ان ينفرد بالزهد دون سائر ابواب الشعر ، بقي ان ننظر في الحرّك
 المباشر الذي حرّك في نفسه شهوتها الزهدية وحبّب اليه ترك حياته الأولى .
 هذا الحرّك هو على ما يقول المؤرخون فشله في حبه لعبته جارية الخيزران
 أم الرشيد . وفي ذلك يقول المعري ^٣ :

١ كنيته الحقيقية ابو اسحق وانا ابو العتاهية لقب له .

٢ أخبار أبي نواس ٧٠ .

٣ اللزوميات ١ - ١١٨ .

الله ينقل من شاء رتبة بعد رتبة
ابدى العتاهي نسكا وتاب عن حب عتبه

وعن المسعودي ان ابا العتاهية لبس الصوف لياسه من عتبه^١ . وكان ذلك أيام الرشيد ، وقد آثر السجن على ان يرجع بعدها الى قول الغزل^٢ . أما انه احب هذه الجارية حباً شديداً فذلك ما اجمع عليه المؤرخون ، واليك بعضاً من غزله فيها :

يا عتب سيدتي اما لك دين حتى متى قلبي لديك رهين
وانا الذلول لكل ما حملتني وانا الشقي البائس المسكين
وانا الغداة لكل بالك مسعد ولكل حب صاحب وخدين
لا بأس إن لذاك عندي راحة للصب ان يلقي الحزين حزين
يا عتب ابن افر منك اميرتي وعلي حصن من هواك حصين

وقال من قصيدة :

كانها من حسنها درة اخرجها اليم إلى الساحل
كانما فيها وفي طرفها سواحر اقبلن من بابل
لم يبق مني حبها ما خلا حشاشة في بدن ناحل

ويذكر الحصري ان ابا العتاهية ضرب مئة سوط ونفي إلى الكوفة من اجل غزله بعتبه ، وان المهدي قال حين نفاه : « اي يتعرّس ولحرمي يتعرّض وينساني يعبت^٣ ! » وجاء لابن قتيبة انه حبسه ، ثم تشفع له يزيد بن منصور خال المهدي فاطلقه^٤ . والظاهر انه خاف المهدي فانقطع عن ذكر الجارية . فلما مات عاد امله فطلبها من الرشيد كما روى المسعودي ولكنه باء بالفشل . وبين اول حبه لعتبه ويأسه من الحصول عليها

١ المسعودي ج ٧ - ٣٣٦ .

٢ الاغاني ٣ - ١٤٠ .

٣ زهر الآداب ٢ - ٣٦ .

٤ الشعر والشعراء (ليدن) ٤٩٨ .

نحو من عشرين سنة بقيت فيها شرارة الحب مشتعلة برغم كل الموانع ،
وبرغم انه كان متزوجاً . وهو حب شديد وغريب في عصر كعصره ،
يذكرنا بحب شاعر ايطاليا لفتاته بياتريس وما كان له من التأثير في نفسه
كل حياته .

من فشل دانتى نشأت الكوميديا الالهية . فهل من فشل ابي العتاهية نشأ
شعره الزهدي ؟ قد يكون ذلك .

على ان في مسلكه الزهدي ما راب بعض اهل زمانه . وتحدّر هذا
الريب بصحة زهده إلى الاجيال التالية . هذا ابو العلاء المعري يقول في
البيتين الآتقي الذكر « ابدى العتاهي نسكاً » . وفي العبارة ما فيها من
الشك في ذلك النسك . وهناك حكايات لمعاصريه تتمّ على روح الاستخفاف
بترهده ، وتستههم بالادعاء والتظاهر . من ذلك ما رواه الاصفهاني عن
ثامة بن أئرس قال : « انشدني ابو العتاهية :

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكه
الا انما مالي الذي انا منفق وليس لي المال الذي انا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادره بالذي يحقّ والا استهلكته مهالكه

فقلت له من اين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله (ص) : انما لك
من مالك ما اكلت فافنيت ، او لبست فأبليت ، او تصدقت فامضيت .
فقلت له اتؤمن ان هذا قول رسول الله (ص) وانه الحق ؟ قال نعم .
قلت فلم تحبس عندك سبعا وعشرين بدرة في دارك ، ولا تأكل منها
ولا تشرب ولا تزكّي ، ولا تقدّمها ذخراً ليوم فقرك ؟ فقال : يا ابا معن ،
والله ما قلت لهو الحق ، ولكنني اخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت
وبما تزيد حال من افتقر على حالك ، وانت دائم الحرص ، دائم الجمع
شحيح على نفسك لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد ؟ فترك جواب
كلامي كله ، ثم قال لي : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله
وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال هذا القول اضحكني حتى اذهلني عن

جوابه ومعاتبته ، فامسكت عنه وعلمت انه ليس ممن شرح الله صدره
للاسلام ،^١ .

وروى الحصري عنه الحديث التالي قال : « دخل ابو العتاهية على ابنه
محمد وقد تصوّف : فقال ، ألم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ (أي عن التصوّف) ،
فقال ابنه : وما عليك ان اعود الخير ؟ فأخذ ابو العتاهية يؤنبه ويقرّعه ،
ثم قال له : اقبل على سوقك فانها لأعود اليك . وكان ابنه بزّازاً^٢ . وامثال
هذه الحكايات كثيرة تجدها في الاغاني وسواه . ولعل ذلك ما حمل سلم
ابن عمرو الملقب بالخامسر ان يقضب حين انشد ابو العتاهية قصيدته التي
يقول فيها مخاطباً سلماً بهذين البيتين :

تعالى الله يا سلم بن عمرو اذلّ الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تساق اليك عفواً ليس مصير ذاك إلى الزوال

فقال سلم : « وبلي على الجرّار الزنديق ، جمع الاموال وكنزها وعباً
البدر في بيته ثم تزهد مراآة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بي إذا تصدّيت
للطلب . »^٣ وقال الجّاز ابن اخت سلم ويرويها ياقوت لسلم نفسه :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً اضحى وامسى بيته المسجد
يخاف ان تنفد ارزاقه والرزق عند الله لا ينفد

وانك إذا تحريت الحكايات الكثيرة التي ينقلونها عن ابي العتاهية تجد
اساسها شك معاصريه بصدق تزهد . وهذا الشك مبني عندهم على ما
يلي : ١ - سيرته الاولى ٢ - حرصه على المال ٣ - تبرّم الناس من الوعظ
والانذار . وجل ما يقال هنا ان الرجل صدف عن سيرته الاولى ، وانه

١ الاغاني ٣ - ١٣٣ .

٢ زهر الآداب ٣ - ٢٢٥ .

٣ معجم الادباء لياقوت ٤ - ٢٤٨ .

لزم جانب التدين واتخذ الشعر الزهدي فناً فأجاد فيه^١ . ولم يكن زهده انقطاعاً عن الدنيا وترفعاً عن حطائها ، ولكن تقييماً لمسلك مترفها وانذاراً . بسوء مصيرها ، واشباعاً لشهوة فنية لم يستطع الا اشباعها . وكان برغم ما يحكونه محترماً من معاصريه حتى ابي نواس^٢ .

رسالة ابي العتاهية في شعره

لا يحمل شاعرنا في شعره رسالة جديدة ، ولا يضع مبادئ فلسفية خاصة . وإنما هو يعكس لنا روح الشرق الدينية : احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة . اقرأ كل ديوانه لا ترى فيه إلا دعوة الى ترك الجهاد في سبيل التقدم ، والتحرر من قيود المطامع .

حتى متى يستفزني الطمع أليس لي بالكفاف متسع
ما افضل الصبر والقناعة للناس جميعاً لو انهم قنعوا
واخذع الليل والنهار لاقوام اراهم في الغي قد رتموا
لله درّ الدنى فقد لعبت قبلي بقوم فما ترى صنعوا
اثروا فلم يدخلوا قبورهم شيئاً من الثروة التي جمعوا
وكان ما قدّموا لانفسهم أعظم نفعاً من الذي ودعوا

وقال :

طلبت الفنى في كل وجه فلم اجد سبيل الفنى الا سبيل التعفف
خليلي ما اكفى اليسير من الذي نحاول ان كنا بما عفاً نكتفي
وما اكرم العبد الحريص على التدى واشرف نفس الصابر المتعفف

فانت في ذلك وفي سائر شعره امام منبر واعظ يرشدك الى سبيل القناعة ،

١ قال الخطيب البغدادي : كان يقول في الغزل والمديح والهجاء قديماً ثم تنسك وعدل عن ذلك الى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ - تاريخ بغداد ٦ - ٢٥١ .

٢ راجع في المصدر نفسه حديث ابي نواس واجلاله لابي العتاهية حق قال : ما رأيته قط إلا توهمت انه سماوي وانا أرضي .

سبل الخير كما ينص عليها الدين . ولكن في وعظه شاعرية جليلة ولحناً شجياً يخفف عليك مشقة الاصغاء إلى الوعظ ولا سيما من واعظ يُعرف فيه الحرص وحب المال . وهو واعظ الموت والظلام ولكن في نبراته ما يجذبك اليه .

واي شيء أدلّ على شاعريته من ان يحملك الى المقابر فيقف بك هناك أمام الجثث البالية والعظام النخرة ، ثم يصف لك ظلام القبور واهوال الحمام ، ويندد بمطامع الانسان وأباطيل الحياة في شعر يثير شجونك ويزيل بهجة الدنيا من أمامك . وانت مع كل ذلك تسمع في أبياته إيقاعاً يحلو لأذنيك ، فتصفي اليه مسروراً ، وتشعر منه بنشوة خفية تملأ قلبك وتحرك عواطفك .

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب
لمن نبني ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب

صوت شجيّ تقف لديه معتبراً خاشعاً ، ولكنك لا تلبث ان تعيده لنفسك فتنسى بجماله قتام الموت وعبوسة القبر . ثم تسمعه يقول :

ألا يا موت لم أرَ منك بدأ أنيت وما تحيف وما تحايي
كانك قد هجمت على مشيبي كما هجم المشيب على الشباب
وانك يا زمان لذو صروف وانك يا زمان لذو انقلاب
أراك وإن طلبت بكل وجه كحلم النوم أو ظلّ السحاب

فتنظر الى الموت نظرك إلى صديق مؤاس يأتي ليخلصك من الزمان ، وينقلك الى ظلال الجنان . ولماذا ترى الموت كذلك وهو الرهيب المخوف ؟ لأن الشاعر يضرب على وتر شجيّ يهيج فيك حاسة الاستحسان ، فيطربك ويلقي على ما حولك من فساد ورعب مسحة من جمال الفن الشعري الذي يحول الظلام الى نور ، والرعب الى أمن وطمأنينة .

ولتثبت ذلك في نفسك اسمع الابيات التي يصف بها طمع الانسان

ووجوب القناعة وزوال الدنيا - وما تلك بمواضيع تلذ الانسان عادة ، ثم
اشرح شعورك لدى سماعها .

ألم ترَ ريب الدهر في كل ساعة له عارض فيه المنيّة تلح
ايا بائٍ الدنيا لغيرك تبنتني ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع
أرى المرء وثاباً إلى كل فرصة وللمرء يوماً لا محالة مصرع
تبارك من لا يملك الملك غيره متى تنقضي حاجات من ليس يشبع
واي امرئ في غاية ليس نفسه الى غاية أخرى سواها تطلع
وقوله :

خليلي كم من ميت قد حضرته ولكنني لم انتفع بحضوري
ومن لم يزه السن ما عاش عبرة فذاك الذي لا يستنير بنور
أصبت من الأيام لين أعنة فاجريتها ركضاً ، ولين ظهور
متى دام للدنيا سرور لأهلها فأصبح منها واثقاً بسرور
وقوله :

رجعت الى نفسي بفكري لعلها تفارق ما قد غرها وأذلها
فقلت لها يا نفس ما كنت آخذاً من الارض لو اصبحت املك كلها ؟
فهل هي الا شعبة بعد جوعَةٍ والا منى قد حان لي ان أملها
أرى لك نفساً تبغني ان تُعزها ولست تعز النفس حتى تذلها

الى غير ذلك من العظات الروحية البالغة ، مما يستهوي النفس برغم
ما يترأى فيه من أهوال الموت وكلاحة الورع والزهد . وكل ديوانه على
هذا النمط العبالي ولا يعيبه الا انه على وتيرة واحدة - موضوع واحد
يردده في قصائد مختلفة الوزن والروي .

ولا بد لنا في هذا المقام من ان نقف هنيهة تقابل الروح «النواسية»
بالروح «العتامية» فانما الشاعر روحه ، وما شعره الحقيقي الا مجلى
لمواظفه الداخلية .

ابو العتاهية وابو نواس

كلاما متشام : هذا في زهوه وسروره ، وذاك في تزهده وتقديره .
ابو نواس لم يدرك قيمة الحياة ولم يفهم مراميها العالية فانفق نفسه وهواه
في سخائفها ، وابو العتاهية اخطأ الغاية من وجود الفرد ومن علاقته
بالمجتمع ، فنعى عليه ذلك ودعاه الى نبذ الدنيا والاهتمام بالآخرة . وكلاما
مخطئ : ذاك لافراطه في أباطيلها ، وهذا لافراطه في التزهيد بها . ولو اننا
جاربنا شاعرنا في أقواله وقمنا بما يطلبه وفي عظاته لتحتم علينا ان نقف
كل جهاد وكل سعي ، ونعيش عيشة الخمول والقناعة . واين هذا من
الرقى الاجتماعي الذي يتطلب من كل فرد ان يسعى ويحد ليدرك أقصى
ما يستطيع ادراكه .

سأقنع ما بقيت بقوت يومٍ ولا ابغي مكاثرةً بمالٍ
تعالى الله يا سلم بن عمرو اذل الحرص اعناق الرجال
فما ترجو لشيء ليس يبقى وشيكاً ما تغيره الليالي

هي الروح الشرقية القديمة التي تحتقر الدنيا وتنظر اليها كمرّ زائل
لحياة عليا . نظرٌ تمكسه لنا كتب الدين ، وأقوال الأنبياء والاتقياء وقادة
الحياة الدينية في كل جيل . واننا اذا فسرنا القناعة (أو الزهد) بانها لجام
الشهوات الفاسدة والاطماع الثائرة والتعالي عن الطبيعة الحيوانية التي تدعونا
الى التعدي وحب الاثرة ، كانت القناعة حكمة اجتماعية عالية ، بل صدق
الداعون اليها انها باب السعادة الدنيوية . واما إذا كانت كما يصفونها
الوقوف عن الجهاد ، والبعد عن أسباب التقدم ، وطلب الراحة في زوايا
المناسك ، والظهور بمظهر الفقر والتصوّف ، فهي الخمول الذي يزيد
اكدار الانسان ويبعده عن سعادته المنشودة . وهنا وجه الضعف في رسالة
ابي العتاهية : انه قام ينشد لنا اناشيد الدين دون ان يتفنن في تطبيقها
على الحياة العملية ، وكان في شعره يقلد الزهاد ورجال الدين تقليداً .

والا ففى وسع من كان فى قدرته الشعرية ان يستخلص من حياة عصره
صوراً اجتماعية عالية يصورها فدينا بها جمال الفضائل الدينية والآداب
القومية ، او قباحة اضدادها ، على نحو ما يفعل الاجتماعيون من شعراء
وناثرين .

حكمه

ولأبى العتاهية فى هذا الضرب من المنظوم مكانة عالية - فهو قدير
بضرب الأمثال وعقد جوامع الحكمة فى أبيات شعرية جميلة : واليك
أمثلة من ذلك :

أخوك الذى من نفسه لك منصف إذا المرء لم ينصفك ليس أخاك

* * *

وليس امرؤ لم يرع منك يجده جميع الذى ترعاه منه بمنصف

* * *

هب الدنيا تساق اليك عفواً أليس مصير ذاك إلى الزوال

* * *

وذقت مرارة الأشياء طرّاً فما طعمُ أمرٍ من السؤال

* * *

أجلتكم قوم حين صرت إلى الفنى وكلّ غنيّ فى العيون جليل
وليس الفنى إلا غنى زّين الفتى عشية يقري أو غداة يفيل
إذا مالت الدنيا إلى المرء رغبت إليه ومال الناس حيث يميل

* * *

توقّ بدأ تكون عليك فضلا فصانها اليك عليك عال

طلبت المستقرّ بكل ارض فلم أرَ لي بأرض مستقرّا
اطمتُ مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرّا
* * *

لقد حلبت الزمان اشطّره فكان فيهنّ الصاب والسَّلْع
مالي بما قد اتى به فرح ولا على ما ولى به جزع
* * *

صاحب البغي ليس يسلم منه وعلى نفسه بغى كل باغ
* * *

لله دنيا ائاس دائبين لها قد أرتعوا في رياض الغيّ والفنن
كسائمات رناعٍ تبغني سمنًا وحتفها لو درت في ذلك السمن
* * *

واي امرئ في غاية ليس نفسه إلى غاية اخرى سواها تَطْلَع
* * *

وابلائي من دعاوي أملٍ كلما قلت تداني بعدا
كم امنى بغدٍ بعد غدٍ ينفد العمر ولا القى غدا
* * *

ألم ترَ ان الفقر يرجى له الفنى وأن الفنى يخشى عليه من الفقر
* * *

فتشت ذي الدنيا فليس بها احد أراه لآخر حامد
حتى كانت الناس كلهم قد أفرغوا في قالب واحد
* * *

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفلك
الا لنقل السلطان عن ملك قد انقضى ملكه إلى ملك
* * *

انت ما استغنيت عن صاحبك الدهر اخوه
فاذا احتجت اليه ساعة مجتك فـوه

وله ارجوزة حكيمية جمع فيها كثيراً من الامثال البليغة .

وقد ذكر صاحب الاغاني انها تبلغ نحو أربعة آلاف مثل ، على انه لم يُلَبَّتْ منها غير بضعة وعشرين مثلاً . أما في ديوان ابي العتاهية فقد نقل منها ما يقارب الخمسين ، ولم نعثر عليها كلها أو على معظمها في كتاب ما ، ولعلها ضاعت في جملة ما ضاع من كتب الاولين .

وأكثر حكمها عاديّ على ان فيها كثيراً مما يبلغ الدرجة الاولى من الجمال .

كقوله :

ان كان لا يفنيك ما يكفيك فكل ما في الارض لا يفنيك

وقوله :

لن يصلح الناسُ وانت فاسدُ هيهات ما أبعد ما تكابد
وهو معنى في غاية الجمال يريد بذلك ان المجتمع لا يصلح ما لم يصلح كل فرد ذاته .

وقوله :

من جعل النقام عيناً هلكا مُبْلَغك الشر كباغيه لكَا
وهو معنى متداول مألوف ولكنه جميل .

ومن أجل معانيه قوله :

يوسّع الضيق الرضا بالضيق وإنما الرشد من التوفيق

ولو أردنا التوسع في الشطر الاول من هذا البيت لضاق بنا المقام وهو من أثبت الحقائق العقلية والاجتماعية .

وهناك كثير من أمثال هذه الأبيات وهي تدل على مقدرة الشاعر على سبك الحقائق في قوالب شعرية جميلة . وعلى ان حكمه عموماً محدودة المعنى فهو يحرصها في منحى واحد من مناحي الحياة ، ويظهر فيها بمظهر المرشد المُنذر ، والحكيم الواعظ . ولو قابلتها بحكم المتنبي مثلاً لوجدت هذه أوثق علاقة بماجريات الحياة ، وبالتالي أكثر شيوعاً بين جميع الطبقات . وما الفرق بين أبي العتاهية والمتنبي في هذا الباب إلا أن الاول بنى حكمه على ما تتطلبه حياة الزهد ، فجاءت على حسن نظمها مقيدة بغايتها . وأما الثاني فخاض غمار الحياة ، وعرف حلوها ومررها . وقد ترك لنا اختباراته في أبيات يستهوي القلوب جمالها ، لصدق ما ترسمه من أحوال العمران ، ولشدة مماثلتها لما يشعر به كل انسان .

شاعريته وشعره

قال صاحب الاغانى : « ويقال اطبع الناس بشار والسيد وابو العتاهية . وكان أبو العتاهية غزير البحر لطيف المعاني سهل الالفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك . وأكثر شعره في الزهد والامثال ، . على انه برغم ذلك كان من الطبقة الاولى في النظم . »

قال احمد بن زهير : سمعت مصعب بن عبدالله يقول ، ابو العتاهية اشعر الناس فقلت بأي شيء استحق ذلك فقال بقوله :

تعلقتُ بآمال	طوال أيّ آمال
واقبلت على الدنيا	ملحاً أيّ اقبال
ايا هذا تجهّز لي	فراق الأهل والمال
فلا بدّ من الموت	على حال من الحال

ثم قال مصعب : « هذا كلام سهل لا حشو فيه ولا نقصان ^١ يعرفه العاقل ويقرّ به الجاهل » . وقال ابن الاعرابي وقد أثاره رجل رمى أبا العتاهية بالضعف « فوالله ما رأيت شاعراً قط اطبع ولا اقدر على بيت منه » ، وما احسب مذهبه الاّ ضرباً من السحر ^٢ .

وسمع الجاحظ مرّة من يفسد ارجوزة ابي العتاهية التي سماها ذوات الأمثال حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

فقال للمنشد قف . ثم قال أنظر إلى قوله « روائح الجنة في الشباب » فإن له معنى كمنعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة الا بعد التطويل وادامة التفكير . وخير المعاني ما كان القلب الى قبوله أسرع من اللسان الى وصفه ^٣ .

وكان الأصمعي يقول شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والحزف والنوى .

وفي الأغاني سئل ابن مناذر عن أشعر أهل الاسلام فقال : من إذا شئت هزل وإذا شئت جدّ فمثل جرير ، ومن المحدثين هذا الحبيث (أي أبو العتاهية) الذي يتناول شعره من كنه ^٤ .

وقال المبرّد كان اسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) لا يكاد يخلي شعره مما تقدم من الاخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقة ^٥ .

والتأمل شعر أبي العتاهية يثبت لديه جلّ ما ذكرناه من وصف واصفيه

١ الاغاني (يولات) ٣ - ١٣٠ .

٢ الاغاني (يولات) ٣ - ١٣١ .

٣ الاغاني ٣ - ١٤٣ .

٤ الاغاني ٣ - ١٥٤ .

٥ الكامل ١ - ٢٣٨ .

وأهم خصائصه الفنية ثلاث :

١ - سهولة الألفاظ وهي مذهبه في جميع قصائده .

نقل الاصفهاني قوله لابن أبي الأبيض وقد جاء يستزيده من شعره .
« فالصواب ان تكون ألفاظه بما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ،
ولا سيما الأشعار التي في الزهد . وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد
وأصحاب الحديث والفقهاء ، وأصحاب الرياء (كذا) والعامه ، وأعجب
الاشياء اليهم ما فهموه ١ . » وأنشد مرة أبياتاً أمام سلم الخاسر فقال
سلم لقد جوّدتها لو لم تكن سوقية . فقال أبو العتاهية والله ما يرغبني
فيها الا الذي زهدت فيه ٢ . وقد عرف له نقدة الشعر ذلك . قال ابن
رشيقي : ومنهم من ذهب الى سهولة اللفظ واغترف فيها الركافة واللين
المفرط كأبي العتاهية والعباس بن الاحنف ومن تابعهما ٣ وهم يرون
الغاية قول أبي العتاهية :

يا اخوتي ان الهوى قاتلي	فسيروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتّباع الهوى	فلأني في شغل شاغل
عيني على عتبة منهلة	بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى	من شدة الوجد على القاتل
بسّطت كفي نحوكم سائلاً	ماذا تردّون على السائل

وقد ذكر ان أبا العتاهية وأبا نواس والحسن بن الضحاك اجتمعوا
 يوماً فقال أبو نواس لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه في مراده من
غير مدح ولا هجاء فأنشد أبو العتاهية هذه القصيدة فسلّم له وامتنعاً عن
الانشاد بعده وقالوا امامع سهولة هذه الألفاظ وملاحة هذا القصد وحسن
هذه الاشارات فلا ننشد شيئاً .

١ الاغاني ٣ - ١٦١ .

٢ الاغاني ٣ - ١٧٣ .

٣ العمدة ١ - ٨١ .

٢ - رشاقة التعبير : وهي من مزايا الشعراء المطبوعين ويراد بها البعد عن التكلف والتعقيد . تقرأ قصائد أبي العتاهية فتجدها رشيقة المبني تسيل عذوبة وطلاوة . وقد صدق الخطيب البغدادي إذ قال : « وكان سهل القول قريب المأخذ بعيداً عن التكلف متقدماً في الطبع »^١ . تأمل هذه الأبيات التي قالها أمام المهدي يعزيه في بنت له ماتت فحزن عليها حزناً شديداً . قال شاعرنا فوافيته وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول : لا بد من الصبر على ما لا بد منه . ولئن سلونا عن فقدنا ليدسلون عنا من يفقدنا . وما يأتي الليل والنهار على شيء إلا أبلياه » . فلما سمعت هذا منه قلت يا أمير المؤمنين أتأذن لي ان أنشدك . قال هات ، فأنشدته :

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما وكل غضٍّ جديد فيهما بالـ
يا من سلا عن حبيب بعد موته كم بعد موتك أيضاً عنك من سال
كان كلّ نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكي لمعة الآل
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبير فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كل صالحة او لا فما حيلة فيها لمحتال

وروي ان أبا العتاهية مرّ بأبي نواس في السكة ومعه بعض الرفاق ، فسلم ثم أوما برأسه الى نواس وأنشأ يقول :

لا ترقدن - لعينك السر - وانظر الى ما تصنع الغيّر
واذا سألت فلم تجد أحداً فسل الزمان فعنده الخبر
أنت الذي لا شيء تملكه واحق منك بمالك القدر

فنظر ابو نواس الى من حوله وقال : « أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون »^٢ .

ومثل هذه الشهادة شهدا بشار يوم أنشد شاعرنا قصيدته في المهدي :

١ تاريخ بغداد (مصر) ٦ - ٢٥١ .

٢ تاريخ بغداد ٦ - ٢٥٩ .

ألا ما لسيدتي ما لها أدلاً فاحمّل ادلالها

وقد مرّ معنا ذكرها .

وفي رشاقة شعره يقول ابن الأثير^١ : « وهذا ابو العتاهية كان في عزّ الدولة العبّاسية ، وشعراء العرب إذ ذاك موجودون كثيراً . وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري رقة ألفاظٍ ولطافة سبك ، وليس بركيك ولا واه » . وحكم ابن الأثير فيه حكم خبير الا انه تغاضى عن بعض ركائكه كما سترى بعد .

٣ - سرعة الخاطر وما يقتزن بذلك أحياناً من الركاقة ، قيل له كيف تقول الشعر ؟ قال ما أردته قط الا مثل لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت^٢ . ووصفه ابن قتيبة بقوله : « كان احد المطبوعين ومن يكاد يكون كلامه كله شعراً » .

فهو سريع الخاطر واذا صح ما ذكرناه من وصف الأصمعي له لم يكن من الذين يعتنون بغرلة أبياتهم وطرح ما يجب طرحه . وقد تناول المرزباني هذه الناحية من شعر أبي العتاهية وذكر اقوال الناس فيها وأورد له بعض ما يعيبونه من شعره كقوله في عتبة :

الا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

وقوله في رثاء سعيد بن وهب :

١ المثل السائر ١٠٥ .

٢ الاغاني ٣ - ١٣١ .

مات والله سعيد بن وهب رحم الله سعيد بن وهب
يا ابا عثمان ابكيت عيني يا ابا عثمان أوجعت قلبي
وغير ذلك من القول السخيف الذي تناقله الرواة من شعره^١ .

فكان كثيراً ما تأتي ألفاظه مكررة لا فائدة منها كقوله :

مَنْ أَحْسَنَ لي أهل القبور ومن رأى من أحسَّهم لي بين طباق الثرى
من أحسَّ لي ما كنت آلفه ويألفني فقد انكرتُ بعد الملتقى
من أحسه لي اذ بعالج غصَّةً متشاعلاً بعلاجها عمَّن دعا
من أحسه لي فوق ظهر سريره يمشي به نفر الى بيت البلى
يا أيها الحَيِّ الذي هو ميت أفنيت عمرك في التعلُّل والمنى

فلو وثبتَ فوق البيت الثالث والبيت الرابع ، حتى وفوق الثاني أيضاً
لكان الاتصال بين الاول والأخير أشد ولم يخسر المعنى شيئاً يذكر .
ناهيك بركاكة الفعل أحسَّ واستعمال الوصل بعد القطع فيه . وكذلك
قوله :

أين الحماة الصابرون حميةً يوم الهياج حرَّ مختلف القنا
وذوو المنابر والعساكر والدسا كر والحضائر والمدائن والقرى
وذوو المواكب والكتائب والنجايب والمراتب والمناصب في العلى
أفناهم ملك الملوك فأصبحوا ما منهم أحد يحسّ ولا يرى
وهو الحفيّ الظاهر الملك الذي هو لم يزل ملكاً على العرش استوى
وهو المقدر والمدبّر خلقه وهو الذي في الملك ليس له سوى
وهو الذي يقضي بما هو أهله فينا ولا يقضى عليه اذا قضى

فانظر التكرار غير المفيد في البيت الثاني والثالث ، ثم تأمل تكريره
لصفات الله في الابيات الثلاثة الاخيرة . وكله من قبيل سرعة الخاطر
وتزاحم الالفاظ على المعنى الواحد .

١ راجع ذلك في الموشع ٢٥٦ - ٢٦١ .

واقراً هذه الابيات من قصيدته التي مطلعها « لمن طلل اسائله معطلة
منازله » واحكم لنفسك فيما نحن بصده من ميله الى الاطالة والتكرار
وعدم الغريلة :

أأيتها المقابر فيك من كنا ننزله
ومن كنا نتاجره ومن كنا نعامله
ومن كنا نعاشره ومن كنا نداخله
ومن كنا نفاخره ومن كنا نطاوله
ومن كنا نشاربه ومن كنا نؤاكلة
ومن كنا نرافقه ومن كنا ننزله
ومن كنا نكارمه ومن كنا نجامله
ومن كنا له إلفاً قليلاً ما نزاولة
ومن كنا له بالأمس اخواناً نواصله

وقوله يتعجب ممن لا يهتم بآخרתه :

سبحان ربك ما أراك تتوبُ والرأس منك بشيبة مخضوبُ
سبحان ربك ذي الجلال أما ترى نُوب الزمان عليك كيف تنوبُ
سبحان ربك كيف يغلبك الهوى سبحانه ان الهوى لقلوبُ
سبحان ربك ما تزال وفيك عن اصلاح نفسك فترةً ونكوبُ
سبحان ربك كيف يلتذّ امرؤُ بالعيش وهو بنفسه مطلوبُ

ومن ذلك قصيدة يذكر فيها الانسان وموته ونسيان الناس له قال فيها :

فاذا ما استودعوه الارض وهنأ تركوه
خلفوه تحت رمس اوقروه أثقلوه
ابعدوه اسحقوه اوحده افردوه
ودّعه فارقوه اسلموه خلفوه
وانلنوا عنه وخلّوه كأن لم يعرفوه

وله مثل هذا كثير في ديوانه ، وهو راجع كما أسلفنا الى سرعة خاطره وتراحيم الالفاظ حول المعنى الواحد من معانيه وعدم اهتمامه بطرح الغث منها .

٤ - عدم التفنن في الخيال . ولا أريد بالخيال هنا اللطائف الشعرية فقط من تشبيه واستعارة وكناية وما شاكل ، بل اعني الخطأ او الصورة التي يتخيلها الشاعر فيحمل الناس عليها الى غرضه . فأنت إذا طالعت ديوان ابي العتاهية لا تجد فيه الا موضوعاً واحداً يحوم حوله ويعرضه علينا عرضاً يكاد يكون واحداً - وصف القبور وأهوالها - فناء الاعراض الدنيوية ، فساد الانسان وعقاب الآخرة . ولقد تقرأ بضع قصائد منه فستفني بها عن سائر الديوان . وإذا كان لك جلد الباحث وتحملت عناء قراءته ألفت نفسك أمام موسيقي شرقي يكرر عليك لحناً واحداً يكيّفه على « تقاسيم » شتى فيؤثر فيك ، ولكنك لا تلبث بعد مدة ان تشعر بملل من ذلك التكرار ، وبرغبة في استماع شيء جديد على تلك الأوتار . ليس لأبي العتاهية قلم الفنتان الاجتماعي الذي يرى الحياة بطولها وبعرضها فيستخلص منها مواضيع شائقة يتفنن في عرضها على الجمهور . نعم ان المصور تختلف من حيث السياسة وأسباب العمران ولكن الدوافع النفسية هي هي ، وما يحدث الآن كان يحدث في كل أوان .

لم يكن شاعرنا كثير الافتنان في انشاده ، بل كانت له وتر واحد ينقر عليه نغمات مماثلة مؤثرة ولكنها خالية من سعة التخيل والنفوذ الى مناطق الحياة الحقيقية .

فاذا قرنت ذلك بمزاياه الاخرى من سهولة المعنى وسلاسة المبنى فهمت لماذا يختلف النظر في حقيقته ، ولماذا يجمع في شعره بين السمو والاسفاف والبالغة والركاكة .

المختار من شعر أبي العتاهية

يقف على المقابر فينشد لنا نغمات الموت والآخرة . وبرغم انه
يكورها ويرجتها على وتر واحد نجد فيها ايقاعاً
يلدّ نفوسنا ويؤثر فيها

في غرور الدنيا

نصبت لنا دون التفكير يا دنيا امانتي يفنى العمر من قبل ان تقنى
متى تنقضي حاجات من ليس واصلاً الى حاجة حتى تكون له أخرى
لكل امرئ فيما قضى الله خطته من الأمر فيها يستوي العبد والمولى
وإن امرأ يسعى لغير نهاية لمنغس في لجة الفاقة الكبرى

في ذكرى الشباب

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يفن البكاء ولا النحيب
فيا أسفاً اسفت على شباب نعاه الشيب والرأس الخضب
عريت من الثياب وكان غضاً كما يعرى من الورق القضب

في زوال الدنيا

لِدُوا لِلْمَوْتِ وابنوا للخرابِ
لِمَنْ نَبِيٍّ وَنَحْنُ إِلَى تَرَابٍ
أَلَا يَا مَوْتَ لَمْ أَرَ مِنْكَ بَدَأَ
كَانَتْكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِييِ
أَيَا دُنْيَايَ مَا لِيَ لَا أَرَانِي
وَأَنْتَ يَا زَمَانَ لَذُو صُرُوفٍ
فَمَا لِيَ لَسْتُ أَحْلَبُ مِنْكَ شَطْرًا
وَمَا لِيَ لَا أَلْحَ عَلَيْكَ إِلَّا
أَرَاكَ وَإِنْ طَلَيْتَ بِكُلِّ وَجْهِ
أَوْ الْأَمْسِ الَّذِي وَلَتَى ذَهَابًا
وَهَذَا الْخَلْقَ مِنْكَ عَلَى وَفَاةٍ
وَمَوْعِدَ كُلِّ ذِي عَمَلٍ وَسَعِيٍّ
تَقَلَّدْتُ الْعِظَامَ مِنَ الْخَطَايَا
وَمَهْمَا دَمْتُ فِي الدُّنْيَا حَرِيصًا
سَأَلْتُ عَنْ أُمُورٍ كُنْتُ فِيهَا
بِأَيَّةِ حُجَّةٍ أَحْتِجُ يَوْمَ الْحِسَابِ
إِذَا دُعِيتُ إِلَى الْحِسَابِ
مَا أَمْرَانِ يَوْضَعُ عَنْهُمَا لِيَ
كِتَابِي حِينَ أَنْظُرَ فِي كِتَابِي
فَأَمَّا أَنْ أَخْلَدَ فِي نَعِيمٍ
وَأَمَّا أَنْ أَخْلَدَ فِي عَذَابِ

في الحرية الحقيقية

طَلَبْتُ الْمُسْتَقَرَّ بِكُلِّ أَرْضٍ فَلَمْ أَرَ لِيَ بِأَرْضٍ مُسْتَقَرًّا
أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدْتَنِي وَلَوْ إِنِّي قَنَعْتُ لَكُنْتُ حُرًّا

في أهل القبور

اخوَيَّ مرًا بالقبور ر وسلّمًا قبل السير
 ثم ادعوا من عادها من ماجدٍ قرمٍ فخور
 ومسودٍ رحبِ الفناء اغرَّ كالقمر المنير
 يا من تضمّنه المقابر من كبير أو صغير
 هل فيكم أو منكم من مستجار أو مجير
 أو ناطق أو سامع يومًا بعُرف أو نكير
 أهل القبور أحبّتي بعد الجدالة والسرور
 بعد الغضارة والنضارة والتنعم والحبور
 بعد المشاهد والمجا لس والعساكر والقصور
 بعد الحسنات المسمعا ت وبعد ربّات الخدور
 أصبحت تحت الثرى بين الصفائح والصخور
 أهل القبور اليكم لا بدّ عاقبة الامور

في غرور المطامع

حتى متى يستفزّني الطمع أليس لي بالكفاف متسع
 ما افضل الصبر والقناعة للناس جميعاً لو انهم قنعوا
 واخذع الليل والنهار لأقوام أراهم في الغي قد رتعوا
 أمّا المنايا فغير غافلة لكل حي من كأسها جُرْع
 أيّ لبيب تصفو الحياة له والموت وردّ له ومنّجّع
 يا نفس ما لي اراك آمنة حيث يكون الروعات والفزع
 ما عدّ للناس في تصرف حالاتهم من حوادثٍ تقع
 لقد جلبت الزمان اشطّره فكان فيهنّ الصاب والسلع

ما لي بما قد أتى به فرحُ
 لله درّ الدنى لقد لعبت
 بادوا ووفّتهم الأهلّة ما
 أثروا فلم يدخلوا قبورهم
 وكان ما قدّموا لانفسهم
 غداً ينادى من القبور الى
 غداً توفّي النفوس ما كسبت
 تبارك الله كيف قد لعبت
 شئت حبّ الدنى جماعتهم
 ولا على ما ولى به جزعُ
 قبلي بقوم فما ترى صنعوا
 كان لهم والايم والجمعُ
 شيئاً من الثروة التي جمعوا
 أعظم نفعاً من الذي ودعوا
 هول حساب عليه يُجتمع
 ويحصّد الزارعون ما زرعوا
 بالناس هذي الأهواء والبدعُ
 فيها فقد أصبحوا وهم شيعُ

في شرف العفاف والرضى

متى تتفضّى حاجة المتكلّفِ
 طلبت الغنى في كل وجه فلم أجد
 اذا كنت لا ترضى بشيء تنالهُ
 فلست من الهمّ العريض بخارج
 أراني بنفسى معجباً متعزّزاً
 وإني لعينُ البائس الواهن القوى
 وليس امرؤ لم يرع منك يجده
 خليلي ما أكفى اليسير من الذي
 وما أكرم العبد الحريص على الندى
 ولا سيما من مترّف النفس مسرفِ
 سبيل الغنى إلا سبيل التعفّف
 وكنت على ما فات جمّ التلّفِ
 ولست من الغيظ الطويل بمشتفِ
 كاني على الآفات لست بمشرف
 وعين الضعيف البائس المتطرّف
 جميع الذي ترعاه منه بمنصف
 نحاول إن كنّا بما عفّ نكتفي
 وأشرف نفس الصابر المتعفّف

في ضرورة التقى

بليت وما تبلى ثياب صباكا كفاك من اللهو المضرّ كفاكا

ألم ترَ ان الشيب قد قام ناعياً
تسمع ودع من أغلق الغي سمعه
ألا ليت شعري كيف أنت اذا القوى
تمنيتَ حتى نلتَ ثم تركتها^١
اذا لم تكن في متجر البر والتقوى
اذا أنت لم تعزم على الصبر للآذى
اذا كنت تبغي البرَ فاكف عن الآذى
أخوك الذي من نفسه لك منصف

مقام الشباب الغضّ ثم نعاكا
كأني بداعٍ قد أتى فدعاكا
وهت واذا الكرب الشديد علاكا
تنقل بين الوارثين مناكا
خسرت نجاة واكتسبت هلاكا
رميت الذي منه الآذى ورمাকা
وما البرّ إلا ان تكفّ اذاكا
اذا المرء لم ينصفك ليس أخاكا

في فناء الحياة ومرارة الحرص

نعم نفسي إليّ من الليالي^٢
فما لي لست مشغولاً بنفسي
لقد أيقنت اني غير باقٍ
أما لي عبرة في ذكر قوم
كان ممرّضي قد قام يمشي
وخلفني نسوة يبكين شجواً
سأقنع ما بقيتُ بقوت يوم
تعالى الله يا سلم بن عمرو
هب الدنيا تساق اليك عفواً
فما ترجو لشيء ليس يبقى -
خبرت الناس قيرناً بعد قرن
وذقت مرارة الأشياء طرّاً
تصرفنّ حالاً بعد حالٍ
وما لي لا أخاف الموت ما لي
ولكنني أراني لا أبالي
تقاناو ربما خطروا ببالي
بنعشي بين أربعة عجال
كانت قلوبهنّ على مقال
ولا أبغي مكاثرة بمال
اذلّ الحرصُ أعناق الرجال^٣
أليس مصير ذلك الى الزوال
وشيكاً ما تغيّره الليالي
فلم أرَ غير ختال وقال
فما طعمُ أمرٍ من السؤال

١ الضمير يرجع الى الدنيا .

٢ وفي رواية - إلى مر الليالي .

٣ يخاطب الشاعر المعروف بسلم الحاسر ، وقد مر ذكره .

في المنية وبطشها

لمن طلل أسائله معطّة منازله
 غداة رأيت تنعى اعاليه أسافله
 وكنت أراه مأهولاً ولكن باد آهله
 وكلّ لاعتساف الدهر معرضة مقاتله
 فيصرع من يصارعه وينضل من يناضه
 ينازل من يهّم به وأحياناً يخاتله
 وأحياناً يؤخّره وتارات يعاجله
 وكلّ قد عزّ من ملك تحف به قنابله
 يخاف الناس صولته ويرجى منه نائله
 ويشتي عطفه مرحاً وتعجبه شمائله
 فلما ان آتاه الحقّ ولّى عنه باطله
 فقمّض عينه للموت واسترخت مفاصله
 رأيت الحقّ لا يخفى ولا تخفى شواكله
 ألا فانظر لنفسك أيّ زاد انت حامله
 لنزل وحدة بين المقابر انت نازله
 قصير السمك قد رصت عليك به جنادله
 بعيد تزاور الجيران ضيقة مداخله
 ألا إن المنية منهل والخلق ناهله
 اواخر من ترى تفنى كما فنيت أوائله
 لعمرك ما استوى في الامر عالمه وجاهله
 ليعلم كل ذي عمل بأن الله سائله
 فاسرع فائزاً بالخير قائله وفاعله

في قصر العمر وحقيقة الغنى

ألا هل الى طول الحياة سبيلُ
واني وان أصبحت بالموت موقناً
وللدهر الوانٌ تروح وتغتدي
ومنزل حقٍّ لا معرّجَ دونه
أرى علل الدنيا عليّ كثيرةٌ
إذا انقطعت عني من العيش مدتي
سُيعرضُ عن ذكرى وتُنسى مودتي
واللحقُ أحياناً لعمرى مرارةٌ
ولم أرَ انساناً يرى عيبَ نفسه
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً
اجلّك قومٌ حين صرت الى الغنى
وليس الغنى إلا غنى زَيْن الفقى
ولم يفتقر يوماً وان كان معدماً
إذا مالت الدنيا الى الناس رغبت

وأنتى وهذا الموتُ ليس يُقيلُ
فلي املُ دوت اليقين طويلُ
وإنت نفوساً بينهنّ تسيلُ
لكلّ امرئ يوماً اليه رحيلُ
وصاحبها حق الماتِ عليلُ
فانّ غناء الباكيات قليلُ
ويحدثُ بعدي للخليل خليلُ
وثقلُ على بعض الرجالِ ثقلُ
وان كان لا يخفى عليه جميلُ
وللناسِ قالُ بالظنون وقيلُ
وكل غنيّ في العيون جليلُ
عشبةٌ يقرى أو غداة يُنيلُ
جوادٌ ولم يستغن قطّ بخيلُ
اليه ومال الناسِ حيث يميلُ

في ذل السؤال

أندري أي ذلّ في السؤالِ
يعزّ - على التنزه - من رعاه
إذا كان السؤالُ ببذل وجهي
معاذَ الله من خلقٍ ديني
توقّ بدأ تكون عليك فضلاً
بدأ تملو بدأ يجميل فعلِ
أتكرّ ان تكون اخا نعيمِ

وفي بذل الوجوه الى الرجالِ
ويستغني العفيفُ بغير مالِ
فلا قرّبتُ من ذاك النّوّالِ
يكون الفضلُ فيه عليّ لاي
فصانها اليك عليك عالِ
كما علت اليمينُ على الشمالِ
وانت تصيفُ في فيء الظلالِ

وَأَنْتَ تَرُومُ قُوتَكَ فِي عَفَافٍ وَرَبِّتَا إِنْ ظَمِئْتَ مِنَ الزَّلَالِ
مَنْ يَتَمَسَّيْ وَتُصْبِحُ مُسْتَرِيحًا وَأَنْتَ الدَّهْرَ لَا تَرْضَى بِجَالِ
تَكَابِدُ جَمْعُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ وَتَبْغِي إِنْ تَكُونُ رُخِيًّا بِالِ
وَقَدْ يَجْرِي قَلِيلُ الْمَالِ مَجْرَى كَثِيرِ الْمَالِ فِي سَدِّ الْخِلَالِ
إِذَا كَانَ الْقَلِيلُ بِسَدِّ فَقْرِي وَلَمْ أَجِدِ الْكَثِيرَ فَلَا أَبَالِي
هِيَ الدُّنْيَا رَأَيْتُ الْحُبَّ فِيهَا عَوَاقِبُهُ التَّفَرُّقُ عَنْ ثِقَالِ

عبر الزمان

نَادَتْ بِرُوشِكَ رَحِيلُكَ الْيَوْمَ أَفَلَسْتَ تَسْمَعُ أَوْ بِكَ اسْتِصَامُ
وَمَضَى أَمَامَكَ مَنْ رَأَيْتَ وَأَنْتَ (م) لِلْبَاقِينَ حَتَّى يَلْحَقُوكَ إِمَامُ
مَا لِي أَرَاكَ كَأَنَّ عَيْنَكَ لَا تَرَى عِبْرًا تَمُرُّ كَأَنَّهُنَّ سَهَامُ
تَأْتِي الْخُطُوبُ وَأَنْتَ مُنْتَبِهٌ لَهَا فَإِذَا مَضَتْ فَكَأَنَّمَا أَحْلَامُ
قَدْ وَدَعْتَكَ مِنَ الصَّبَاحِ زَاوَةَ^١ فَاحْذَرِ فَمَا لَكَ بَعْدَهُنَّ مَقَامُ
عَرَضُ الْمَشِيبِ مِنَ الشَّبَابِ خَلِيفَةٌ وَكَلَامَا نِعَمٌ عَلَيْكَ جَسَامُ
أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْمَشِيبِ مُؤَدِّبًا وَعَلَى الشَّبَابِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامُ
وَلَقَدْ غُشِيتُ^٢ مِنَ الشَّبَابِ بِغَبْطَةٍ وَلَقَدْ وَفَّكَ عَثَارُهُ الْأَحْكَامُ
لِلَّهِ أَزْمَنَةٌ عَهْدَتْ رَجَالُهَا فِي النَّائِبَاتِ وَأَنَّهُمْ لَكِرَامُ
إِيَّامٌ أَعْطِيَتْهُ الْأَكْفُ جَزِيلَةٌ إِذْ لَا يَضِيعُ لَذِي الذَّمَامِ ذَمَامُ^٣
فَلْعِبْرَةٌ أَخَّرْتَ لِلزَّمَنِ الَّذِي هَلَكَ الْأَرَامِلُ فِيهِ وَالْأَيْتَامُ
زَمَنٍ مَكَاسِبُ أَهْلُهُ مَدْخُولَةٌ دَخَلَ فُرُوعُ أَصُولِهِ الْآثَامُ
زَمَنٍ تَحَامَى الْمَكْرَمَاتُ سِرَاتُهُ حَتَّى كَانَ الْمَكْرَمَاتُ حَرَامُ
زَمَنٍ هَوَتْ أَعْلَامُهُ وَتَقَطَّعَتْ قِطْعًا فَلَيْسَ لِأَهْلِهِ أَعْلَامُ

١ وفي نسخة : عوض .

٢ وفي رواية : غنيت .

٣ وفي نسخة : أفلا يضيع لدى الزمان ذمام .

ولقد رأيت الطاعين^١ لما اشتها
 ما زخرف الدنيا وزبرج أهلها
 ولربّ اقوام مضوا لسبيلهم
 ولربّ ذي فرش ممتدة له
 وعجبت إذ علل الختوف كثيرة^٢
 والفيّ مزدحم عليه وعورة^٣
 والموت يعمل والعيون قريرة^٤
 والله يقضي في الأمور بعلمه
 والخلق يقدمُ بعضه بعضاً يقود الخلف منه إلى البلى القدام^٥
 كلّ يدور على البقاء مؤملاً وعلى الفناء تديره الايام^٦

في الذكر الطيب

سكن يبقى له سكن^١
 نحن في داره يجبرنا
 دار سوء لم يدُم فرح^٢
 ما نرى من أهلها أحداً
 عجباً من معشر سلفوا
 وفرّوا الدنيا لغيرهم
 تركوها بعدما اشتبكت^٣
 كلّ حيّ عند ميلته
 إنّ مال المرء ليس له
 في سبيل الله أنفسنا
 ما بهذا يؤذن الزمن^٤
 عن بلاها ناطق لسن^٥
 لا مریء فيها ولا حزن^٦
 لم تغل فيها به الفتن^٧
 أي غبن بين غبنوا
 وابتنوا فيها وما سكنوا
 بينهم في حبها الإحن^٨
 حظّه من ماله الكفن^٩
 منه الا ذكره الحسن^{١٠}
 كلنا بالموت مرتين^{١١}

خداع الاماني

الدهرُ ذو دولٍ والموتُ ذو عِللٍ والمرءُ ذو املٍ والناس اشباهُ
 ولم تزل عِبرٌ فيهنّ معتبرٌ يجري بها قدرٌ والله اجراهُ
 والمبتلى فهو المهجور جانبه والناس حيث يكون المال والجاهُ
 يبكي ويضحك ذو نفسٍ مصرفةٍ والله اضحكه والله ابكاهُ
 يا بائعَ الدين بالدنيا وباطلها ترضى بدينك شيئاً ليس يسواهُ
 حتى متى أنت في لهوٍ وفي لعبٍ والموت نحوك هوي فاغراً فاهُ
 ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه ربّ امرئ حتفه فيما تمناهُ
 والناس في رقدةٍ عما يُراد بهم وللحوادث تحريكٌ وإنباهُ
 أنصفْ هديت إذا ما كنت منتصفاً لا ترضَ للناس شيئاً لستَ ترضاهُ
 يا ربّ يوم اتّ بشراه مقبلةٌ ثم استحالت بصوت النعي بشراهُ
 لا تحقرنّ من المعروف اصغره أحسنْ فعاقبة الاحسان حُسناهُ
 وكلّ امرئ له لا بدّ عاقبةٌ وخيرُ أمرِك ما احدثَ عُقباهُ
 نلهو وللموت مُسانا ومصبحنا من لم يصبّحه وجه الموت ممّاهُ
 ما أقربَ الموتَ في الدنيا وأبعده وما أمرٌ جنى الدنيا واحلاهُ
 كم نافس المرء في شيء وكابر فيه فمضى عنده وخلّاهُ
 بينا الشقيق على إلفٍ يُسرّ به إذ صار اغمضه يوماً وسجّاهُ
 يبكي عليه قليلاً ثم يُخرجه فيسكن الارض منه ثم يفساهُ
 وكلّ ذي اجلٍ يوماً سيلفه وكلّ ذي عملٍ يوماً سيلقاهُ

ابو تمام

حبيب بن أوس الطائي

ولد بين ١٨٨ و ١٩٢ هـ وتوفي ٢٣٠ أو ٢٣١

(حوالي ٨٠٤ م - ٨٤٥ م)



توطئة تاريخية - ممدوحوه - شخصيته في شعره - خصائصه الفنية
التألق البديعي - التفنن المعنوي - الشغف بالإغراب

مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٣٣ - ١٣٥
مروج الذهب للمسعودي (اوروبا) ج ٧ ص ١٦٠ - ١٦٧
الأغاني (بولاق تصحيح الهوريني) ج ١٥ ص ١٠٠ - ١٠٨
وفي سيرة ديك الجن
الوساطة للجرجاني (تصحیح أحمد الزین) ص ٢٤ - ٢٨ و ٦٢ - ٧٢
الموازنة للآمدي (الاستانة ١٣٨٧)
الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء للمرزباني (مصر ١٣٤٣)
ص ٣٠٣ - ٣٢٩
أخبار أبي تمام للصولي (نشر لجنة التأليف والنشر ١٩٣٧)
تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر (١٣٣١) ج ٤ ص ١٨ - ٢٦
نزهة الألباء للانباري ص ٢١٣
وفيات الأعيان ج ١ - تحت حبيب ، ص ١٦٩ - ١٧٣
حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ - ٢٤٠
خزانة الأدب للبغدادی (بولاق) ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٢
هبة الأيام للبديعي (نشر محمود مصطفى ١٩٣٤)
ديوان أبي تمام للخطاط
ديوان أبي تمام (نشر ملحم الأسود)
ومواضع شتى في كتب الأدب الحديثة كدائرة المعارف للبستاني ومجلة
الكلية ومجلة المجمع العلمي ودائرة المعارف الإسلامية ، ودراسات عمر
فروخ وعبد العزيز سيد الأهل وسواها .

يؤخذ من المصادر التاريخية ان أبا تمام ولد أواخر القرن الثاني في قرية يقال لها جاسم . وهي على ما ذكر ياقوت قرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الأعظم الى طبريا . ولا يعرف عن حياته فيها شيء يذكر ، الا انه قد يلاحظ مما نقله ابن خلكان وابن عساكر انه كان في صفره يعمل عند حائك او قزاز في دمشق .

وكل ما يمكن استخلاصه من شتى الروايات ان والده رجل مسيحي اسمه تدوس المطار ، فحرف بعد اسلام الشاعر إلى أوس . ويرجعون نسبه الى قبيلة طي ولذلك لقب بالطائي . وفي ديوانه مواقف يفاخر فيها بهذا النسب نذكر منها قصيدته التي مطلعها : « تصدّت وحبل البين مستحصد شزُر » ومنها :

وهل خاب من جذماء في أصل طيّي عديّ العديّين القلّسُ أو عمرو
لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت وبطنانها منه وظهرانها تيّبرُ
مقاماتنا وقف على العلم والحجى فأوردنا كهل وأشيننا حَبْرُ
ويأخذ فيها بذكر كرام الطائين وأبطالهم وما كان لهم من غرر
الوقائع ويختتمها بقوله :

مساعٍ بضلّ الشعر في كنه وصفها فما يتدي الا لأصفرها الشعر

والجتماع عليه انه انتقل وهو فتى إلى مصر . وكان يلزم مسجدها يخدم فيه أهل العلم والأدب ، فنشأ هناك . ثم جاب الاقطار فزار بغداد وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل والحجاز وأرمينيا والموصل وسواها .

وشعره مفعم بما يدل على كثرة تجواله في الاقطار ، وتحمله للشاق والاضطار .

وإذا دققنا في ديوانه وسيرته ترجّح لدينا انه هبط مصر يافعاً . ففي قصيدته التي قالها في مصر مادحاً آل الرسول ومطلعها « اظبية حيث استنّت الكُثب العفر » ما يشير الى انه قالها وهو في السابعة عشرة : واليك هذه الأبيات منها :

وانّ نكيراً ان يضيق بمن له عشيرة مثلي أو وسيلته مصر
وما لارىء من قائل يوم عثرة لعا وخديناه الحداة والفقر
وان الذي أحذاني الشيب للقي رأيت ولم تكمل لي السبع والعشر

فاذا تأملت البيت الاول شعرت ان قائله حديث العهد بمصر ، وانما أمها وسيلة للارتاق . ويثبت لنا ذلك ما جاء في حسن المحاضرة للسيوطي من أنه هبط « وهو في شببته » وكذلك ما أشار اليه عرضاً ابن خلكان وابن عساكر انه كان في دمشق يعمل عند حايك . ويقول المرزباني ان أول نبوغه كان بدمشق^٢ .

وفي شعره ما يدل على ان حياته في مصر لم تكن على ما يرام ، فأكثر شعره فيها نغّات متبرّم يستثقل الإقامة في وادي النيل . وهذه قصيدته اللامية شاهدة بذلك ، نظمها وقد مرّ عليه خسة أحوال في مصر فقال فيها :

بنفسي أرض الشام لا أئمن الحمى - ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطرء في ان تُمير ولا تحلي
الى أن يقول :

أخسة أحوال مضت لمغيبه وشهران بل يومان تُكل من الثكل

١ حسن المحاضرة ١ - ٢٤٠ .

٢ الموشح ٣٢٤ .

ويعنه من أن يبيت زَماعه على عجلٍ ان القضاء على رسلٍ
لقد طلعت في وجه مصرٍ بوجهه بلا طالع سعدٍ ولا طائر سهلٍ
وساوسُ آمالٍ ومذهب همّة نخيئة بين المطيئة والرحلٍ
نابتُ فلا مالاً حويت ولم أقمُ فامتّع اذ فجعت بالمال والأهلٍ
وكان ورائي من صريمة طيئة ومعن ووهب عن أمامي ما يسلي
فلم يك ما جرّعت نفسي من الأسى ولم يك ما جرّعت قومي من الشكّل

والذي يحصل من هذه الأبيات انه كان قبل خمسة أحوال ترك قومه
وجاء مصر منتجعاً الرزق ، فلم يلق ما يتوخّاه ، ولم يحمله على البقاء
فيها حتى الآن إلا القضاء المعاكس . ويفهم من ذلك ضمناً انه ترك
أهله وفيه مطامع . ولا تكون المطامع عادة قبل أن يشرف المرء على
البلوغ . فشاعرنا على ما يظهر حُسن اليه الاسلام وهو في الشام ففعل
ذلك مندفعاً بما فيه من الطموح وطلب العلي ، وظن انه ينال غايته في
مصر فأتىها . ولضيق ذات يده وميله الى الأدب لزم المسجد يخدم أهل
العلم ويأخذ عنهم .

وما زال كذلك حتى نبغ واشتهر فهجر مصر قاصداً كبار الرجال
في العالم الاسلامي . وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه الى سامراً (سرّ
من رأى) فلزمه ومدحه ، وكان في زمانه أمير الشعراء وحامل رايتهم .
ثم عيّنه الحسن بن وهب على بريد الموصل ، ففضى في هذا المنصب
الستين الأخيرتين من حياته ، وتوفي هناك . وقد رأينا تمهيداً لدراسته
ان ثبت هنا قائمة بأهم ممدوحيه مرتبة بحسب عدد القصائد التي قبلت
فيهم .

١ وقد فعل ذلك بعض من كبار النصارى في عصره وبعده كآل الفيض وآل نوبة وآل وهب .
وكانوا من رؤساء الناس وكانت دولتهم ناصرة وأيامهم مشرقة - الفخري ١٣٧ و ١٨٢ ،
والفهرست ١٣٥ .

أهم مدوحي أبي تمام

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله (٢٩ قصيدة) وهو (من طلي) وكان من كبار القادة .

آل وهب وزراء الدولة (١٣ قصيدة) ينسبهم البعض في بني الحارث ابن كعب ولكن الصحيح أنهم من الموالي ^١ .

الخلفاء العباسيون	}	المعتصم	٨
		المأمون	٢
		الواثق	٢

القاضي أحمد بن أبي دؤاد (الأيادي الجهمي) (١٢ قصيدة) كان قاضي الدولة ومن أكبر المنتفذين فيها .

خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني (١٢ قصيدة) من الامراء والقادة .

مالك بن طوق (التغلبي)

١٠ أمير عرب الشام

محمد بن الهيثم بن شيانة

٨ من أهل مرو (من الموالي) ^٢

٦ ومنهم محمد بن حميد وقد اشتهر في حرب بابك

٥ أمير الشام

عبدالله بن طاهر بن الحسين

٤ فارسي الاصل (خزاعي الولاء)

أحد كبار رجال الدولة وأمير خراسان

أبو دلف القاسم بن عيسى (العجلي)

٤ قائد عربي كبير وصاحب الكرخ

محمد بن الزيات الكاتب المشهور

٤ وزير المعتصم

اسحق بن ابراهيم المصعي (الخزاعي)

٤ نائب بغداد

١ راجع قصيدة ابي تمام « هل اثر من ديارم دمس » وختارات البارودي ٣٧٢ قول ابن الرومي

عن ابن وهب « وفو لسب من آل ساسان شابك » .

٢ راجع داليتة « تجرع أسمى قد اقفر الجرع الفرد » .

عبد الحميد بن غالب الصفيدي ٤	
محمد بن حسان (الضي) ٤	
آل سهل ٤	الوزراء والكتاب وهم من الفرس
الافشين ٢	القائد التركي الكبير
علي بن مرت ٢	من كبراء طبي

شخصيته في شعره

لأبي تمام مزيتان بارزتان : صبره على المشاق لبلوغ المنى ، وشدة
 عنفوانه واعجابه بنفسه . يضاف الى ذلك ميله الى الاسراف في المال
 والقوى . فاذا قرأت ديوانه رأيت مفعماً بما يدل على انه نشأ مغامراً في
 سبيل الجاه والمال . وقد زادت كثرة اسفاره عزماً ومضاءً ، فليس إذن
 من الغريب ان تسمعه يقول :

دعيني على اخلاقي الصمّ التي هي الوفّر أو سرب ترنّ نوادبه
 أي دعيني - على ما فيّ من خلق شديد - اخوض غمرات الحياة
 فلما الفنى أو الموت . وقوله من قصيدة أخرى :

ولكنني لم احو وفرأ مجتماً ففزت به الا بشمل مبدّد
 نزعة في نفس الشاعر تعبّر لنا عما يختلج في نفوس البلاء المغامرين
 الذين يأبون حياة الخمول ، فيقتحمون الأهوال ويخوضون الغمار طلباً للعلو
 والمجد . ومنها :

أليس بأكتاف الجرير وفارس وقمّ واصطخره قراراً لروّد
 بلى ان أرض الله فيها ندوحة ومضطرب للفاتك المتجرّد
 تلك روح قلقه كثيرة المطامع ، وهي التي حلت شاعرنا على ترك
 قومه في الشام ، ثم على ترك مصر والضرب في اجواز الأرض . وقد
 صدق في وصف حاله إذ قال :

ذاتَ الثنايا الغرّ لا تتمرّضي عند الفراق بمقلتين وجيد
 ما ابيضّ وجه المرء في طلب العلى حتى يسودّ وجهه في البید
 وانك لتكاد قلّس صلابة نفسه في أبياته التالية :

لا أفقرّ الطربَ القلاصَ ولا أرى مع زير نسوان اشدّ قيودي
 شوقٌ ضَرَحَتْ قذاته عن مشربي وهوى اطرت لحاءهُ عن عودي
 عامي وعام العيس بين ودیقة مسجورة وتنفوسة صيخود
 حتى أغادر كل يوم بالفلا للطير عيداً من بنات العيد

وملخص هذه الأبيات : انني لست من الذين يركبون العيس توصلا
 إلى طرب أو للملهي غرامي ، ولكنني رجل أسفار متمرس بقطع الفلوات
 المحرقة ، وكم تركت لطيوورها نصيباً وافراً من نياقي . يشير بذلك الى
 صلابته واحتماله وشوقه الى العظام . والكثير في شعره ينضح بهذه الروح
 المغامرة ، حتى شعره في مصر - وهو في أول عهده وقد قيده الدهر
 بقيود الفقر - نراه برغم ذلك يتمّ على نفس مرّة طمّاحة . ومن قوله
 في ذلك :

وطال قطوني أرض مصرَ لحاجة يقال لها أقبح بهاتي وأسمج
 اقلّب في أقطارها الطرف كي أرى ولست براء ذاك عصمة ملتجي
 ففقتني بأسي وأعلم انني مقود بجبل للمقادير مدمج

أما عنفوانه فظاهر فيما روه عنه يوم قصد عبد الله بن طاهر أمير
 خراسان . قالوا لما فرغ من انشاده بائيته التي مطلعها « اهنّ عواقي يوسف
 وصواحيه » نثر عليه ألف درهم ، فاستقلها الشاعر ولم يس منها شيئاً ،
 بل تركها للغلمان يلتقطونها . فوجد عليه الامير وقال : يترفع عن برّي ،
 ويتهاون بما أكرّمته . فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك . وأي عنفوان أشد
 من ان يقصد شاعر أميراً جليلاً كابن طاهر فيمدحه ، ثم هو يرى هبة
 الامير اقلّ من قدره ، فيترفع عن أن يسها بيده . وهذه الظاهرة الخلقية

في شاعرنا تتجلى لنا أيضاً في خلق أبي الطيب المتنبي كما سنرى عند درسنا هذا الشاعر ، وهي قد تهيب بالشاعر إلى وزن نفسه بميزان بمدوحه أو الى التفاخر والتعظيم على زملائه ومناوئيه . خذ قصيدة أبي تمام التي قالها يمدح قاضي الدولة العباسية أحمد ابن أبي دؤاد ويعتذر اليه عن اساءة ، وأولها :

أرأيت أيّ سواف وخدود عنت لنا بين اللوى فزرو
وفيهما يذكر فضل المدوح وفضل قومه (إياد) ويقرن ذلك بمدح
طبيّ (قبيلة الشاعر) ويجعل إياداً وطياً متساويتين في الحمد فيقول :
كعب وحاتم اللذان تقاسما خطط العلى من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الحمد ميتة خضرم صنديد
ثم يتقدم الى الاعتذار بأبيات تدل على شدة نفسه ومنها :

فاسمع مقالة زائر لم تشبه آراؤه عند اشتباه البيدر
أسرى طريداً للحياه من التي زعموا وليس لرهة بطريد
كنت الربيع أمامه ، ووراءه قرأ القبائل خالد بن يزيد
ما خالد لي دون أيوب ولا عبد العزيز ولست دون يزيد

والتأمل في هذه الأبيات يعجب من هذه العواطف التي تملي عليه ان يقول لمدوح عظيم يعتذر اليه . لم آتلك رهبة منك بل خجلاً مما اتهمت به ، وان مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بأبيوب بن سليمان بن عبد الملك وبعبد العزيز بن الوليد فشفعا له . وما خالد الذي يشفع لي بأقل منها ، ولا أنا بأقل من يزيد بن المهلب . ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف :

وكنت إذا ما زرت يوماً مسوداً سرحت رجائي في مسارح سؤدد
فإن يحزل النعمى ثلثه قصاندي وان ياب لم أقنع بأصوات معبد
أليس بأكناف الجرير وفارس وقم واصطغر قرار لروء

فكأنه يقول اني شاعر كبير النفس أقصد الامير العظيم فإن كفاًني
 بما يستحق مقال كفاًته بما يستحقه من القصائد ، وإلا فإني أنحول عنه
 الى الضرب في آفاق الأرض .

أما تعاضله بشعره فهو كثير كقوله يصف قصائده :

وسياره في الارض ليس بنازح
 على وخداها حزنٌ سحيق ولا سهب
 تذرّ ذرور الشمس في كل بلدة
 وتسي جوحاً ما يردّ لها غرب
 إذا أنشدت في القوم ظلت كأنها
 مُسرّة كبير أو تداخلها عجب
 مفصّلة باللؤلؤ المنتقى لها
 من الشعر إلا انها اللؤلؤ الرطب

وقوله :

خذها مغرّبة في الارض آنسة
 بكل فهم غريب حين تغترب
 لا يستقي من حفير الكتب رونقها
 ولم تزل تستقي من بحرها الكتب
 حسيبة في صميم المدح منصبا
 إذ أكثر الشعر ملقى ما له حسب

وقس على ذلك ما لا يسهه هذا المقام .

على ان أبا تمام كان - على صلابه نفسه - موصوفاً بكرم النفس
 وحسن الأخلاق^١ . وكان محباً للشراب والفناء ، لا يكاد يحصل على
 المال حتى ينفقه في سبيل المسرات . فهو في ذلك كأكثر شعراء عصره .
 وبرغم ما تجده في شعره من التعصب الديني عند ذكره للروم لا تجد
 في سيرته أو في شعره تمسكاً شديداً بفروض الدين . قال المسعودي : « كان
 أبو تمام ماجناً خليعاً ، وربما أدّاه ذلك الى ترك موجبات فرضه فاجناً
 لا اعتقاداً »^٢ . وبكلمة أخرى كان مستهتراً قليل المبالاة بما يتطلبه حسن
 الاعتقاد .

١ تزمة الالباب للاتباري ٢١٤ وابن عساكر ٤ - ١٨ الى ٢٦ .

٢ مروج الذهب ٧ - ١٥١ .

خصائصه الفنية

قال ابن رشيق القيرواني : « لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه كأبي نواس في الحر ، وأبي تمام في التصنيع ، والبحري في الطيف الخ^١ . وقال الجرجاني في الوساطة : « كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة ، فأخرجه إلى التعدي وتبعه أكثر المحدثين^٢ . وقال أبو الفرج الأصفهاني : « وله مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الاكثار والسلوك في جميع طرقه^٣ . ووصفه الأمدى بقوله : « وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات والمعاني المولدة ، ثم يقول : « فإن كنت تميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالفوض والفكرة ولا تلوي على غير ذلك فأبو تمام اشعر^٤ .

هذا هو رأي جمهور العلماء النقادين في شعر أبي تمام . والذي يطالع ديوانه ويدقق في تفهيم معانيه يرى فيه ثلاث مزايا بارزة ، وهي : ١ - تألقه البيدي (واكثر ما يظهر ذلك في الاستعارة والطباق والجناس) . ٢ - تفننه المعنوي وهو ما يسميه البعض بالاختراع . ٣ - شغفه بالإغراب - أو الفوض على ما يستصعب من الالفاظ والمعاني . ولنبسط لك هذه المزايا واحدة واحدة :

التألق البيدي

لم يخل الشعر العربي في عصر من العصور من الأخذ بأسباب البديع

١ المدة ١ - ١٩٤ .

٢ الوساطة ٣٢٤ .

٣ الاغانى ١٥ - ١٠٠ .

٤ الموازنة ٣ .

أو الصناعة اللفظية والمعنوية . كان ذلك منذ أيام الجاهلية ، فقد عرف
أمرؤ القيس بسبقه إلى الكثير من لطائف الوصف والتشبيه ، وعرف زهير
بتثقيف قصائده وتكرير النظر فيها وتنقيحها ، وربما رصد أوقات نشاطه
قتباطاً عمله . ولذلك سميت الحوليات مبالغة في تأنقه وتصنعه ، ومثله
الحطينة .

وإذا راجعت شعر النابغة والاعشى وجريز والاختل والفرزدق وأبي نواس
وبشار ومروان ومسلم وسواهم من أمراء الشعر الذين تقدموا أبا تمام ، نجد
في جميعهم أثر الميل إلى الصناعة يتفاوت فيهم بالنسبة إلى الشاعر وأحواله .
قال ابن رشيق عن صنّاع الشعر القدماء : « واستطرفوا ما جاء من الصنعة
نحو البيت أو البيتين في القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة
شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره . فاما إذا كثّر ذلك فهو عيب
يشهد بخلاف الطبع وإيثار الكلفة . وليس يتجه البتة ان يتأتى من الشاعر
قصيدة كلها او أكثرها متصنع من غير قصد ، كالذي يأتي من اشعار
حبيب والبحري وغيرهما ، وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها » .

وقد كادوا يجمعون على ان مسلم بن الوليد هو اول من توسع في البديع ،
وتبعه فيه جماعة منهم أبو تمام - روى ذلك الاصفهاني في سيرة مسلم
ابن الوليد وقال ان أبا تمام جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه . ونقل عن
محمد بن يزيد قوله : « كان مسلم أول من عقد هذه المعاني الظرفية
واستخرجها » . وعن القاسم بن مهرويه أول من أفسد الشعر مسلم بن
الوليد ، جاء هذا الفن الذي سماه البديع ، ثم جاء الطائي بعده
فتفنن فيه ^٢ .

والحقيقة ما ذكرنا من ان انواع البديع منشورة متفرقة في اشعار المتقدمين
ولكن مسلم بن الوليد أكثر منها وكان يحتذي حذو العتابي ، وكان هذا

١. المدة ١ - ٨٤ .

٢ راجع الموازنة ص ٩ وريحانة الالباء (مصر ١٣٠٦) ٢٣١ .

يحتذي حذو بشار^١ ، ثم قام أبو تمام فزاد على مسلم . وكان العصر الذي نشأ فيه شاعرنا (اعني صدر الدولة العباسية) عصر انتقال في الأدب من الطريقة البدوية القديمة التي عرف بها صدر الاسلام الى الطريقة الحضرية المولدة ، طريقة التبسط والتألق . والظاهر ان أبا تمام كان من الشعراء الذين تأثروا بهذه الطريقة فجرى فيها شوطاً بعيداً وصار على ما يرى بعضهم امام هذه الصناعة . وفي شعره من الشواهد على ذلك ما لا يحتمل المقام الاسباب به فنكتفي هنا بالقليل منها - قال من قصيدة :

تلومين ان لم اطو منشور مة^٢ طوت عن لساني مدح كل مزبد^٣
 لبزتك^٤ أثواب البصائر عزة^٥ كستك ثياب الزجر من كل مرشد
 كأنك لا تدرين طعم معيشة تمج^٦ دماً من طعم ذل التعبد
 فصوني قناع الصبر اني لراحل الى بحر جود غامر الفضل مزبد
 امات حياة الوعد منه نوافل من الجود اضحت للعفاة بمرصـد
 وقال مادحاً احمد بن أبي دؤاد :

ما زلت ارقب تحت افياء المنى يوماً بوجهٍ مثل وجهك أبيضاً
 لولاك عز^١ لقاءه^٢ فيما بقي اضعاف ما قد عزّني فيما مضى
 أوردتني العدة الخفيف وقد أرى ابتراض^٣ الثمد البكي تبرّضاً^٤
 اما القريض فقد جذبت بضبعه جذب الرشاء مصرّحاً ومعرّضاً
 أحبيته اذ كان فيك محبباً وازددت حباً حين صار مبغضاً
 قد كانت الحال اشتكت فأسوتها اسوأ أبي امراره أن ينقصا
 ما عذرهما الا تفيق ولم تزل لمريضها بالمكرمات ممرّضاً
 وله متغزلاً :

١ البيان والتبيين ١ - ٢٤ .

٢ المزبد اللثم .

٣ الضمير يرجع إلى الخليفة .

٤ العد الخفيف أي النبع الوافر الماء . ابتراض الثمد البكي أي أطلب الماء القليل هنا وهناك .

لا أنتَ انت ولا الديار ديارُ خفّ الهوى وتولّت الاوطارُ
كانت مجاورة الطلول وأهلها زمناً عذاب الورد فهي بحار
أيام قديمي عينه تلك الدمى فيها وتغمر لبّه الاقمار
إذا لا صدوف ولا كنود اسمائها كالغنمين ولا نوار نوار^١
بيض فهنّ إذا رُمقن سوافراً صُور^٢، وهنّ إذا رُمقن صوار^٣

وقال من قصيدة في أبي دلف العجلي :

تكاد مغانيه تهشّ عراسها فتركب من شوق الى كل راكب
إذا ما غدا اغدى كريمة ماله هديتاً ولو زفت لأم خاطب
يرى اقبح الاشياء أوبة أملٍ كسته يد المأمول حلّة خائب
واحسن من نور قفّتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب
إذا ألجمت يوماً لُجيم وحولها بنوا الحصن نجلّ المحصنات النجائب
فان المنايا والصوارم والقنا اقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركن ذا جبريّة سليماً ولا يحرّبن من لم يحارب
يمدّون من أبدي عواصٍ عواصمٍ تصول باسياف قواضٍ قواضب

وأمثال ذلك كثيرة في شعره بل هي مذهبه العام . وقد قاده شغفه بذلك الى الاسراف والخروج عن جادة المعقول ، حتى رماه الكثيرون باسمه النقد الحادة . قال الجرجاني : « ان أبا تمام اسلم نفسه للتكلف ، يرى انه ان مرّ على اسم موضع يحتاج الى ذكره او يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون ان يشتقّ منه مجنيساً او يعمل فيه بديعاً ، فقد باء باثم واخلف بفرض حتم^١ » . وقال الآمدي في الموازنة بعد ان ذكر آراء المنحرفين عن أبي تمام : « كأنهم يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب وتوسيع شعره بها ، حتى صار كثير مما أتى من المعاني لا

١ صدوف وكنود ونوار اسماء .

٢ الصوار القطيع من بقر الوحش .

٣ اسرار البلاغة ١٠ .

يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل ، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن . ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الألفاظ والمعاني مجاذبة ويقتصرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به خاطره وهو يجهامه غير متعب ولا مكدود ، وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش ، واقتصر من القول على ما كان محذوفاً حذو الشعراء المحسنين ليسلم من هذه الأشياء التي تهجن الشعر وتذهب ماءه ورونقه - ولعل ذلك ان يكون ثلث شعره أو أكثر - لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين^١ . وقال الباقلاني بعد ان ذكر بضعة أمثال على تصنع أبي تمام : « فهذا وما أشبه إنما يحدث من غلوّه في الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب ، وربما اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه ، وكان التكلف بارداً والتصرف جامداً^٢ » .

والذي يطالع ديوانه تحمياً لهذه التهم يتضح له ان أكثر ما ذكره حق وان أبا تمام كثيراً ما يأتي بالاستعارة أو الكناية دون أن يراعي التناسب بين الحقيقة والمجاز كقوله :

وركبٍ يساقون الركاب زجاجةً من السير لم تقصد لها كفّ قاطب

يقصد بذلك ان المسافرين يشاركون ركائبهم في السير الشديد الذي لا لين فيه ولا تودة . فاستعار للسير الشديد الخمر التي لم تفرج بماء وجعل تشارك الركب بالركائب فيه عبارة عن تساقيم تلك الخمر الصرف . وانت لا تحتاج إلى تأمل كثير لترى شدة التعسف في هذه الاستعارة .

ومثل ذلك قوله :

١ الموازنة ٥٥ - ٥٦ .

٢ اعجاز القرآن (مصر ١٣١٥) ٥٣ .

صاحي الهيّا للهجير وللقنا تحت المعجاج نخاله محراثا
فالشطر الأول جميل ، جعل الممدوح من ذوي الاقدام والتعرض للمشاق ،
ولكنه افحش في الشطر الثاني اذ جعله محراثا يشق غبار الحرب وافسد
جمال البيت .
وقوله :

آثري اذ جعلته سندا كل امرىء لاجىء إلى سنده
ايثار شزر القوى رأى جسد المعروف أولى بالطب من جسده
والشاهد في البيت الثاني وهو يريد ان يقول آثري ايثار القوى وقد
غار للمعروف وقام يناصره . فتأمل استعارته الجسد للمعروف ، وايثار
القوى له بالتطبيب !

لعمري لقد حررت يوم لقيته لو ان القضاء وحده لم يبرّد
وانك لتشعر بقشعريرة البرد في هذا البيت . وهو يقصد ان يقول
ان حمية ممدوحه قد ثارت يوم لقي العدو وكادت تقتك به لولا ان
القضاء حال دون ذلك : فكّد نفسه حتى جاء بالطباق ، ولكنه جاء
غثا بارداً .

وانظر إلى تعسّفه إذ يقول :
نوى كانهقراض النجم كانت نتيجة من الهزل يوماً ان هزل النوى جد
أي ان النوى فاجأته مفاجأة فلم يصدّق أولاً ، ولكن ألم وقوعها
أراه الحقيقة وعلمه ان هزل الحبيب جد .
وقوله :

فكأن افئدة النوى مصدوعة حتى تصدّع بالفراق فؤادي
فاذا فضضت من الليالي فرجت خالفنها فسدنها ببعاد
ومعناها ان فؤاد النوى بقي مصدوعاً حتى صدع بفراق الاحبة فكلمنا

فتحت لنفسي منفرجاً خالفتني الأيام فسدت ذلك المنفرج بالبعاد . فانظر
كيف تكلف تصديق افئدة النوى ، وكيف استعمل البعاد كحجر يسد
به ثغرة الفرَج .

وقوله :

أهْيَسُ اليس لجأء إلى همم تفرَّق الاسد في آذنها اللبسا
انظر إلى هذه الهمم التي ترى الاسود غرقى في غمارها وكل ما
يريد ان يقوله ان الممدوح شجاع همته تفوق همة الاسود الشديدة .

وقوله :

هدأت على تأميل احمد همي واطاف تقليدي به وقياسي
معناه رأيت الناس يسمعون إلى الممدوح فقلدتهم ووجدته بالقياس
أفضلهم ، فهدأت همي المضطربة عنده . قابل هذا المعنى بما استعاره
من هدوء الهمة وطواف التقليد والقياس فترى شدة اسرافه في الصناعة .
ومثل ذلك قوله :

لو لم تفت مِسَنُ المجد من زمن بالجوذ والبأس كان المجد قد خرفا
ومعناه ان المجد قد هرم ، ولولا ان ارجعت اليه فتوته يجودك وبأسك
لكان قد أدركه الخرف :

ومن الاسراف المقنوت قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الوري وحطمت بالانجاز ظهر الموعد
وقوله :

قرت بقرآن عين الدين وانشرت بالأشترين عيون الشرك فاصطُلما
والاشتران قائدان للروم .

قال العسكري: «وهذا مع غثائه لفظه وسوء التجنيس فيه يشتمل على عيب

آخر وهو ان انشتار العين لا يوجب الاصطلام .

واليك هذه الايات يصف سفينة حملته إلى الممدوح ، وانظر كيف يتعسف في تشبيها بالجمال وكيف يخرج به التكلف عن حدود الجمال .

حملت رجائي اليك بنت حديقة علباء لم تلقح لفحلٍ مُقْرِفٍ
فنجت وقد حوث الهنيدة وابتننت في شطرها وتبوّعت في النيف

في البيت الأول يريد بابتة الحديقة الغلباء السفينة لانها تصنع من خشب الحديقة ، وشبه السماء بالفحل ، ولم يلقحها أي لم يصبها بمطر . فتأمل هذه الساجة الصناعية . وفي البيت الثاني - اسرعت هذه السفينة وهي بنت مئة ولكنها في نشاط الحسین ، وسارت غايتها في بحر كالصحراء .

إلى أن يقول :

فاعتامها ذو خبرة بفحوها ندس بحيلة خلّقا متلطف

أي فاختارها من فحول الشجر خبير حاذق ببنائها .

ثم اجتنت شلوي فصرت جنينها متمكناً بقرار بطن مُسَدَف

أي ثم حملتني فكنت في بطنها كما يكون الجنين في بطن أمه .

واني ارجع القارىء إلى هذه القصيدة ليراجعها ويحكم بنفسه على هذه المجازات . وامثال ذلك كثير في شعر أبي تمام ، فانك لا تكاد تقرأ له قصيدة حتى تمر ببیت أو بضعة أبيات من هذا الشعر المكثور الذي ينفر منه الذوق السليم ، لما فيه من تكلف الصناعة والاهتمام بالقشور دون اللباب .

تفننه المعنوي

على ان لأبي تمام مع كل اسرافه في الشعر الصناعي مكانة عالية في

الشعر العربي . وما ذلك إلا لدقة تصويره وحسن اختراعه . ففي شعره كثير من الصور البليغة التي تشهد له بجودة الخيال وبعد مرامي النظر . والذي يراجع ديوانه بروية ويصبر على تحليل معانيه ، يجد من بدائعه الشعرية ما لطف من وصف أو مجاز أو حكمة أو لبس لباساً قشياً من البلاغة . واليك أمثلة ذلك من شعره :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العود

وجوده البيتين في جهال الصورة التي نرى فيها الحسود ناشراً فضل الحسود ، وفي التمثيل على ذلك من العالم الطبيعي تمثيلاً يوضحها ويقرها في الذهن . وقد قرن كل ذلك برقة العبارة وجودة الالفاظ . ومثل ذلك قوله متقرباً من أمير أقام الحجاب على بابهِ وهو في غاية البلاغة :

ليس الحجاب بقصٍ عنك لي أملاً ان السماء ترجى حين تحتجب

وقوله يصف عدم اجتماع المال والكرم في شخصه .
لا تنكري عطل الكرم من الغنى فالسيل حربٌ للمكان العالي
ومن أجمل صوره الشعرية قوله يرثي ولدين صغيرين لأحد الأمراء بالبلاغة ناطقة فيه :

لهفي على تلك الشواهد منها لو اهلت حتى تكون شمائلها
لقد اكوتها حجباً وصباها حلماً وتلك الريحية نائلها
ان الهلال إذا رأيت نموه ايقنت ان سيصير بدرأ كاملاً

وهذا البيت الاخير الذي أتى به تمثيلاً لما كان يرجى من ذنبك الرابدين هر من أبدع الامثال وأبلغها . ومثله بلاغة وجهاً قوله المشهور يصف بلوغ الأرب عن سبيل المشقات :

ولكنني لم أحور وفرأ مجتمعا ففزت به الا بشملٍ مبدؤ

ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً الذّ به الا بنوم مشرّد
وطول مقام المرء في الحى مخلق لدياجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقد أجاد في هذه الأبيات كل الاجادة ، وابرز هذه المعاني البديعة
بقالب يأخذ بجامع القلوب . ومن حسن اختراعه قوله يصف مشييه
الباكر :

ستّ وعشرون تدعوني فأتبعتها إلى المشيب فلم تظلم ولم تحب
فأصغري انّ شيئاً لاح بي حدثاً واكبري انني في المهد لم اشب

يعذر المشيب ويقول ليس الغريب انني شبت في السادسة والعشرين ،
ولكن الغريب انني لم أشب وأنا طفل : يشير بذلك إلى ما في نفسه
من عزم وهمة ، وإلى ما أصابه منذ طفولته من مقارعة الاهوال
والخطوب .

وقال يصف كرم المدوح وازدحام الشعراء على بابيه :
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت سحائب منه اعقت بسحائب
والصور الشعرية في البيت الثاني خلاّبة ، لأحكام التشبيه فيها وجمال
التركيب .

ومن هذه الصور الخلاّبة قوله من مراثيه المشهورة :
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه اليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
ونفسٌ تعاف العار حتى كأنما هو الكفريوم الروح أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر
وقوله يصف أميراً أنعم الله عليه بنعم عظيمة ، ولكنه كفرها ونقض
عهد الولاء والوفاء :

كم نعمة الله كانت عنده فكأنها في غربة واسار
كُسيّت سبائب لؤمه فتضاءلت كنتاؤل الحسناء في الاطمار

وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك . قال ابن الاثير في كلامه
عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال « ان لابكارها سرّاً لا
يهجم على مكانه الاّ جَنَاتِ الشَّهْم ، ولا يفوز بمعاسنه الاّ من دق
فهيه حتى جل عن دقة الفهم » . ثم يقول : « قد قيل ان أبا تمام أكثر
الشعراء المتأخرين ابتداءً للمعاني ، وقد عددت معانيه المبتدعة (أي التي
لم يسبق إليها) فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . وأهل هذه الصناعة
يكبرون ذلك ، وما هذا على مثل أبي تمام بكبير » .

ل وقد أصاب الاستاذ جبر ضومط إذ قال : « الحق يقال ان أبا تمام هو
كما قال فيه واصفوه شاعر واسع الخيال دقيق التصور بعيد مرامي النظر ،
واقدر انه لو عاش فوق الاربعين ، ولم يمنعه الانهاك في الشهوات من
ترتيب محفوظاته ومذكراته ، بل لو عاد عليها بالتهذيب والتشذيب ، فاطرح
منها ما حقه ان يطرح ، وأبقى منها ما هو جدير بالبقاء ، ثم جمع
الاشباه والنظائر - لو عاش حتى فعل كل ذلك - لكان شعره بعدها
لا يتعلق به متعلق ، ولبّز على الارجح الشعراء قاطبة حتى أبا الطيب
المتنبي في كثير من حكمه وأمثاله ويُعد مطارح نظره »^١ .

وكما اننا ننمي على أبي تمام ميله إلى تكلف البديع نمدحه لما نجد
في شعره من نفس عال في النظم يؤثر في النفس فيحملها إلى الطبقات
العليا . اقرأ ايّا شئت من عيون قصائده ، وانظر إلى تلك الهزّة التي
تمتريك لقراءتها . فاذا حللتها وجدتها مزيجاً من جمال النظم ومناة
التركيب وسمو الفكر . ونجّزئ هنا بمثلين أو ثلاثة من ذلك :

راجع قصيدته المشهورة في فتح عمورية وتامل مقدمتها : تلك الوقفة

١ المثل السائر ١٩٣ .

٢ مجلة الكلية مج ٥ ص ٨٧ .

الشعرية العالية التي يرينا فيها الشاعر « المذنب الغربي » ويسمعا أحاديث الجمهور عنه ، ثم يستخلص من كل ذلك تمهيداً ساحراً للتوصل الى الممدوح ، ووصف الواقعة العظيمة التي فتح فيها حصون الاعداء . كل ذلك بأسلوب شديد الأسر بديع الخيال يملأ الاسماع ويحرك أوتار القلوب . وإذا استثنيت بعض ما ذكرناه من تصنعه فان معظم القصيدة من هذا النمط العالي ، كقوله يصف فشل قائد الروم ومحاويله اغراء المنصرين بالمال وترفع الخليفة عن ذلك :

لما رأى الحرب رأي العين توفلس	والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال جريتها	فغزه البحر ذو التيار والحدب
هيئات زعزعت الارض الوقور به	عن غزو محتسب لا غرر مكتسب
لم ينفق الذهب المرّبي بكثرتها	على الحصا وبه فقر إلى الذهب
ان الاسود اسود الغاب همتها	يوم الكريمة في المسلوب لا السلب

ومن هذا النمط العالي قوله :

ستصبح العيس في ذا الليل عند فق	كثير ذكر الرضى في ساعة الغضب
صدفت عنه فلم تصدف مودته	عني وعأوده ظني ولم يخب
كالغيت ان جثته وافاك ريقه	وان ترحلت عنه لج في الطلب
كأنما هو في أخلاقه ابدأ	وان ثوى وحده في جحفل لج

وقوله :

ويوم أمام الموت دحض وقفته	ولو خرّ فيه الدين لانهال كآبه
جلوت به وجه الخليفة والقنا	قد اتسعت بين الضلوع مذاهبه
فلو نطق حرب لقات محبة	ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه

فانت ترى في كل ذلك نزعة الفنية الشديدة ، ولو قلبت ديوانه لوجدتها في اكثر شعره . وهذه النزعة وما فيها من عنف وشدة أسره في التي حدث بمريديه إلى التغالي بمدحه وعدّه امام هذه الصناعة ، حتى

قال أبو الفرج الاصفهاني : « وفي عصرنا هذا (القرن الرابع الهجري) من يعصّب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ^١ . بل هي التي دفعت أبا دلف العجلي ان يصيح وقد أنشده أبو تمام قصيدته التي مطلعها :

على مثلها من أربُع وملاعب أذبلت مصونات الدموع السواكب

« يا معشر ربعة ! ما مُدحمت قط بمثل هذا الشعر ، فما عندكم لقائله ؟ فبادروه ببطارفهم يرمون بها اليه . فقال أبو دلف قد قبلها منكم وأعاركم لبسها ، وسأنوب عنكم في ثوابه . ثم أمر له بخمسين الف درهم وقال : والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا ^٢ . ولم يكن ذلك مجرد اهتزاز للمديح ، ولكن الرجل تأثر بنفس الشاعر وجلال اسلوبه .

ونلاحظ ذلك في مجلس عبدالله بن طاهر أمير خراسان ، فانه لما قصده وأنشده قصيدته « اهنّ عوادي يوسف وصواحيه » لم يتالك الشعراء الحاضرون من أن يصيحوا : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه الله . وبلغ التأثير بأحدهم ان قال : لي عند الأمير أعزّه الله جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاءً على قوله للأمير ^٣ . ومثل ذلك ما جاء في الأغاني عن محمد بن سعد كاتب الحسن بن رجاء ان أبا تمام مدح الحسن بلاميته التي يقول فيها :

أنا من عرفت فان عرتك جهالة فانا المقيم قيامة العذال

فلما وصل إلى قوله :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للكان العالي

وتنظري خيب الركاب ينصّها بحمي القريض إلى ميمت المال

صاح المدح متأثراً : والله لا اتممتها الا وأنا قائم . فلما انتهى من

١ و ٢ الأغاني ١٥ - ١٠٠ و ١٠٣ .

٣ الأغاني ١٥ - ١٠٣ .

انشادها عانقه . قال محمد بن سعد : « وأخذ منه على يدي عشرة آلاف درهم وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به على بخل كان في الحسن ابن رجاء ^١ » .

ولا شك ان في شعر شاعرنا روعة خاصة ، فهو يجمع بين الفخامة اللفظية وجزالة المعنى جمعا يهز النفس ، ويفعل بها ما فعل بمعاصره ومناوئه دعبل يوم سمع بعضهم ينشد بيتي أبي تمام :

شهدتُ لقد اقوت مغانيكُ بعدي وحتت كما حتت وشائع من بردِ
وانجذتمُ من بعد اتهام داركم فيا دمعُ انجذني على ساكني نجد
فتأثر دعبل - على كرهه لأبي تمام - وصاح احسن والله وجعل يردد :
« فيا دمع انجذني على ساكني نجد ^٢ » .

ولولا كثرة تصنعه وما سنذكره له من التعقيد والاغراب لاحتته هذه الروعة الفنية أعلى محل في الشعر العربي .

شغفه بالاغراب

« يذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً . يأتي للاشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ^٣ » .
ذلك رأي ابن رشيقي القيرواني فيه ، وقد أصاب كل الاصابة في قوله
« يأتي للاشياء من بعد » ويراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقة .

وممن سبقه الى هذا النقد أبو الحسن الجرجاني اذ قال بعد ان ذكر اغرابه اللفظي وتطلبه البديع ^٤ « ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب

١ الاغاني ١٥ - ١٠٤ .

٢ الاغاني ١٥ - ١٠٧ .

٣ العمدة ١ - ٨٥ .

٤ الوساطة ٢٤ و ٢٥ .

المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقیل ، وارصد لها الافكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب الا بعد اتماع الفكر وكد الخاطر والحمل على القريحة . فهو كما قالوا « لا يغطي مقاصده بشيء من الابهام » . ومن هنا هذه الصعوبة التي يعانينا من يطالع ديوانه اذ يقف حائراً أمام طلاسه وغموض معانيه ، ولكن اذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها ما يلذّه من صور جميلة ومعانٍ رشيقة . وقد وصف الشاعر قصائده بقوله :

فكأنما هي في السّاع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب
وغرائب تأتيك الاّ انها لصنيعك الحسن الجميل اقارب

تقبل على شعره فتصدمك وعورته ، فتحاول التغلب عليها وتكدّ نفسك في تذليل عقباتها ، ولكنك لا تلبث ان تشعر بتعب قد يحملك على النكوص . على انك اذا صبرت وتابعت الشاعر في أساليبه وغرائبه وأخذت تجلو لنفسك معانيه ، حدث عاقبة هذا العمل وشعرت بما يستهويك من بديع تخيلات وجزالة الفاظه . ولنضرب لك بعض الأمثلة على ذلك . قال في مطلع قصيدته لعبد الله بن طاهر :

اهنّ عوادي يوسف وصواحيه فعزماً فقديماً ادرك السؤل طالبه
اعاذلتي ما اخشن الليل مركباً واخشن منه في الملمات راكبه
دعيني على اخلاقي الصمّ للقي هي الوفر أو سرب ترن نواده
فان الحسام الهندواني انما خشونته ما لم تغفل مضاربه

ذكروا انه لما بدأ في انشاد هذه القصيدة في مجلس الأمير قيل له لِمَ تقول ما لا يفهم ؟ فأجاب السائل : لِمَ لا تفهم ما يقال ؟ نكتة جميلة تبين ما نقصد اليه . ومعنى هذه الابيات عموماً : هل تريد الغواني ان تشغلني وتشتي عزيمتي عن السفر ، وان تحذعني كما حاولت ان تحذع

يوسف بن يعقوب ؟ فلا تذرّخ بالعمز ، لا بدّ لكل طالب مواظب من ادراك طلبه . ويا ايها العاذلة ان الليل مركب خشن ، ولكن الذي يركبه أشد منه وأخشن . فاتركيني على أخلاقي الشديدة اسمى في طلب العلى ، فاما ان أناها أو أموت وتندبني النوادب . فان الحسام الهندواني القاطع انما خشونته (عدم مضائه) ما لم يستعمل (أي انما مضاء الرجل بالعمل والاقدام) .

وقوله يصف أمانى الروم واعتمادهم على مناعة حصونهم :
وقال ذو أمرهم لا مرتع صدّد للسارحين وليس الورد من كسب
ان الحيامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب
أي قال قاداتهم لأنفسهم لا مرتع قريب للاعداء (إذا راموا الحصار) ولا ماء فلا يمكنهم البقاء طويلاً . على ان أمانهم هذه قد فشلت لان السيوف والرماح (الحمامين) هي سبيلنا الى الماء والعشب .

وقوله يصف - كيد المدوح للاعداء وحسن رأيه - :
قد رأوه وهو القريب بعيداً ورأوه وهو البعيد قريباً
سكن الكيد فيهم ان من أعظم إرب ان لا تكون اربيا
مكرهم عنده فصيح وان هم خاطبوا مكره رأوه جليبا
لقد انصعت والشتاء له وجه يراه الرجال جهماً قطوبا
طاعناً منحراً الشمال متيحاً لبلاد العدو موتاً جنوباً
فضربت الشتاء في اخدعيه ضربة غادرته قوداً ركوبا

أي ان الاعداء رأوا المدوح على قربه منهم بعيداً بمناعته ، ورأوه على بعده قريباً منهم لعزمه وهجومه الشديد . وقد خفيت سياسته عليهم - وان من أعظم فنون السياسة ان لا يظهر الدهاء للاعداء - فلم يدركوا خططه مع ان خططهم كانت لديه واضحة . ولقد عدت اليهم والشتاء في إبتانه فطعننت منحراً الشمال (يعني بذلك عن العدو لأنه من جهة الشمال) حاملاً

اليهم الموت من الجنوب ، وضربت الشتاء فأذلتته حتى أصبح لديك
كالجمل الركوب :

ومن هذا القبيل :

يقولون ان الليث ليثٌ خفيّةٌ نواجذهُ مطرورةٌ ومغالبه
وما الليث كلّ الليث إلا ابن عَثْرٍ يعيش فوقَ ناقةٍ وهو راهبه
ويحلّ هذا الطلمس بقولنا : ليس الاسد سبع الغاب ولكن الاسد
الحقيقي هو الذي يحتمل بأس المدوح ولو قليلاً (فوق ناقة) .
وقوله للماذل الخليّ وهو بين الطلول :

وما صار في ذا اليوم عذلك كله عدوّي حتى صار جهلك صاحبي
وما بك إركابي من الرشد مركباً ألا انما حاولتَ رشد الركائب
لم يصر عذلك عدوّاً لي ، حتى صار جهلك صاحبي : أي كرهتك
لمذلك إياي ولكنني ما لبثت ان رضيت عنك لجهلك لوعة الحب ، إذ
انك يجهلك تستطيع مساعدتي فتمنني مثلاً من شدة الوجد وكثرة البكاء .
ولكن مالك تحملي على اتباع سبل الرشاد وترك الوقوف بين الطلول -
ليس ذلك رشادي بل رشاد ركائبي التي ترغب في متابعة السير .

* * *

ومن أسباب اغرابه وغموضه شغفه الزائد بالطباق والجناس كقوله :

فالشمس طالعة من ذا وقد افلتت والشمس واجبة في ذا ولم تحب

* * *

فهو مدنٍ للوجود وهو بغيض وهو مقصٍ للبال وهو حبيب

* * *

فأنت لديه حاضر غير حاضر بذكر وعنه غائب غير غالب

* * *

غربت خلانقه وأغرب شاعر فيه فأحسن مُغْرِب في مغرب

ومن طلاسمه في ذلك قوله :

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كفّ قاطب
فقد أكلوا منها الغوارب بالسرى وصارت لها أشباحهم كالغوارب
يصرف مسراها جذيل مشارق إذا آبه همّ عذيق مغارب
يرى بالكعاب الرّود طلعةً ثائر وبالعرمس الوجناء غرة آيب

ومعناها : وربّ ركب شاركوا نياقهم بالسير الشديد حتى أذابوا
اسنمتها وكواهلها ، ويقود هؤلاء الركب رجل خبير بالاسفار شرقاً
وغرباً ، شغوف بالسفر على النياق حتى انه ليرى في وجه الناقة جمالاً ،
ويكره المكوث في المنازل فلا يرى في وجوه الحسان ما يغريه على ذلك .

ومن دواعي غموضه اغراقه في استعمال الغريب من الألفاظ . جاء في
كتاب الموازنة : « كان أبو تمام يتلّع حوشي الكلام ويتعمّد ادخاله
في شعره » . ولعل ذلك راجع بالاكتر الى كثرة محفوضه ودرسه لأشعار
الأقدمين . قال الآمدي : « كان أبو تمام مشغولاً بالشعر مشغولاً مدّة
عمره بتخيّره ودراسته » ، وله كتب اختيارات فيه مشهورة : منها الاختيار
القبائلي الأكبر ، وقد مرّ على يديّ هذا الاختيار . ومنها اختيار آخر
ترجمته القبائلي ، ومنها الاختيار الذي تلقّط فيه محاسن شعر الجاهلية
والاسلام وأخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى الى ابراهيم بن هرمة ،
وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول . ومنها اختيار تلقّط
فيه أشياء من الشعراء المقلّين والشعراء المغمورين ويلقب بالحلماسة ، وهو
أشهر اختياراته . ومنها اختيارات المقطّعات يذكر فيه اشعار المشهورين
وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين ، وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ،
وانه اشغل به وجعله وكده ، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه :
فلأنه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث إلا قرأه

واطلع عليه^١ . وقيل انه كان يحفظ أربعة عشر ألف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال^٢ .

ولا ريب ان للحفظ تأثيراً على أسلوب الشاعر او النثر ، ولا سيما في إبان قوة الحافظة . ويظهر ذلك في ميل شاعرنا الى استعمال غير المألوف من الاوصاف والعبارات . انظر الى هذا البيت وقد ذكر قبلاً :

أهيس أليس' لجاء الى همم تفرق الاسد في آذيتها الليس
أي شجاع تفرق بحور همته الاسود الجريئة .
وقوله :

الواردين حياض الموت متآفة ثباً ثباً وكراديساً كراديساً
ويريد بمتآفة مترعة . وثباً ثباً أي جماعات جماعات .
وقوله في مطلع قصيدة :

أما انه لولا الهوى ومعاهده مواعيسه قد اقفرت وأجالده
لأعطيت هذا الصبر مني طاعة ليعلم دهري أي قرن يكايده
أي لولا ان نأي الاحباب عن الديار قد أفقدني صبري لعلمت الدهر
بثباتي على مصائبه أي رجل أنا .
وقوله :

غل المرواة الصحاح عزمه بالعيس ان قصدت وان لم تقصد
أي طوى السهول والقفار عزمه .
وقوله :

سهاد يرجعن' الطرف منه ويولع كل طيف بالصدود

١ الموازنة ٢٣ و ٢٤ (بتصرف) .

٢ ابن خلكان ١ - ١٧٠ .

أي سهاد تثقل فيه الجفون :
وقوله :

تقلقل بي أدم المهارى وشؤمها على كل نشز متلثبٍ وفدغد
أي تضطرب بي النياق الرمادية والسوداء على كل فلاة سوداء الحجارة .
وفي قوله :

صَهْصَلْتُ في الصهيل تحسبه أشرح حلقومه على جرس
يصف حصانه بشدة الصوت حتى كأنما حلقومه شد الى جرس .
ومن هذا القبيل :

عططت على رغب العدى عزم بابك بعزمك عطّ الاتحمي المرعبل
الكلام استعارة معناه : شققت عزم « بابك » بعزمك كما تشق الثوب
المخطط .

وقوله :

كأن بابك بالبذنين بعدهم نؤي أقام خلاف الحي أو وتد
بكل منرج من فارس بطل جناجن فلق فيهما قنا قصد
والمعنى كأن بابك ، وقد فني جيشه ، أثر نؤي أو وتد باق في الحي ،
فأنت لا ترى إلا أشلاء جيشه مبثرة ، وفي كل ناحية ومنعطف آثار
الرماح المتكسرة .
وقال :

مقابل في الجدبل صلب القرا لو حك من عجبهِ الى كتده
أي كريم النسب قوي الظهر لو امتحن من عجزه الى كتفه لوجد كذلك .
وأراد مرّة ان يطلب فرواً من ممدوحه فوصفه بهذه الابيات الغريبة :

ولا بد من فرو اذا اجتابه امرؤ غدا وهو سامٍ في الصنابر أغلب
اثيث اذا استعيتب مصقعة به ثلأت علماً انها سوف تُعْتَب

يراه الشفيف المرتعن فينثني حسيراً فتغشاه الصبا فتتكب

أي إذا لبسه الانسان تغلب فيه على البرد . وهو كشف الشعر اذا استرضيت البرد به رضي ، واذا رآه المطر البارد المنهمر انثنى عنه كليلاً ومالت عنه ريح الصبا .

ونظم هذه الامثلة على ميله لاستعمال المتوعر من الالفاظ بيتين من همزته المعروفة ، قال في مطلعها :

قدك انتبأ ربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سُجرائي
أي استحي يا لانمي يكفيك غلواً في تعنفي . وكيف تلوموني وأنتم مثلي مصابون بالغرام .

ومنها يصف البيد والنياق :

بيدٌ لنسل الفيد في امليدها ما ارتيد من هيد ومن عُدواء
أي قفار قطعتها على ناقة ذلول ، فيها كل ما يتطلبه الراكب من عزم ومضاء ومن فرج للهموم .

وأمثال هذه الالفاظ في شعر ابي تمام كثيرة فاشية . وقد انكر المتقدمون ذلك عليه ، وقالوا اذا جاز للاعرابي القح فهو مستهجن من المحدث الذي ليس هو لغته ، ولا من كلامه الذي تجري عادته به . ولقد ذكرنا ان أكثر ذلك راجع الى شغفه بالقديم كثرة محفوظه منه . على ان هناك سبباً آخر وهو شدة اعجابه بشعره ، حتى لم يكن ليرضى أن يمسه بأدنى تهذيب . قال ابو الهلال العسكري : « كان ابو تمام يرضى بأول خاطر فنعي عليه عيب كثير » . وعن الاغاني : روي عن بعض الشعراء ان أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جمعها الا في بيت واحد ، فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب . فقال له : أنا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده

مثل أولاده ، فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلوا في نفسه^١ . فكان شاعرنا كما وصفه الآمدي شرهاً الى إيراد كل ما جاش به خاطره ، وجلججه فكره ، فخلط الجيد بالرديء ، والعين النادر بالزذل الساقط ، والصواب بالخطأ^٢ . على ان لشعره طابعاً من الجزالة أو الفخامة عُرِف فيه . وعليه قال ابن الاثير يصف ألفاظه :

« كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد^٣ » .

بقي أن نقول ان أبا تمام كسائر الفحول من الشعراء المتقدمين قد طرق كل أبواب الشعر فمدح ورثى وتغزل وأجاد الحكمة والوصف . وقد ترك لنا من شعره وخصوصاً في المدح والثناء والحكمة ما يعدّ من أبلغ ما جادت به قرائح الشعراء ، ويكفي أن نشير الى مدائحه في الممتص وأبي سعيد محمد بن يوسف وراثته الشهيرة في محمد بن حُميد الطوسي وما له من بدائع الحكم التي تتخلل قصائده ؛ ففي هذه وسواها تبرز لك شاعريته القوية ، وسنلمس ذلك في ما أثبتناه من مختار شعره .

١ الاغاني ١٥ - ١٠٠ .

٢ الموازنة ٥٦ .

٣ المثل السائر ١٠٦ .

المختار من شعر أبي تمام

وادي بعيد الغور كثير الجنادل يردّه الناهل فلا يبلغه إلا بعد أن تكلّ
قدماه وينقطع نفسه ، على أنه إذا وصل وجد فيه ما ينسيه أهوال
الطريق ومتاعب الرحيل . ذلك هو أبو تمام في شعره - هذّارٌ كثير
التأنق ولوعٌ بسلوك أغرب السبل إلى المعاني .

فتح عمورية^١

قلت في المعتمض سنة ٢٢٣ هـ وكان الشاعر قد صحبه في هذه المعركة
فشهد بنفسه وقائمها^٢ :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدّ بين الجيد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهم جلاء الشكّ والرّيب
والعلم في شهب الأرماع لامعة بين الخميسين^٣ لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زُخرف فيها ومن كذب
تخرّصاً وأحاديثاً ملفقة ليست بنبع إذا عدّت ولا غرباً^٤

١ عمورية بلدة حصينة في الاناضول كانت بيد الروم .

٢ الفخري ١٧١ .

٣ الخميسين أي الجيشين .

٤ النبع شجر صلب تعمل منه القسي . والغرب شجر هش . والمعنى انت اقوالهم ليست من الحقيقة في شيء .

عجائباً زعموا الايام مجفلة^١
وخوتقوا الناس من دهياء مظلمة
وصيروا الأبرج العليا مرتبة^٢
يقضون بالامر عنها وهي غافلة^٣
لو بينت قط أمراً قبل موقعه
فتح الفتوح تعالى ان يحيط به
فتح تفتح أبواب السماء له
يا يوم وقعة عمورية انصرفت
أبقيت جد بني الاسلام في صعد
أم لهم لو رجوا ان تفتدى جعلوا
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد
حتى اذا نخض الله السنين لها

* * *

أتهم الكربة السوداء سادرة^١ منها وكان اسمها فراجة الكرب^٢
كم بين حيطانها من فارس بطل^٣ قاني الذوائب من آني دم سرب^٤
بسنة السيف والخطي من دمه^٥ لا سنة الدين والاسلام مختضب^٦

١ إشارة إلى مذهب ظهر في تلك الايام ولعله مذهب «هالي» راجع المقتطف مج ٣٥ ج ٦ - ١ .
٢ كنى بالاولثان والصلب عن الروم . ويريد بهذا البيت انه لو كانت التنجيم يفيد لعرف الروم ما سيجل بهم فانقوه .

٣ شبه بلوغ الأماني بحلب الضرع الملائن بالحليب اللذيذ .

٤ شبه المدينة بامرأة بارزة الحسن راسها الملوك الفاتحون فامتعت عليهم .

٥ أي كما ان المرأة الحريصة تمخض الحليب لتستخرج زبدته هكذا مخضت الايام فكانت عمورية أفضل ما خرج منها .

٦ أتهم المصيبة من المدينة وكانوا لمناعتها يتوقعون الفرج منها .

٧ أي كم من فارس قتل فيها فال دم قانياً حتى خضب شعره ولكن تخضب السيف لا التخضب الذي تقتضيه السنة .

لنار يوماً ذليل الصخر والخشب
يشلته^١ وسطها صبح^٢ من اللهب
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
وظلمة^٣ من دخان في ضحى شحب
والشمس واجبة^٤ في ذا ولم تحب^٥
عن يوم هيجاء منها طاهر جئب^٦
بان^٧ بأهل^٨ ولم تغرب على عزب^٩
غيلان أبهى ربي من ربها الحرب^{١٠}
أشهى إلى ناظري من خدما الترب^{١١}
عن كل حسن بدا أو منظر عجب^{١٢}
جاءت بشاشته^{١٣} من سوء منقلب

لقد تركت^{١٤} أمير المؤمنين بها
غادرت فيها بهم الليل وهو ضحى
حتى كأن جلايب الدجى رغبت
ضوء^{١٥} من النار والظلماء عاكفة^{١٦}
فالشمس طالعة^{١٧} من ذا وقد أفلت
تصرّح الدهر تصرّيح^{١٨} الفهام لها
لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على
ما ربع^{١٩} مية معموراً^{٢٠} يطيف به
ولا الحدود وقد أدمين من خجل^{٢١}
سماجة^{٢٢} غشيت^{٢٣} منا العيون بها
وحسن^{٢٤} منقلب تبدو عواقبه

* * *

له المنيّة بين السمر والقضب
لله مرتقب في الله مرتقب^١
يوماً ولا حجبت عن روح محتجب^٢
الا تقدّمه جيش من الرعب^٣
من نفسه وحدها في جحفل لجب^٤
ولو رمى بك غير الله لم تُصب^٥
والله فتّاح باب المعقل الأشيب^٦

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت
تدبير معتمم بالله منتقم^٧
ومطعم^٨ النصر لم تكهم استته^٩
لم يغز^{١٠} قوماً ولم ينهد^{١١} إلى بلد
لو لم يقُدْ جحفلًا يوم الوغى لغزا^{١٢}
رمى بك الله بُرجيها فهدّما^{١٣}
من بعد ما أشبّوها واثقين بها^{١٤}

١ في هذا البيت والابيات الاربعة السابقة يذكر حريق المدينة ويتفنن في وصف الدخان واللبب .

٢ جنب نجس . أي طاهر لنا نجس لأعدائنا - أو طاهر بالجهاد نجس باستباحة الاعراض .

٣ بان بأهل أي متزوج .

٤ غيلان هو الشاعر ذو الرمة ، ومية فتاته . وفي هذا البيت وما بعده يقول ان النصر أجمل

لدينا من كل الجمال وان خراب المدينة الدال على ظفرنا أبهى من كل منظر حسن .

٥ وفي رواية مرتهب .

٦ الضمير راجع إلى الخليفة المعتمم . وتكهم الاسنة أي تكل عن القطع .

٧ نهد بمعنى نهض أو ارتفع .

وقال ذو أمرهم لا مرتع صدّد
أمانياً سلبتهم نجح هاجسها
إنّ الحيامين من بيض ومن سمر
للسارحين وليس الورد من كسب^١
ظبي السيوف وأطراف القنا السلب
دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

* * *

لما رأى الحرب رأي العين توفلس^٢
غدا يصرف بالأموال جريتها
هيئات زعزعت الأرض الوقور به
لم ينفق الذهب المرئي بكثرته
أنّ الأسود أسود الغاب همتها
ولتى وقد أجم الخطي منطقة^٣
موكتلاً بيفاع الأرض يشرفه^٤
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت
يا ربّ حوباء^٥ لما اجثت دابرهم
ومعضب رجعت بيض السيوف به
والحرب قائمة في مازق الحج

١ في هذا البيت والبيتين التاليين يذكر ان الروم لما حصنوا المدينة وتهاووا للحصار قال
أولو الأمر منهم لن يستطيع المسلمون حصرنا إذ ليس لهم خارجها مراتع ولا مياه . ولكن
تلك الأماني كذبتها سيوفنا ورماحنا فكانا (أي السيوف والرماح) الويلتين للوصول إلى
الماء والعشب .

٢ يريد بهذا البيت وما سبقه ان قائد الروم « تيوفيلوس » لما رأى شدة الحرب عليه أراد أن
يحول مجراها عنه بارشاه الخليفة بالمال . ولكن هيئات ذلك والخليفة إنما يحارب حباً للجهاد
لا حباً بالمال .

٣ يقصد جيش الروم وفيه إشارة إلى ان منجمي الروم كانوا قد قالوا ان المدينة لا تؤخذ قبل
الصفى ولكن المسلمين كذبهم وأخذوها قبل ذلك .

٤ الحوباء النفس . أي كم من نفس لم تكن تطيب بالسك طابت الآن بفناء الاعداء .

كم نيل تحت سناها من سنى قمر
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها
كم أحرزت قضبُ الهندي مصلته
بيضُ إذا انتضيت من حججها رجعت
وتحت عارضها من عارض شنب^١
إلى الخدرة العذراء من سبب
تهتز من قضب تهتز في كُثب^٢
أحق بالبيض ابداناً من الحجب^٣

* * *

خليفة الله جازى الله سعيك عن
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
ان كان بين صروف الدهر من رحم
فبين ايامك اللاتي نصرت بها
أبقت بني الأصفر المراض كاسهم
جرثومة الدين والاسلام والحسب
تنال إلا على جسر من التعب
موصوله أو ذمام غير منقضب
وبين ايام بدر أقرب النسب^٤
صفر الوجوه وجلت أوجه العرب^٥

وقال في أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري

يذكر بعض وقائعه في الشمال

من سجايا الطلول ألا تجيبا
فأسألنها واجعل بكاك جواباً
قد عهدنا الرسوم وهي عكاظ
أكثر الأرض زائراً ومزوراً
وكعاباً كأنها ألبستها
فصواب من مقلتي ان تصوبا
تجد الشوق سائلاً وجيباً
للصبا تزدهيك حسناً وطيباً^٦
وصعوداً من الهوى وصوبا
غفلت الشباب برّداً قشيباً

١ و ٢ يكفي بسنا قمر وبالعارض الشنب عن الحسان اللواتي سبهن . وبالقضب التي تهتز في
الكتب عن قامات اولئك الحسان .

٣ أي سيوف إذا سلت من أعمادها كانت أحق بأن تحتفظ بالحسان من خدرهن .

٤ أي إذا كان من قرابة بين الايام فيومك هذا أشدها قرابة بيوم بدر الذي انتصر فيه النبي على
المشركين .

٥ بنو الاصفر أي الروم .

٦ يريد بهذا البيت وما بعده ان هذه الرسوم قد كانت قبلاً سوق الصبا يرتادها العشاق
من كل جانب .

بينَ البينَ فقدَها قلَّما تمَّ - سرفَ فقدأَ للشمسَ حتى تَغيبا
 لعبَ الشيبَ بالمفارقِ بل جدَّ فابكى تهاضراً ولموبا^١
 خضبتَ خدَّها إلى لؤلؤِ العقَّة - دمأُ أن رأتَ شواقي خضيبا^٢
 كل داءٍ يرجى الدواءَ له - إلا الفظيعينَ ميتةً ومشيئا
 يا نسيبَ الثَّغَامِ ذنبك أبقي - حسناقي عندَ الفواني ذنوبا^٣
 ولئن عيَنَ ما رأيَ لقد - أنكرنَ مستنكراً وعينَ معيبا
 أو تصدَّعنَ عن قلى لكفى بالشيبِ بني وبينهنَّ حسيبا
 لو رأى الله أن للشيبِ خيراً - جاورتهُ الأبرارُ في الخلدِ شيبا
 كلَّ يومَ تبدي صروفَ الليالي - خلُقاً من أبي سعيدٍ عجيبا
 طاب فيه المديحُ والتدحُّ حتى - فاق وصفَ الديارِ والتشيبا
 غربته الملى على كثرةِ الأهلِ - فاضحى في الأقربينَ جنيبا
 فليطلَ عمره فلو ماتَ في مَرورٍ مقيماً بها لماتَ غريباً^٤
 سبقَ الدهرَ بالتَّلاذُّ ولم يند - تظنَّ النَّائباتِ حتى تنوبا^٥
 وإذا ما الخطوبُ أعفته كانت - راحتاهُ حوادثُ وخطوبا
 وعيرُ الدينِ بالجلادِ ولكنَّ - وعورَ العدوِّ صارت سهوبا
 فدروبُ الأشراكِ تدعى قضاءً - وفضاءُ الإسلامِ يدعى دروبا
 قد رأوه وهو القريبُ بعيداً - ورأوه وهو البعيدُ قريباً
 سكن الكيدُ فيهم إنَّ من أعظمِ - إرب أن لا تسمَى أريباً^٦
 مكرهم عنده فصيحٌ وإن همَّ - خاطبوا مكرهَ رأوه جليبا^٧

١ تهاضر ولعوب فتانان .

٢ أي بكت دمأُ إذ رأت شعري غضباً لظهور الشيب فيه .

٣ الثَّغَامُ فَيَات يَبِيضُ إِذَا يَبَس . ويريد بنسيب الثَّغَامِ الشَّيْب .

٤ مرو حاضرة خراسان وهي بلدة المدوح .

٥ أي سبق نواثب الدهر بمكرمه .

٦ إن كيدَه لم يظهر لها . وأعظم الدهاء أن لا يعرف صاحبه به .

٧ الجليب الغريب . ويريد بالبيت أن مكرهم ظاهر أما مكره فغير مفهوم لشدة دمائه . فشبه

مكرهم بفصيح النطق ومكره بن لا يفهم كلامه .

ولعمري القنا الشوارع تمرى من تلّاع الطلّى نجيعاً صبيها
 في مكرٍ للروع كنت أكيلاً للنّايا في ظله وشرّيا
 لقد انصعت والشتاء له وجه يراه الرجال جهماً قطوبا
 طاعناً منحراً الشمال متيحاً لبلاد العدو موتاً جنوباً^١
 في ليالٍ تكاد تُبقي بخد الشمس من ريمها البليل شحوبا
 فضربت الشتاء في أخذه ضربة غادرته قوداً ركوباً^٢
 لو أصغنا من بعدها لسمعنا لقلوب الأيام منك وجيباً
 غزوة متبع ولو كان رأي لم تفرّد به لكانت سلوباً^٣
 يوم فتح سقى سواد الضواحي كسب الموت راتباً وحلياً
 فإذا ما الأيام أصبحن خرساً كظماً في الفخار قام خطيباً
 كان داء الاشرار سيفك واشتدت شكاة الهدى فكنت طيباً
 أنفرت أيكتي عطايك حتى صار ساقاً عودي وكان قضيماً
 مطراً لي بالجاه والمال ما ألقاك إلا مستوهباً أو وهوباً
 باسطاً بالندى سحاب كفى بنداها أمسى حبيب حبيباً^٤

وقال يمدح القاسم أبا دلف العجلي

واصفاً جوده وحسن رأيه في الحرب

على مثلها من أربع وملاعب
 أقول لقرحان من البين لم يضيف
 أذيلت مصونات الدموع السواكب
 رسيس الهوى بين الحشا والثرائب
 أعنتي أفرق شمل دمعي فلأني
 أرى الشمل منهم ليس بالمتقارب

١ إشارة الى انه غزا العدو (في الشمال) يجيش من الجنوب .

٢ هنا جعل الشتاء كالجمل وقال ضربته فانقاد لك .

٣ الغزوة المتبع التي تبناها سواها والسلوب عكس ذلك .

٤ حبيب الاولى اسم الشاعر . أي صرت محبوباً ومحترماً .

٥ أي على مثل هذه الربوع تهاون الدموع فتسكب من الماء في .

٦ أقول لمن خلا قلبه من ألم البعد وحرقة الهوى في الصدر .

وما صار يوم الدار عدلك كله
وما بك إركابي من الرشد مركبا
فكلني إلى شوقي وسر يسر الهوى
عدوتي حتى صار جهلك صاحبي^١
إلا انما حاولت رشد الركائب
إلى حرقاتي بالدموع السوارب

* * *

أميدان لهوي من أتاح لك البلى
أصابتك ابتكار الخطوب فشئت
إذا العيس لاقت بي أبا دلف فقد
هنالك تلقى المجد حيث تقطعت
تكاد عطاياه يُجنّ جنونها
إذا حرّكته هزة المجد غيرت
تكاد مفانيه تهش عراضها
إذا ما غدا أغدى كريمة ماله
يرى أقبح الأشياء أوبة آمل
وأحسن من نور تفتحه الصبا
فأصبحت ميدان الصبا والجنايب
هواي بأبكار الطباء الكواعب
تقطع ما بيني وبين النوايب
تأثمه والجود مرخي الذوائب^٢
إذا لم يعوقها بنعمة طالب
عطاياه أسماء الأمان الكواذب
فتركب من شوق إلى كل راكب
هدية ولو زفت لألام خاطب
كسته يد المأمول حلة خائب
بياض العطايا في سواد المطالب

* * *

إذا أبلجت يوما لجيم وحولها
فلان المنايا والصوارم والقنا
جحافل لا يتركن ذا جبرية
يمدون من أيدي عواصم
إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدّعا
إذا افتخرت يوما تيم بقوسها
بنو الحصن نجل المحصنات النجائب^٣
أقاربهم في الروع دون الأقارب
سليما ولا يجرّبن من لم يحارب
تصول بأسياق قواض قواضب
صدور العوالي في صدور الكتائب
وزادت على ما وطدت من مناقب

١ وفي نسخة وما صار في ذا اليوم . وقد مر تفسير هذا البيت والذي بعده .

٢ يريد بتقطيع التأثم وإرخاء الذوائب ان الجود والمجد قد نشأ وبلغا أشدهما عنده .

٣ في هذا البيت وما بعده يقول إذا ركبتم قوم المدوح (لجيم وبنو الحصن) لعمل عظيم فان المنايا والسيوف هي أقاربهم التي تحارب حريمهم .

فأنتم بذئ قارِ امالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب^١
محاسن من مجدٍ متى تقرنوا بها محاسن اقوامٍ تكن كالمعائب
معالي تبادت في العلوِّ كأنما تحاول ثاراً عند بعض الكواكب

* * *

وقد علم الافشين وهو الذي به بسان رداء الملك عن كل جاذب^٢
بأنك لما استخذل النصر واكتسى أهابيَّ تسفي في وجوه التجارب^٣
تجلتته بالرأي حتى أريته به ملء عينه مكان العواقب
بأرشق إذ سالت عليهم غمامة جرت بالعوالي والعناق الشواذب^٤
سلت لهم سيفين رأياً ومُنصلاً وكل كنجم في الدجّة ثاقب
وكنّت متى 'تهزّر' لخطبٍ تغشّه ضرائب امضى من رفاق المضارب
فذكرك في قلب الخليفة بعدما خليفتك المقفى بأعلى المراتب
فان تُنسَ يُذكر^٥، أو يقل فيك حاسد^٥

يُقلّ قوله ، أو تنأ دارُ يصاقب^٥
فأنت لديه حاضرٌ غيرُ حاضرٍ بذكر وعنه غائب غير غائب
إليك أرحنا عازبَ الشعر بعد ما تمهلّ في روض المعاني المعائب
غرائب لاقت في فنائك أنسا من المجدِ فهي الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت حياضك منه في المصور الذواهب

١ اشارة الى قوس حاجب بن زرارة التي استرهنها ملك الفرس والى وفاء حاجب وما ناله من الفقر بذلك . يقول إذا افتخرت تم بحاجب فان سيوفكم في يوم ذي قار قد غلبت الفرس الذين استرهنوا قوس حاجب .

٢ الافشين قائد تركي كبير كان المتعمم قد عقد له لواء الحرب ضد بابل .

٣ لما اتخذ النصر واكتسى بما أقصد عليه التجارب أي أظلمت في وجهه الامور .

٤ ارشق : اسم مكان . وقوله : سالت عليهم غمامة الخ ... معناه غمرتهم الحرب بالرماح والخيول الكريمة .

٥ فبعملك هذا أنت مذكور دائماً عند الخليفة، وبه تقرب منه بها ابتعدت وهلك قول حاسدك .

ولكنه صوب العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب
أقول لأصحابي هو القاسم الذي به شرح الجود التباس المذاهب
واني لأرجو عاجلاً ان تردني مواهبه بجرأ ترجى مواهي

وقال يمدح عبدالله بن طاهر

وكان قد قصده الى خراسان

أهنّ عوادي يوسفٍ وصواحيه فعزماً فقدماً ادرك السؤل طالبه^١
إذا المرء لم تستخلص الحزم نفسه فذروته للحادثات وغاربه
أعاذلتي ما أخشن الليل مركباً واخشن منه في الملمات راكبه^٢
ذريني وأهوال الزمان أفانها فأهواله العظمى تليها رغبه
ألم تعلمي ان الزمّاع على السرى اخو النجيج عند الحادثات وصاحبه
دعيني على اخلاقي الصمّ للتي هي الوفرة او سرب ترن نودابه^٣
فان الحسام الهندواني إنما خشونته ما لم تفلل مضاربه^٤

* * *

وقلقل ناس من خراسان جأشها فقلت اطمئنتي انضروا الروض عازبه
وركب كاطراف الأسته عرسوا على مثلها والليل تسطو غياهبه^٥
لأمر عليهم ان تتم صدورهم وليس عليهم ان تتم عواقبه
إلى ملك لم يلق كلكل بأسه على ملك إلا وللذل جانبه
إلى سالب الجبار بيضة ملكه وآملته غاد عليه فسالبه
سما للملى من جانبيها كليهما سمو عباب الماء جاشت غواربه
فقول حتى لم يجد من ينيله وحارب حتى لم يجد من يحاربه
وذو يقظات مستمر مريها إذا الخطب لاقاه اضمحلت نوائبه^٦
فوالله لو لم يلبس الدهر فعله لأفسدت الماء القراح معائبه

١ و ٢ و ٣ قد مر تفسير هذه الابيات سابقاً .

٥ وركب كاطراف الرياح مضاه أقاموا على نياق مثلهم مضاه وعزماً .

٦ مستمر مريها أي مستمرة شدتها .

فيا أيها الساري أسر غير محاذر جنان ظلام أو ردى أنت هائبه
فقد بثّ عبدالله خوف انتقامه على الليل حتى ما تدبّ عقارب

* * *

ويوم أمام الموت دحض وقفته ولو خرّ فيه الدين لانهال كائنه
جلوت به وجه الخليفة ، والقنا قد اتّسعت بين الضلوع مذاهبه
سقيت صداه والصفيح من الطلى رواء نواحيه عذاب مشاربه^١
فلو نطقت حرب لقات محقة ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه
ويا أيها الساعي ليدرك شأوه توحزح قصيصاً أسوأ الظن كاذبه
فحسبك من نيل المراتب ان ترى عليمأ بأن ليست تنال مناقبه
إذا ما امرؤ ألقى بربعمك رحله فقد طالبت بالنجاح مطالبه

وقال يمدح محمد بن عبد الملك الزيات

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام نعى لسمى لمحوها المكان الجديب
لذّ شؤبها وطاب فلو تستطيع قامت فمانقتها القلوب
فهي ماء يجري وماء يليه وعزالي تفشا وأخرى تذوب^٢
كشف الروض رأسه واستسرّ الهل منها كما استسرّ المريب^٣
فإذا الرّي بعد محل وجرجا ن لديها يبرين أو ملحوب^٤
أها الغيث حي أهلا بمفدا ك وعند السرى وحين تؤوب^٥

١ أي. سقيت القنا فاطقات عطشه والسيف من الرقاب قد عذبت مشاربه وسالت نواحيه. ويروى «والصفيح من الطلى رواء نواحيه».

٢ أي كان من جراه هذه الغمامة الماطرة ان سالت المياه مجرى بعد مجرى. والعزالي مصاب مياه المطر.

٣ استسر اختفى. أي اختفى الهل كما يحتجب صاحب التهمة عن أعين النظر.

٤ أصبحت جرجان وهي في الحصب كأنها يبرين أو ملحوب - وما علان في بلاد العرب معروفان بوفرة مياهها وشجرها.

٥ ويروى حيهلا وهي بمعنى أهلا وسهلا.

لأبي جعفر خلّاتقُ تحكيمنٌ قد يشبه النجيبَ النجيبُ
 أنتَ فينا في ذا الاوان غريبٌ وهو فينا في كل وقتٍ غريب
 ضاحكٌ في نواثب الدهر طلقٌ وملوكٌ يبيكون حين تنوب
 فاذا الخطبُ طالَ نالَ الندى والبذل منه ما لا تنالُ الخطوب
 خلّقُ مشرقٌ ورأي حسامٌ وودادٌ عذبٌ وريحٌ جنوب
 كلُّ يومٍ له وكلُّ أوانٍ خلّقُ ضاحكٌ ومالٌ كئيب
 إن تقاربهُ أو تباعدهُ ما لم تأتِ فحشاء فهو منك قريب
 ما التقى وفرهُ وثألهُ منذُ كان الا وفرهُ المغلوب
 فهو مدنيٌ للوجود وهو بغيضٌ وهو مُقصٍ للمال وهو حبيبٌ
 يأخذ المعتفينَ قسراً ولو كفّ دعاهم اليه وادٍ خصب
 غيرَ أن الرّامي المسدّد يحْتَاط مع العلم انه سيصيب^٢

وقال في أبي سعيد محمد بن يوسف

ذاكراً بعض وقائمه في حروب بابلك

غدت تستجيرُ الدمع خوفَ نوى غدٍ وعادَ قتاداً عندها كل مرقد
 وانقذها من غمرة الموت انه صُدودُ فراق لا صدود تعمّد
 فأجرى لها الاشفاق دمعا مورّداً من الدّم يجري فوق خدّ مورّد
 هيَ البدرُ يغنيها تودّدٌ وجهها إلى كلّ من لاقت وان لم تودّد
 ولكنني لم أحو وفرأ مجتمعا ففرتُ به إلا بشملٍ مبدّد
 ولم تعطني الايامُ نوماً مكثياً ألذّ به الا بنومٍ مشرّد
 وطولُ مقام المرء في الحيّ مخلّقٌ لديباجتيهِ فاغترب فتجدّد

١ يصف شدة كرمه ويقول فهو مدني للوجود والوجود بغيض من أصحاب المال . وهو مقص
 للمال والمال محبوب من الجميع .

٢ يحرم المعتفين الى نواله مع علمه بأنهم سيقتلونه . يفعل ذلك احتياطاً كما يحْتَاط الرامي مع
 علمه انه سيصيب .

فاني رأيتُ الشمسَ زيدتُ محبةً إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدٍ

* * *

حلفتُ بربِّ البيضِ تدمي متونها
لقد كفَّ سيفُ الصامقيّ محمد
رمى الله منه بابكاً وولاته
بأسمعَ من صوب الغمام ساحةً
وفي «ارشق» الهيجاء والخيل ترتعي
عططت على رغم العدى عزم بابك
فان لم يكن ولّى بشاورٍ مقدّد
وقد كانت الارماح أبصرن قلبه
وموقان كانت دارَ هجرته فقد
حططت بها يوم العروبة عزّه
رآك سديد الرأي والرمح في الوغى
وليس يحلّي الكرب رمح مسدّد
فمرّ مطيعاً للعوالي معوّداً
وكان هو الجلد القوى فسلبته
افادتك فيها المرفقات مكارماً

وربّ القنا المناذ والمتقصّد^١
تباريح ثار الصامقيّ محمد^٢
بقاصمة الأصلاّب في كل مشهدٍ
وأشجعَ من صرف الزمان وأنجدٍ
بأبطالها في جاحم متوقّدٍ
بعزمك عطّ الاتحميّ المعضد^٣
هناك فقد ولّى بعزم مقدّدٍ
فأرمدما سترُ القضاء الممدّد
توردتها بالخيّل أي تورد^٤
وكان مقيماً بين نسر وفرقد^٥
تأزّرو بالإنقدام فيه وترتدي
إذا هو لم يؤنس برأي مسدّد
من الخوف والاحجام ما لم يعود
بحسن الجلاّد الحض حسن التجلّد
تعمّر عمرَ الدهر ان لم تخلّد

* * *

وليلةً أبليتَ البيّاتَ بلاءه من الصبر في وقت من الصبر محمد^٦

١ حلفت برب السيوف الدامية والقنا الملتوي او المتكسر .

٢ أي لقد ثار محمد (الممدوح) لحمد بن حيد الطوسي الذي قتل قبلاً ، والصامقي لقب .

٣ شققت عزم بابك كما يشق الثوب المخطط .

٤ موقان اسم مكان كانت حصن بابك الحصين حتى دخلتها بالخيّل .

٥ يوم العروبة أي يوم الجمعة . يقول انزلت عزّه ذلك اليوم وكان بين هذين النجمين سماء .

٦ محمد (ويروي خطأ محمد) أي قليل الخير .

فيا جولة لا تجديه وقاره
ويا ليل لو أني مكانك بعدها
وقائع أصل النصر فيها وفرعه
فمها تكن من وقعة بعد لا تكن
محاسن اصناف المغنين جمة
جلوت الدجى عن أذربيجان بعدما
وكانت وليس الصبح فيها بأبيض
رأى بابك منك التي طلعت له
هزرت له سيفاً من الكيد انما
يسر الذي يسطو به وهو مغمد
تلافي جذاك المجتدين فاصبحوا
إذا ما رعى دارت ادرت ساحة
أنتك لم افزع الى غير مفزع
ومن يرج معروف البعيد فانما

ويا سيف لا تكفر ويا ظلة اشهدى
لما بت في الدنيا بيوم مسهد
إذا عُدّ الاحسان أو لم يعدد
سوى حسن بما فعلت مردد
وما قصبات السبق الا لمعبد
تردت بلون كالغمامة اريد
فأمتت وليس الليل فيها بأسود
بنحس وللدين الحنيف بأسعد
تجد به الاعتاق ما لم تجرد
ويفضح من يسطو به غير مغمد
ولم يبق مذخور ولم يبق مجتد
رحى كل إنجاز على كل موعد
ولم أنشد الحاجات في غير منشد
يدي عوّلت في النائبات على يدي

وقال في المعتصم وبطشه بالافشين

وكان الافشين اولاً قائد جيشه ثم خرج عليه

الحق أبلج والسيوف عوار
ملك غدا جار الخلافة منكم
يا رب فتنة أمة قد بزها
فحذار من اسد العرين حذار
والله قد أوصى بحفظ الجار
جبارها في طاعة الجبار

١ معبد اسم مفعول مشهور .

٢ أذربيجان مقاطعة في بلاد فارس .

٣ أي هزرت سيفاً من الكبر . والمكر إنما ينفع اذا لم يفتضح - يشير الى درايته وحسن سياسته .

٤ ساحة مفعول لأجله . أي اذا رعى الشدائد دارت ادرت من حماكتك رعى الوفاء والكرم .

جالت بحيدرَ جولة المقدار
 كم نعمةٍ لله كانت عنده
 كسيتُ سبائبَ لومه فتضاءلت
 موتورةٌ طلبَ الإلهُ بثأرها
 صادى أميرَ المؤمنين بزرَجِ
 مكرأ بنى ركنيه إلا أنه
 حتى إذا ما الله شقَّ ضميره
 ونحا لهذا الدين شفرته انشئ
 ما كان لولا فحش غدره حيدرِ
 ما زال سرَّ الكفر بين ضلوعه
 ناراً بساورُ جسمه من حرِّها
 طارت لها شعلٌ يهدم لفحها
 لله من نارٍ رأيت ضياءها
 مشبوبةٌ رُفعت لأعظم مشركِ
 صلتى لها حياً وكان وقودها
 وكذاك أهل النار في الدنيا همُ
 يا مشهداً صدرت بفرحته إلى
 رmqقوا أعالي جذعه فكأنما
 واستنشقوا منه قناراً نشره

فأحلتُ الطغيان دار بوارٍ^١
 فكأنها في غربة وإسارِ
 كتضاؤل الحسناء في الأطمارِ^٢
 وكفى برَبِّ النارِ مدركَ نارِ
 في طيه حمةُ الشجاع الضاري^٣
 وطدَ الأساسَ على شفيرِ هارِ
 عن مستكنِ الكفر والاصرارِ
 والحقّ منه قانيء الأظفارِ^٤
 ليكون في الاسلام عامُ فيجارِ^٥
 حتى اصطلى سرّ الزناد الواري
 لهبٌ كما عصفت شقّ إزارِ^٦
 أركانه هدماً بغير غبارِ
 ضاق الفضاء به عن النظّارِ
 ما كان يرفعُ ضوءها للساري
 ميتاً ويدخلها مع الفجارِ^٧
 يوم القيامة جلّ أهل النارِ
 أمصارها القصوى بنو الأمصارِ
 وجدوا الهلال عشية الإفطارِ
 من عنبر ذفير ومسك داري^٨

١ حيدر بن كارس هو الافشين .

٢ سبائب اللوم أي اذوابه . والاطمار اكسية بالية .

٣ تظاهر بطاعة تحتها سم الحية القتال .

٤ أي بعد ان أعد شفرة الغدر للدين عاد الدين ففتك به .

٥ فجار : من حروب الجاهلية ، سميت كذلك لأنها كانت في الاشهر الحرم .

٦ هذا البيت وما قبله اشارة الى احراق الافشين وهو مصلوب .

٧ يشير الى ان الافشين كان مجوسياً يعبد النار .

٨ نسبة الى دارين ، وهي بلدة في الشام معروفة بمطرها .

قد كان بوّاه الخليفةُ جانباً
فسقاه ماء الخفض غير مصرّدٍ
فلذا ابنُ كافرةٍ يُسرّ بسرّهم
وإذا تذكّره بكاه كما بكى
دلّت زخارفه الخليفة أنه
يا قابضاً يدَ آلِ كارُسٍ عادلاً
الحقّ جبيناً دامياً رملته
واعلم بأنك إنما تلقّيتهم
كادوا النبوة والهدى فتقطّعت
جهلوا فلم يستكثروا من طاعة
فاشدّد بهارون الخلافة إنه
بفتى بني العباس والقمر الذي
كرم الخوالة والعمومة بحجّه
هو نوه يُمنّ فيهم وسعادة
فاقمع شياطين الفساد بمهتدي
ليسير في الآفاق سيرة رافق
فالصين منظوم بأندلس إلى
ولقد علمت بأن ذلك معصم
فالأرض دار أفقرت ما لم يكن
سور القرآن الغرّ فيكم أنزلت

من قلبه حرماً على الأقدارِ
وأنامه في الأمن غير غرارِ
وجدأ كوجد فرزدق بنواري^١
كعب زمان رثى أبا المغوار^٢
ما كلّ عودٍ ناضرٍ بنضارِ
أتبع يميناً منهم بيسارِ
بقفاً وصدرأ خائناً بصدارِ^٣
في بعض ما حفروا من الآبارِ
أعناقهم في ذلك الضمارِ
معروفة بعمارة الأعمارِ
سكّن لوحشتها ودار قرارِ^٤
حفته أنجم يعربٍ ونزارِ
سلفاً قريش فيه والأنصارِ
وسراج ليل فيهم ونهارِ
ترضى البرية هديه والباري
ويسوسها بسكينة ووقارِ
حيطان رومية فملك ذمارِ^٥
ما كنت تتركه بغير سوارِ
من هاشم ربّ لتلك الدارِ
ولكم تصاغ محاسن الأشعارِ

١ الضمير في بسرهم يرجع الى الجوس . ونوار امرأة الفرزدق طلقها ثم ندم ووجد لذلك .

٢ كعب الغنوي شاعر قديم . له شعر يرثي به اخاه ابا المغوار .

٣ في هذا البيت وما قبله يقول : ايها الخليفة قد قبضت على ايدي آل كاوس بقتله فاقتل من بقي منهم .

٤ هارون هو الواثق بن المعتصم .

٥ يقصد بزمان اليمن . ويريد بما مرّ من الابيات ان الواثق خير ولي للمهد فهو قد جمع شرف الخوالة والعمومة وقرن في نفسه الهداية وحسن الرأي .

ومن مدائح في المعتصم

أجلُ أيها الربعُ الذي خفَّ آهله
وقفتُ وأحشائي منازل للأسى
اسألُكم ما باله حكَمَ البلى
دعا شوقه يا ناصرَ الشوقِ دعوةً
بيومِ يريك الموت في صورة النوى
لقد أدركتُ فيك النوى ما تحاوله
به وهو قفرٌ قد تعفَّتْ منازلُه
عليه وآلاً فاتركوني أسأله
فلبَّاه طلَّ الدمعَ يحري ووابله
وأخبره من حسرةٍ وأوائله

الى أن يقول :

إلى قُطب الدنيا الذي لو بفضله
مَنْ البأسُ والمعروف والدين والتقى
جلا ظلمات الظلم عن وجه أمةٍ
ولادت بحقوقه الخلافةُ فالتقت
بمعتصم بالله قد عُصمت به
رعى الله فيه للرعية رافة
وقام فقام العدلُ في كل بلدة
بيمن أبي اسحق طالت يد الهوى
هو البحرُ من أيِّ النواحي أنيته
تعودُ بسط الكف حتى لو أنه
ولو لم يكن في كفه غيرُ روحه
إمام الهدى وابن الهدى أي فرحة
رجاؤك للباغي الفنى عاجلُ الفنى

مدحت بني الدنيا كفتهم فضائله
عيالٌ عليه رزقهن شمالكه
أضاء لها من كوكب الحق آفله
على خدرها أرماحه ومناصله
عزى الدين والتفت عليه وسائله
ورحمته فيهم تفيض وائله
خطيباً وأضحى الملك قد شقَّ بازله^١
وقامت قناة الملك واشتدَّ كاهله^٢
فلجته المعروف والجود ساحله
ثناها لقبض لم قطعه أنامله
لجاد بها فليتق الله سائله
تمجّلها منك القريض وقائله
وأول يوم من لقائك آجله

١ شق بإزله أي طلع ناب جله ، والكلام مجاز يراد به قد اكتمل .

٢ أبو اسحق كنية المعتصم . اشتد كاهله أي امتنع جانبه .

مرثاته في محمد بن حميد الطوسي

وكان المراثي من كبار القادة وقد قتل في حرب بابك ٢١٤ هـ

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر
توفيت الآمال بعد محمد
وما كان الا مال من قلّ ماله
وما كان يدري مجتدي جود كفته
الا في سبيل الله من عطيت له
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
فتى دهره شطران فيما ينوبه
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
وما مات حتى مات مضرب سيفه
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه
ونفس تعاف العار حتى كأنما
فأثبت في مستنقع الموت رجله
غدا غدوة والحمد نسج ردائه
تردّى ثياب الموت حمراً فما دجا
كأنّ بني نهان يوم وفاته
يُعزّون عن ثاور تعزّى به العلى
وأنتى لهم صبر عليه وقد مضى
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها
وقد كانت البيض المآثير في الوغى

فليس لعين لم يفض ماؤها عذراً
وأصبح في شغل عن السفر السفر
وذخراً لمن أمسى وليس له ذخّر
إذا ما استهلّت انّه خلّق العسر
فجّاج سبيل الله وانتشر الثغر
دما ضحكت عنه الاحاديث والذكر
ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
تقوم مقام النصر ان فاته النصر
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
اليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
هو الكفر يوم الروح او دونه الكفر
وقال لها من تحت أخصك الحشر
فلم ينصرف الا وأكفانه الاجر
لها الليل الا وهي من سندس خضر
نجوم سماء خرّ من بينها البدر
ويبكي عليه البأس والجود والشعر
إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر
ولكنّ كبراً ان يقال به كبر
وبزته نار الحرب وهو لها جمر
بواتر فهي الآن من بعده بتر

١ أي قتل في ساحة الجهاد فليس بعد الموت الثياب الخضراء التي هي لباس أهل الجنة .

٢ في هذا البيت وما قبله يقول قتل في الحرب وقد كان هو الذي يشترها فأصبحت السيوف القاطعة بعده مبتورة لا خير فيها .

أمن بعد طي الحادثات محمداً
إذا شجرات العُرف جذت أصولها
لئن أبغض الدهر الخوون لفقده
لئن غدرت في الروح أيامه به
كذلك ما تنفك تنفق هالكاً
سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه
وكيف احتمالي للغيوث صنعة
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة
ثوي في الثرى من كان يحيا به الثرى
عليك سلام الله وقفاً فاني

يكون لأثواب الندى أبداً نشر
ففي أي فرع يوجد الورق النضر
لمهدي به ممن يحب له الدهر
فما زالت الأيام شيمتها القدر
يشاركنا في فقده البدو والحضر
وان لم يكن فيه سحاب ولا قطر
باسقائها قبراً وفي لحده البحر
غداة ثوى الا اشتتت انها قبر
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر
رأيت الكريم الحر ليس له عمر

وقال من قصيدة يرثي بها ادريس بن بدر السامي

دموع أجابت داعي الحزن مع
عفاء على الدنيا طويل فانها
تبدلت الاشياء حتى لخلتها
لها صيحة في كل روح ومهجة
لإدريس يوم ما تزال لذكره
ولما نضى ثوب الحياة وأوقعت
غداً ليس يدري كيف يصنع معدم
وماتت نفوس الغالبيين كلهم
غدوا في زوايا نعشه وكأنما

توصل منّا عن قلوب تقطع
تفرق من حيث ابتدت تتجمع
ستني غروب الشمس من حيث تطلع
ولست بشيء ما خلا القلب تسمع
دموعي وإن سكنتها تنفرع
به نائبات الدهر ما يتوقع
ذرى دمه من وجده كيف يصنع
والا فصر الغالبيين أجمع
قريش قريش يوم مات مجتمع

١ اذا ابغض الدهر لفقده فقد كان يحمد سابقاً لكرمه ومآثره .

٢ يطلب من الغيث (المطر) ان يسقي غيث الجلود (المري) ثم يقول وكيف أطلب من المطر ان يسقي قبراً فيه بحر الجلود والعل .

٣ يريد بالغالبيين عشيرته أي ماتوا بموته أو مات صبرهم أجمع .

ولم أنسَ سعيَ الجودِ خلفَ سريره
 ألم تكُ ترعانا من الدهر إن سطا
 وتلبس أخلاقاً كراماً كأنها
 وتبسط كفتاً في الحقوق كأنما
 وتربط جأشاً والكبابة قلوبها
 إلا إنَّ في ظفر المنبئة مهجةً
 هي النفس ان قبلكِ المكارم فقدھا

بأكسفِ بالِ يستقيم ويظلمُ
 وتحفظ من أموالنا ما يضيعُ
 على العِرض من فرطِ الحصانة أدرع
 أناملها في البأس والجود أدرع
 تززع خوفاً من قنا فتزعزع
 تظلُّ لها عين العلى وهي تدمع
 فمن بين احشاء المكارم تنزع

البحري

ابو عبادة الوليد بن عبيد الله

١٢٠٥ هـ - ٢٨٤ هـ

٨٢٢ م - ٨٩٨ م



مصادر دراسته - توطئة تاريخية - نظرة في ديوانه
مزبته الفنية - شعره الغزلي

مصادر دراسته

- طبقات الشعراء لابن المعتز (١٩٣٩) ص ١٨٦ - ١٨٧
الأغاني ج ١٨ ص ١٦٧ - ١٧٥
الموازنة بين أبي تمام والبحري للآمدي (الاستانة ١٢٨٧)
الموشح للهرزباني ص ٣٣٠ - ٣٤٣
الفهرست ص ١٦٥
أخبار البحري للصوني (دمشق)
معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٢٦ - ٢٣٢
وفيات الأعيان ج ٢ تحت اسم الوليد (حرف الواو)
مفتاح السعادة ص ج ١ - ١٩٣ (طبع الهند)
ومتفرقات في مروج الذهب وتاريخ ابن عساكر والعمدة وغيرها .
وتجد سيرته في كل الكتب الحديثة التي تتناول الآداب العربية
وتاريخها ، نذكر منها :
دائرة المعارف الاسلامية
مجلة الضياء المجلد السادس (ج ١ - ج ١٥) سلسلة مقالات (لأمين حداد)
شعراء الشام لتحليل مردم -
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ٦ - ١٤
عبقريه البحري لعبد العزيز سيد الاهل
البحري لنديم مرعشي (سلسلة أعلام الفكر العربي) عدد ٩

نشأته وحياته

يؤخذ من دراسة المصادر التاريخية ان البحري ولد في منبج بجوار حلب ، (وعلى رأي أحدم في قرية قريبة منها تدعى زردفنه) وهناك نشأ وقال الشعر . وتقع حياته الشعرية في ثلاثة أطوار :

(الاول) طور نشأته الأدبية ومعظمه كان في منبج ، على أنه زار بعض المدن السورية كحلب وحمص والمعرّة . وفي حمص على ما يقال لقي أبا تمام وأخذ عنه .

(الثاني) طور العراق : وهو طور شهرته وفيه اتصل بالخلفاء وكبار رجال الخلافة فمدحهم ونال جوائزهم . وهذا الطور عهدان :

عهد المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ثم عهد من تبعه من الخلفاء ، وبين المهدين فترة اقام فيها في منبج .

(الثالث) طور الرجوع الى أرض الوطن والاقامة فيه .

فالبحري نشأ في جوار حلب ، حتى اذا ادرك وحذق صناعة الشعر قصد العراق واتصل ببلاط المتوكل ولازمه . ولما حدثت الفتنة التي قتل فيها المتوكل ووزيره الفتح وذلك ٢٤٧ هـ كره البقاء فعاد إلى وطنه . ولكنه على ما يظهر لم يقيم هناك طويلا . نستنتج ذلك من قائمة بمدحيه ومن قصائده فيهم . فعاد الى العراق وإلى سالف عهده من مدح الخلفاء والامراء هناك - ولا سيما المعتز - وبقي الى آخر حكم المعتز ، ثم رجع الى سوريا واستقر في منبج حيث أدركته الوفاة وهو يناهز الثمانين .

اتصل شاعرنا بسبعة من كبار الخلفاء العباسيين وبعدهد أوفر من رؤساء

١ ومن مرقاته في غلامه فيعصر يظهر انه كان لا يزال بعيداً عن وطنه وهو ابن ٦٦ سنة .

القوم فبلغ منزلة عالية ، ولم يكن مسرفاً فجمع مالا وفيراً . قال ابن رشيقي : « وكان البحاري ملياً فاض كسبه من الشعر وكان يركب في موكب من عبيده » . وفي شعره ما يشير الى انه كان ذا عقار واسع ، كقوله لأحد الرؤساء في أمر ضيعة له - والظاهر ان بعضهم اعتدى عليها واغتصب غلتها فقال مستجيراً به :

وقد غدت ضيعتي منوطة بحيث نيطت للناظر الزُّهرَ
اروم بالشعر ان تعود فيما اقطع فيما ارومه شعره
وفي بعض قصائده للمعتر يستأذنه في الذهاب الى الشام لينظر في املاكه ، قال :

هل اطلعن على الشام مبعثلاً في عزّ دولتك الجديد المونق
فارمّ خلة ضيعة تصف اسمها والمّ ستم بصيبة لي دردق^١
شهران ان يسرت إذني فيها كفلا باللفة شملي المنفرق
ويذكر ابن خلكان انه كان يحتاج للترداد الى الوالي بسبب مصالح املاكه^٢ .

* * *

وفي أيام البحاري كانت الخلافة العباسية في حال انتقال من طور القوة الى طور الضعف ، وكان المتوكل حلقة الاتصال بين هذين الطورين . وقد شهد الشاعر أيام عزه وبأسه كما شهد الفتنة عليه وما كان من مقتله واستبداد امراء الجند التركي بالذين جاءوا بعده .

ومن الظواهر التاريخية التي تتجلى في شعره وشعر معاصريه (كما سنرى في كلامنا عن ابن الرومي) اعتلاء العناصر الاعجمية في الدولة على العنصر

١ العمدة ٢ - ١٢٥٠ - وفي ١ - ٦ يذكر انه كان له قهارة وكتاب .

٢ أي اطفال .

٣ وفيات الاعيان ترجمة البحاري في ج ٢ حرف الواو .

العربي (حتى كان الشاعر ينوّه بفضل الموالي) كما قال البحرى من قصيدة للمعتر:

يا من له أول العليا وآخرها ومن يحود يديه يُضرب المثل
أما الموالي فجند الله حملهم ان ينصروك فقد قاموا بما احتملوا
بقاؤهم عصمة الدنيا وعزّهم ستر على بيضة الاسلام منسل

ومن قوله في ذلك يصف ما قام به قادة المعتر من قهر الاعداء والقائمين عليه:

سراة رجالٍ من مواليك أكّـوا عرى الدين إحكاماً وبتوا قوى الكفر
إذا فتحوا أرضاً أعدّوا لمثلها كتائب تقري في أعاديك ما تقري
ففي الشرق إفلاحٌ لموسى ومُفلحٍ وفي الغرب نصر يرتجى لأبي نصر^١

وإذا قابلت بمدوحيه (من غير الخلفاء) بمدوحي أبي تمام مثلاً ترى أن الأخير كانت مدائحه في العرب تفوق مدائحه في سواهم؛ أما البحرى فعلى خلاف ذلك. وانك لتثبّت ذلك من مراجعة القائمة التالية ودرس رجالها واحداً واحداً. وقد أغفلنا فيها ذكر من لم تبلغ مدائحه القصيدتين وجمعنا أفراد الاسرة الواحدة تحت اسم واحد كآل سهل وآل المدبر وسواهم. ومع ذكرنا للخلفاء لم ندخلهم في هذه الموازنة العنصرية.

الخلفاء

المتوكّل	٣٥ قصيدة
المعتر	٣٠ قصيدة
المعتمد	٥ قصائد
المهتدي	٤
المستعين	٤

١ موسى ومفلح وابو نصر من قادة الازراك.

من كبار العرب

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري وآله	٢٣	(طبي) من كبار القادة
آل حميد الطوسي	١٨	نهبان (طبي) من كبار القادة
أحمد بن محمد الطائي	٧	طبي
أبو صالح بن عمار	٥	
محمد بن القمي	٥	طلحة
الحضر بن أحمد	٥	
أبو نوح عيسى بن ابراهيم	٤	
أبو الحسن الهاشمي	٤	هشام
علي بن مرّ	٤	طبي
مالك بن طوق	٢	من تغلب أمير عرب الشام
محمد بن بدر	٢	من بني سعد على أن أخواله من الموالي

ومن كبار المدوحين الذين لم نثبتهم في إحدى القائمتين اسماعيل بن بلبل ٢٠ قصيدة . ونسبه في شيان ولكن صاحب الفخري (١٨٧) يقول ان في نسبه ريباً .

واسحق بن ابراهيم المصعبي
من كبار الموالي

الفتح بن خاقان وآله	٢٦	وزير المتوكل (من الاثراك)
الحسن بن مَخلد وآله	٢٦	وزير المعتمد (من الفرس) ^١
ابراهيم بن المدبر وآله	١٥	من رجال الدولة أدباً وإدارة ^٢
		(من الفرس) ^٢
آل سهل	١٢	وزراء (من الفرس)

١ راجع ديوان البحري (عطيه) ٥٧٩ - ٥٨٢ و ٣٢٠ و ٣٢٥ و ٤٧٢ و ٥٤٩ .
٢ الديوان ٥٨٠ و ٥٩٥ و ٥٩٩ وفي معجم الادباء انه كان يدعي انه من ضبه .

علي وعبدالله بن يحيى بن خاقان ٩	من وزراء المتوكل (من الاتراك)
ابو صالح بن يزداد	٨ وزير المستعين (من الفرس)
آل طاهر	٧ من أعيان الامراء د د
ابو العباس بن بسطام	٦ من الاعيان د د ١
الشاه ابن ميكال	٥ من امراء الفرس
علي بن الفياض	٤ من الوجهاء والرؤساء د د
أحمد بن ثوابه	٤ وزير وكاتب ٢ د
وصيف وآله	٤ من امراء الترك
اسحق بن كنداج	٣ من الاتراك وهو الذي ردّ المعتمد
	الى سامرا وسمي ذا السيفين ٣
اسماعيل بن نوبخت	٣ من اعيان القادة
آل دينار	٣ من رؤساء الفرس ٤

* * *

وكان البحري كأكثر شعراء عصره مولعاً بالخمرة . وفي الابيات التالية التي كتبها الى المبرد (اللغوي المشهور صاحب الكامل) ما يدل على شيء من أحواله ونسق معيشته . قال :

يوم سبتٍ وعندنا ما كفى الحرّ طعماً والوردُ منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيّاح فسيح ترتاح فيه القلوب
ودوام المدام بدينك ممن كنت تهوى وان جفاك الحبيب
فأتنا يا محمد بن يزيد في استنار كي لا يراك الرقيب
نطرد الهم باصطباج ثلاثٍ مترعات تنفى بهن الكروب

١ ديوان القسطنطينية ١ - ١٢٨ وعطيه ٦٠٦ .

٢ في معجم الادباء ان أصلهم نصارى .

٣ راجع الطبري في أخبار ٢٦٩ .

٤ ديوان البحري (عطيه) ٤٠٠ و ٤٠٤ .

انّ في الراح راحة من جوى الحب وقلبي الى الاديب طروب
لا يرُعك المشيب مني فاني ما ثنائي عن التصابي المشيب
وفي ديوانه مواطن كثيرة يذكر فيها ولعه بالخر واللّهو تقتصر منها
على ما يلي ، وفيه يقترب من روح أبي نواس :

كل ماضٍ انساه غير ليالٍ ماضيات لنا ببارا وبنّا^١
مغمّ بالمدام أترع كاساً ساطعاً ضوءها وانسف دنّا
حيث لا أُرهب الزمان ولا أُلقي الى العاذل المكثّر اذا
يزعم البيرّ في التشدّد والاسمح اولى بأن يُبرّ ويُدنى

* * *

أما مذهبه السياسي فمن الطبيعي ان يكون عباسياً . وقد توهم
الاستاذ مرغوليوث في الابيات التالية :

يا ضيعة الدنيا وضیعة أهلها والمسلمين وضیعة الاسلام
هذا ابن يوسف في يدي اعدائه يحزى على الايام بالايام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه امیة لو رعت بفيام

ان الشاعر يتمنى رجوع بني أمیة^٢ . والحقيقة ان هذه الابيات
قيلت وقد سلّم محمد بن يوسف الثغري لكاتب نصراني وأمر بتعذيبه ،
فشق على الشاعر ان يرى مسلماً كبيراً تحت يد كاتب نصراني ، وقال
هذه الابيات بدافع الغيرة محاولاً ان يستفزّ شعور القوم لتخليص الرجل ،
وليس في هذه الابيات ادنى صبغة سياسية .

خصائصه الشعرية

اجمع نقدة الشعر القدماء على وصف البحري بسلاسة العبارة وحسن

١ بارا وبنّا مكانان .

٢ راجع مقاله في دائرة المعارف الاسلامية تحت Buhturi .

الديباجة واليك آراء بعض من كبار الأقدمين فيه :

قال الثعالبي : « يضرب به المثل لان الاجماع واقع على انه في الشعر أطبع المحدثين والمولدين ، وان كلامه يجمع الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلاسة . ويقال ان شعره كتابة معقودة بالقوافي ^١ » . وقال ابن رشيق : « واما البحترى فكان أملح صنعة (من أبي تمام) وأحسن مذهبا في الكلام يسلك فيه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة ^٢ » . ووصفه ابن الاثير بقوله : « فإن مكانه من الشعراء لا يحهل . وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريبا ضوءها بعيدا مكانها ، وكالفناء ليتا مسها خشنا سنانها . وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الإطراب ، وعنقاؤهم في الإغراب ^٣ » ، ويصف ألفاظه في موضع آخر فيقول :

« وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلّين بأصناف الحلي ^٤ » .

ومن أقوال الأمدي في الصنفين الاولين من الموازنة : « البحترى اعرابي الشعر مطبوع على مذهب الاوائل ، ما فارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام ... الى ان يقول : « فان كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ فالبحترى أشعر . » وعلى هذا يفسرون ما يروونه عن أبي العلاء : « المتنبي وأبو تمام حكيان والشاعر البحترى » . ويذكره الباقلاني في « اعجازه » ويذكر تفضيله له بديباجة شعره على ابن الرومي وسواه ، وتقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه

١ ثمار القلوب ١٧٩ .

٢ العمدة ١ - ٨٥ .

٣ المثل السائر ٤٢٠ .

٤ المثل السائر ١٠٦ .

وعذوبة ألفاظه وقلّة تعقّد قوله ١ .

ولا نكبر ان الذي يرجع الى ديوانه فيدرسه يجد هذه الصفات العامة فيه . انه لا يمتاز في ذلك عن بعض كبار الشعراء في العصر العباسي ، كأبي نواس وأبي العتاهية ومسلم وعباس بن الاحنف واضراهم ، ممن أطاعهم الالفاظ وسلست لهم المعاني . والذي نرجحه ان البحثري لم يوصف بما ذكرناه له الا لمقابلته بالشاعرين الكبيرين أبي تمام والمنتبي . وذلك لما في شعره عموماً بالنسبة اليها من السهولة والدمائة . فبيناهما يفوقانه بالغوص على المعاني وسداد الحكمة تراه يفوقها في صوغ الالفاظ وطلاوة السبك . واذا لم نجد في شعره ذلك الاغراب الذي في شعر أبي تمام أو تلك الفخامة التي عرف بها المنتبي ، نجد فيه رشاقة وصفٍ ودمائة اسلوب لا تجدهما عادة في شعرهما .

* * *

اما ديوانه فلا يختلف من حيث مواضيعه عن أكثر الدواوين الشعرية في زمانه . فهو ، كسواه من الشعراء ، قد صرف أدبه في التزلف الى رجال الدولة العباسية . ولذلك كان جل شعره المديح . وليست طريقته غير الطريقة التي درج عليها الجمهور من مطلع غزلي يتخلص منه الشاعر الى الممدوح ، فيصف أعماله ويمدح أخلاقه ومكارمه ويفتنّ في ذلك ما شاء فنه وأدبه . وسنرى ذلك في مختاراته .

* * *

وليس البحثري من المشهورين في الرثاء وان يكن له فيه ما يستطاب كمرثاته في طاهر بن عبد الله بن الحسين التي مطلعها :

عذيري من صرف الليالي الغوادر ووقع رزايا كالسيوف البواتر

ومرثاته في المتوكل يوم قتله الأتراك ، وقد وصفها أبو العباس ثعلب بقوله : « ما لقيت هاشمية أحسن منها » وقد صرّح بها تصريح من

أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب ، ١ . فقال فيها يصف شعوره بعد مقتل الخليفة ويشير الى ان ابنه المنتصر كان من المتآمرين عليه :
 صريع ققازاه السيوف حشاشة^٢ يحود بها والموت حمر أظافره
 حرام عليّ الراح بعدك أو أرى دماً بدم يجري على الارض مائره
 وهل يرتجى ان يطلب الدم طالب مدى الدهر والموتور بالدم واتره
 فلا ملّتي الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
 ولا وأل المشكوك فيه ولا نجبا من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره
 ومن مراثيه التي قد تذكر له مراثيه في سليمان بن وهب ومطلعها :

أأخي^٣ نهنه دمعك لليهفوكا ان الحوادث ينصرمن وشيكا
 ما اذكرتك بمترح صرف الجوى الا ثنته بمفرح يُنسيكا

على انها ليست من الطبقة الاولى في هذا الباب وليس للبحثري فيه ما
 لصاحبيه ابي تمام والمتنبي^٤ ولقد تراه أحياناً يسفّ الى درجة الغثاثة
 كقوله لابي نهشل محمد بن حميد الطوسي يحاول ان يعزّيه عن فقد ابنته ،
 فيذكر له انها غير جديدة بالبكاء لانها فتاة ، وطالما كانت الفتيات سبباً
 في الشقاء ويضرب على ذلك الامثال السمجة ومنها :

قد ولدن الاعداء قدماً وورثن البلاد الاقاصي البعداء^٥
 لم يند كثرهنّ قيس تميم غيلة^٦ بل حبة^٧ واباء^٨
 واستزلّ الشيطان آدم في الجنة لما أغوى به حواء^٩
 ولعمري ما العجز عندي الا ان تبيت الرجال تبكي النساء^{١٠}

واكثر القصيدة في هذه المعاني التي تدل على المحطاط المرأة يومئذ في
 نظر الرجل . ومثلها في الغثاثة ابيات يعزّي فيها موسى بن عبد الملك
 عن ابنة له . قال :

أبا حسنٍ انّ حسن العزاء عند المصيبات والنائبات
يضاعف فيه الإله الثواب للصابرين والصابرات
ومن نعم الله لا شكّ فيه حياة البنين وموت البنات

* * *

أما العتاب فله فيه يدٌ طولى . ويرى ابن رشيق انه أحسن الناس
طريقاً في عتاب الاشراف ويلقبه بشيخ الصناعة الشعرية وسيد الجماعة^١ .
وقد أصاب ابن رشيق ففي عتابه نعمة حريرية قلما تجدها في سواه .
ومن أمثلة ذلك قصيدة يعتذر فيها الى يعقوب بن احمد بن صالح . وهي
تبدأ كالعادة بالغزل ثم ينتقل من ذلك الى نفسه وذكر اخلاقه ومن هنا
يتقدم الى المعتذر اليه فيقول بنعمة مغرية :

ندمت على أمر مضى لم يُشر به	نصيح ولم يجمع قواه نظام
وقد خبروا ان الندامة توبة	يصلّى لها ان تقفنى ويصام
وان جحودي سوء ظنّ بمنعم	وعدّي معاذيري عليه خصام
تجرّح أقوال الوشاة فريصتي	وأكثر أقوال الوشاة سهام
ولما نبت بي الارض عدت اليكم	امتّ بحبل الودّ وهو رمام
وما كل ما بلّغتم صدق قائل	وفي البعض ازراءٌ عليّ وذام
ولا عذرّ الا ان بدءاً اساءة	له من زيادات الوشاة تمام

وهذه النعومة لا تفارقه حتى عند معاتبته من اساء اليه ، كالايات
التالية من قصيدة يخاطب فيها أبا عبد الله بن حمدون ويعاتبه على محاولته
ان يثير كراهة الخليفة له :

هل ابن حمدون مردود الى كرم	عهدته مرّة عند ابن حمدون
أخ شكرت له نعمي أخي ثقة	زكت لديّ ومنّا غير ممنون
طاف الوشاة به بعدي وغيره	معاصر كلهم بالسوء يعنيني

أصبحت أرفعه حمداً ويخفضني
تدعو الامام إلى شتمي ومنقصتي
أين الوداد الذي قد كنت تمنحني
ان كان ذنب فأهل الصبح أنت وان
ذمّاً وأمدحه طوراً ويهجوني
بئس الحياء على مدحك تحبوني
أو الصفاء الذي قد كنت تصفوني
لم آت ذنباً فقيم اللوم يعروني

* * *

ومن بديع العتاب قوله للحسن بن وهب من قصيدة وقد جفاه الحسن
وأعرض عنه :

هل تصفين لأخ يقول بحاله
ما كان غرواً ان يضيع ذمامه
هذا وأنت الحجة العليا في
ومق رآك الناس تحرمه اقتدوا
فتكون أول مانع من نفسه
والارض تبذل في الربيع نباتها
واعلم بأن الغيث ليس بنافع
مستعجباً إذ لم يقل بلسانه
لو لم تكن في عصره وزمانه
اكرامه من وافد وهوانه
بك غير مرتابين في حرمانه
ما أمل العافي ومن جيرانه
وكذاك بذل الحرّ في سلطانه
للناس ما لم يأت في إبتانه

وفي ديوانه كثير من هذه الطرائف العتابية .

* * *

وله في الفخر بضاعة جيدة . على ان أهم فخره هو في مكارم قومه
بعدد مناقبهم ويذكر شرف اليمن وعزّها مقابل ذلك بخشونة عرب الشمال
وسوء حالهم . وأفضل ما له في ذلك دالية مطلعها :

انما الغي ان يكون رشيدا فانقصا من ملامه او فزيدا

وهي طويلة تجدد أكثرها في باب المختار من شعره .

مشرّ أمسكت حلوتهم الارض وكادت من عزهم ان تميدا
نزلوا كاهل الحجاز فأضحى لهم ساكنوه طراً عبيدا

ملكوا الارض قبل ان تملك الارض وقادوا في حافيتها الجنودا
 فهم قوم تبغ خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا
 ومن بين أبياتها يلح إلى ما كانت في الصدور من كوامن العصبية التي
 جعلت اليمينية والمضرية حزينين متعادين ، والتي كان لها في تاريخ العرب
 تأثير شديد .

ومن أمثلة فخره قوله في معاتبة قوم من أهل بلده :

ومعيري بالدهر يعلم في غد
 ابني اني قد نضوت بطاتي
 ان الحصاد وراء كل نبات
 فتحسرت وصحوت من سكراتي
 نظرت إلي الاربعون فاصرحت
 شي رهزت للحنو قناتي
 ومن الاقارب من يسر بييتي
 سفها وعز حياتهم بحياتي
 ان ابقى أو أهلك فقد نلت التي
 ملأت صدور أقاربي وعداتي
 ثم يذكر فضله وسؤدد آبائه وأجداده ومآثرهم في منبج وتقدهم
 هناك على سائر الناس .

* * *

وأقل بضاعة البحري في ديوانه الهجاء . وهنا يختلف صاحب الاغاني
 عن المرزباني . فالاول يقص علينا سببا لذلك القصة التالية^١ نقلا عن
 الاخفش عن أبي الفوثن (ابن البحري) : ان الشاعر لما حضرته الوفاة
 دعا ابنه وقال له اجمع كل شيء قلته في الهجاء ، ففعل . فأمره بإحراقه
 ثم قال له يا بني هذا شيء قلته في وقت فشيت به غيظي ، وكافأت
 به قبيحا فعل بي . وقد انقضى أربي في ذلك ، وان بقي روي .
 وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة وأخشي ان يعود عليك من هذا
 شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك فيه . قال فعملت انه نصحني
 وأشفق علي فأحرقته . ويعقب على ذلك الاصفهاني بأن « أكثر هجائه

١ راجع القصة في الاغاني ١٨ - ١٦٧ .

ساقط ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه ، ولا يعرف له هجاء جيد إلا قصيدتين احدهما في ابن أبي قحاش والثانية في يعقوب بن الفرج .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ، ولكن الذي نعلمه ان الشاعر ترك لنا شيئاً من هجائه ، وما تركه يجوز لنا القول انه لم يكن فيه ميل ابن الرومي ودعبل واضرابها إلى الهجاء ، بل كان على ما يظهر يتجنبه ما أمكن . وانك لتلمح ذلك بما رواه ابن رشيقي قال : « هجاء ابن الرومي البحتري - وابن الرومي من علمت - فأهدى اليه (البحتري) تحت متاع وكيس دراهم ، وكتب اليه بيتين ليريه ان الهدية ليست تقية ولكن رافة عليه وانه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط » . وأما المرزباني فينسب إلى البحتري سوء العهد وخبث الطريقة في الهجاء . قال ^٢ : « وكثير من أهل الادب ينكر خبث لسان علي بن العباس الرومي ويضربون عن اضافة البحتري اليه والحاقه به ، مع احسان ابن الرومي في اساءته وقصور البحتري عن مداه فيه ، وانه لم يبلغ في دقة معانيه وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته . أعني الهجاء خاصة » . ثم يذكر قلة وفائه لانه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفان .

ومها قلنا في مذهبه الهجائي فهو ولا شك ضئيل في ديوانه . ولا يمنع ذلك ان يكون الشاعر قد استعمل الهجاء لبعض مآربه من مقارعة شاعر أو الانتقام من كبير ، ولكن هذا الضرب من الشعر لم يشتهر به ، والذي وصل الينا منه لا يدل على علو كعب الشاعر فيه .

مزيمته الفنية

على ان الناظر في شعر البحتري المدقق في فهم شاعريته يرى له مزية

١ المدة ١ - ٧٠ .

٢ الموشح ٣٣٦ .

جديرة بالذكر ، هي رشاقة الوصف الذي طبع بها شعره فعرف بها ، وجعلت له بين الشعراء مقاماً عالياً . وقبل النظر في فن شاعرنا الوصفي نقول ان الوصف نوعان ، حسي و خيالي . ولنوضح الفرق بينهما ببعض الامثلة :

تقف إلى نهر في وادٍ كبير وترى تدفق المياه بين تلك الشواهد العظيمة فتأخذك روعة ذلك المنظر ، وتستفزّ فيك الميل إن كنت شاعراً الى وصف ما تراه من جمال وجلال . فإذا أنت تصف أسناد الوادي وما عليها من الاشجار والكروم ، وتصف تلك الصخور القائمة وانقضاء المياه من بينها . وقد رسم ما يتراءى لك في ذلك الوادي من ألوان تلقيها عليه ظلال المساء أو أشعة الفجر ، وربما تعديت ذلك الى ما تراه من حيوان هناك : بقرأ رابضاً تحت الشجر ، أو غنماً يرعى في المروج ، أو ماعزاً منتشرأ فوق المنحدرات . ولعلك ترى الفلاح يحرق الحقل ، أو تنظر الى السماء من أعماق الوادي فتري « قطعان الغنم يسوقها راعي الريح » ، أو قوافل الضباب تنيح فوق قمم الضباب . يؤثر كل ذلك فيك فت رسمه بأشكال خلاّبة تستفزّ في القارئ عواطف الطرب ، وتحبّب اليه رؤية ذلك الجمال — كما فعل أحدهم في وصف وادٍ ظليل اذ قال :

نزلنا دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمأ زلالاً ألدّ من المدامّة للنديم
تروع حصاء حالية العذارى فتلس جانب العقد النظيم

هذا هو الوصف الحسي الذي يتناول المحسوسات فيصوّرها بصورة رائحة ، وهو عين ما يفعله الرسام الماهر الذي يقتنص بريشته جمال الطبيعة ويحسّمها بالالوان على الورق ، فتبدو فتانة تمل إليها النفوس الحساسة ، ويتفانى في اقتنائها أهل الذوق والخبرة .

وكذلك أنت تفعل اذا وقفت مثلاً أمام البحر العظيم ورأيت أمواجه

المتلاطمة وهي تتكسر مزبدة فوق الصخور ، أو رأبته في يوم رائق وهو رهوٌ مستنيم وقد انتشرت فوقه قوارب الصيادين وألقت ظلها فوق سطح الماء وخرج الناس مساءً يتنزهون على رمال الشاطئ . وفي وسط البحر باخرة عظيمة تشقّ الماء بحيزومها ويعقد البخار سرادقاً فوق مداخنها ، فتمر أمامك محاذية للتلال المنحدرة نحو البحر ، وترى من ورائها القرى الجبلية تتغامز عيونها عند غروب الشمس .

ولو وقفت اليوم تنظر الى معركة التحمت فيها الابطال بالابطال : وقد برقت الاسنة والسيوف ، وسالت الدماء من بين الصفوف . أو الى حرب بين الخنادق وقد قصفت المدافع فتساقطت قذائفها على الصعيد تفسد التراب والصخور ، وتطارت شظاياها تفتك بالثبات والالوف ، ثم ظهرت سحائب الغاز القتال تتقدم نحو مكان العدو ، وتبع ذلك هجوم عام . والطيارات تحوم فترشق العدو بالمتفجرات الجهنمية ، ثم لا تلبث أن ترى سرباً معادياً فتنهزم أمامه أو تصمد له في لوح الجو ، وهناك الهول الكبير . مناظر هائلة يأخذها الشاعر فيرسمها كما يراها فتتحرك النفوس وتلعب بالعواطف . وقس على ما ذكرنا من الاوصاف ، وصف المدن والآثار والقصور والجنانن والصيد والحيوان والانسان وغير ذلك مما يقع تحت حسك ويؤثر في نفسك ، فتبرزه في حلة قشبية تحرك في سواك أوتار الطرب . وقد أجاد العرب في هذا الفن من الوصف الحسي ، فانصرف الاقدمون منهم الى ما له علاقة بحياتهم البدوية كالجلل والصحراء والسيوف وآثار الحبيب الراحل وشكله وما الى ذلك ، وبالفوا في بعضها مبالغة عظيمة كما فعل طرفة في وصف ناقته . وأمثال طرفة كثيرون بين الشعراء الاقدمين . وجاء العصر العباسي فتحول الوصف الى الرياض والقصور ومجالس اللهو والسرور ، وللمولدين في ذلك بدائع لا يتسع المقام لذكرها هنا .

* * *

أما الوصف الخيالي فنظر فني الى ما وراء المحسوسات . فإذا كان

الشاعر واسع الخيال لا يقف عند ما يراه ، بل يتعداه الى مناطق يفتحها أمامه الخيال الواسع . فيجعل المرئيات أساساً لغير المرئيات ، ويولد من المحسوسات صوراً مجردة يرسمها للبشر تأملات وذكريات . يقف في قلب الوادي مثلاً فيسمع فيه نبضات الحياة ، وغمر أمامه على صفحات الماء حوادث الايام ، فيذكر الامم الغابرة والوقائع الماضية . وقد يحمله ذلك الى النظر في الحياة والانسان ، وكم تتسع الحياة والانسان لخواطر يشعر بها لرؤيته بعض المشاهد الطبيعية . فالوصف الخيالي هو وصف تأثر من النظر الحسي وما يثيره فيك من وحي داخلي . قف أمام البحر تتجسم لك عظمة الكون وجلال الطبيعة ، وقد يملكك المنظر الى ذكر الاسفار والهجرة في طلب العلى . ولملك تذكر الامم التي كانت على شواطئ هذا البحر ، وكيف عظمت ثم سقطت ، وعلاقة ذلك بالبلاد التي أنت فيها .

وفي الحرب مجال واسع للخيال ، هناك علاقة الانسان بالانسان وما يتفرع عنها من عوامل أساسية في بناء العمران . ومثله اذا وقفت أمام الآثار كعبلبك وتدمر ، أو أمام الانهار التاريخية كدجلة والفرات والنيل ، أو أمام قنايل العظماء ومآثر العلماء . فأنت في كل ذلك تستخدم الحس توصل الى صور الخيال البعيدة ، وهذا هو الوصف الخيالي العالي الذي تلكأ الشعر العربي قديماً عن الاهتمام به ، فلم يترك لنا السلف من آثارهم فيه الا النزر اليسير .

وشاعرنا البحثري وصاف ماهر . وهو كسواه من شعراء العرب أميل الى الوصف الحسي : يتناول المحسوسات فيصدق في رسمها ، كقوله في دمشق يوم انتقل اليها المتوكل :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفى لك مطربها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على اجبالها فرقا ويسبح النبت في صحرائها بددا

فليس تبصر الا واكفا خضلا أو يانعا خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيط ولتى بعد جيئته أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

على ان له أحياناً ما يقرب ان يكون نظراً خيالياً . أمته وقفته أمام
إيوان كسرى ففيها يقف الشاعر لدى قصور الفرس الدارسة بصفها وصفاً
حسباً رائعاً ، ثم يحاول الانتقال الى المعنويات - الى تاريخهم وعظمتهم ،
ولكنه لا يكاد يفعل ذلك الا لماماً . وهذه القصيدة من عيون الشعر
العربي تقع في ٥٦ بيتاً ، عشرة منها في ذكر حاله وشكوى دهره ،
وستة في السبب التاريخي لهذه الوقفة ، ثم خمسة أو ستة في ذكر عظمة
الفرس ، وستة في أحوال خاصة . وما بقي فوصف للايوان . وقد تفنن
فيه الشاعر ما شاء . واليك شيئاً منها : قال في صورة معركة رسمت
على أحد جدران القصر :

لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبئك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنو شروان يُزجي الصفوف تحت الدّرفس
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس
من مُشيج يهوي بعامل رمح ومُليح من السنان بترس

ثم يلتفت الى القصر ويرى ما أصابه من الزمان فيقول :

يتظنتى من الكتابة ان يبدو لعيني مصبح أو ممسي
عكست حظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلداً وعليه كل كل من لاكل الدهر مرسى

فانظر الى هذا النمط النفيس الذي يشهد للبحثري بالبراعة الفائقة في
تصوير المرئيات وعرضها بالالوان الخلابّة ، ولا سيما وصفه لمعركة انطاكية

وصورة كسرى يدفع صفوفه تحت العلم الكبير ، والرجال يتطاحنون أمامه
من مهاجم هوي بسيفه على العدو ومدافع يتقي الضربات بترسه . وتأمل
هذا التصوير الدقيق اذ يقول :

تصف العين انهم جيدٌ احياء لهم بينهم اشارة خرس
يقتلي فيهم ارتياحي حتى تتقرأهم يداي بلس

* * *

ومن قصائده البديعة التي يقرن فيها الحس بالخيال قرناً جميلاً قصيدته
الفخرية في وصف ذئب لقيه في القفر . وليست هذه القصيدة عند
التحقيق الا وصف نفسه في سورة من سورات العزيمه . فقد ذكر فيها
اعداءه وحرصهم على هلاكه ، فوقف أمامهم وقفة الباسل يصور نفسه
لهم تصويراً تكاد تلمس الشعور المتدفق فيه . ومن قوله :

فقل لبني الضحك مهلاً فأنني انا الافعوان الصلّ والضيغم الورد
متى هجموه لا تهيجوا سوى الردى وان كان خرقاً ما يحمل له عقد
مهيّباً كنصل السيف لو ضربت به ذرى اجأ ظلت واعلامها وهد
يودّ رجال انني كنت بعض من طوته الليالي لا أروح ولا أغدو
ولولا احتمالي ثقل كل ملّة تسوء الاعادي لم يودّوا الذي ودّوا
ثم يأخذ في وصف صرامته وسيفه ، ويتقدم من ذلك إلى وصف
الذئب وكيف هاجمه ، ثم يعود إلى نفسه وجور الدهر عليه ، وان عزمه
يدفعه الى ركوب المشاق في طلب الفنى . ويختم ذلك بقوله :

سأحمل نفسي عند كل ملّة على مثل حد السيف اخلصه الهند
فان عشت محموداً فثلي بنى الفنى ليكسب مالاً أو يُنثّ له حمد
وان مت لم اظفر فليس على امرى غدا طالباً الا تقصيه والجهد

* * *

وبما يذكر للبحري في دقة الرسم واثاقه العبارة قصيدته التي يصف
 بها موكب المتوكل وقد خرج في عيد الفطر إلى المسجد ، وهي من أفضل
 الامثلة على أسلوب البحري الرشيق قال منها :

أظهرت عز الملك فيه يحفل	لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت	عُدداً يسير بها العديد الاكثر
فالخيل تصل والفوارس تدعي	والبيض تلمع والاسنة تزه
والارض خاشعة تميد بثقلها	والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس مائعة توقد بالضحي	طوراً ويطفئها المعجاج الاكدر
حتى انتهت إلى المصلى لابساً	نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع	لله لا يزهي ولا يتكبر
قلو ان مشتاقاً تكلّف غير ما	في وسعه لسمى اليك المنبر

* * *

ومثل ذلك وصف القصر المعروف بالكامل . بناء الخليفة المعتز بالله
 ابن المتوكل . فقال البحري من قصيدة يمدح بها المعتز ويذكر بناءه
 للقصر :

ذُعر الحمام وقد ترنّم فوقه	من منظر خطر المزلّة هائل
رُفعت لتحترق الرياح سموكه	وزهرت عجائب حسنه المتخايل
وكان حيطان الزجاج يحوّه	لججٌ يمجن على جنوب سواحل
وكان تقويف الرخام إذا التقى	تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر	ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه	نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يحلن في ذي روتق	متلهّب العالي أنيق السافل
وكأنما نشرت على بستانه	سيراء وشي اليمنة المتواصل
أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها	عن صوب منسجم الرباب الهاطل

وتنفست فيه الصبا فتعطفت
مشي المدارى الفيد رحن عشية
أشجاره من حَيْلٍ وحوامل
من بين حالية اليدين وعاطل

* * *

وكذلك وصفه الفرس من قصيدة في محمد بن علي القمي الكاتب ،
والوصف يقع في نحو عشرين بيتاً نذكر منها هنا :

وأغرّ في الزمن البهيم محجل	قد رحت منه على أغرّ محجل
كالهيكل المبني إلا أنه	في الحسن جاء كصورة في هيكل
يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت	صيداً ويقتصب انتصاب الاجدل
جدلان ينفض عذرة في غرة	يققر تسيل حجولها في جندل
كالرائح النشوان أكثر مشيه	عرضاً على السّن البعيد الاطول
هزج الصهيل كأن في نغماته	نبرات معبد في الثقل الاول
ملك العيون فإن بدا أعطيته	نظر المحب إلى الحبيب الاول

إلى غير ذلك من الوشي الجميل الذي عرف به البحري . وسنرى
في باب المختار له كثيراً من ذلك .

غزل البحري

إذا قلنا غزل البحري فقولنا هذا يصدق على كل شاعر من مداحي
العصر العباسي ، وهو على الغالب نوع من الفن الكلامي يصدرون به
قصائدهم تمهيداً لما يقصدون . ومع ما قد تجده فيه من رشاقة لا ينظم
عادة بشأ لوجد متقد أو تصويراً لخواج شخصية صادقة ، على ان الشعراء
يتفاوتون في ذلك . وفي غزل شاعرنا البحري حلاوة ولطف يجيبانه إلى
النفوس .

١ وكريم اغر ركبت من فضله جواداً اغر محجل .

٢ معبد اسم مفعول مشهور .

كان الاقدمون يعملون لقصائدهم مقدّمات من الوقوف على ديار الحبيب
والبكاء على آثارها ، ثم الرحيل عنها الى حيث يقصدون . فحول المولدون
ذلك الى مقدمات غزلية يصفون بها الحبيب ويذكرون أشواقهم ، ثم
يتخلصون الى المدح او سواه . وقد لا يكون بين المقدمة الغزلية وسائر
القصيدة من رابطة فكرية أو حسن تخلص . وعلى هذا كثير من شعر
البحري . وفيه يقول ابن الاثير « انه لم يوفت في التخلص من الغزل
الى المديح بل اقتضبه اقتضاباً ، ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك
شيئاً مرضياً الا اليسير » .

وقد سبق الى هذا النقد ابو بكر الباقلاني فقال ^٢ : « الا ترى ان
كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج
من باب الى سواه ، حتى ان اهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحري
— مع جودة نظمه وحسن وصفه — في الخروج من النسيب الى المديح ،
واطبقوا على انه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء . وإنما اتفق له في مواضع
محدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن » .

ومن امثلة تقصيره قوله يخاطب الحبيب من قصيدة مطلعها « كنت
الى وصل سعدى جدّ محتاج » :

اسقى دبارك والسقىا ثقلّ لها	إغزارُ كل ملثّ الودق ثجّاج
يلقي على الارض من حلتي ومن حلل	ما يمتع العين من حسن وابهاج
فصاغ ما صاغ من ثبر ومن ورق	وحاك ما حاك من وشي ودبياج
الى عليّ بني الفياض بلّغني	مراي من حيث لا يسرى وادلّاج
الى فتى يتبع النعمى نظائرها	كالبحر يتبع امواجاً بأمواج

فأنت ترى كيف ينتقل بقتة الى المديح مما يدل على ان الغزل لم يكن
الا حاجة فنية متكلفة . ومثل ذلك غزله في قصيدة قالها في المتوكل

١ المثل السائر ٢٠ .

٢ اصباح القرآن ص ٢١ .

وأولها :

عذيري فيك من لاجِ اذا ما شكوت الحب حرقني ملاما
يتقدم فيها الى الحبيب فيخاطبه بأبيات رقيقة ويذكر هيامه وأشواقه
الى ان يقول :

وقد علمتْ بأنني لم أضيّع لها عهداً ولم اخفر ذماما
لئن اضحت محلتنا عراقاً مشرقاً وحلّتها شاماً
فلم أحدث لها الا وداداً ولم ازدد بها إلا غراما
ثم يثب وثباً الى المديح فيقول :

خلافه جعفر عدل وأمن وفضل لم يزل يسع الاناما
وقس على ذلك كثيراً من قصائده .

ويكثر في غزل البحتري ذكر الطيف او الخيال حتى عرف به بين
الشعراء . قال الحصري : « كان البحتري أكثر الناس ابداعاً في الخيال
حتى صار لاشتهاره مثلاً فيقال له خيال البحتري ^١ » . وأكثر تشبيهه
على ما يقول ابن خلكان - في فتاة حلبية اسمها عكوة ، عرفها يوم كان
في حلب قبل خروجه الى العراق .

وكان على عادة الشعراء يتاجن في شعره ويشبّب بالفلمان . وكان له
غلام اسمه نسيم يقول صاحب الاغاني انه جعله باباً من أبواب الحيل
على الناس فاذا حصل في ملك بعض أهل المروءات شبب به وتشوقه
ومدح مولاه حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم ^٢ .

وفي شعر البحتري حنين الى البلاد الشامية والى أحبابه وبلدته ومنبع
كفوله من قصيدة مطلعها : « خيال يعتريني في المنام » .

سلام الله كل صباح يوم عليك ومن يبلغ لي سلامي

١ زهر الآداب ٣ - ١٢٠ .

٢ الاغاني ١٠ - ١٧١ .

لقد غادرت في قلبي سقاماً بما في مقلتيك من السقام
لئن قلّ التواصل أو تمادى بنا الهجران عاماً بعد عام
فكم من نظرة لي من بعيدٍ اليك وزورة لك باكتنام
أأخذ العراق هوىً وداراً ومن أهواه في ارض الشام

وهو يحيد في موقف الوداع والذكرى ، ومن ذلك قوله :

بنفسي ما ابدت لنا حين ودّعت وما كتبت في الاتحامي المسير
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يبق الا لفظة المتذكر
وخاطر شوق ما يزال يهيجنا لبادين من اهل الشام وحضر
وقوله :

أراحلة ليلى وفي الصدر حاجة اقام بها وجدٌ فما يترحل
وقفنا على دار البخيلة فانبرت سواكبٌ قد كانت بها العين تبخل
على دارس الآيات عافٍ تعاقبت عليه صبا ما تستفيق وشمال
فلم يدر رسم الدار كيف يميننا ولا نحن من فرط البكا كيف نسال
اجدك هل تنسى المهود فينطوي بها الدهر او ينسى الحبيب فيذهل
أرى حبة ليلى لا يبيد فينقضي ولا تلتوي أسبابه فتحلل

والغريب انه كان - برغم السنين الطوال التي أقامها في العراق
يحسب نفسه غريباً هناك . وأكبر الظن انه كان صادقاً في حنينه
الوطن ، فانه كما ذكرنا سابقاً عاد بعد هجرة طويلة وقضى بقية -
في وطنه .

المختار من شعر البحري

غدير في روض يحري فلا تَعْتَرِضُه جنادل يثب من فوقها هدّاراً الى
الاعماق ، ولا يتغلغل في منطفات تضل في شعابها الاوهام : ينشد
فيسمّك خيريراً ناعماً تألفه الاذان ، ويصور فيريك الواناً لطيفة ترتاح
اليها النواظر .

قال يمدح الفتح بن خاقان ويذكر مبارزته الاسد

اجيدك ما ينفك يسري لزينبا	خيال اذا آب الظلام تأوبا ^١
سرى من اعالي الشام يحلبه الكرى	هبوب نسيم الروض تجلبه الصبا
وما زارني الا ولعت صباية	اليه والا قلت اهلاً ومرحبا
وليلتنا بالجزع بات مساعفا	يريني اناة الخطو ناعمة الصبا ^٢
اضرت بضوء البدر والبدر طالع	وقامت مقام البدر لما تغيبا
ولو كان حقاً ما اتته لأطفأت	غليلاً ولا فككت اسيراً معذبا ^٣
علتك ان منيت منيت موعداً	جهاماً وان ابرقت ابرقت خلداً

١ اجيدك بمعنى بمحكك للقسم او للتأكيد . وتأوب وآب رجع .

٢ الااة هنا المرأة الفائرة للقيام دلافاً .

٣ أي لو كانت زيارتها حقيقيه لخلصتني من عذاب الوجد .

وكننت أرى ان الصدود الذي مضى
فوا اسفي حتام اسأل مانعاً
سأني فؤادي عنك أو أتبع الهوى
دلال فما ان كان ألا تجنباً
وآمن خوآنًا وأعتب مذنباً^١
البك ان استعصى فؤادي أو أبي

* * *

أقول لركب معتفين تدرّعوا
ردوا نائل الفتح بن خاقان انه
هو المعارض الشجاع أخضل جوده
إذا ما تَلَطَّسَ في وغي اصغى العدى
رزين إذا ما القوم خفت حلومهم
حياتك أن يلقاك بالجوّد راضياً
حرون إذا عاززته في ملّة
فقي لم يضيّع وجه حزم ولم يبت
إذا هم لم يقعد به العجز مقعداً
أعير مودّات الصدور واعطيت
فلم تخل من فضل يبلّغك التي
وما نغم الحساد الا أصالة
وقد جرّبوا بالامس منك عزيمة
غداة لقيت الليث والليث مخدر
يحصّنه من نهر نيزك معقل
يرود مغاراً بالظواهر مكتباً

على عجل قطعاً من الليل غيبها
اعم ندى فيكم واقرب مطلبها
وطارت حواشي برقه فتلهباً^٢
وان خاض في أكرومة غمر الرّبي
وقور اذا ما حادث الدهر اجلباً^٣
وموتك أن يلقاك بالبأس مغضباً
فان جثته من جانب الذل اصحباً^٤
يلاحظ أعجاز الامور تعقّباً
وان كف لم يذهب به الحرق مذهباً
يداه على الاعداء نصرأ مرهباً
تحب ومن رأي يريك المغيّباً
لديك وفعل اريحياً مهذباً
فضلت بها السيف الحسام المعرباً
يحدّد ناباً للقاء وميخلاً^٥
منيع تسمى روضه وثأشباً
ويحتل روضاً بالاباطح معشياً^٦

١ اعتبره أي ارجع الى ما يرضيه .

٢ هو كالنم الماطر . يجمع بين ماء الجود ولبيب البطش .

٣ اجلب توقع بالشر .

٤ أصعب أي انقاد . ومعناه شديد العناد اذا عرند ولكنه سهل الانقياد اذا جاءه الطالب متراضاً

٥ اخدر الليث أقام في غابته .

٦ الظواهر اعالي الارضية . والاباطح عكسها .

يلاعب فيه اقحوانا مفضضاً
اذا شاء غادى عانة أو غدا على
يحر الى اشباله كل شارق
ومن يبغ ظملاً في حريمك ينصرف
شهدت لقد انصفته يوم تنبري
فلم ارَ ضرغامين أصدق منكما
هزبر مشى يبغي هزبراً وأغلب
ادل بشغب ثم هالته صولة
فأحجم لما لم يجد فيك مطعماً
فلم يفنه ان كر نحوك مقبلاً
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى
وكنت متى تجمع يمينيك^٦ تهتك الضريبة أو لا تبقى للسيف مضرباً

* * *

ألنت لي الايام من بعد قسوة
وألستني النعمى التي غيرت اخي
فلا فزت من مرّ الليالي براحة
على ان افواف القوافي ضوامن
ثناء تقصى الارض نجداً وغائراً
وعاتبت لي دهري السيء فأعتبا^٧
عليّ قامسى فازح الدار اجنباً^٨
اذا انا لم أصبح بشكرك متعباً
لشكرك ما أبدى دجى الليل كوكباً
وسارت به الركبان شرقاً ومغرباً

١ الحوذان اسم نبات . ويص أي يلعب .

٢ و ٣ هكذا يروها ابن الاثير . وفي الديوان ان تنقص وربما ؛ ومعنى البيتين - يقتنص الحر او
الطبايع فيجبر منها كل ذبيحة وقد تخضبت بالدماء وتلوث بالرمال .

٤ المضرب المضرب أي السيف القاطع .

٥ فلم أر أسدين أثبت منكما في موقف لا يثبت فيه الجبان .

٦ يمينيك أي ساعدك وسيفك .

٧ أعتب أي رضي .

٨ لا يقصد اخاه هنا ولكن يقصد ان نعم المدح عليه اوجبت حمد الناس .

وقال يصف حاله ويصف الذئب الذي لقيه

سلامٌ عليكم لا وفاءٌ ولا عهد أما لكم من هجر احبابكم بدّ
أحبابنا قد انجز البين وعده وشيكاً ولم يُنجز لنا منكم وعد
بنفسي من عذبت نفسي بحبه وان لم يكن منه وصال ولا ود
حبيب عن الاحباب شطّت به النوى

وأَيّ حبيب ما أتى دونه البعد
يردّ رجال أني كنت بعض من
طوته الليالي لا أروح ولا أغدو^١
إذا الحرب لم يُقدَح لمخمدّها زند
ولي صاحب غضب المضارب صارم
طويل نجادٍ ما يفلّ له حدّ
وباكية تشكو الفراق بأدمع
يبادرها سحاً كما انتثر العقْد
رَشادك لا يُحزنك بينُ ابنِ هِمّة
يتوق الى العلياء ليس له نِد
فمن كان حرّاً فهو للعزم والسرى
وللسيل من افعاله والكرى عبد

* * *

وليلٍ كان الصبح في أخرياته
حُشاشة نصلٍ ضمّ لإفرنده غِمد
تسربلته والذئب وسان هاجع
بعين ابن ليل ما له بالكرى عهد^٢
اثير القطا الكُدرِيّ عن جَنّاته
وقالفتني فيه الثعالب والرّبد
سما لي وبني من شدة الجوع ما به
ببيداء لم تُعرف بها عيشة رَعْد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه
بصاحبه والجَدّ يتعمسه الجَدّ^٣
عوى ثم أقمى فارتحزت فهجته
فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأرجرته خرقاء تحسب ريشها
على كوكب ينقضّ والليل مسودّ^٤
فما ازداد الا جرأة وصرامة
وأيقنت ان الامر منه هو الجد

١ أي يود بعضهم اني ميت .

٢ ابن الليل اللص .

٣ أي كل منا ذئب يحاول البطش بالآخر وذو الحظ الاوفر سينتصر .

٤ شبه نصلة السهم بكوكب ينقض .

فأتبعتها أخرى فأضلت نصلها
فخرّ وقد اورده منهل الردى
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته
بجيت يكون اللب والرعب والحد
على ظمأ لو انه عذب الورد
عليه وللرمضاء من تحته وقد

* * *

لقد حكمت فينا الليالي يحورها
أفي العدل ان يشقى الكريم يحورها
ذريني من ضرب القداح على السرى
سأحمل نفسي عند كل ملعة
ليعلم من هاب السرى خشية الردى
فان عشت محموداً فثلي بنى الغنى
وان مت لم اظفر فليس على امرى
وحكم بنات الدهر ليس له قصد
ويأخذ منها صفوها انقعد الوغد
فعزى لا يثنيه نحس ولا سعد
على مثل حد السيف اخلصه الهند
بأن قضاء الله ليس له رد
ليكسب مالاً أو يثبت له حمد
غدا طالباً الا تقصيه والجهد

وقال يفتخر بقومه

إنما الفي ان يكون رشيدا
خليياه وجدة الله ما دا
ان ايامه من البيض بيض
ايها الدهر حبذا انت دهرأ
كل يوم تزداد حسناً فما تبعث يوماً الا حسبناه عيدا
ان في السرب لو يساعدنا السر
بتدافعن بالاكف ويعرضن علينا عوارضاً وخدودا
فانقصا من ملامه أو فزيدا
م رداء الشباب غصاً جديدا
ما رأين المفاقر السود سودا
قف حميداً ولا قول حميدا
تبعت يوماً الا حسبناه عيدا
ب شموماً يمشين مشياً وثيداً
علينا عوارضاً وخدودا

١ أي فاتبعها سهاً آخر أصاب القلب .

٢ كانوا قديماً يضربون القداح قبل السفر ليستطلعوا ما سيكون .

٣ أي أحسنت صنعه الهند .

٤ يثبت أي ينشر .

٥ البيض الأولى الحسان ، والثانية جمع أبيض .

٦ كنى بالشמוש عن الحسان .

يقتسمن عن شئتٍ اراه أقحواناً مفصلاً او فريدا^١
 رحن والليل قد اقام رواقاً فأقن الصباح فيه عمودا
 بمهاةٍ مثل المهاة ابت انت تصل الوصل أو تصد الصدودا^٢
 ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما اصاب مزيدا
 فهي الشمس بهجة والقضيب الفض لنا والريم طرفاً وجيدا

* * *

يا ابنة العامري كيف يرى قو مك عدلاً ان تبخلي واجودا
 ان قومي قوم الشريف قديماً وحديثاً ابوة وجدودا
 معشر امسكت حلومهم الارض وكادت من غزمهم ان تميدا
 منزلاً قارعوا عليه العماليق وعاداً في عزها ونمودا
 فاذا المحل جاء جاءوا سيولاً واذا النقع ثار ثاروا اسودا
 يحسن الذكر عنهم والاحاديث اذا حدث الحديد الحديد^٣
 في مقام تحر من ضنكه البيض على البيض ركعاً وسجودا^٤
 يفرجون الوغى اذا ما اثار الضرب من مصمت الحديد صعيدا
 بوجوه تعشي السيوف ضياء وسيوف تعشي الوجوه وقودا
 عدلوا الهضب من تهامة احلا ما ثقلاً ورمل نجد عديدا^٥
 ملكوا الارض قبل ان تملك الارض وقادوا في حافتيها الجنودا
 وجروا قبل مولد الشيخ ابرا هم في المكرمات شأراً بعيدا^٦
 فهم قوم تبسع خير قوم لهم الله بالفخار شهيدا^٧

١ الشئت: الثغر الافلاج .

٢ مهاة متعلق بما قبله اي رحن مساء ففعلن الظلام مضياً يجال مهاة أبت إلا العراق .

٣ و ٤ حدث الحديد الحديد اي عند تلاحم السيوف في الحرب . والبيض السيوف .

٥ أي واذنوا الجبال بمقولهم والرمال بعددم .

٦ يريد بالشيخ ابراهيم ابراهيم الخليل - اشارة الى قدم مجدم .

٧ شهيداً تعرب هنا حالاً من الله .

بمساعٍ منظومة ألبستنّ اللآلي قلائدًا وعقودا
 سائلٍ الدهر مذ عرفناه هل يعرف منا الا الفعّال الحميدا
 قد لعمرى رزناه كهلاً وشيخاً ورأبناه ناشئاً ووليدا
 وطوينا أيامه ولياليه على المكرمات بيضاً وسودا
 لم نزل قطّ مذ ترعرع نكسو هُ ندَى لَيْتَنَّا وبأساً شديدا
 فهو من مجدنا يروح ويغدو في عُلى لا تبديد حتى يبيدا
 نحن أبناءَ يعربٍ اعربُ النّا من لسانا وانضر الناس عودا

وقال في المتوكل وموكبه الفخم في عيد الفطر

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر وألام في كمد عليك وأعذر
 وارك خنت على النوى من لم يخن عهد الهوى وهجرت من لا يهجر
 وطلبتُ منك مودةً لم أعطها ان المعنى طالب لا يظفر
 هل دين علوةٍ يستطاع فيقتضى أو ظلم علوة يستفيق فيقصر^١
 بيضاء يعطيك القضيبي قوامها ويريك عينها الغزال الاحمر
 تمشي فتحكم في القلوب بدلها وتميس في ظل الشباب وتخطر
 اني وان جانبك بعض بيطالتي وقوهم الواشون اني مقصر
 ليشوقني سحر العيون المجتلى ويروقني ورد الحدود الاحمر

* * *

الله مكّن للخليفة جعفر ملكاً يحسنه الخليفة جعفر
 نعمى من الله اصطفاه بفضله والله يرزق من يشاء ويقدر
 فاسلم امير المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة في البقاء وتشكر
 عمت فواضلك البرية فالتقى فيها المقل على الغنى والمكثر^٢
 بالبر صمت وانت افضل صائم وبسنة الله الرضية تفسر

١ هل لعلوة مطالب يمكننا قضاؤها أو هل يكف ظلها فينتهي غنا .

٢ ففواضلك التي عمت الناس جعلت الفقراء والاغنياء في حال واحدة من اليسار .

فانعم بيوم الفطر عيداً انه
أظهرت عزّ الملك فيه يحفل
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
فالخيل تصل والفوارس قد عي^١
والأرض خاشعة تيمد بثقلها
والشمس مائعة توقد بالضحي
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت
وافتنّ فيك الناظرون فاصبح^٢
يحدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا بطلعتك النبيّ فهللوا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابساً
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو أن مشتاقاً تكلف غير ما
أيدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برّد النبيّ مذكراً^٣
ومواعظ شفت الصدور من الذي
حتى لقد علم الجهول واخلفت
صلّوا وراءك آخذين بعصمة
فاسلم بمغفرة الإله فلم يزل
الله اعطاك الهبة في الوري
ولأنت املا للعيون لديهم

يومٌ اغرّ من الزمان مشهراً
لجِب يحاط الدين فيه وينصر
عدداً يسير بها العديد الاكثر
والجوّ معتكر الجوانب اغبر
طوراً ويطفشها العجاج الاكدر^٤
تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
يُوما اليك بها وعين تنظر
من أنعم الله التي لا تكفر
لما طلعت من الصفوف وكبروا
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
لله لا يُزهى ولا يتكبر
في وسعه لسمى اليك المنبر
تبي عن الحق المبين وتخبر
بالله تنذر تارة وتبشّر^٥
يعتادها وشفأوها متعذر
نفس المروّي واهتدى المتحير
من ربه وبذمة لا تحفر
هب الذنوب لمن يشاء ويففر
وحباك بالفضل الذي لا ينكر
وأجلّ قدراً في الصدور وأكبر

١ ادعت الفوارس أي اعتزوا بأنسابهم .

٢ مائعة أي مرتفعة .

٣ كان الخلفاء في المواقف الرسمية يضعون حل اكنافهم برودة النبي .

٤ بمواعظك التي شفت الصدور من امراضها فتمنّ الجاهل وامتدى المتعير واخلفت لله نفس الفكر .

وقال يمدح احمد بن دينار

ويصف مركباً له غزا فيه بلاد الروم

ألم ترَ تغليس الربيع المبكرَ وما حاك من وشي الربيع المنشر^١
ومرعانَ ما ولّى الشتاء ولم يقف تسلّلَ شخص الخائف المنكر^٢
مردنا على بطياس وهي كأنها سائب عَصَب أو زراي^٣ عبقر^٤
كان سقوط القطر فيها إذا انثنى اليها سقوط اللؤلؤ المتحدر^٥
وفي ارجوانيّ من النور احمر يشاب بافرند من الروض اخضر
إذا ما الندى وافاه صباحاً غابت اعاليه من درّ نثر وجوهر
إذا قابلته الشمس ردّ ضياءها عليها صقال^٦ الافحوان المنور
إذا عطفته الريح قلت التفاتة^٧ لعلوة^٨ في جادّها المتعصر^٩
بنفسي ما أبدت لنا حين ودّعت وما كتمت في الاتحامي^{١٠} المسير^{١١}
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يبقَ الا لفظة المتذكر^{١٢}
وخاطر شوق ما يزال يهيجنا لبادين من أهل الشأم وحضر^{١٣}
بأحمد أحمدنا الزمان واسهلت لنا هضبات المطلب المتوغر^{١٤}
هو الفيث يحري عن عطاء ونائل عليك فخذ^{١٥} من صيّب الفيث أو ذر
ولما تولّى البحر والجود^{١٦} صنوه غدا البحر من اخلاقه بين أبهر^{١٧}
أضاف الى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاع المدبر^{١٨}

١ ألم ترَ ورود الربيع الباكر وما حاك من وشي الازهار الربيعية .

٢ بطياس مكان قرب حلب . أي مردنا على هذا المكان وهو كأنه شق برود مصبوغة او بسط عبقرية . وعبقر محل ينسبون اليه كل ما تعجبوا من حسن صنمته وقوته .

٣ أي اذا عطفت الريح الفصن او الزهرة قلبت تلك التفاتة علوة في ثوبها الزعفراني .

٤ الاتحامي المسير اي الثوب المخطط .

٥ اي لما تولّى البحر غدا البحر بين بحور من مكارمه .

غدوت على الميمون صباحاً وانما
 اطلت بعطفيه ومرت كأنما
 إذا زجر النوتي فوق علته
 إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له
 إذا ما انكفا في هبوة الماء خلته
 وحولك ركبون للهول عاقروا
 تميل المنايا حيث مالت اكفهم
 إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم
 صدمت بهم صهب العنانين دورهم
 يسوقون اسطولا كأن سفينه
 كأن ضجيج البحر بين رماحهم
 فما رمت حتى اجلت الحرب عن طلي

مقطعة فيهم وهام مطير^٦
 وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ملياً بأن توهي صفاة ابن قيصر^٨
 جدحت له الموت الزعاف فعاقه وطار على ألواح شطب مسمر^٩
 مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها

عليه ومن يول الصنيعه يشكر
 إذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ثنى في انحدار الموج لحظة اخزر
 وكنا متى نصمد يحدك ندرك المعالي ونستنصر يمينك ننصر

١ و ٢ الميمون اسم مركب اي اطل علينا فكان مقدمه كمنق حسان مرفوع وكان
 النوتي في اعلاه كانه خطيب على منبر . وتشرف اي تتشرف ويراد بها تطلع من عل .

٤ المقتر : الساطع الرائحة .

٥ صهب العنانين أي الروم لأن لحام شعراء .

٦ عود مجرجر اي جمل تردد صوته .

٧ ما رمت اي ما زلت . والطللى الاعناق .

٨ إشارة الى اصل الممدوح الفارسي . اي كنت قادراً ان تقهر ملك الروم (ابن قيصر) .

٩ اي تجنب الموت فهرب على مركب .

وصف ايوان كسرى

(وآثاره اليوم قرب بغداد وتعرف بطاق كسرى)

صُنْتُ نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جِدا كل جِبس^١
 وماسكت حين زعزعني الدهر التماساً منه لتعسي ونكسي
 بُلُغْ مِنْ صُبابَةِ العيش عندي طففتها الايام تطفيف بخس^٢
 وبعيداً ما بين وارد رِفهِ عِلَلْ شربه ووارد خمس^٣
 وكأَنَّ الزمان أصبح محمو لا هواه مع الأخس^٤ الاخس^٥
 واشترائي العراقَ خطّة غبنٍ بعد بيعي الشام بيعة وكس^٦
 لا ترزني مزاولاً لاختباري عند هذي البلوى فتتكرّ مسي^٧
 وقديماً عهدتني ذا هنات آبيات على الدنيئات شمس^٨
 فلقد رابني نبوّ ابن عمي بعد لين من جانيه وأنس^٩
 وإذا ما جفيت كنت حريّاً ان أرى غير مصبح حيث أمسي

* * *

حضرتُ رحلي الهموم فوجّهت الى ابيض المدائن عَنسي^١
 اتسلّيتُ عن الحظوظ وآسى لَهْلَ من آل ساسان دَرس^٢
 ذكّرْتَنِيهم الخطوب التوالي ولقد تُذكر الخطوب وتنسي^٣
 وهمُ خافضون في ظلّ عالٍ مشرفٍ يحسر العيون ويخسي^٤
 حلل لم تكن كاطلال سعدى في قفار من البسابس ملّس^٥

١ وترفعت عن عطية كل لثم .

٢ وارد رفه اي يرد الماء كل يوم متى شاء ، ووارد خمس اي يرد مرة كل خمسة ايام .

٣ انه لحسارة عظيمة ان اترك الشام واستوطن العراق .

٤ في هذا البيت وما بعده يقول : حلت الهموم بساحتي فركبت جملي الى قصر المدائن الابيض

لاتسلّي عن حظي وامسى لما درس من قصور آل ساسان (وهم ملوك الفرس) .

٥ خافضون ناعمو العيش .

٦ اي هذه الآثار العظيمة ليست كاطلال البدو في القفار الخاوية .

نقل الدهر عهدهن عن الجدة حتى غدون أنضاء لبس^١
فكان الجرماز من عدم الانس واخلاه بنية رمس^٢
لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس^٣
وهو ينبيك عن ععبائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس^٤
فاذا ما رأيت صورة انطا كبة ارتعت بين روم وفرس^٥
والمنايا موائل وانوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرقس^٦
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورس^٧
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس^٨
من مشيح هوي بعامل سيف ومليح من السنان بترس^٩
تصف العين أنهم جيد احياء لهم بينهم اشارة خرس^{١٠}
يقتلي فيهم ارتياي حتى تتقرأهم يداي بلس^{١١}
وكان الايوان من عجب الصنعة جوب في جنب ارعن جلس^{١٢}
عكست حظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس^{١٣}
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر رمي^{١٤}
لم يعبه ان بز من بسط الديباج واستل من ستور الدمقس^{١٥}
مشمخر تعلق له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقنس^{١٦}
لابسات من البياض فما تبصر منها الا قلائل برس^{١٧}
ليس يذرى أصنع إنس لجن سكنوه ام صنع جن لانس^{١٨}
عمرت للسور دهرأ فصارت للتعزي رباعهم والتأمي

١ انضاء لبس اي أثياب بالية .

٢ الجرماز أحد القصور في الايوان .

٣ في هذا والابيات الستة التابعة يصف صورة على جدار القصر تمثل معركة دارت في انطاكية بين كسرى والروم ، والوصف دقيق وقد مر تفسيره في كلامنا عن الشاعر .

٤ أي كأنه مقطوع من جبل عال .

٥ لم يتقص من قيمته ان الدهر سلبه بسط الديباج وستور الدمقس .

٦ رضوى وقنس جبلان .

فلها انت أعينها بدموع موقوفات على الصباية حُبسِ
 ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي^١
 غير نعمى لاهلها عند اهلي غرسوا من ذكائها خير غرسِ
 ائدوا ملكنا وشدوا قواه بكهاة تحت السنور حُمسِ^٢
 وأعانوا على كتاب أرباط بطعن على النحور ودعسِ^٣
 واراني من بعد أكلف بالاشراف طرّاً من كل سينخ وإس^٤

وقال يمدح المتوكل ويذكر وفد الروم

قل للسحاب اذا حدثه الشمالُ وسرى بليل ركه المتحمل
 عرج على حلبٍ فحيّ محلة مأنوسة فيها لعلوة منزل
 لغريزة ادنو وتبعد في الهوى واجود بالود المصون وتبخل
 وعليه الالحاظ ناعمة الصبي غري الوشاة بها ولج العذل
 لا تكذبن فانت ألطف في الحشا عهداً واحسن في الضمير واجمل
 احنو اليك وفي فؤادي لوعة واصدّ عنك ووجه وذّي مقبل
 واعزّ ثم اذلّ ذلة عاشق والحب فيه تمزّز وتذلل

* * *

إن الرعيّة لم تزل في سيرة عُمريّة مذ ساسها المتوكل *
 الله آثر بالخلافة جعفرأ وراه ناصرها الذي لا يخذل
 هي افضل الرقب التي جعلت له دون البريّة وهو منها افضل
 ملك اذا عاذ المسيء بعفوه غفر الاساءة قادراً لا يُعْجَل

-
- ١ فهي جذيرة بأن أبكيها وان كنت غريباً لا أمت لاصحابها بنسب عراقي .
 ٢ الا اني افعل ذلك ليد كانت للفرس عند اهلي (اليمنيين) فهم ساعدوا ملكنا (سيف بن ذي
 يزن) بإبطال تحت الدروع شجعان .
 ٣ وأعانوه على جيوش قائد الحبش (ارباط) بطعن في نحور الاعداء .
 ٤ ولذا صرت مولماً بمدح الاشراف وأهل المروءة منها كان اصلهم .
 ٥ عمريّة نسبة الى عمر بن الخطاب اي سيرة عدل وحزم .

وعفا كما صفح السحاب ورعده
شرفٌ خُصِّصَتْ به ومجد باذخ
لا يعدمُك المسلمون فلأنهم
حصنت بيضتهم وحطت حريمهم
ورأيت وفد الروم بعد عنادهم
لحظوك أول لحظة فاستصغروا
أحضرتهم حججاً لو اجتلبت بها
ورأوك وضاح الجبين كما يرى
نظروا اليك فقدسوا ولو أنهم
حضرُوا السباط فكلموا راموا القرى
تهوي أكفهم إلى أفواههم
متحيرون فباهت متعجب
ويودّ قومهم الألى بعثوا بهم
قد نافس الغيب الحضور على الذي
أعجلت رفقدهم فأفضل نائل
فالله أسأل ان تعمّر صالحاً

قصفٌ وبارقه حريقٌ مُشعلٌ
متمكن فوق النجوم مؤثّل
في ظلّ ملكك أدركوا ما أمّلا
وحملت من أعبائهم ما استثقلوا
عرفوا فضائلك التي لا تجهل
من كان يعظم فيهم ويبجل
عصم الجبال لأقبلت تنزل
قر الساء السعد ليلة يكمل
نطقوا الفصيح لكبروا ولهللوا
مالت بأيديهم عقول ذمّل
فتحيد عن قصد السبيل وتعدل
بما رأى أو ناظر متأمل
لو ضمّهم بالأمس ذاك المحفل
شهدوا وقد حسد الرسول المرسل
حيّ الوفود به الهنيء المُعجل
فدوام عمرك خير شيء يسأل

ميلوا الى الدار من ليل نحيبها

يصف فيها بركة بناها المتوكل

ميلوا الى الدار من ليل نحيبها نعم ونسألها عن بعض أهلها
يادمنة جاذبتها الريح بهجتها تبیت قشرها طوراً وتطويها

١ اشارة الى وفد أرسه ملك الروم الى المتوكل وفي الابيات التالية يصف دعشة الوفد لما رأوه من
عظمة الخليفة ومجده وما اعترام من الذهول عندما حضروا المأدبة (السباط) .

لا زلت في حلل للخير ضافية
تروح بالوابل الداني روائحها
ان النحلة لم تُنعم لسائلها
يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
بحسبها انها في فضل رتبها
ما بال دجلة كالغري تنافسها
أما رأت كاليء الاسلام يكلأها
كان جن سليمان الذين ولوا
فلو تمر بها بلقيس عن عرض
تنصب فيها وفود الماء مُعجلة
كانما الفضة البيضاء سائلة
اذا علتها الصبا أبدت لها حُبكا
فحاجب الشمس احيانا يضاحكها
اذا النجوم تراءت في جوانبها
لا يبلغ السمك المحصور غابتها
يُعن فيها بأوساط مجتحة
لهن صحن رحيب في أسافلها
تغنى بساتينها القصوى برؤيتها
كأنها حين لجّت في تدفقها

ينيرها البرق أحيانا ويسدها^١
على ربوعك أو تغدو غوادها
يوم الكتّيب ولم تسمع لداعيا
والآنسات اذا لاحت مغانيها^٢
تعدّ واحدة والبحر ثانيها
في الحسن طورا وأطوارا تباها
من ان تعاب وباني المجد يبنيا^٣
ابداعها فادقتوا في معانيها
قالت هي الصرح ثميلا وتشبيها^٤
كالخيل خارجة من حبل مجريها
من السبائك تجري في مجاريها
مثل الجواشن مصقولا حواشيها^٥
وريتق الغيث أحيانا يباكيها
ليلا حسبت سماء ركبت فيها
لبعد ما بين قاصيها ودانيها
كالطير تنقض في جوّ خوافيها
اذا انحططن وهو في أعاليها
عن السحاب منحل عزاليها
يد الخليفة لما سال وادها

١ اثار الحلل وأسداها نسج لمحتها رسداها والكلام مجازي معناه لا زالت غيرم الخير فوقك يتلأأ فيها البرق .

٢ في زهر الآداب ١ - ٢٣٠ البركة الحسناء وروثها . وفي نهاية الارب ١ - ٣٧٤ والآنسات التي .

٣ كاليء الاسلام اي حاميه ويقصد بذلك الخليفة .

٤ اشارة الى قصة النبي سليمان وبلقيس ملكة سبأ وما شاهده عند من جلال صرحه العظيم .

٥ الجواشن الدروع .

وزادها رتبة من بعد رتبته ان اسمه يوم يدعى من اسامها^١
محفوفة برياض لا تزال ترى ريش الطواويس تحكيه ويحكىها

* * *

اذا مساعي أمير المؤمنين بدت للواصفين فلا وصف يدانها
ان الخلافة لما اهتز منبرها يجعفر أعطيت اقصى أمانها
أبدى التواضع لما نالها دعة عنها ونالته فاختالت به تها
اذا تجلّت له الدنيا بحليتها رأت محاسنها الدنيا مساوها
يا ابن الاباطح من ارض اباطحها في ذروة المجد أعلى من روابيها^٢
ما ضيّع الله في بدو وفي حضر رعية انت بالاحسان راعيا
وأمة كان قبيح الجور يسخطها دهرأ فأصبح حسن العدل يرضيها
بثنت فيها عطاء زاد في عدد الـ مليا ونوّهت باسم المجد تنوّها^٣
ما زلت بجرأ لعافينا فكيف وقد قابلتنا ولك الدنيا بما فيها
اعطاكها الله عن حق رآك له اهلا وأنت بحق الله تعطيها

وقال يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف

أفأق صب من هو فأفأقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقا
إن السلو كما تقول لراحة لو راح قلبي للسلو مطبقا
هذا العقيق وفيه مرأى مونق للعين لو كان العقيق عقيقا^٤
أشقيقة العين هل من نظرة فتبل قلباً للغيل شقيقا
عل البغيلة أن تجود بها النوى والدار تجمع شائقا ومشوقا

١ اسم المتوكل جعفر ومعنى جعفر النهر أي ان البركة والخليفة متشابهان في المعنى .

٢ يا ابن اباطح قريش الذين اذا قيسوا بسوام في الشرف فاقوهم كثيراً (كانت سهولهم أعلى من جبالهم) .

٣ نوه به رفع ذكره .

٤ العقيق اسم واد في بلاد العرب يتغنى به الشعراء .

ماذا عليكِ لو اقتربت لموعد يُنثي الجوى وسقيتنا ترنيقا

* * *

غدت الجزيرةُ في جناب محمد ريثا الجناب مغاربا وشروقا
برقت مخايله لها وتحرقَتْ فيها عزالي جوده تحريقا^١
صفحت له عنها السنونَ وواجهت

أطرافها وجه الزمانِ طلبقا
رفعَ الاميرُ أبو سعيدٍ ذكرها وأقام فيها للمكارم سوقا
يستمطرون بدأ يفيض نواها فيغرقُ المحرومَ والمرزوقا
يقظُ اذا اعترض الخطوبَ برأيه ترك الجليل من الخطوب دقيقا
هَلَّا سألتَ محمداً بمحمد تجدُ الخير الصادقَ المصدوقا^٢
وسلَّ الشراة فاتهم اشقى به من أهل موقانَ الاوائل موقا^٣
جاءوا براعيم ليتخذوا به عمداً الى قطع الطريق طريقا
طرحوا عباءته وألقوا فوقه ثوب الخلافة مشرباً راووقا^٤
عقدوا عمامته برأس قناته ورأوه برأ فاستحال عقوقا
وأقامَ ينفذُ في الجزيرة حكمه ويظنّ وعدَ الكاذبين صدوقا
حتى اذا ما الحية الذكر انكفا من أرزنٍ خنقاً يمجّ حريقا^٥
غضببان يلقي الشمسَ منه بهامة تعشي العيونَ تألقاً وبريقا
أوفى عليه فظلّ من دهش يظن السبرَ بجرأ والفضاء مضيقا
غدرت امانيه به وتمزقتْ عنه غيابة سكره تمزيقا

١ أي برقت سحب وعوده ففاضت سيول جوده.. والمخايل هي السحب المنذرة بالخطر .

٢ سأل به أي سأل عنه .

٣ في هذا البيت وما قبله يقول : هل سألت عن المدوح محمداً (وهو قائد آخر) فينبئك بالخير
الصحيح بل أسأل الخوارج (الشراة) فقد نالهم منه أكثر مما نال أهل موقان قبلا -
والمرق الهلاك .

٤ أي جعل الخوارج زعيمهم خليفة فألبسوه العباءة الجيدة النسيج .

٥ أرزن اسم مكان ويراد بالحية الذكر هنا الدامية الفتاك (وهو المدوح) .

طلعت جياذك من ربي الجودي^١ قد

حُمِّلن من دُفَع المنون وسوقا^٢

يطلبنَ ثأر الله عند عصابةٍ خلَعوا الامام وخالفوا التوفيقا
يرمون خالقهم بأقبحِ فعلهم ويحرقون قرآنهُ المنسوقا^٣
فدعا فريقاً من سيوفك حتفهم وشدتَ في عقدِ الحديدِ فريقا

* * *

يا تغلب ابنةَ تغلب حتى متى تردونَ كفرأ موبقاً ومروقا^٤
أوَ ما علمتَ أن سيفَ محمدٍ أَمسى عذاباً بالطغاةِ محيقا
لا تنتصوه بأن تروموا خطه عسراء تمي الطالبينَ لحوقا
خلعوا الخلافة إن دون لقاءها قدراً بأخذِ الظالمينَ خليقا

وقال يمدح مالك بن طوق

رحلوا فأيّةُ عبرةٍ لم تُكسبِ أسفاً وأيَّ عزيمةٍ لم تُغلبِ
قد بينَ البينَ المفرقَ بيننا عشقَ النوى لربيبِ ذاك الربوبِ
صدقَ الغرابُ لقد رأيتَ شمسهم بالأمسِ تغربَ عن جوانبِ غرب^٥
لو كنتَ شاهدنا وما صنعَ الهوى بقلوبنا لحسدتَ من لم يحب
شغلَ الرقيبُ وأسعدتنا خلوةٌ في هجرٍ هجرٍ واجتنابِ تجنب
فتلجلجتِ عبراتها ثم انبرتِ تصفِ الهوى بلسانِ دمعٍ مُعرب
تشكو الفراقَ الى قتيلِ صبايةٍ شرقِ المدامعِ بالفراقِ معذب
أطيعُ فيك العاذلاتِ وكسوتي ورقُ الشبابِ وشرقي لم تذهب
واذا التفتُ الى سِنِي رأيتها كعجزِ حبلِ الخالغِ المتصعبِ^٥

١ الجودي اسم جبل (وهو الذي استقرت عليه هيفنة نوح) .

٢ القرآن المنسوق القرآن المنظم .

٣ يا بني تغلب حتى متى تردون الكفر المهلك بمساعدتكم للخارجين على الامام .

٤ غرب اسم جبل .

٥ الخالغ المتصعب اي الجبل الضعيف .

عشرون قصرها الصبي وأطالها ولعُ العتابِ بهائم لم يُعتصِر
ما لي وللأيام صرف صرفها حالي وأكثر في البلاد تقلبي
فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الأقصى وطوراً مغرباً للمغرب
وإذا الزمان كساك حلة مُعَدِم فالبس لها حلل النوى وتغرب
ولقد أبيتُ مع الكواكب راكباً أعجازها بمزينة كالكوكب
والليل في لون الغراب كأنه هو في حلوكته وإن لم يَنعَب
والعيس تنصل من دجاء كما انجلي صبغُ الشباب من القذال الاشيب^١
يطالبين مجتمعَ العلى من وائلٍ في ذلكَ الأصلِ الزكيّ الاطيب
وبقيّةَ العربِ الذي شهدت له أبناءُ أدٍ بالفخار ويعربُ^٢
بالرحبة الخضراء ذات المنهل العذب المشاربِ والجَنابِ المُعشِب^٣
عطنُ الوفود ففنجدُ أو مُتهم أو وافدُ من مشرقٍ أو مغرب^٤
ألقوا يجانبها العصي وعوّلوا فيها على ملك اعزّ مهتَب
ملكٌ له في كل يوم كريمة إقدام ليث واعتزام مجرب
وتراه في ظلم الوغى فتخاله قرأ يشدُّ على الرجال بكوكب^٥
يا مالك ابن المالكين الألى ما للمكارم عنهم من مذهب
إني أتيتك طالباً فبسطت من أملي وأطلبُ جودُ كفك مطلي^٦
وغدوتَ خير حياطةٍ مني على نفسي وأرأف بي هنالك من أبي
أعطيتني حتى حسبت جزيل ما أعطيتنيهِ ودبعةً لم توهب

-
- ١ العيس النياق البيض يخاطبها شقرة وظلمة خفية . ومعنى البيت ان العيس تخرج من الليل كما يخرج القذال الاشيب من سواد الشباب .
٢ اد ويعرب من جدرد العرب الاقدمين .
٣ الرحبة مكان المدوح .
٤ اي هو وطن او مقصد الوافدين من شق الامصار .
٥ وتراه وسط غبار الحرب مشرقاً كالقمر وهو ينقض على الرجال بسيف او رمح مثاقيل الكوكب .
٦ اطلبه اي اعطاه ما طلب .

فشبتُ من برّ لديق وثاقل
قومٌ إذا قيل النجاء فإلهم
يمشون تحت ظبي السيوف إلى الرّدى
يتراكمون على الأستة في الوغى
بنسبك جود الغيث جودهم إذا
حتى لو أن الجود خيّر في الورى

ورويت من أهل لديق ومرحب
غير الحفاظ والردى مهرب
مشي المطاش إلى برود المشرب
كالصبح فاض على نجوم الفهب
عثرت أكفهم بعسام مجذب
نسباً لأصبح ينتمي في تغلب

١ يريد بذلك قوم المدوح بني تغلب . النجاة الهرب .

ابن الرومي

أبو الحسن علي بن العباس

٢٢١ هـ - ٢٨٣ هـ

٨٣٧ م - ٨٩٩ م



مصادر دراسته - منشأه و طرف من سيرته - ممدوحه
عقليته وأخلاقه - فنه ومزاياه الشعرية

مصادر دراسته

الفهرست (ألمانيا) ١٦٥

العمدة لابن رشيقي (أمين هندية ١٩٢٥) ج ١ - ٤٠ و ٤٢ و ١٩٤

ج ٢ - ١٣٦ و ١٤٠ و ١٨٤ - ١٨٥ و ١٩٠

زهر الآداب للحصري ج ١ - ٢٣٢ ذكر عمامته

٢٤٨ عتابه لأبي الصقر

١٧١

ج ٢ - ١٧٧ تطيره وخوفه من ركوب البحر
١٧٨

ج ٢ - ٩ نهمة

ج ٣ - ٩٩ و ١٠٢ داره وحنينه للوطن

ج ٣ - ١٠٥ موالیه

ج ٤ - ٤١ تسليه عن الهموم

وفيات الأعيان (يولاق) ١ - ٤٩٩

شرح شواهد التلخيص للعباسي ص ٣٨ - ٤٢

وقد ذكر المعري في رسالة الغفران شيئاً عن تشيعه وذكر الجرجاني في الوساطة ص ٥٠ وصفحات أخرى . وفي كتاب التصحيف والتحريف للمسكوي ج ١ - ٢٩ شيء عن سبب موته .

ومن المراجع الحديثة غير دوائر المعارف وغير كتب التاريخ الأدبي العامة .

مختارات ابن الرومي (للكيلاني)

مختارات ابن الرومي (للبارودي)

ديوان ابن الرومي ج ١ طبع محمد شريف سليم

حصاد الهشم للمازني ٢٩٩ - ٤٢٧

ابن الرومي للعقاد وهو من احدث وأوفى ما كتب عنه .

منشأه وطرف من سيرته

نشأ ابن الرومي في بغداد ، وليس في شعره ما يدل على انه تركها طويلاً أو جاب الأقطار كما فعل أبو تمام والمتني وسواهما من الشعراء . ويستدل من بعض أخباره انه سافر مرة الى سامرا وطال مقامه فيها^١ ، فكان يتشوق الى أيام بغداد كقوله :

بلد صحبت به الشيبية والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثّل في الضمير رأيت عليه أغصان الشباب تميد

والأرجح انه قصدما - وكانت يومئذ دار الخلافة - طلباً للرزق ولكنه لم يوفق في طلبه فملّها ، وحمل على الغربة وطلب المال فقال :

وفيم اجتهادي في محاولة الغنى وما للغنى عند الجواب به قدر
وما أنا الا محرزُ المجد والعلى وذلك كنزي لا اللّجين ولا التبر
وان يقض لي الله الرجوع فانه عليّ له ان لا افارقكم نذر
ولا ابتغي عنكم شخوصاً ورحلة يد الدهر ، الا ان يفرّقنا الدهر

فلم يكن لشاعرنا تلك الطبيعة المغامرة المجازفة في سبيل الحصول على الأمانى . وقد ترك لنا في ذلك قصيدة عصماء وصف فيها أهوال السفر براً وبحراً ، وسنتناولها في غير هذا المقام .

وهو كما يتضح من لقبه ونسبه رومي الاصل واسم جده جريج الرومي (أوجورجيوس)^٢ . ولا نعلم عن أسرته شيئاً يذكر ، إلا أن في بعض

١ زهر الآداب ج ٣ - ١٠٠ .

٢ معجم الأدباء ج ٦ - ١٧٤ تحت سيرة محمد بن حبيب .

شعره تليحاً الى ان أمه فارسية الأصل كقوله :

كيف اغضي على الدينّة والفرس خؤولي والروم هم أعمامي

وكان جده ، كما ذكر ابن خلكان ، مولى عبد الله بن عيسى بن جعفر المنصور . فنشأ والده ، كما يستدل من اسمه ، مسلماً وولد صاحب الترجمة كذلك ، وتثقف في بيئة اسلامية خالصة . ولم يتصل بنا أن والده كان يتكلم الرومية او يعرفها ، او انه هو عرفها ، على اننا لا نشك في انه كان يعرف نسبه الى اليونان ويفخر به احياناً ، كقوله من قصيدة في أبي سهل النوبختي :

ونحن ينو اليونان قوم لنا حجبىً ومجد وعيدان صلاب المعاجم
وما تراءى في المرايا وجوهنا بلى في صفاح المرفهات الصوارم

وقوله من قصيدة يذكر فيها بني العباس :

انا منهم بقضاء من خُتمت رسل الإله به وهم اهلي
مولاهم وغذي نعمتهم والروم - حين تنصني - أصلي

وقوله في رجل طعن بشعره والظاهر انه وصمه بروميته :

قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته عريب
يا منكر المجد فيهم أليس منهم صهيب

ويظهر أن شاعرنا لم يكن موفقاً في حياته العائلية فقد مات والده على الأرجح وهو صغير ، ولم يبق له غير أخ أكبر كان يعمل عليه في الشدائد . على ان هذا توفي والشاعر لم يتجاوز الثلاثين كثيراً . وقد فقد أبناءه الثلاثة وزوجته فجزع عليهم جداً ، وكان لفقدهم تأثير عميق في نفسه . وليس من الغريب ان يكون قد تزوج ثانية وهو شيخ كما يرجّح الاستاذ العقاد^١ ، على أننا لا نعلم شيئاً عن أمر هذا الزواج .

١ راجع ابن الرومي للعقاد ص ٩٠ .

حاله مع ممدوحيه

ولد ابن الرومي على رواية ابن خلكان سنة ٢٢١ هـ ، فلم يدرك المعتصم والواثق إلا صبياً صغيراً . ثم أدرك سن البلوغ في زمن المتوكل ، وعاش الى خلافة المعتضد . ومع كل ذلك لا نرى في شعره ما يدل على تقربه من الخلفاء والحظوة عند الامراء . فاذا قابلناه بزميله البحتري (الذي ولد قبله بنحو خمس عشرة سنة) رأينا أن هذا مدح خلفاء زمانه ، ولا سيما المتوكل والمعتز ، بعشرات من القصائد وقال جوائزهم ، ومدح نحو مائة من كبار الوزراء والقادة ، وحصل من ذلك مالاً وجاهاً . أما ابن الرومي فليس له شيء يذكر في الخلفاء . ولعل السبب انه لم يدرك منهم غير المستضعفين كالمستعين والمعتز والمهتدي والمعتد ، وكلهم قتل أو خلع أو حكم وليس له من الأمر شيء . على اننا لا نجزم في ذلك فحاله في ذلك حال البحتري ، وان يكن البحتري قد أدرك المتوكل والخلافة لم تزل في رونقها .

وقد عاش ابن الرومي اربع سنوات في خلافة المعتضد وله فيه بعض المديح . أما رجال الدولة الذين اتصل بهم فجلتهم من الاعاجم . وقد مرّ بنا ما كان لهم من النفوذ في الخلافة العباسية ، واليك أهمّ ممدوحيه :

اسماعيل بن بلبل

كان من وزراء المعتد وجمع له السيف والقلم وهو يرفع نسبه الى بني شيان ويفاخر بذلك . على ان بعضاً غمزوه وقالوا هو دعي^١ . وكان مادحوه كالبحتري وابن الرومي يذكرون نسبه الشيباني بالتمجيد والتعظيم ، على ان ابن الرومي انقلب عليه وصار يلقبه بالدعي^٢ كقوله :

عجبت من معشر بعقوتنا باتوا نبيطا وأصبحوا عربا

١ الفخري ١٨٧ (في باب خلافة المعتد) .

مثل أبي الصقر إنّ فيه وفي دعواه شيان آية عجباً

آل طاهر

وقد مرّ معنا ذكرهم في الكلام عن أبي تمام والبحري ، وهم من
الفرس . كانوا من رجال الدولة وقد تقلبوا منذ أيام المأمون في أعلى
مراتبها . وأخص ممدوحى ابن الرومي منهم عبيد الله بن عبد الله أمير
بغداد .

آل وهب

وزعيمهم في أيام الشاعر القاسم بن عبيد الله : كان على ما نقله
صاحب الفخري من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء ، وكان شهماً كريماً
مهيئاً جباراً . وقد لزمه ابن الرومي ومدح آله وعلى يده قتل .

آل المنجم

وهم من الفرس وقد مدح شاعرنا منهم عليّ بن يحيى . وكان أبوه
مولى المأمون ، واتصل بالفضل بن سهل ، واتصل علي بن يحيى بمحمد
ابن اسحق المصعبي ثم بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة حكمة^١ . وآل
المنجم من علماء الفلك الذين كان يشار إليهم بالبنان .

* * *

ومن ممدوحيه أحمد بن ثوابية وآل المدبّر والقاضي يوسف وآل غلدة
وآل نوبخت وأبو القاسم التّوزي وآل شيخ والباقطاني ، ومعظمهم من
أصحاب النفوذ والوجاهة . على أن ابن الرومي لم يحظ بشعره فلم يكن
متيسّر الحال . وفي شعره ما يدل على ذلك ، فهو كثير التبرّم من
الزمان وسوء الحال وقلة ثواب الممدوحين كقوله :

١ الفهرست ١٤٣ .

تأمل العيب عيبُ وليس في الحق ريبُ
ان يمسك الناس عني سيباً قلتَ سيبُ

وقوله :

ذقت الطعوم فما التذذت براحة من صحبة الأخيار والأشرار
أما الصديق فلا أحب لقاءه حذر القلي وكراهة الإعوّار
وأرى العدو قذياً فأكره قربه فهجرت هذا الخلق عن اعدار

ولكن ابن الرومي لم يهجر الدنيا وملذاتها ولم يبتعد عن الناس وعطاياهم بل بعكس ذلك كان يتهافت على ما في الحياة مما يشبع شهوات نفسه ، ويسرف في ذلك كل الإسراف . وكان يرمي بنفسه على أبواب الكبرياء والوجاه طالباً رفدهم ، ممتبياً نفسه بالخطوة عندهم . ومع كل ذلك تراه في شعره معروماً ناقماً ، او ساخراً عابثاً ، ليس له من منزلة توجب احترامه ، او صداقة تشفي أوامه . ولماذا ؟ لان في طبعه كما يستدل من شعره ما كان ينفّره من الناس وينفر الناس منه . هذا الطبع هو الذي جنى عليه وألزمه حالة الحاجة والحوّل . وقد أصاب في وصف نفسه ، إذ قال :

أسخطت اخواني وأخفق مطمعي فبقيت بين الدّور والأبواب

وبينا ترى زملاءه من كبار الشعراء قد فاض كسبهم ، تراه وهو في الخمسين من عمره يشكو الزمان بقصيدة رفعها الى اسمعيل بن بلبل وفيها يقول :

ويح القواني ما لها سفسفت حظي كاني كنت سفسفتها
أنعتُ على حظي بمبراتِها شكراً لأنّي كنت أرهفتها
أو كثفت دون الغنى سداً حتى كاني كنت كثفتها
حرمتُ في سنّي وفي مبيعتي قراي من دنيا قضيتُها
فكثرت في خمسين عاماً خلت كانت أمامي ثم خلقتُها

لا عذر لي في أسفي بعدما على العطايا - عفتها عفتها
والقصيدة طويلة وأكثرها على هذا النمط . ومثلها قصيدة يعاتب فيها
صديقاً ومنها تبين شيئاً من حاله ونظر اخوانه اليه - قال :

أها الحاسدي على صحتي العسر وذمي الزمان والاخوانا
ليت شعري ماذا حسدت عليه أها الظالمي اخائي عيانا
أعطى انني ظمئت وأضحى كل من كان صديقاً ريتا
أم على انني أمشيت حسيراً وأرى الناس كلهم ركباناً
أم على انني ثكلت شقيقي وعدمت الثراء والأوطانا

والبيت الأخير يشير الى فقدته لأخيه الأكبر الذي كان يعطف عليه ،
وإلى دار وعقار تركها والده فأضاعها . وما يدلك على سوء حاله
بالنسبة الى زملائه قوله لمن عاب قريضة :

أبعد ما اقتطمعوا الأموال واتخذوا حدائقاً وكروماً ذات تعريش
يحاسدونني وبيتي بيت مسكنة قد عشت الفقر فيه أي تمشيش
وكيفما قلبت ديوانه تجد هذه النفقات الناضجة بروح التبرم والغيظ
والآلم . وإذا رجعت الى حكمه التي هي عنوان عقله المفكر رأيت أساسها
تأثير بيئته . فقد ترك شاعرنا كثيراً من الابيات الحكمية ومعظمها
يدور على ما يلي :

قباحة البخل وجمال الثواب راجع مختارات ابن الرومي (الكيلاني) ١٠٦	
عدم منفعة الاخوان	د د د د
نكد الزمان	د د د د
غرور الشباب	د د د د ٢٦
وجوب الحزم	د د د د ٧١

١ وفي بعض قصائده إشارة الى دار له غصبت منه ، وفيها ما يشير الى سوء حاله في أواخر
أيامه كالتي مطلعها : لا زلت تبلغ أقصى السؤل والامل .

٢٠٢	راجع مختارات ابن الرومي للكيلاني	نفع الشدائد
١٠٩،٩٤	د د د د	الحظ
٩٦	د د د د	الملل من الناس
١٠٣	د د د د	عدم المبالاة
٣٩٧	د د د د	فساد الذوق
٤٠٥	د د د د	الوشاة
٤٤١،٣٧٧	د د د د	عدم التغرب
٣١٦	د د د د	الصبر

إلى غير ذلك من الاغراض التي تشير إلى ما كان يشعر به من وطأة الزمان ، وما كان يختلج في نفسه المنفعة من تأثير الحرمان .

عقليته وأثرها في شعره

لابن الرومي مع فرط أدبه وتوقد قريحته عقلية غريبة . فهو في حال سكينته واطمئنانه لييب مفكر يأتيك بالحكم والاقوال الساحرة ، ولكنه عصبي المزاج شديد الانفعال : فإذا هاجه هائج أضاع لبتّه واندفع على وجهه لا يبالي ، حتى في معاتباته لكبار الرجال تجده مرًا أليم اللسان . ويتجلّى لك مزاجه العصبي في قوله يعاتب اسمعيل بن نوبخت (وهو أحد ممدوحيه) يوازى أولاً بين نفسه وسواه من الشعراء فيصفهم بالجيف التلثة والغشاء الطافي على وجه اليم ، وأنه أحقّ منهم ببلوغ الأماني . ثم يخاطب اسمعيل فيقول :

واجبي ان أرى جوابيَ عُنْبَاكَ فلا تجعل السكوت جوابي
إن في ان تمعّني بعض إغضابي وفي ان تهينني إغضابي
كنت تأتي الجميلَ ثم تنكّرت فعاتبتُ مُجْمَلًا في العتابِ
فأثنتُ قوّة وراجح فعلاً ترتضيه الاسلاف للعقابِ

ومثل ذلك قصيدة يعاتب بها اسمعيل بن بلبل وقد شعر بشيء من

الجفاء منه . قال فيها :

فما لعطاياك اضحت حمى	عليّ واضحت لغيري نهبا
قبلت مديحي وأنشدته	أناساً وأمسكت عني الثوبا
فله انت وما جثته	إليّ لقد جئت شيئاً عجابا
اتهمتك سري عن خلتي	وتغلق دون عطايك بابا
حلفت لأن انت لم ترضي	لتنصرفن القوافي غضابا

وأقلّ ما يقال في هذا العتاب انه تهديد ، وان صاحبه من إذا غضبوا لا ينظرون إلى العواقب . ويموز لنا ان نقول انّ ما عرف به ابن الرومي من الهجاء هو أثر من تلك الطبيعة الشديدة الانفعال التي يخرج بها الانسان أحيانا عن طور الرشاد . ومن هنا هذه الجرأة في مهاجمة الأعيان والحكام وهذا الاقذاع في الطعن بالمناوئين ، مما كان - على ما يعتقد ابن رشيق - سبباً في هلاكه ^١ .

وقد غالى بعضهم في هجاء ابن الرومي وجعلوه فتناً من فنون الشعر ، وهو كذلك لو اقتصر فيه الشاعر على تصوير المساوىء الشخصية او الاجتماعية وعرضها بقالب يثير في النفس كراهية تلك المساوىء . ولكن شعراً العربي الهجائي في كل أطواره لم يصل إلى تلك الدرجة الراقية إلا نادراً . فالهجاء الفني يقتضي أمرين : الفكاكة أو الدعابة ، وحسن التصوير . الاول يرفعه عن الخشونة والاقذاع ، والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة . وانك لترى في بعض الهجاء العربي شيئاً من ذلك ، ولكن أكثره من قبيل الطعن الشخصي الذي يراد به الخط من كرامة الشخص أو كرامة أهله ، لا لقصد اصلاحيّ بل تشفيّاً أو تفاخراً . هكذا كانت نقائض جرير والاختل والفرزدق ، وعلى هذا النمط جرى أكثر الهجائيين عند العرب . ولم يشذ ابن الرومي عن هذه القاعدة - قال ابن رشيق : « وقد

غلب عليه الهجاء حتى شهر به وحتى صار يقال أهجى من ابن الرومي ، وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا أكثر ولكن قليل الشر كثير^١ . ولا ينكر ان في هجاء صاحبنا شيئاً من الدعابة وحسن التصوير ، ولكن معظمه فاحش لا يرتفع إلى ما نسميه فنّاً أدبياً .

ومن دلائل ضعفه العصي اعتقاده بالطيرة : كان يتشاءم من بعض الالفاظ أو الحوادث ، وكان لهذا الطبع أثر شديد في تصرفه مما جعله سخرية في أعين العقلاء . ولا نستطيع ان نملل هذه الظاهرة العقلية التي تضعف ارادة الانسان وتحملها على ربط الحوادث بغير أسبابها إلا بقولنا ان صاحبها شاذ في عقلية وان في جهازه العصي ضعفاً خاصاً . وقد تناول أبو العلاء المعري تطير ابن الرومي في رسالة الغفران وانتقده ، ولم يتعد دائرة الصواب إذ قال عنه « ان أدبه أكثر من عقله » .

وقال ابن رشيق : « كان ابن الرومي كثير الطيرة ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه أو يسمعه ، حتى ان بعض اخوانه من الامراء افتقده فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعث اليه خادماً اسمه اقبال ليتفاهل به . فلما أخذ أهبطه للركوب قال للخادم : انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك لابقا . وابن الرومي هو القائل : الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحداث ، وله فيه احتجاجات وشعر كثير^٢ . ومن ذلك قصيدة قالها وهو في السابعة والخسين وقد رأى عجوزاً في إحدى عينيها نكتة وجارية حواء ، فتطير من ذلك . واتفق بعد مدة يسيرة ان جفاء القاسم بن عبيد الله ، وسقطت ابنة لبعض أصدقائه من بعض السطوح فمات ، فكتب إلى صديقه قصيدة يقول فيها :

لا تهاون بطيرة أهـا النـ ظنار واعلم بأنها عنوان
قف إذا طيرة نلقـتـك وانظر واستمع ثم ما يقول الزمان

١ العمدة ج ١ - ١٩٤ .

٢ العمدة ١ - ٤٠ ج ٢ - ١٣٦ .

فتشك المهرجان بالحوول والمُور أرا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقد ابتك الحرة مصبوغة بها الاكفان
ونجاني مؤمِّل لي خليل لج منه الجفاء والهجران
عقلية كهذه لا تستطيع ربط الاسباب بمسبباتها ، بل تقبل إلى الوم
والذعر ، لا يلتظر ان يكون صاحبها ذا اقدام وعزيمة صادقة . وبرغم ما
نقرأه في شعر ابن الرومي من ذكر المجد والعلی فإنه لم يتمد في ذلك حد
الكلام . كان ذا موهبة شعرية حادة مقرونة بضعف عصبي حاد ، وقد
تولد من امتزاجها ذلك الخوف الصباني وتلك الغيرة الشاذة التي كانت
تومه انه فوق العالمين ، وانه جدير بكل اكرام وتعظيم ، وان من لا
يكرمه فقد نقص قدره وحق عليه ان يهجوه ويحط من كرامته أياً كان
ومها كانت منزلته . واننا لنوافق الاستاذ العقاد في ان شاعرنا كان « حسن النية
رقيق القلب لم يخلق شريراً مطوباً على الشكس والعداوة » ، ولكن الرجل
كان على ما يظهر يجمع في نفسه نقائص من الاخلاق فهو مسالم شديد
العداء ، رقيق القلب أليم البغض ، وفيّ ساخر ، شجاع جبان ، إلى
آخر هذه الصفات القريبة التي يقف المنتقد الاخلاقي لديها حائراً ، والتي
لا يمكن لنا إلا ان نمزوها إلى اختلال في جهازه العصبي جعله غريب
الاطوار شاذ الاخلاق ، ميالاً إلى الاسراف في كل شيء .

ومن ظواهر اسرافه نهمة في المآكل والمشارب ، حتى ان الحصري
يمزو موته إلى شدة نهمة^٢ . ولا شك ان ما تجده في شعره من كثرة
وصفه لاصناف الطعام والشراب راجع الى هذا الميل فيه . واليك وصفه
للذات اللذات عنده :

١ ابن الرومي للعقاد ٢٢٣ .

٢ زهر الآداب ٢ - ٩ . وفي كتاب التصنيف والتعريف (لأبي أحمد العسكري) ج - ٢٩
(مطبعة الظاهر ، مصر ، ٣٢٦) يمزى سبب موته إلى قصيدة هجائية قالها في جلساء القامم
ابن عبيد الله وكان فيهم رجل يقال له ابو فراس يكرمه فسه في خشكناجه ، فاضت نفسه
فيها .

يا سائلي عن مجمع اللذات ساءلت عنه أنعت النعّات
خذ يا مريد المأكل اللذيذ جرداقتي خبز من السميد
لم ترَ عين ناظر مثليها فقشّر الحرفين عن وجهيها

ثم يصف ما يضاف الى ذلك من لحم فروج ولوز وجبن وبيض
ونعنع وملح وكيفية تحضيرها وطبخها ويختم القصيدة بقوله :

ومتّع العين به مليّاً وأطبق الخبز به هنيئاً
املاً ثنائيك واکدم كدماً تسرع فيها بنيت هدماً
لهفي عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها رجيم

وكثيراً ما كان يدفعه نهمه الى ذم رمضان والصيام لما فيها من كبح
الشهوات والملاذات كقوله :

إذا برّكت في صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك في شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الليل فيه كان شهراً ومرّ نهاره مر السحاب
فلا أهلاً بمنع كل خير وأهلاً بالطعام وبالشراب

وقوله من قصيدة :

شهر يصدّ المرء عن مشروبه مما يحلّ له وعن مأكوله
لا أستثيب على قبول صيامه حسي تصرّمه ثواب قبوله

وله في الخمر شيء كثير ، وكان من مدمنيها المتسلّين بها عن العموم
حتى في أيام مشيبه كقوله :

سأعرض عن أعرض الدهر دونه وأشربها صرفاً وانّ لام لوم
فلأنّي رأيت الكأس أكرم خلّة وقت لي ورأسي بالمشيب معتم
ومن صارم اللذات ان حان بعضها ليرغم دهرأ ساءه فهو أرغم

وقال من قصيدة بعث بها الى زميله ابن المسيّب :

أدرك ثقافتك - انهم وقعوا في نرجس مع ابنة العنّاب
فهمُ بحال لو بصرت بها سبّحت من عجب ومن عجب
ريحانهم ذهب على درر وشرابهم درر على ذهب

ثم يصف مجلسهم في الروضة الغناء ويطلب اليهم القدوم ليم انهم
به . ومن خرياته قوله يصف الحمر ويصف حسناء تشرب :

ومدامة كحُشاشة النفس لطفّت عن الادراك باللسر
لنسيمها في قلب شاربها روح الرجاء وراحة اليأس
وتمدّ في أمل ابن نشوتها حتى يؤمل مرجع الامس
ومهمف كملت بحاسنه حتى تجاوز منية النفس
أبصرته والكأس بين قم منه وبين أنامل خمس
فكانها وكان شاربها قر يقبل عارض الشمس

واليك هذه المداعبة الساخرة التي تذكرنا بشعر أبي نواس :

أحلّ العراقيّ التبيذ وشربه وقال الحرامان المدامة والسكر
وقال الحجازيّ الشرابان واحد فعلت لنا بين اختلافها الحمر
ساخذ من قولها طرفيها واشربها لا فارق الوازر الوزر

وفي ديوانه كما ذكرنا آنفاً شعر كثير في الحمر وأنواع المأكّل .
فإذا قرنت ذلك الى ولعه بالشباب ، وشغفه بكل ما يقدمه من أطايب
الحياة - كما سترى في قصائده التي يصف بها الشيب باكياً أيام الشباب ،
نادباً أوقات اللهو واللذات - تعرف ما كان في نفس شاعرنا من نهم
باللذائذ الطبيعية ، وكيف كان مفتوناً بما تقدّمه لحواسه من نشوة جسدية .

ومن الانصاف ان نقول ان شاعرنا لم يكن فريداً بين شعراء العرب
في ذلك فثله كان أبو نواس واضرابه ، ومثله كثيرون من محبي الحياة
الدنيا في كل عصر . على ان له على ما يظهر منزلة خاصة : فهو شغوف

بالحياة لأجل الحياة - يجب أن يعيش وان يعيش قويًا ل يتمتع بحماها وأطايها ، وقد وهبت الطبيعة حسًا دقيقًا فكان يرى فيها أدق الألوان وأخفى الاصوات والحركات . ولعل شعوره بالحرمان وبسوء الحال كان يزيد فيه هذا الشغف وهذه الشهوة الحيوانية القوية : نقول الشهوة الحيوانية لأننا لا نرى في شعره ما يدل على غير ذلك - لا نرى فيه ذلك الميل الى إلباس الطبيعة حلة روحانية ترتفع به عن التمتع باللذة . فالمرأة والحمة والطعام والربيع والشباب والرياض كلها في نظره أدوات للسرور ووسائل للتمتع ، وبقدر ما يستطيع الانسان ان يستخدمها يكون حظه في الحياة .

شعره وشاعريته

الغريب ان ابن الرومي مع علو كعبه في الشعر لم يذكره صاحب الاغانى ولا ياقوت ولا الانباري ، وقد خصه ابن النديم في الفهرست بكلمة وجيزة ذكر فيها ان شعره كان على غير الحروف رواه عنه المسيي ثم عمله الصولي على الحروف ، وجمعه ابو الطيب وراق بن عبدوس من جميع النسخ^١ . وتابعه ابن خلكان في ذلك ولكنه جعل راويته المتنبي لا المسيبي^٢ وهو على ما يترأى لنا خطأ نسخي فان المتنبي ولد بعد موت ابن الرومي بعشرين سنة فلا يصح ان يقال انه رواه عنه ، ولم يقتبه الى هذا الخطأ أكثر المؤرخين والمتأدبين الحديثين فنقلوا كلام ابن خلكان على علاته .

ويميل نقاد العصر الى القول بالوحدة في قصائد ابن الرومي كقولهم : « فقصيدته قطعة مؤلفة تأليفاً منطقياً فنياً لا عوج فيها ولا ضعف ولا ميل الى الاستطراد^٣ » ، أو كقولهم : « فخالف ابن الرومي هذه السنة

١ الفهرست ١٦٥ .

٢ كما في الطبعة الميرية .

٣ الجمل ١٣٨ .

(أي سنة الذين جعلوا البيت وحدة النظم) وجعل القصيدة كلا واحداً لا يتم بغير تمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ، ولا تنتهي حق ينتهي مؤداها ، .

والذين يقولون بالوحدة يجعلون أساسها طبيعة شاعرنا اليونانية ، واختلافها في الاسترسال والتوحيد عن الطبيعة العربية . والمدقق في درس شعره يجد هذا الحكم العام صحيحاً في بعض قطع خاصة ، أو بعض أجزاء من القصائد لا في القصائد عموماً ، كوصفه للمشيب أو للحزن أو لمشقة السفر أو للمهارة في لعب الشطرنج وما شاكل . وليس من الضروري ان يكون ذلك راجعاً الى « يونانية » تميزه عن سائر الشعراء ، ففي الشعر العربي قديماً وحديثاً أمثلة كثيرة على اتصال الفكر في قطع تطول أو تقصر بالنسبة الى الاحوال . خذ قصيدة عمر بن أبي ربيعة « أمن آل نعم » ، أو مراثاة أبي ذؤيب « أمن المنون » ، أو وصف الإيوان للبحثري ، أو وليمة ابن الواساني : بل خذ كثيراً من خريات أبي نواس وما أشبهها من الكلام المتصل الفكر الذي تجده في كل الاعصر الأدبية ، ولا سيما في عصرنا الحاضر ، تجد أن ابن الرومي لم ينفرد في ذلك ، وليس في شعره ما يدفعنا إلى القول بطبيعة تخالف طبائع معاصريه . واليك مثلاً قصيدته في علي بن يحيى المنجم ومطلعها :

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب

وهي ١١٧ بيتاً . منها ثلاثون في وصف المشيب والحضاب ونظر الفواني إليها ، وبقية القصيدة في المدح يمدح فضائله من كرم ودهاء وسمو وشجاعة وما شاكل من المناقب الرفيعة . وإذا درستها لا تراها تختلف عن مدائح عصره من حيث الاسلوب والتفنن في ضروب الوصف والمدح ، بل

تستطيع ان تقتطع منها ما شئت من الأبيات وتبقى القصيدة تامة المعنى .
وما يصدق على هذه القصيدة يصدق على قصيدته في عبيد الله بن عبد الله
ابن طاهر :

صبا من شاب مفرقه تصابي وان طلب الصبا والقلب صاب

وهي ١٧٥ بيتاً خصص منها نحو ٧٠ بيتاً للشيب وتذكرات الشباب ،
وساق الباقي في مدح المدوح على الطريقة المتبعة عند الشعراء . وكذلك
القصيدة التي ينشئ فيها بعيد المهرجان وهي تقرب من ١٣٠ بيتاً وتختلف
بين وصف يوم العيد وتعداد فضائل المدوح وآله ، وغير ذلك من سائر
مطولاته كمرثاته . لأبي الحسين يحيى بن عمر العلوي وهي ١٠٩ أبيات
ومطلعا :

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

وقصيدته في أحمد بن ثوبة - دع اللوم ان اللوم عون النوائب -
وهي ١٨٢ بيتاً ، ورتاؤه لأهل البصرة - زاد عن مقلتي لذيد المنام -
وهو ٨٣ بيتاً ، وعتابه لأبي القاسم التوزي - يا أخي أين ربيع ذاك
اللقاء - في ١٦٨ بيتاً ، وقصيدته في القاسم بن عبيد الله - أها القاسم
القسيم رواء - وتبلغ ٢١٦ بيتاً ، وغير ذلك من عيون قصائده . في
كل هذه القصائد تجد بعض القطع التي تستقل بوحدة فكرية ولكنك لا
تجد القصائد عموماً تختلف عن أمثالها في دواوين الشعراء ، لا من حيث
استقلال الأبيات ، ولا من حيث اتساق الأفكار . ولا نرى علمياً ما
يؤيد القول بتأثير النزعة اليونانية في أدبه . وقد حاول الاستاذ المقادان
يجمع بين النظريين فجعل العبقرية اليونانية فيه أدبية لا نسبية ، أو كما
قال : « انها كلمة مفهومة في لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة في لغة
الانساب » .

مزاياء الفنية

وإنما يمتاز شعره بما يلي :

- ١ - طول النفس مع المحافظة على السلامة عموماً .
- ٢ - استيفاء المعنى وتقضي كل ما يقال فيه .
- ٣ - دقة الاحساس بالمؤثرات الطبيعية .
- ٤ - ميله إلى تشخيص ما لا يعقل .

أما طول النفس فقد أشرنا اليه سابقاً ، ونريد به مقدرة الشاعر على الاسهاب في اللسج دون تعب أو تكلف ظاهر . فإنك لا ترى لشاعر عربي ما تراه لابن الرومي من كثرة المطولات التي تتجاوز المئة والمئة والخسين بيتاً ، وأكثرها حسن السبك كثير الالوان المعنوية . وبدعي ان نجد في مطولات كهذه بعض الحشو والتكرار وشيئاً من السفسفة ، ولكنها عموماً تدل على غزارة مادته اللغوية وعلى مهارته في استخدام الألفاظ لمعانيه . فهو فيّاض كثير الاطناب والمراجعة بعيد المدى في ميدان النظم ، ولكنه لا يصل الى آخر مداه منهوكاً مقطوع النفس ، ولا نشعر في شعره بتكلف مضنٍ أو جهاد عنيف .

على ان الاطالة لا تؤمن أحياناً ، فقد تضطر صاحبها الى استعمال غرائب الصيغ والالفاظ محافظة على وزن أو معنى ، ولا سيما إذا كان واسع الاطلاع في اللغة كشاعرنا ابن الرومي . واثباتاً لذلك نذكر هنا بعض ما اخترنا من غرائب ديوانه مع الاشارة الى مواطن كل لفظة ليسهل الرجوع اليها ، وليس الذي نثبته هنا الا قليلاً من كثير مما يرد في ديوانه :

- | | |
|--|---------|
| موزجرّمي ديوان ابن الرومي لشريف حسن ج ١ - ١١ | |
| حظي دون اللقاء (الحسيس) | د - ٢٧ |
| مريقو نداه (طالبوه) | د - ١١٠ |

لازب الجرب (لازم الميب)	لشريف حسن ج ١ - ٢٠٢
خمر ثلب (قديمة)	د د - ٢٣٧
كروب وذباذب (اضطرابات)	د د - ٢٩٤
مقفعل الرواجب (متشنج الاصابع)	د د - ٢٧٥
نعمه ترتب (مقيمة)	د د - ٣١٧
مرث (حليم)	د د - ٣٢١
عسل اللصاب (عسل الجبال)	د د - ٣٧٨
الققد (صفع القفا)	د د - ٤١٠
السخاب (القلادة)	د د - ٤٤٥
شتيم الوجه (كرهه)	د غتارات الكيلاني - ٥٨
يومان ارونان (عصيان)	د د - ٨٥
لدهر منجنون (دولاب)	د د - ١٢٠
اكفّ ضواث (نواشب)	د د - ١٧١
الزوش (العبد)	د د - ٢٠٤
ألبك الالب (جمعك المحتشد)	د د - ٢٥١
ابريق ردوم (سائل)	د د - ٣٩١
كدنتي تتخذ (سمي يهزل)	د د - ٣٩٢
هل من عندد (اي بد)	د د - ٣٩٣

ويكثر في مطولاته الروابط الكلامية يأتي بها ليربط ما تقدم بما تأخر، ولا يستحسن ذلك في الشعر. ومن هذه الروابط ما يلي :

مع انه - لم لا - لا سيما - بل - كما - غير ان - وظني انه -
لذاك هذا - على انني - مع - واعلم - هكذا - برهان ذلك - وذلك
ان - الخ ^١.

١ راجع شرح محمد شريف ج ١ - ١٥١ - ١٦٥ - ١٧٤ - ١٨٥ - ١٩٩ - ٢٥١ -
٢٧٥ - ٣٢٨ - ٣٣٦ - ٣٨٦ - ٤١٩ - ٤٦٢ وختارات الكيلاني ٨٤ - ٤٧١ -
٤٨٥ .

ومع تمكن ابن الرومي من شوارد اللغة لا يأنف أحياناً من استعمال بعض الالفاظ الاعجمية . وهي ان جاز استعمالها في المباحث العلمية لا تستحسن في الشعر وما اليه من الكلام الفني كاستعماله الالفاظ التالية :
آين - في قوله « اعجمي آينه عربي » أي عاداته ودأبه .
شير - في قوله « اعني سليمان الذي في رسمه قمر وشير » وهي الأسد في الفارسية .

زرياب^١ - في قوله « وتهاويل من سندس ومن زرياب » أي ماء الذهب .

الدوشاب^٢ - في قوله « علني احمد من الدوشاب » أي النبيذ الاسود .
الكوش - في قوله « يا أصلم الكوش هالك ضامنة » جدع انوف وصلم أكوش ، والكوش هي الاذن في الفارسية .
وأمثال ذلك من الالفاظ التي كان يتملح بها على عادة بعض الشعراء في ذلك الزمان^٣ .

استيفاء المعنى وتقصى الأغراض

قال ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يفوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية » .
وقد سبقه ابن رشيق فقال : « وكان ابن الرومي ضئيلاً بالمعاني حريصاً عليها يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ويصرفه في كل وجه وإلى كل ناحية ، حتى يميت ويعلم انه لا مطمع منه لأحد » ، وهما مصيبان .

١ و ٢ ويمر استعمال هذين اللفظين إذا أصبحا علماً - كالكنياك مثلاً .

٣ البيان والتبيين - ٦١ .

٤ وفيات الاعيان ١ - ٤٩٩ .

٥ العمدة ٢ - ٨٥ .

واليك بعض الأدلة على ذلك من شعره :

١ - في معانيته لأبي القاسم التوزي الشطرنجي يذكر هنوات ذلك الصديق ، وان الحاجة كشفت له عنهن ، ويحري بينه وبينهن محاورة لطيفة يقول فيها :

ليتي ما هتكت عنكن سراً فتويتن تحت ذاك القطاء
قلن لولا انكشافنا ما تجلّت عنك ظلماء شبه قتاء
قلت أعجب بكن من كاسفات كاشفات غوامي الظلماء
قد أفدتتني مع الخبر بالصاحب ان رب كاسف مستضاء
فلن أعجب بمهتدي يتمنى انه لم يزل على عيماء
كنت في شبه فزالت بنا عنك فأوسعتنا من الإزراء
وتميت ان تكون على الحيرة تحت العماية الطخياء
قلت تالله ليس مثلي من ودّ ضلالاً وحيرة باهتداء
غير اني وددت ستر صديقي بدلاً باستفادة الأنساء
قلن هذا هوى فمرّج على الحق واخلّ الهوى لقلب هواء
ليس في الحق ان تودّ لخلّ أنه الدهر كامن الأدواء
بل من الحق ان تنقّر عنهن والا فأنت كالبعداء
ان بحث الطبيب عن داء ذي الداء لأمرّ الشفاء قبل الشفاء
دونك الكشف والعتاب فقوم بها كل خلّة عوجاء

وهذه المحاورة تكشف لك عن فن ابن الرومي وميله إلى البعث المستفيض وتقضي كل معنى من الغرض الذي يرمي اليه . وفي هذه القصيدة نفسها يمدح صديقه بالمهارة في الشطرنج فيذهب في الوصف كل مذهب كقوله :

غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء
لك مكريدب في القوم أخفى من دبيب الغذاء في الأعضاء
أو مسير القضاء في ظلم الغيب إلى من يريده بالتواء

وعلى هذا النحو يصف لعبه في نحو عشرين بيتاً يتفنن في معانيها ما شاء ، وكلها شاهد على تدقيقه في أغراضه ومحاولته بلوغ الغاية منها .

٢ - ذكر السفر ومشاقه وما لاقاه من ذلك برأً وبحراً في قصيدة يمدح بها أحمد بن ثوبة وقد أجاد فيها كل الاجادة . واليك شيئاً منها مثلاً لما نحن بصده من تدقيقه وتقصيه ، قال :

أذاقتني الأسفارُ ما كرهه الغنى إليّ وأغراني برفض المطالب
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبتُ اعتساف الأرض ذات المناقب
وصبري على الإقتار أيسر محلاً عليّ من التغير بعد التجارب

ثم يصف ما لاقاه من أهوال البر إبان الشتاء من مطر وبرد وثلج وصفاً في غاية الدقة ، نذكر منه هنا وصف حاله وقد اضطر الى المبيت في خان :

فملت إلى خات مُرثٍ بناؤه مَمِيلٌ غريق الثوب لهفانٍ لاغبر
فلم ألق فيه مستراحاً لمتعب ولا نُزلاً ، إيان ذاك لساغب ؟
فما زلت في خوف وجوع ووحشة وفي سهر يستغرق الليل واصب
يؤرقني سقف كأي تحته من الوكف تحت المدججات الهواضب
تراه إذا ما الطين أثقل متنه تصرّ نواحيه صرير الجنادب

وبعد ان يستوفي وصف الخان وهول السفر في الشتاء يصف متاعب القبط في الصحراء في اثني عشر بيتاً ، ثم يتناول أهوال البحر . يقصد (دجلة) إذا هبت الريح وطففت غوارب الماء ، ويمحوك ذلك حوكاً دقيقاً في ستة وعشرين بيتاً نذكر منها ثلاثة يرّد بها على من لا يرى في دجلة ما يراه المسافر في البحر من خطر أو متاعب فيقول :

لدجلة خبة ليس لليمّ انها ترائي بحلم تحته جهل واثب
تطامنُ حتى تطمئنّ قلوبنا وتقضب من مزح الرياح اللواعب

زلازل موج في غمار زواجر وهوات خسف في شطوط خوارب
وليم أعذار بعرض متونه وما فيه من آذيه المراكب
ولست تراه في الرياح مزلزلاً بما فيه إلا في الشداد الغوالب

٣- وصف الشيب وأيام الصبا وذلك كثير في ديوانه ، مجتزئ هنا
بما جاء منه في قصيدة تبلغ ١٧٥ بيتاً قالها في عبيد الله بن عبد الله بن
طاهر وخصص منها نحو سبعين بيتاً في هذا الغرض الخاص . من هذه
السبعين ١٩ بيتاً في وصف الشيب ووجوب الترحيب به لأنه يبشّر بلحاق
الماضي كقوله :

وقلت مسلماً للشيب أهلاً بهادي الخطئين الى الصواب
ألت مبشّري في كل يوم بوشك ترحلي اثر الشباب
لقد بشّرني بلحاق ماضٍ أحبّ اليّ من برد الشراب
فلست مسمياً بشراك نعيّاً وان أوعدت نفسي بالذهاب
وأنت وان فتكت بحبّ نفسي وصاحب لذتي دون الصحاب
فقد أعتبتني وأمتّ حقدي بحمّك خلفه عجل راكبي

و ١١ بيتاً في ذكر أيام الحداثة وموقف الغايات بين أمس واليوم .
و ٤٠ بيتاً يصف فيها ما يذكره بالشباب من جمال الحسان ومن جمال
الطبيعة - ما فيها من مياه وجنان وسحاب وبروق ورياح - وصفاً لا
يترك فيه زيادة لمستزيد يختمه بقوله :

فيا أسفاً ويا جزعاً عليه ويا حزناً الى يوم الحساب
أفجع بالشباب ولا أعزّي لقد غفل المعزّي عن مصابي
تقرّقنا على كره جميعاً ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت أيكتي ليد اجتناء فعادت بعده ليد احتطاب

ثم يقول :

لبستك برهةً لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب

ومن يراجع هذه السبعين بيتاً ويتأمل توفّر الشاعر على تقصّي المعاني وتدقيقه في رسم ظلالها ، ينكشف له ما قصد إليه ابن خلكان اذ قال « لا يبقي في المعنى بقية » .

ولما كان ابن الرومي بطبيعته دقيق الاحساس كان من الطبيعي ان نراه يحيد في وصف الالوان والاصوات ويفتن بها ما شاءت قريحته ، وله في ذلك لطائف تعد من أجمل ما في الباب من الشعر العربي .

ويمتاز بالباسه الجماد حياة وينقل غير العاقل الى مصاف العقلاء ، وهو ما يسمونه بالتشخيص أو المجاز المرسل . ومن ذلك حديثه مع هنوات صديقه (وقد مر في كلامنا على قصيدته « ايها القاسم القسيم رواء ») ، ومخاطبته للشيب والشباب والبين والكساء ، وانطاقه الطيور والنساء ، ونسبته التفكير الى الشمس والندى والأغصان ، مما سترى الامثلة عليه في المختار من شعره . ولم يتفرد ابن الرومي بذلك ، ولكن له فيه ما يلفت النظر ويحمله في مقدمة الوصافين . ومما يلفت النظر أيضاً في شعره حسن اختراعه ، وقد تحمس له ابن رشيق فقال : « اما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه »^١ . وفي موضع آخر يقرنه بأبي تمام ويقول : انها أكثر المولدين اختراعاً فيما يقول الحدّاق^٢ .

ويراد بالاختراع كما ذكرنا في غير هذا المقام بدائع التشبيه والتمثيل والاستعارة ، كقوله وقد رأى رجلاً يقلي الزلابية فوصفه ووصف عمله :

رأيتُه سحراً يقلي زلابية	في رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيتُه المقلّي حين بدا	كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يلقي المعجين لجيناً من أنامله	فيستحيل شبابيكاً من الذهب

١ المدة ١ - ١٩٤ .

٢ المدة ١ - ١٧٧ .

وقال يصف قوس السحاب :

وقد نشرت ايدي الجنوب مطارفاً على الجوِّ دُكناً والحواشي على الارضِ
يطرّزها قوس السحاب بأخضرٍ على احمرٍ في اصفرٍ إثر مبيضٍ
كأذيال خَوْدٍ اقبلت في غلائل مصبغة والبعض اقصر من بعض
ومن أقواله الجميلة يذكر أيام الشباب واننا لا نعرف قيمتها إلا متى
ولت :

لسنا نراها حق رؤيتها الاّ زمان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تفشى الارض بالظلم
ولربّ شيء لا يبيّنه وجدانه الا مع العدم

ومثل ذلك قوله في ذم الدهر وانه يعلي الاسافل :

دهرٌ علا قدرُ الوضيع به وترى الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلاً وتعالو فوقه جيفه

وله في الحكم باع طويلة ، فان دقة نظره لا تنحصر في الوان الطبيعة
والحياة بل تتناول ايضاً المواطف وعلاقات الناس بعضهم ببعض . وهو
يحاري في ذلك كبار الشعراء ، كقوله :

اذا ما كساك الله سربال صحة ولم تخلُ من قوت يحلّ ويعذب
فلا تغبطن المترفين فانهم على حسب ما يكسوم الدهر يسلب

وقوله :

خليليّ قد علّمتني بالامى فانعمتا لو اذني اقللُ
وما راحة المرزوء في رزه غيره يحمل عنه بعض ما يتحمل ؟

وقوله :

فلا تتكل الا على ما فعلته ولا تحسبن المجد يورث بالنسب

فليس يسود المرء إلاّ بنفسه وان عدّ آباء كراماً ذوي حسب
وحكمه كثيرة وهي تمكس لنا في الغالب حياته وتأثير بيئته فيه .

* * *

أما أكثر ديوان ابن الرومي ففي المديح والهجاء والعتاب والوصف ، على
ان له في باب الرثاء بضع قصائد جيدة . منها مرثاة في ابنه الأوسط هي
من أرق ما فاضت به عواطف والد على ولد عزيز . قال في مطلعها
يخاطب عينيه :

بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي فجدوا فقد اودى نظيركما عندي
توخى حيام الموت اوسط صبيتي فله كيف اختار واسطة العقدي
طواه الردى عني فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريباً على بعد

ثم يأخذ بوصف الداء الذي أصاب ولده ، وما كان له من التأثير
فيه ، ويشرح لنا العواطف الابوية المتألّمة شرحاً يحرك أوتار القلوب . وانك
لترى شدّة ألمه ودقة تصويره في قوله يخاطب الفقيد :

محمد ما شيء توهّم سلوة لقلبي الا زاد قلبي من الوجد
ارى اخويك الباقيين عليها يكونان للاحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا فؤادي بمثل النار من غير ما قصد

والقصيدة كلها من هذا النمط البليغ الذي يشهد لشاعرنا برقة الشعور
ودقة الفن . ونجد معظمها في باب المختارات .

* * *

والخلاصة ان ابن الرومي دقيق شديد الانفعال ، عصبي المزاج الى
حد الخروج عن جادة الرشاد . ومن هنا غرابة أطواره ، وفشله في الحصول
على رغائبه ، وعدم قدرّ جيله لفنه ومواهبه .

المختار من شعر ابن الرومي

طبيعة شديدة الانفعال في شعره بعيد المدى كثير الالوان : تقرأه
فيرسم لك ما في نفس ناظمه من ولئه في الحياة ومرارة لفقد
أطايها ، مقرونين بإسراف في العاطفة يدفعه أحياناً الى درجة
الشدوذ .

ذكرى الشباب

من قصيدة في عبيد الله بن عبد الله

كفى بالشيب من ناهٍ مطاعٍ	على كرهٍ ومن داعٍ مجاب
حططت الى النهى رحلي وكنت	مطيّة باطلا بعد الهباب ^١
وقلتُ مسلماً للشيب : أهلاً	بهادي الخطئين الى الصواب
الست مبشري في كل يوم	بوشك ترحلي إثر الشباب ؟
لقد بشرتني بلحاق ماض	احبّ إليّ من برد الشراب
فلست مسمياً بشراك نعيّاً	وان اوعدت نفسي بالذهاب
لك البشرى وما بشراك عندي	سوى ترقيع وهبك بالحضاب

١ الهباب : النشاط والسرعة .

وانت وان فتكت بحب نفسي
فقد أعتبتني ، وامت حقدني
إذا الحقنتي بشقيق عيشي
وحسي من ثوابي فيه أني
لممرك ما الحياة لكل حي
فقل لبنات دهري فلتُصنبي
سقى عهد الشبيبة كل غيث
ليالي لم أقل : سقياً لمهد

وصاحب لذتي دون الصحاب^١
بحثك خلفه عَجلاً ركابي^٢
فقد وفيتني فيه ثوابي
راياه نشوب الى مآب
إذا فقد الشباب سوى عذاب
إذا ولّى ، باسهما الصّيب
اغرّ مجلجل داني الرّباب^٣
ولم ارغب الى سقيا سحاب^٤

* * *

يذكرني الشباب هوان عتي
يذكرني الشباب سهام حتف
رمت قلبي بهن فأقصده
فراحت وهي في بال رخي
وكل مبارز بالشيب قرناً
وصد الغانيات لدى عتاي^٥
يُصن مقاتلي دون الإهاب
طلوع النبل من خلل النقاب^٦
ورحت بلوعة مثل الشباب
فسبي لممرك غير ساب

* * *

يذكرني الشباب جنان عدن
تفتى ظلها نفعات ربح
إذا ماست ذوائبها تداعت
يذكرني الشباب وميض برق
على جنبات انهار عذاب
تهز متون اغصان رطاب^٧
بواكي الطير فيها بانتحاب
وسجع حمامة وحنين تاب^٨

- ١ و ٢ وانت وان فعتت بحبيبي او صاحبي فقد ارضيتني بأنك تدفعني الى اللحاق به عاجلاً .
٣ و ٤ سقى عهد الشبيبة كل مطر كثير الرعد داني السحاب - ذلك المهد الذي لم اكن اهتم
بسواه ولم اشعر فيه بحاجة ما .
٥ يذكرني ايام الشباب عدم اهتمام الغانيات اليوم بي .
٦ طلوع النبل الخ اي حسناء تكثر رمي النبل من وراء النقاب .
٧ تفتى ظلها اي تحركه .
٨ الناب الناقة .

فيا اسفاً ويا جزءاً عليه ويا حزننا الى يوم الحساب
أأفجع بالشباب ولا أعزى؟ لقد غفل المعزى عن مصابي
تفرقنا على كرهٍ جميعاً ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت أيكتي ليد اجتناءٍ فعادت بعده ليد احتطاب^١

* * *

ايا بُرد الشباب ، لكنت عندي من الحسنات والقِسم الرغاب
بليت على الزمان ، وكل بُرد فبين بلى وبين يد استلاب
وعز علي ان تبلى وابقى ولكن الحوادث لا تحابي
لبستك برهة لبس ابتدال على علمي بفضلك في الثياب
ولو ملكت صونك فاعلته لصنتك في الحريز من العياب^٢
ولم ألبسك الا يوم فخر ويوم زيارة الملك اللباب
عبيد الله قرم بني زريق وحسبك باسمه فصل الخطاب

الى ان يقول له :

اظلّ سحاب عُرْفك كل شيء ودرّ على البلاد بلا عصاب^٣
سواي فاني عنه بظهر كاني خلف منقطع التراب^٤
تشير إلي بالحرور ايسر كايدي الناس في يوم الحصاب^٥
تطاول بي انتظار الوعد جداً وريب الدهر يؤذن بانشعاب

* * *

افكر في نصاب انت منه فيُفلق دون عذرك كل باب
الست المرء لا عزم كهام ولا بخل اليه بذى انتساب

١ الايكة الشجرة كنى بها عن الحياة فقال وكانت حياتي مشرة فاصبحت الآن يابسة .

٢ العياب خزان الثياب .

٣ بلا عصاب أي عفواً دون ان يطلب . والعرف المعروف .

٤ لم يصنني غيث معروفك كاني كنت في الطرف الذي ينقطع عنده المطر .

٥ أي يشير الي الناس بأيديهم ويقولون « محروم » من الحظ . وقد شبه كثرة المشيرين اليه بأيدي

الناس يوم رمي الحجارة بمنى (في الحج) .

فمَشُ في غبطة ونعيم بال وملك لا يخاف بد اغتصاب
ومنها :

وليس لأنني سُدَّت سبيلي ولا عَجَزَ اصطراني واصطحابي
تعالَت هضبتي عن كل سيل وفانت نبعتي نضج الذناب^١
فليس ينالني إلا مثيلٌ يُطلُّ عليّ إطلال السحاب
ولو اني قطعت الارض طولاً لكان اليك من بعد انقلابي

وقال مادحاً علي بن المنجم

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيباً ان يُرى النور في القضب الرطيب
ساءها ان رأت حبيباً اليها ضاحك الرأس عند مفارق شيب
فدعته الى الخضاب وقالت ان دفن المعيب غير معيب
خضبت رأسه فبات بتبريح واضحى فظل في تأنيب
ليس ينفك من ملامه زارٍ بعد نظرتي مستريب
ضِلَّةٌ ضلَّ لمن وعظته غيرُ الدهر وهو غير مُثيب
عاجزٍ واهن القوى يتعاطى صِفةَ الله في قناع المشيب^٢
رام اعجاب كل بيضاء خودٍ بسواد الخضاب ذي التعجيب
فتضاحكن هازئات وماذا يُونق البيض من سوادٍ جليب^٣
يا حليف الخضاب لا تخدع النفس فما انت للصبا بنسب
فاتخذه على الشباب حداداً وابكِ فيه بعبرة ونحيب

* * *

١ اتصدك لا لأنه قد سدت في وجهي سبل الرزق فاني كريم النفس اتمالي عن الاسافل ، وقد

عبر عن ذلك بقوله (تعالت هضبتي عن السيول ونبعتي عن رش الدلاء) .

٢ اي ضعيف يتناول الصبغة يستر بها مثيبه مظهراً انها اللون الطبيعي الذي خلقه الله .

٣ جليب اي مجلوب مصطنع .

وفتاةٍ رأت خضابي وقالت
خاضبُ الشيب في بياض مبين
ليس تنقاد عادةً لهواه
ظلمتني الخطوبُ حتى كأني
سلبتني سواد رأسي ولكن
عوّضتني ريش كل سلب
عوّضتني اخا المعالي علياً
يستغيث اللهيضُ منه بمدعوٍ
لدى كل كربةٍ مستجيب
يتلقى المدفعين عن الابواب
بالبشر منه والترحيب
غربته الخلائق الزهر في الناس
وما اوحشته بالتغريب
ما سمى والسعاة للمجد الا
سبق المحضرين بالتقريب^١
من رآه رأى شواهد تُفني
عن سماع الثناء والتجريب
لودعي له فؤاد ذكي^٢
ما له في ذكائه من ضريب
يقظ في الهنات ذو حركات
لسكون القلوب ذات الوجيب^٣
ألعي يرى باول ظن
آخر الامر من وراء المغيب
ثابت الحال في الزلازل منهال^٤
لسؤاله انهيال الكتيب
لين عطفه فان ريم منه
مكسر العود كان جيد صليب
احسنت وصفه مساعيه حتى
افحمت كل شاعر وخطيب
يمّته بنا المطايا فافضت
من فضاء الى فضاء رحيب
بأبي انت من جليل مهيب
مطلب العرف منه غير مهيب
اعجز الطالبيك شأوً بعيد^٥
لك ادركته بعرف قريب
هاكها مدحة تغنى بها الركبان
ما ارزمت روائع نيب^٤

١ الجنب ما يقاد من الركاب .

٢ اي ما سعى هو وواحد الى المجد الا وسبق بتقريبه جري منافسه السريع .

٣ اي انه لدى الخطوب يقظ تتحرك هته بما يكن اضطراب القلوب .

٤ اي ما حنت النياق الى اولادها .

نظم الفكر درّها غير مثقو بـ اذا الدرّ شينَ بالتثقيبِ
يطرب السامعين ايسر ما فيها وان أنشدت بلا تطريب
منك جاءت اليك يحدوها الودّ على رغبة بلا ترغيب

رثاء ابنه الاوسط

بكاؤكما^١ يشفي وان كان لا يجدي
ألا قاتل الله المنايا ورميها
توخى حيام الموت اوسط صبيتي
على حين شمت الخير من لحاته
طواه الردى عني فاضعى مزاره
لقد انجزت فيه المنايا وعيدها
لقد قلّ بين المهد واللحد لبثه
الحّ عليه الزفّ حتى احاله
وظلّ على الايدي تساقط نفسه
فيا لك من نفسٍ تساقط انفسا^٤

فجودا فقد اودى نظيركما عندي
من القوم حبّات القلوب على عد
قلله كيف اختار واسطة العقد
وآنست من افعاله آية الرشد
بعيداً على قربٍ قريباً على بعد
واخلفت الآمال ما كان من وعد
فلم ينس عهد المهد إذ ضمّ في اللحد^٢
الى صفرة الجاديّ عن حمرة الورد^٣
ويذوي كما يذوي القضيبي من الرند
تساقط درّ من نظام بلا عقد

* * *

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له
وما سرّني ان بعته بثوابه
ولا بعته طوعاً ، ولكن غصبته

ولو أنّه أقسى من الحجر الصلد
ولو أنّه التخليد في جنة الخلد
وليس على ظلم الحوادث من مُعد

* * *

واني وان مُتّعت بابنيّ بعده لذاكره ما حنّت النيبُ في نجد^٥

١ يخاطب عيبيه .

٢ اي انه مات صغيراً .

٣ كثر عليه نزف الدم حتى احال لونه الوردي الى اصفرار الزعفران .

٤ فيا لك من نفس تذوي فتذوي معها نفوس كثيرة .

٥ النيب النياق . اي وان كان لي باخويه سلوة فاني سأذكره دائماً وسأوجع لذكره .

واولادنا مثل الجوارح^١، أيها فقدناه كان الفاجعَ البينَ الفقدِ
لكلِّ مكانٍ لا يسدُّ اختلاله مكانُ أخيه من جَزْوعٍ ولا جلدِ
هل العين بعد السمع تكفي مكانه أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي
لعمري لقد حالت بي الحال بعده

فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي
ثكلتُ سروري كله اذ ثكلته وأصبحت في لذات عيشي اخا زهد

* * *

أريحانة العينين والانف والحشا

ألا ليت شعري هل تغيرتَ عن عهدي ؟
سأسيك ماء العين ما أسعدت به

وان كانت السقيا من الدمع لا تجدي
أعيني جودالي، فقد جدت للثرى بأنفسٍ بما تسألان من الرقد^٢
كأنني ما استمتعت منك بضمة ولا شمة في ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدي عليك من الأسى واني لأخفي منه أضعاف ما أبدي

* * *

محمدُ ما شيءٌ تَوَهُّمَ سلوة
أرى اخويك الباقيين كليهما
إذا لعبا في ملعب لك لذعا
فما فيها لي سلوة بل حرارة
وانت وان أفردت في دار وحشة
عليك سلام الله مني تحية^٣
لقلبي، الا زاد قلبي من الوجد^٣
يكونان للاحزان اورى من الزند
فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فاني بدار الأنس في وحشة الفرد
ومن كل غيثٍ صادق البرق والرعد

١ الجوارح اعضاء الجسم .

٢ الرقد العطاء .

٣ في هذه الايات وما بعدها يقول يا محمد ما من شيء يحسبونه سلوة إلا ويزيدني حزنا على
حزن . انظر الى اخويك الباقيين فاذكرك في كل من حركاتها ويشد لذلك اضطرام الاسى
في نفسي فانت وان كنت وحيدا في الغبر فاني بين الناس وحيد بالاسى .

من رثائه لأبي الحسين يحيى بن عمر العلوي^١

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهج طريقان شتى ، مستقيم واعوج^٢
 ألا أيتها الناس طال ضريركم بآل رسول الله فاخشوا أو ارتجوا
 أكل^٣ أوان للني محمد قتيل زكي^٤ بالدماء مضرّج^٥

* * *

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم
 بلواكم - عما قليل - مفرّج
 أما فيهم راع لحق نبيّه ؟ ولا خائف من ربه يتحرّج
 أبعد المكنى بالحسين شهيدكم تضيء مصابيح الساء فتسرج^٦
 لنا وعلينا ، لا عليه ولا له تسحسح اسراب الدموع وتفسج
 وكنا نرجيه لكشف عماية بأمثاله أمثاله تلبّج

* * *

أيجيى العلى لهفي لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
 لمن تستجدّ الارض بعدك زينة^٧ فتصبح في أثوابها تتبرّج
 سلام وريحان وروح ورحمة عليك ، ومدود من الظل مسجج^٨
 ولا برج القاع الذي انت جاره يرفّ عليه الاقحوان المفلّج^٩
 ويا أسفي ألا تردّ تحية سوى أرج من طيب رمسك يارج
 عفاء على دار ظعننت لغيرها فليس بها للصالحين معرّج

* * *

ألا أيها المستبشرون بيومه اظلمت عليكم غمّة لا تفرّج

١ وهو حفيد حفيد الامام علي وكان قد قام على العباسيين وقتلوه . وفي هذه القصيدة يظهر تشيع الشاعر لآل البيت .

٢ إشارة الى ان القاتل من بيت الرسول .

٣ تسرج تحسن طلعتها .

٤ مسجج اي لا حرق فيه ولا قر .

٥ اي لا برج مدفنه يتألق عليه الاقحوان .

أكلتكم امسى اطمأن مهاده بأن رسول الله في القبر مزعج!
 كأنني به كالليث يحمي عربنه واشباله لا يزدهيه المهجمج^١
 كدأب عليّ في المواطن قبله ابي حسن والفصن من حيث يخرج^٢
 كأنني أراه - والرماح تنوشه شوارع كالأشطان تدلّ وتخلج^٣
 كأنني أراه إذ هوى عن جواده وعفّر بالترب الجبين المشجج
 فحُبّ به جسمًا الى الارض اذ هوى

وحُبّ بها روحاً الى الله تعرج
 اجنّوا بني العباس من شتآنكم وأوكوا على ما في العياب وأشرجوا^٤
 وخلّوا ولاة السوء منكم وغيّتهم فأحرّهم ان يفرقوا حيث لجّجوا
 نظار لكم ان يرجع الحق راجع الى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا

* * *

بني مُصعب! ما للنبي وأهله عدو، سواكم أفصحوا، وقلججوا
 واني على الاسلام منكم لخائف بوائق شتى ، بايها الآن مُرتج
 وفي الحزم ان يستدرك الناس امركم

وحبلهم مُستحکم العقد مُدمج
 لعلّ قلوباً قد أطلتم غليلها سنظفر منكم بالشفاء فتسلج
 البصرة وما حل بها يوم دخلها الزنج^٥

وذلك ٢٥٧ هـ

زاد عن مقلتي لذينة المنام يشغلها عنه بالدموع السجام

١ كأنني به في ساحة الحرب كالليث لا يستخفه زجر زاجر

٢ اي هو في شجاعته كجده الامام علي .

٣ تنوشه تطلبه والأشطان الحبال . وتدلى وتخلج اي تمتد وتحرك او ترسل وتجدب .

٤ استروا يا بني العباس بفضكم وشدوا على ما في داخلكم من الحقد .

٥ بنو مصعب من رجال العباسيين .

٦ نشبت هذه الثورة بزعامة علي بن محمد احد المدعين للسب العلوي وكان قيامه في ايام المكثفي

فتفاقم امره واكتسح البصرة وما اليها ولم يتمكن العباسيون ان يخضعوه إلا بعد مشقة طويلة.

ايّ نومٍ من بعد ما حلّ بالبصرة ، ما حلّ من هناتٍ عظام
اي نومٍ من بعد ما انتهك الزّنج جهاراً محارم الاسلام
ان هذا من الامور لأمرٌ كاد ان لا يقوم في الأوهام

* * *

لهفَ نفسي عليك ايّتها البصرة ، لهفأ كمثّل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا قبّة الاسلام لهفأ يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يا فرضة البلد دانت لهفأ يبقى على الاعوام
لهف نفسي لجمعمك المتفاني لهف نفسي لعزّك المستضام

* * *

بينما أهلها بأحسن حال اذ رماهم عبيدهم باضطلام
دخلوها كأنهم قطع اللّـه ل إذا راح مدّهم الظلام
أيّ هول رأوا بهم أيّ هول! حقّ منه يشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من بين وشمال - من خلفهم وأمام
كم اغصّوا من شارب شراب كم اغصّوا من طاعم بطعام
صبحوهم فكابد القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام
ما تذكّرت ما أتى الزنج الا أضرم القلب ايّنا اضرام

* * *

عرّجا صاحبيّ بالبصرة الزهراء تعريج مُدَنّف ذي سقام
فاسألاها - ولا جواب لديها لسؤال - ومن لها بالكلام ؟
اين ضوضاء ذلك الخلق فيها اين اسواقها ذوات الزحام ؟
اين فُلك فيها ، وفلك اليها ، منشآت في البحر كالاعلام ؟
اين تلك القصور والدور فيها أين ذاك البنيان ذو الإحكام
بُدلت تلكم القصور تلالاً من رمادٍ ومن تراب ركام
وخلت من حلّوها . فهي قفر ، لا ترى العين بين تلك الإكام

١ إشارة الى انها كانت فرضة عظيمة .

غيرَ أيدٍ وارجلٍ بائناتٍ نُبِذتَ بينهما أفلاق هامٍ
 ووجوهٍ قد رَمَلَتْها دماءٌ بأبي تلکم الوجوه الدوامي
 وطُتْ بالهوان والذل قسراً بعد طول التبجيل والإعظام
 فتراها تَسْفِي الرياحُ عليها جارياتٍ بهيوةٍ وقتامٍ
 خاشعاتٍ ، كأنها باكياتٌ باديات الثغور ، لا لابتسام

* * *

أيّ خطب ، وأي رزمٍ جليل نالنا في أولئك الاعام
 واحيائي منهم - اذا ما التقينا وهم ، عند حاكم الحكام^١
 أي عذر لنا ، واي جواب حين ندعى على رؤوس الانام
 يا عبادي ؟ أما غضبتُم لوجهي ذي الجلال العظيم والاکرام
 أخذتُم إخوانکم ، وقعدتُم عنهم - ويحكم - قعود اللثام ؟^٢

* * *

بأبي تلکم العظام عظاما وسقتها السماء صوب الغمام
 وعليها من الملّيك صلاةٌ رسلام مؤكّد بسلام
 انفروا ايها الکرام خفافاً وثقالاً الى العبيد الطغّام
 أبرموا امرهم ، وانتم نيام ، سوءةٌ سوءةٌ لنوم النيام^٣
 صدّقوا ظنّ اخوة امّلوکم ورجوكم لنوبة الايام
 ادركوا نأرهم ، فذاك لديهم مثل ردة الارواح في الاجسام
 لم تقرّوا العيون منهم بنصر فاقروا عيونهم بانتقام
 انقذوا سبّينهم - وقلّ لهم ذا ك - حفاظاً ورعيّةً للذمام
 عارهم لازمٌ لکم ، ايها النا س لأن الاديان كالارحام

١ اي يوم الحساب امام الله .

٢ هذا البيت وما قبله خطاب من الله للمسلمين ثم يعود الشاعر في كل الابيات التالية بحرضهم على

مساعدة اهل البصرة والانتقام لهم من عدوهم .

٣ قضا امرهم وانتم في غفلة عنهم .

ان قعدتم عن اللعين فأنتم شركاء اللعين في الآثام
بادروه قبل الرويّة بالعز م ، وقبل الإسراج بالإلجام
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلد ، فأنتم في غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالمعرض الآذنى ، وبيعوا انقطاعه بالدوام

عتابه لابي القاسم التوزي الشطرنجي

يا أخى أين ربيعُ ذاك اللقاء؟ أين ما كان بيننا من صفاء؟
أين مصداق شاهدٍ كان يحكى أنك المخلص الصحيح الاخاء
كشفت منك حاجتي هنّوات غُطيت برهة بحسن اللقاء
تركتني - ولم أكن سيئ الظن - أسيء الظنون بالأصدقاء^١

* * *

يا أخى ! هبك لم تهب لي من سمك حظاً كسائر البخلاء
أفلا كان منك ردّ جميل فيه للنفس راحة من غناء؟
يا أبا القاسم الذي كنت ارجو لهدهري قطعت متن الرجاء
لا اجازيك عن غرورك ايتا ي غروراً - وقيت سوء الجزاء
أنت عيني وليس من حقّ عيني غصّ اجفانها على الإقضاء
ما بأمثال ما أتيت من الامر يحلّ الفتى ذرى العلياء
لا ، ولا يكسب المحامد في النامس ولا يشتري جميل الثناء
ليس من حلّ بالحلّ الذي اذ ت به من ساحة ووفاء
بذل الوعد للأخلاء سمحاً وابى بعد ذاك بذلّ الفناء
فقدنا كالحلاف^٢ يورق للعيب ن ويأبى الإثمار كل الإباء
يا أخى ! يا أخا الدماثة والرقة والظرف والحبعا والدهاء

١ أي ان حاجتي اليك كشفت لي فيك عن سينات جعلتني بعدها أسيء الظن بالأصدقاء .
٢ نوع من شجر الصنّاف .

ربما هالني وحير عقلي اخذك اللاعبين بالبأساء
 عن تدابيرك اللطاف اللواتي هنّ اخفى من مستسير الهباء
 بل من السرّ في ضمير محبّ أدبته عقوبة الافشاء
 غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء
 لك مكر يدبّ في القوم اخفى من دبيب الغذاء في الاعضاء
 أو مسير القضاء في ظلّم الا غيب الى من يريده بالتواء
 أو سرى الشيب تحت ليل شباب مستحير في لمة سحاء
 دبّ فيها لها ومنها اليها فاكلت لون رثة شمطاء

* * *

ضلة لامرئ يشمر في الجمع لعيش مشمر للفناء
 دائباً يكتز القناطير للوا رث ، والعمر دائب في انقضاء
 يحسب الحظّ كله في يديه وهو منه على مدى الجوزاء
 ليس في آجل النعم له حظّ ، وما ذاق عاجل التعماء
 ذلك الخائب الشقيّ ، وإن كان يرى انه من السعداء
 حسبّ ذي إربة ورأي جليّ نظرت عينه بلا غلواء
 صحة الدين والجوارح والعرض وإحراز مسكة الحوباء

* * *

يا أبا القاسم الذي ليس يخفى عنه مكنون خطة عوصاء
 أترى كل ما ذكرت جلياً وسواء من غامض الانحاء
 ثم يخفى عليك اني صديق ربما عزّ مثله بالفلاء ؟
 لا لعمر الإله ! لكن تعاشيت بصيراً في ليلة قمرء
 بل تعاميت ، غير اعمى عن الحق نهراً في ضحوة غراء
 ظلاماً لي مع الزمان الذي ابتز حقوق الكرام للتؤماء

١ اي حسب صحة الدين وان يحرز ما يحفظ النفس .

ثقلت حاجتي عليك فأضحت وهي عبءٌ من فادح الاعباءِ

* * *

ظلمت حاجتي فلاذت بحقوقك فاسلمتها لكفّ القضاء^١
وقضاءُ الإله احوطٌ لنا س من الامّهات والآباء
غير ان اليقين اضحى مريضاً مَرَضاً باطناً شديد الخفاء

* * *

كنتُ مستوحشاً فظهرتَ بخساً زادني وحشة من الخلطاء^٢
وعزير عليّ عضيك باللوم ، ولكن أصبتَ صدري بداء
أنت أدويت صدر خلّك فاعذر ه على النفث ، انه كاللدواء^٣
ان تكن لفحة اصابتك من عذ لي ، فعماً قدحت في الاحشاء
والذي اطلق اللسان فعاتب تـك عديك أولَ الفهاء^٤
لم أخف منك غلطة حين عاتب تـك تدعو العتاب باسم الهجاء
وانا المرء لا أسوم عتابي صاحباً غير صفوة الاصفاء
ذا الحجا منهم وذا الحلم والعلم - وجهلٌ ملامة الجهلاء
ان من لام جاهلاً لطبيبٌ يتعاطى علاج داء عيـاء
لست ممن يظلّ يربعُ باللوم على منزل خلاء قواء

في وحيد المغنية

وكان الشاعر يستحسنها ويستحسن غنائها

يا خليلي تيمّنتني وحيدٌ ففؤادي بها مغنّى عبيدٌ
غادة زانها من الغصن قدّ ومن الظبي مقلتان وجيد

١ ظلمت حاجتي فتعلقت بك ولكنك نبذتها وتركتها للقضاء .

٢ كنت انا مستوحشاً من الناس فأظهرت لي من بنس حقي ما زادني نفوراً منهم .

٣ ادويت اي امرضت .

٤ والذي اطلق لساني بعتابك اني اعدك أفهم الفهاء .

وزهاها من فرعها ومن الحدّين
 فهي بَرْدٌ بخدّها وسلام
 ما لما تصطليه من وجنتيها
 مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ
 وغريرٍ بحسنها قال : صفها
 يسهلُ القول إنها احسن الاش
 تتجلى للناظرين اليها
 ظبية تسكن القلوب وترعا
 تتغنى كأنها لا تغنى
 لا تراها - هناك - تجحظ عينٌ
 من هدوءٍ وليس فيه انقطاع
 مدّة في شأو صوتها نفسٌ كا
 وأرقّ الدلال والغنج منه
 فتراه يموت طوراً ويحيى
 فيه وشيٌ ، وفيه حليٌ من النفث
 في هوى مثلها يخفّ حلیمٌ
 ما تعاطى القلوب إلا اصاب
 وترّ العزفِ في يديها مضامير
 عيبها أنها - إذا غنت الاحرارَ -
 واستزادت قلوبهم من هواها
 ذاك السواد والتوريد
 وهي للعاشقين جهدٌ جهيد
 غيرُ ترشاف ريقها تبريد
 وجدّ ، لولا الأباء والتصريد^١
 قلت : أمران ، بينٌ وشديد^٢
 ياءٍ طرّاً ، ويصعب التحديد
 فشقيٌ بحسنها وسعيد
 ها ، وقُمرية لها تغريد
 من سكون الاوصال ، وهي تجيد
 لك منها ، ولا يدرُ ويرد^٣
 وسجوى ، وما به تبلید
 في ، كأنفاس عاشقها مديد
 وبراه الشجا ، فكاد يبيد
 مستلذّ بسيطه والنشيد
 م مصوغ يخال فيه القصید
 راجحٌ حلمه ، ويغوى رشید
 بهواها منهنّ حيث تريد
 وتر الرجف ، فيه سهم شديد
 عيبها أنها - إذا غنت الاحرارَ -
 واستزادت قلوبهم من هواها
 ذاك السواد والتوريد
 وهي للعاشقين جهدٌ جهيد
 غيرُ ترشاف ريقها تبريد
 وجدّ ، لولا الأباء والتصريد^١
 قلت : أمران ، بينٌ وشديد^٢
 ياءٍ طرّاً ، ويصعب التحديد
 فشقيٌ بحسنها وسعيد
 ها ، وقُمرية لها تغريد
 من سكون الاوصال ، وهي تجيد
 لك منها ، ولا يدرُ ويرد^٣
 وسجوى ، وما به تبلید
 في ، كأنفاس عاشقها مديد
 وبراه الشجا ، فكاد يبيد
 مستلذّ بسيطه والنشيد
 م مصوغ يخال فيه القصید
 راجحٌ حلمه ، ويغوى رشید
 بهواها منهنّ حيث تريد
 وتر الرجف ، فيه سهم شديد
 عيبها أنها - إذا غنت الاحرارَ -
 واستزادت قلوبهم من هواها

* * *

وحسانٍ عرضنَ لي ، قلت : مهلا
 عن وجيدٍ ، فعقها التوحيد

١ ان مثل ذلك الرضاب يطفىء نار الوجد لولا المنع . والتصريد التقليل .

٢ الغرير المفرور .

٣ لا تراها تتكلف وتجهّد نفسها حتى تجعظ عينها وتقتلّ أو ردها فتنتفخ .

حسنها في العيون حسنٌ جديدٌ فلها في القلوب حبٌ جديدٌ

* * *

خلقت فتنةً ، غناءً وحسناً ما لها فيها جميعاً نديداً
فهي نعمي ، يمد منها كبير وهي بلوى ، يشيب منها وليد
لي - حيث انصرفت منها - رفيق من هواها وحيث حلت قعيد
عن يميني ، وعن شمالي ، وقد مي ، وخلفي ، فأين عنه أحيد ؟

بعض مقطعاته الحكيمة

١

في الناس

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من الصعاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
إذا انقلب الصديق غداً عدواً مبيناً ، والأمور إلى انقلاب
ولو كان الكثير يَطيب كانت مصاحبة الكثير من الصواب
ولكن قلماً استكثرت إلا سقطت على ذئاب في ثياب
فدع عنك الكثير فكم كثير يُعاف وكم قليل مستطاب
وما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الري في النُطَف العذاب

٢

في الحياة

إن السعيد لمدرِكْ دَرَكَا وأخو الشقاوة فهو في الدَرَكِ
والشرّ بين الناس مشترك والخير فيهم غير مشترك
وإلى محمود مآل ذي لب وإلى السكون معارِ ذي حرك

١ ان لجج البحر مع كثرتها لا تروي وتلقى الري في القليل من المياه العذبة .

وغدا الرجال - على مكانتهم - يتبادرون مطارح الشبك
والعين تبصر ابن حبتها لكنها تعمى عن الشرك

٣

في نفع الشدائد

عرفتُ مقادير الرجال بنكبة أفدتُ بها غُثْمًا وإنْ عُدَّ منفرما
كفاني لعمري أيها الناس خبرني بكم بعد جهلي واغتراري مغنا
ألا طال ما حملت قلبي ظالماً تكاليفَ من إعظام من ليس مُعظما
فقد حطَّها عني الإله بمحنة أراني بها رشدي ، وما زال منعما

٤

في قصر العمر

دهر يشيع سبته احدُهُ متابعٌ ، ما ينقضي امدُهُ
والحال من سعد يساعدنا طوراً ، ونحس معقب نكدُهُ
يوم يُبكِنا وآونةٌ نبكي على زمن ومن زمن
فبكاؤنا موصولة مُدَدُهُ ونرى مكارهنا مخلدةً ،
أفلا سبيل إلى تبجحنا في سرمد لا ينقضي أبده
سكرى شباب لا يعاقبه هَرَمٌ ، وعيش دائم رغبة
لا خير في عيش تُخَوِّننا أوقاته وتقولنا مُدَدُهُ
يُعطي الفتي الأيام بنفقا وقصاصها ان يُقتوى جَلَدُهُ

٥

القناعة بالصحة

إذا ما كساك الله سرايا صعة ولم تخلُ من قوت يحل ويغرب

فلا تنبطن المترفين فانهم على حسب ما يكسوم الدهر يسلب

٦

انما المرء بنفسه

وما الحسب الموروث لا درء دره
إذا العود لم يثمر - وان كان شعبة
وانت لعمري شعبة من ذوي العلا
وللعجد قوم ساوروه بانفس
فلا تتكل الا على ما فعلته
فليس يسود المرء الا بنفسه
بمكتسب الا بآخر مكتسب
من المثمرات - اعتداه الناس في الخطب
فلا ترض ان تعتد من أوضع الشعب
كرام ولم يرضوا بأم ولا بأب
ولا تحبب المجد يورث بالنسب
وان عدت آباء كراماً ذوي حسب

٧

حب الوطن

وحبب اوطان الرجال اليهم
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم
مأرب قضاها الشباب هنالك
عهد الصبي فيها فحنوا لذلك

١ إذا الفصحى لم يثمر هذه الناس خطباً ولو كان أصله من شجرة مثمرة .

المتني

ابو الطيب احمد بن حسين

٥٣٥٤ - ٥٣٠٣

٩١٦ م - ٩٦٦ م



مصادر دراسته - نشأته - في حلقة سيف الدولة - في
بلاط مصر - بين العراق وبلاد فارس - مزاياه
الخلقية - عصيته - شهرته الأدبية -
شخصيته في شعره - أطوار شعره

مصادر دراسته

الوساطة للجرجاني

الفهرست (ليدن) ١٦٩

يكيمة الدهر للشعالبي ج ١ ص ٧٨ - ١٩٤

العمدة لابن رشيقي ١ ص ٨٧ - ١٣٣ - ١٤٦ ومواضع شتى

نزهة الالباء للانباري ٣٦٦

وفيات الاعيان ١ - ٦٢ والرسالة الحاقية فيه (في سيرة الحاقمي)

مفتاح السعادة (لطاش كبري زاده) طبع الهند ج ١ ص ١٩٢

الصبح المنبي للبديعي الدمشقي على هامش شرح المعكبري

خزانة الادب للبغدادي (مصر ١٢٩٩) ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٩

ومن الشروح شرح الواحدي والمعكبري واليازجي والبرقوقي .

وبما كتب فيه حديثا :

رسالة ابراهيم اليازجي في ذيل شرحه للمتنبي

ابو الطيب المتنبي لمحمد كمال حلمي

حصاد الهشيم للمازني ١٨٤ - ٢٢٧

المتنبي لسفيق جبري ، مجلة المجمع العلمي مج ١٠ ج ٥ - ١٢

ذكرى ابي الطيب لعبد الوهاب عزام

مع المتنبي لطف حسين

الانس المفيد ٣٣٠ - ٣٦٣

المقتطف مج ١٧ - ٣٦١

العدد الخاص ببوبيله الالفية من مجلات المقتطف ، والهلل ، والحديث

والعصبة ، غير ما كتب في كتب التاريخ أو دوائر المعارف لكتّاب عرب ومستشرقين .

نشأته الأولى

لم يكد يفتصف القرن الرابع الهجري حتى كانت الدولة العباسية تتنازعها عوامل الانحلال . فكانت دار الخلافة في بغداد بين مولد المتنبي ووفاته ، أي أيام المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع تحت نفوذ بني بويه أصحاب السيادة في فارس . وكانت حلب والموصل وما إليها في يد بني حمدان ، ومصر وأكثر الشام والحجاز في يد بني طنج ، وسائر الاقطار لغيرهم من الامراء المستقلين . ولم يبق للخلافة من رونق ، وكثر الادعاء والثائرون حتى عمت الفوضى السياسية . بين هذه الاضطرابات السياسية القومية نشأ شاعرنا ، وكان مولده في مدينة الكوفة بالعراق ، وفيها نشأ نشأته الأولى . وكان يتردد بين البادية والحضر^١ ، فاكسب من الأولى صلابتها ونزعتها البدوية ومن الثانية علومها وثقافتها الأدبية . ولا نعلم عن صباه كثيراً ، ولكن الثعالبي الذي ولد قبل وفاة المتنبي بأربع سنوات - والذي دون في كتابه الشهير « بليغة الدهر » أخبار شعراء عصره ومن تقدمهم قليلاً - ذكر ان أباه سلمه إلى المكاتب وردده في القبائل ، وانه توفي وقد ترعرع ابو الطيب وشعر وبرع^٢ . ونقل البغدادي عن أبي القاسم الاصفهاني انه كان يختلف إلى كتاب فيه أولاد اشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية لغة^٣ وشعراً واعراباً^٤ الخ . ويذكر البديعي الدمشقي في الصبح المنبي انه تعلم القراءة والكتابة وانه أخذ أكثر علمه من ملازمة الورّاقين^٥ (باعة الكتب) . وفي مقدمة شرح

١ البليغة ج ١ - ٧٨ .

٢ البليغة ج ١ - ٧٩ .

٣ خزائن الادب ١ - ٣٨٢ .

٤ الصحيح المنبي (على هامش المكبري ١ - ٦) .

اليازجي للدويان انه لقي كثيرين من اكابر علماء الادب منهم الزجّاج وابن السراج والافخش وابن دريد وأبو علي الفارسي وغيرهم ، وتخرّج عليهم فخرج نادرة الزمان في صناعة الشعر . فيستدل من هذا ان شاعرنا تعلم القراءة في المكاتب على عادة الصبيان ، وكان ذكياً محباً للاستزادة فلازم الوراقين يطالع دفاترهم وحضر حلقات العلماء في زمانه .

وهناك أمر آخر نعلمه عن صباه ، وهو تردّده الى بادية السماوة واقامته زمناً بين اعرابها . ويستنتج من مختلف الروايات ان تردّده كان أولاً إلى بادية الكوفة ، ثم انتقل وهو حوالى السابعة عشرة من عمره إلى بلاد الشام . وفي هذا الطور من حياته شيء من الغموض إذ لا نراه مستقرّاً في مكان خاص ، فتارة في المدن ، وطوراً بين قبائل البادية ، يمدح بعضاً من ذوي النفوذ ، ولكنه لا يجد في مدحهم ما يروي ظمأ نفسه النزاعة إلى العلى .

وهكذا يعبس له الدهر فيشبّ ناقماً ثائراً . ويتاح له ان يتصل في البادية بقبائل بني كلب ، ويدرك نزعاتهم إلى التمرد ، فيتمكن ببلاغته وحاسة الشباب فيه من تحريكهم تحريكاً يلفت نظر الحكّام ، فيقبض عليه بأمر من والي حمص ويلقى في السجن وهو في نحو التاسعة عشرة . ولم نتحقق كم بقي فيه قمّاماً ، ولكننا نستنتج انه بقي فيه مدة غير سيرة (نحو سنتين) . وكان أول دخوله السجن يظهر الاستخفاف بأحواله — ومن أقواله في ذلك الحين أبيات كتبها إلى صديق له يدعى أبادلف كان يتعمده وهو في السجن ^١ :

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطئتُ للموت نفس معترفٍ
لو كان سكنائي فيك منقصةً لم يكن الدرّ ساكن الصدفِ
على انه لقي في السجن عذاباً شديداً ، فقد وضعوا القيود في رجله

١ شرح الواحدي (برلين) ٨٠ .

وعنقه^١ . ولما طال اعتقاله فقد صبره فأرسل إلى الوالي قصيدة يستعطفه ويتعذر إليه بصفر سنة قال منها :

امالك رقتي ومن شأنه	هبات اللجين وعنتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء	والموت مني كعجل الوريد
دعوتك لما براني البلاء	وأوّه من رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيها في النعال	فقد صار مشيها في القيود
تُعجّل فيّ وجوب الحدود	وحديّ قبل وجوب السجود
وقيل عدوت على العالمين	بين ولادي وبين المقود
فما لك تقبل زور الكلام	وقدر الشهادة قدر الشهود

وهذه الابيات نفثات رجل متضايق نفذ صبره وخاف مغبة الامر ثم راح يستثير عواطف الوالي ورحمته فقال :

بيدي أها الأمير الاريب^٢ لا لشيء الا لاني غريب^٣
 أو لأمّ لها إذا ذكرتني دمّ قلب بدمع عيني يذوب
 ان اكن قبل ان رأيتك اخطأت فاني على يديك أتوب

قال ابن خلكان : « ثم استتابه الوالي وأطلقه^٤ . ولكن من أيّ شيء استتابه ؟ هنا تتضارب آراء المؤرخين . فان خلكان يجعل ادعاءه النبوة سبب سجنه وقد تبعه في ذلك كثيرون ، وهو قول يحتمل الشك . فان بين معاصري ابن خلكان أو من تقدّمهم من يزعم غير ذلك بدليل قوله : « وقيل غير ذلك^٥ . أما الثعالبي فجعل السبب انه دعا إلى بيعته قوماً من رائيي نبه ، ولما ذكر النبوة قال : « ويحكى انه تنبأ في صباه وفن شرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه^٦ . وفي كلام الثعالبي إشعار بالشك في

١ الصبح المني ١ - ٣٤ .

٢ وفيات الاعيان ١ - ٦٤ .

٣ » » » »

٤ اليقظة ١ - ٨٠ .

الحكاية ، وقد نقل تعزيزاً لهذا الشك ما رواه ابن جنّي تلميذ المتنبي وشارح ديوانه إذ قال : سمعت أبا الطيب يقول انما لقّبت بالمتنبي لقولي^١ :

«أنا قرب الندى وربّ القوافي وسمام العدى وغيظ الحسودِ

أنا في أمة قداركها الله غريب كصالح في ثمود ،

وعن العمدة^٢ : «زعم أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي ان أبا الطيب سمّي متنبياً لفطنته» .

ويتناول البديعي صاحب الصبح المتنبي المتوفى ١٠٧٣هـ ، أي بعد المتنبي بأكثر من سبعة قرون ، هذه المسألة وينقل لنا بعض حكايات عن نبوته لا يسع المتأمل الا ان يتردّد في قبولها على علاقتها - أولاً لتراخي المدة بينه وبين الشاعر ، وثانياً لما فيها من الاضطراب ، وثالثاً لانه ليس في ما ذكره معاصروه ما يثبتها . والذي يصح ان نستنتجه علماً من الروايات المختلفة ان المتنبي وهو في أوائل شبابه ظهر في البادية على رأس فئة من الاعراب فاقمة على اولي الأمر^٣ ، وانه كان بفطنته وفصاحته يستهويهم الى غاياته من حب الظهور والرئاسة . ولكن أمره لم يتم فالقي القبض عليه وأودع السجن ثم خرج منه ، وما عثم ان لصق به اسم المتنبي^٤ .

بعد السجن الى اتصاله بسيف الدولة (٣٢٣ - ٣٣٧هـ)

ولما أطلق سراحه أخذ يحول في أقطار البلاد الشامية مادحاً أعيانها . بقي

١ القيمة ١ - ٨٠ وشرح المكبري ٢٠١ ج ١ .

٢ العمدة ١ - ٤٥ .

٣ راجع الراحدي ٨٣ وتعليقه على عمره واجتماع العصاة اليه .

٤ فلفت النظر هنا إلى رأي المستشرق بلاشير الذي يرى ان ادلي الامر قوهوا ان لقيامه في بني كلب علاقة بمجرة الغرامطة (راجع دائرة المعارف الاسلامية - تحت المتنبي) .

وتحقيق الاستاذ محمود شاكر أخذاً برواية الانباري ٣٦٩ ان المتنبي لم يدع النبوة بل ادعى النسب العلوي وانه لأجل ذلك حبس ثم استتيب (المقتطف مج ٨٨ ج ١ ص ٤٩) .

على هذه الحال بضع سنوات^١ ، حتى اتصل سنة ٣٢٨ بالأمير العربي بدر بن عمار وكان يتولى الجيش في طبريا ، فلزمه ومدحه ، وقد رأى فيه ضالته المنشودة من كرم ورجولة ومجد قومي . ولكن اتصاله به لم يطل^٢ ، فقد دخلت بينها مكابد الحساد والمناوئين حتى اضطر إلى تركه والرجوع إلى ما كان عليه من التنقل في الاقطار . وله في هذه المدة من الشعر ما يكاد يبلغ نصف ديوانه وأهم ممدوحيه فيها :

بدر بن عمار ٦ قصائد . آل اسحق التنوخي ٧ . ابناء يحيى البحري ٣ قصائد . عبدالله بن خلكان ٢ . شجاع الطائي ٢ . مساور الرومي ٢ . المغيث المجلي ٢ . علي بن محمد التميمي ٢ . الأمير محمد بن طفج وأبو العشائر الحمداني ٦ ونحو ٢٥ ممدوحاً قصيدة قصيدة .

وشعره في بعض هؤلاء من الطبقة الاولى - كقصائده التالية :

في الحد ان عزم الخليط رحيلاً
بقائي شاء ليس هم ارتحالاً
لا افتخار الا لمن لا يضام
افاضل الناس اغراض لذا الزمن
لك يا منازل في القلوب منازل
اطاعن خيلاً من قوارسها الدهر
بأبي الشمس الجانحات غوارباً

وغير ذلك من القصائد العامرة التي يرددها الخاص والعام في كل مكان . على انه لم ينل في هذه السنوات ما يستحق الذكر . وما زال هذا دأبه ينتقل من مكان إلى آخر حتى لفته المقادير إلى انطاكية . وكان فيها أبو العشائر الحمداني والياً من قبل سيف الدولة ، فدحه المتنبي . ولحسن حظه قدم انطاكية في تلك الاثناء سيف الدولة ، فقدم أبو العشائر المتنبي

١ زار في أثناءها الكوفة وبقي فيها مدة بقرب جدته .

٢ لعله لم يكن أكثر من سلتين إلى ثلاث .

اليه وأثنى عليه ، وكان ذلك بدء اتصاله بهذا الأمير الشهير ، وبدء
سعادته من جاه ومال وفير .

في حلقة سيف الدولة (٣٣٧ - ٥٣٤٦)

كانت حلب أيام المتنبّي عاصمة لامارة عربية تشمل الجزيرة وشمال
سوريا ، أميرها علي بن حمدان الملقّب بسيف الدولة . وقد اشتهر هذا
الأمير بجهاده في محاربة الروم حتى بلغت غزواته نحو اربعين^١ . وكانت
ساحة جهاده منطقة الثغور - أي المدن والحصون الواقعة على حدود الروم
(الاناضول) ، ومنها انطاكية وزرّبطره وملطية والحدث^٢ وخرشنة ومرعش
وغیرها ، مما يرد ذكره كثيراً في شعر المتنبّي . ولم يكن سيف الدولة موفقاً
في كل غزواته الرومية ، ولكنه احرز في تاريخ العرب مجد المجاهد الكبير .
والذي يلفت النظر تنازع امراء المسلمين أنفسهم يومئذ وتناحرهم على السيادة .
فبنو حمدان في حلب ، وامراء مصر الاخشيدية ، وبنو بويه في بغداد
كانوا في نزاع مستمر وعداوة مستحكمة . وقد تمكن سيف الدولة بسخائه
وعطفه على الادب ولكون امارته موئل الروح العربية في ذلك العصر ، ان يجمع
حوله حلقة من كبار الادباء والعلماء ممن كان يحزل لهم العطايا ، فخلدوا
اسمه في سماء الادب . ومن هؤلاء ابن عمه ابو فراس ، ومعلمه ابن
خالويه ، وابو الفرج البیضاء ، وابو عبد الله الخلیع ، والوأواء الدمشقي ،
وابو بكر وابو عثمان الخالديّان ، وابو الطيّب اللغوي ، والسريّ الرفاء ،
وابو علي الفارسي ، وابن نباتة ، ثم ابو الطيب المتنبّي ، والصنوبري ،
والفارابي ، والاصفهاني صاحب الاغاني وأمثالهم .

ولما اتصل به شاعرنا نال الحظوة عنده والرعاية الخاصة : جاء في الصباح
المنبي ان سيف الدولة قرّبه وأجازة الجوائز السنيّة ، ومالت نفسه اليه

وأحبه ، فسلمه للرواض فعملوه الفروسية والطراد والمثاقفة ^١ وقد صحب
المتنبي أميره في بعض غزواته وأظهر من الفروسية والشجاعة ما يذكر
له : روي انه في إحدى تلك الغزوات تراجع الجيش ولم يثبت غير
سيف الدولة وستة رجال أحدهم المتنبي ^٢ . وقد يشك في هذه الرواية
ولكن مما لا شك فيه ان شعره يفيض بروح الشجاعة والاقدام ، ولا
نرى في حياته ما يناقض ذلك .

* * *

دخل المتنبي حلقة سيف الدولة ، وفيها من ذكرنا من كبار الشعراء
والادباء ، فشق على نفر منهم اذ ينال ما ناله من الامير ، وزاد غيرتهم
منه وكرههم له ما في نفسه من صلابة وتعاظم . وانك لتلمح في شعره
ما كان يقاسيه منهم ، وقد اضطر ان يطعنهم بقوافيه كقوله :
ازل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسدا
وقوله :

افي كل يوم تحت ضربي شويمر ضعيف يقاويني قصير يطاول
وقوله :

بأي لفظ تقول الشعر زعنفه تجوز عندك لا عُرْب ولا عجم
الى غير ذلك من سمات التحقير التي قلما تخلو منها قصيدة من قصائده
في سيف الدولة . ولم يكن حساده ليسكتوا عنه ، فاخذوا يكيدون له
ويحاولون الايقاع به ، ولا سيما ابو فراس الشاعر المشهور ^٣ . فمن ذلك
ما نقله البديعي عن ابن الدهان في المآخذ الكندية : « قال ابو فراس
لسيف الدولة ان هذا المسمي كثير الإدلال عليك ، وانت تعطيه في كل
سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاثة قصائد ، ويمكن ان تفرق مئتي دينار

١ راجع الصبح المنبي ١ - ٥٤ .

٢ راجع الصبح المنبي ١ - ٥٥ .

٣ يرى الاستاذ محمود شاكر ان المتنبي كان يجب خولة أخت سيف الدولة وان سيف الدولة وعده
سراً بها فاتصل ذلك بعلم أبي فراس وكان سبباً في العداوة بين الرجلين ، المقتطف مج ٨٨

على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره^١ ، (وفي خزانة الادب ان ما ناله في اربع سنوات بلغ ٣٥ الف دينار^٢) - فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل به .

فسيف الدولة بعد ان خص الشاعر بالعطف ، وبعد ان نظم الشاعر فيه نحو ٤٨ قصيدة عامرة (وهي لا تقل عن ثلث ديوانه) تولاه انحراف عنه وأصغى الى أقوال خصومه فيه . ولم يُجِدِ الشاعر استعطافه وتنويعه بالرحيل عنه ، فتجروأوا عليه حتى كان ما كان من ضرب ابن خالويه له بالمفتاح في حضرة سيف الدولة . ورأى المتنبي انه لا يستطيع دفاعاً وانتقاماً في حضرة أمير نافر منه ، وخصوصاً يترهبون به ، فتارك حلب بدعوى المسير الى اقطاع له^٣ ، وفي نفسه ما فيها من الغيظ ، وقصد الشام فالرملة . ثم طلبه كافور الى مصر فتلكأ أولاً ، على انه لم يلبث ان رحل اليه ونفسه تسوّل له انه سيبلغ هناك من المجد ما يغيظ الحاسدين - وقد صرح بذلك إذ قال :

أبا المسك ارجو منك نصراً على العدى وآمل عزّاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالةً اقيم الشقا فيها مقام التنعم
ولكنه لم يبلغ ما كان يروم .

في مصر (٣٤٦ - ٣٥٠ هـ)

مر معنا ان مصر كانت في يد الاخشيدية بني طفج ، وهم امرأ يرجع نسبهم الى ملوك فرغانة . ولما هبط المتنبي مصر كان أميرها الحقيقي قاصراً ، وقبم الملكة الاستاذ كافور ، وهو عبد اسود كان مولى لبني طفج ، ولكنه كان - على ما يظهر - داهية ، فاستبد بامور مصر واصبح هو الأمر الناهي

١ راجع الصبح المتنبي ١ - ٦٥ .

٢ خزانة الادب ١ - ٣٨٤ .

٣ خزانة الادب ١ - ٣٨٤ .

او كما قال شاعرنا فيه :

يدبتر الملك من مصر الى عدن الى العراق فارض الروم فالنوب
قال ابن خلكان : « وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه
والديار المصرية وبلاد الشام » .

قصد شاعرنا كافوراً تتنازعه عاطفتان : الاولى ما كان يشربه من
الغليظ لما أصابه في حلب ، والثانية رغبته ان يحصل بواسطة كافور على
ولاية . أما غيظه من سيف الدولة فلم يصل الى حد الكره ، إذ بقيت
في نفسه بقية من الحب والوفاء له . وقد صرح بذلك في بعض قصائده
لكافور كقوله :

فلو كان مابى من حبيب مقنع عذرت ولكن من حبيب معتم

رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى هوى كاسر كفي وقوسي واسهمي

ولذا وصف الثعالي شعره : « يجمال الرمز والاشارة كجمعه بين مدح
سيف الدولة حين فارقه ومدحه لكافور » . واما رغبته في الولاية
والامارة فكان يلتمح اليها تليحاً لم يخف على أحد كقوله :

وما رغبتي في عسجد استفيده ولكنها في مفخر أستجده

وقوله :

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكاً للمراقين واليا

وقوله :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب

إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب

إلى غير ذلك من الابيات التي تُشعر بما كان يتطال اليه وما كان يحدث
نفسه به .

وقد نقل البديعي انه طلب ان يوليه صيدا من بلاد الشام ، أو غيرها

١ وفيات الاعيان ٢ - ١٨٨ . راجع سيرته في خطط القريني ٢ - ٢٦ .

٢ التينة ١ - ١٥٨ .

من بلاد الصعيد^١ .

وبين هاتين العاطفتين - الغيظ والطمع - مدح كافور بعشر قصائد
هن من أفخر ما نظمه وسيأتي ذكرها .

على ان اتصاله بهذا الامير لم ينله مراده . نعم نال منه كثيراً من
الخلع والجوائز والاموال ، ولكن الامر الذي كان يصبو اليه ، تلك
الامنية التي شغلت عقله - ولا سيما بعد ان وعده كافور بأن يبلغه جميع
ما في نفسه^٢ لم يأنس في وجه بمدوحه غير الاعراض عنها ، فاضطربت
روحه حتى صار يستنقل وجوده في مصر ويتمنى الخروج منها .

ولحظ ذلك منه كافور فخاف ان هو أطلقه ان ينقلب عليه بالطمع ،
وهو المستبد بحكم مصر دون مليكها الحقيقي ، فمنعه من الرحيل .
وظل على هذه الحالة المزعجة سنته الاخيرة في مصر لا يلقي كافوراً الا
ان يركب فيسير معه في الطريق لثلا يوحشه^٣ . وله في ذلك قصيدة
غراء يصف بها حاله ويصف حى اصابته ، مطلعها :

ملومكما يحلّ عن اللام وقع فعالة فوق الكلام

وهي من بدائعه وسيرد ذكرها . وكان في ذلك يعدّ العدة للهرب
حتى تمكن منه يوم عرفة سنة ٥٣٥٠ هـ ، فقصده العراق ووصف مسيره
بقصيدة مطلعها :

الا كلّ ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيدبى

وفيهما يعدّ الاماكن التي مرّ بها ، ويصف شجاعته واقدامه بأبيات
تنضح بالكبر كقوله :

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالمواضع اني الفتى

١ الصبح المنبى ١ - ١١٥ .

٢ الصبح المنبى ١ - ١١٣ وفيات الاحيان ١ - ٦٤ وفي العدة ١٠ - ٥ ؛ انه وعده
بولاية بعض أعماله .

٣ شرح اليازجى ٥٤٨ .

واني وفيتُ واني أبيت واني عتوت على من عتا
ومن يك قلبٌ كقلبي له يشقّ الى العزّ قلب التّسوى
ثم يختمها بهجاء كافور . وله في هجائه بضع قصائد اوحاها اليه حب
التشفي والفشل .

بين العراق وبلاد فارس - خاتمة حياته (٣٥٠ - ٣٥٤ هـ)

ترك مصر في أواخر ٣٥٠ هـ قاصداً الكوفة فوصلها في جمادى ٣٥١
وأقام فيها^١، ثم أمّ بغداد . ولا نعلم متى كان ذلك بالضبط ، ولكننا
نعلم انه بقي في العراق نحو ثلاث سنوات - والارجح انه قضى منها
سنتين في الكوفة . وكانت بغداد يومئذ بيد معزّ الدولة البويهى ، وكان
وزيره المهلبى يأمل ان يقصده المتنبى ويمدحه اسوة بالكبراء الذين
مدحهم ، ولكن الشاعر ترفع عنه « ذهاباً لنفسه » كما قال الثعالبي
« عن مدح غير الملوك^٢ » ، أو لنفوره من سخافة المهلبى واستهتاره
بالهزل^٣ . فنقم الوزير ذلك منه وحرّض عليه شعراء بغداد حتى نالوا
منه وتباروا في هجائه وتماجنوا وتنادروا، فلم يحببهم ولم يفكر فيهم^٤ .
وقيل له في ذلك ، فقال : « اني فرغت من إصابتهم بقولي لمن هم
أرفع طبقةً منهم في الشعراء :

أرى المتشاعرين غُرّوا بذمتي ومن ذا يحمد الداء العضّالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض يحمد مرّاً به الماء الزلالا
وبقولي :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل
قال ابن رشيق : « ان المتنبى حين بُلي بحماقات ابن حجّاج البغدادى

١ الصبح المنى ١ - ١٤٤ .

٢ البليمة ١ - ٨٥ .

٣ خزّانة الادب ١ - ٣٨٦ .

٤ البليمة ١ - ٨٥ .

سكت عنه اطرأحاً واحتقاراً ، ولو أجابة لما كان هو بحيث هو من الأنفة والكبر ، لأنه ليس من انداده ولا من طبقة ' .

وجرت له مع ابي علي الحاتمي حادثة ذكرها ابن خلكان في سيرة الحاتمي وذكرها البديعي في الصبح المنبي ، وسرد ذكرها في كلامنا على اخلاقه .

ولما لم يطب مقامه في بغداد فارقها ليلاً متوجهاً الى ابي الفضل ابن العميد مراغماً للوزير المهلتي ، فورد ارتجان ومدح ابن العميد بأربع قصائد واحد مورده عنده .

وكان للصاحب ابن عباد يطمع في زيارة المتنبّي اياه في اصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب وحاله حويلة ، ولم يكن قد استؤزر بعد ، فكتب اليه يلاطفه ، لكن المتنبّي لم يقم له وزناً ولم يحبه عن مراده ^٢ فكان ذلك سبب عداوة الصاحب له والظمن فيه ، وانشائه رسالة في مساوىء شعره .

وسار شاعرنا الى شيراز قاصداً عضد الدولة فتلقاه بالترحيب . ونظم المتنبّي فيه ثمان قصائد ، فأجزل له العطاء ثمّ رجع من شيراز بثروة كبيرة تبلغ مئتي الف درهم ، ما عدا الخلع والهدايا والتحف ^٣ . وفي طريقه الى الكوفة خرج عليه فائق الأسدي في نحو عشرين من رجاله وكان مع المتنبّي ابنه محمّد ونفر من غلمانهم وجمال تحمل أمواله وتحفه ، فجرت بينهم موقعة انتهت بمقتل الشاعر وابنه وبعض أتباعه . هكذا قضى أبو الطيب . وعلى مقربة من سواد بغداد وفي رمضان من سنة ٣٥٤ هـ خدمت تلك النفس التي نشأت نزاعة الى المجد ، حريصة على غرور الدنيا ، فحملت صاحبها ثارة على تجشّم الاهوال والضرب في الآفاق ، وطوراً على

١ العمدة ١ - ٧١ .

٢ البيهقي ١ - ٨٦ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢٢١ .

الوقوف في أبواب الملوك والامراء طمعاً في «مفخر يستجدّه» أو جاء يناله . ولكنه آب بالفشل وترك لنا بفشله من الحكم البالغة ما لا تزال ألسنة الزمان تردده في كل مكان .

مزاياه الخلقية

برغم ما كان يظهر في شعر المتنبي من التزلف والاستجداء ، وبرغم بعض مساوئه التي قلما يخلو منها انسان ، نرى له صفة عامة تتخلل جميع صفاته وتتجلى لنا عند التأمل في ذاته ، وأهم ظواهرها : التعاضم والطمع بالمجد مقرونين بشيء من عدم الكياسة . واليك بيان ذلك :

تعاضمه او اعتداده بنفسه

لم يكن المتنبي وحيداً بين الشعراء في هذه المزية ، ولكنه بلغ منها ما لم يبلغه سواه حتى ولا ابو تمام . وفي اخباره شواهد لا تترك للشك مجالاً . منها ما يلي :

١ - انه لما اتصل بسيف الدولة اشترط عليه ان لا ينشده الا وهو قاعد وان لا يقبل الارض بين يديه ^١ وقد ذكر ابن خلكان انه لما انشد قصيدته « لكل امرئ من دهره ما تعودا » قال بعض الحاضرين يريد ان يكيد : « لو انشدها قائماً لأسمع » ، فقال ابو الطيب : « اما سمعت اولها : لكل امرئ من دهره ما تعودا » ^٢ .

ويظهر مما نقله البديعي : ان سيف الدولة كان حيناً يقتاط من تعاضمه ، ويحفو عليه اذا كلمه ^٣ . ولعل لذلك علاقة بنجاح اعدائه في تنفير الامير منه ، كما ان لفشله في مصر علاقة بما كان يراه كافور من تعاليه

١ الصبح المنبي ١ - ٤٧ .

٢ وفيات الاعيان ١ - ٦٦ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٧٣ .

في شعره ١ .

٢ - سوء سياسته وعدم مداراته . فانه بعد ان كان أيام خوله يمدح القريب والبعيد ويصطاد كما قال الثعالي « ما بين الكركي والعندليب » ، أخذت نزعة الكبر تشتد فيه حتى صار في ابان شهرته يترفع عن غير الملوك والامراء ، وينظر الى سواه نظر الكبير الى الصغير ، وكان ابو علي الفارسي يستثقله لما يأخذ به نفسه من الكبر ٣ : ومن شواهد ذلك ما جرى له مع وزير كافور ومع الوزير المهلبتي والصاحب ابن عباد وسواهم .

ومن رسالة الحاتمي يلمح ما كان يرى فيه زملاؤه من روح التسامخ . وهذه الرسالة كتبت في مساوىء المتنبي ، وكتبها من أدباء بغداد الذين أغرامهم المهلبتي به . قال صاحبها : « لما ورد أحد بن الحسين المتنبي مدينة السلام منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير ابي محمد المهلبتي التَّحَف رداء الكبر وأذال ذبول التَّيه ، ونأى بجانبه استكباراً ، وثنى عطفه جبريَّةً » وازوراراً ، فكان لا يلاقي احداً الا أعرض عنه تيهاً ، وزخرف القول عليه تمويهاً - يخيَّل عجباً اليه ان الادب مقصور عليه ، وان الشعر بحر لم يرد غير مائه غيره ... فغبر جارياً على هذه الوتيرة مدة مديدة ، الى ان يقول : « وثقلت وطأته على كثير ممن وسم نفسه بميسم الادب . وساء معز الدولة احمد بن بويه ان يرد حضرته ، وهي دار الخلافة ومستقر العز وبيضة الملك ، رجل صدر عن حضرة سيف الدولة بن حمدان - وكان عدواً مبيناً لعز الدولة - فلا يلقي احداً بملكته يساويه في صناعته . وتخيل الوزير المهلبتي رجماً بالغيب ان احداً لا يستطيع مجادلته ولا يرى نفسه كفواً له ... فنهدت له متبعماً عواره ومقلماً اظفاره » .

ثم يذكر انه قصده على بغلة سفواء في موكب رائع ، وان المتنبي

١ وفيات الاعيان ١ - ٦٤ .

٢ اليتيمة ١ - ٨٢ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢١٠ .

لما رآه داخلاً وأرى شخصه لكي لا يقف له . ثم يصف كيف قوبل هو بالترحيب والتكريم ، وإن المتنبي لما دخل جلس في صدر المكان ، وأعرض عن الحاتمي وأبى إلا ازوراراً واستكباراً ، حتى ما كان بينهما من المناقشة والمساجلة . والرسالة طويلة تدخل في نحو ١٢ كراسة ، وقد نقل ابن خلكان قسماً منها ، وكذلك البديعي في الصبح المنبي^١ .

وقال البديعي : « كان الرجل سيء الرأي ، وسوء رأيه أخرجه من حضرة سيف الدولة ، وشدة تعرضه لعداوة الناس^٢ » .

ولا شك أن الحسد وحده لم يكن السبب في عداوة أدباء حلب أو بغداد له ، ولو كان المتنبي على شيء من اللطف لما وصل إلى ما وصل إليه : ففي طبعه كما قال ابن رشيق غلظة^٣ ، وفي شعره ترى هذا الخلق ظاهراً في كل أدوار حياته .

٣ - شعوره بالتفوق .

ومن رسالة الحاتمي المار ذكرها يظهر لك أثر هذا الشعور في نفوس البغداديين - قال الثعالبي : « كان يخاطب الملوك مخاطبة الصديق والمحبوب ، وهو مذهب تفرّد به رفعاً لنفسه عن درجة الشعراء^٤ » . فمن قوله في صباه :

أمطُ عنك تشبيهي بما وكأنا فما أحدٌ فوقِي ولا أحدٌ مثلي
وقوله :

إن أكن معجباً فعجب عجب لم يحد فوق نفسه من مزيد
كبرياء ولدت فيه وظهرت في صباه فرافقه إلى آخر حياته . ودويانه مشبع بهذه الروح - ماتت جدته فاضطرب لموتها ورثاها فلم يتألك عن

١ رفيات الاعيان ٢ - ٣٣٢ وهامش شرح المكبري ١ ص ١٤٤ - ١٧٣ .

٢ الصبح المنبي ١ - ١٢٣ .

٣ العمدة ١٣٣ .

٤ اليتيمة ١ - ١٣٩ .

ان يصيح في وجه الزمان :

لئن لذت يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغبها
تقرّب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الا لحالقه حكماً
يقولون لي ما انت في كل بلدة وما تبغني؟ ما ابتغني جل ان يُسمى
كانت بنبيهم عالمون بأنني جلوب اليهم من معادنه اليتم
واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف ان تسكن اللحم والعظم
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهي ويا نفس زيدي في كراحتها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزّني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ومدح ابا سهل الانطاكي فلم يلبث حتى تغلب عليه طبعه فقال :

ابدر فيسجد من بالسوء يذكرني فلا اعاتبه صفحاً وإهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ان النفيس غريب اينما كانا
محسّد الفضل مكذوب على اثري القى الكمي ويلقاني اذا حانا

وهذا الشعور بالتفوق كثيراً ما يظهر في شاعرنا بمظهر الشجاعة البالغة
حدّ الثهور . انظر اليه في مجلس سيف الدولة - في جو مشبع بروح
العداء له وحوله خصوم الداء كأي فراس وابن خالويه وأضرايها ،
وقد حملوا سيف الدولة على الاعراض عنه وسوء الظن به ، فلم ينخفض
له جناح ، ولم تستول عليه رهبة ، بل عاتب الامير ثم أشار الى من
حوله وقال بنفس تفيض كبراً :

سيملم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي واسمعت كلماتي من به صمم
وجاهل مدّه في جهله ضحككي حتى اتته يد فراسة وقم
اذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظن ان الليث يبتسم
كم تطلبون لنا عيباً فيمعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما ابعد العيب والنقصان من شرّفي انا الثريا وذان الشيب والهرم

ومنها يَلْتَحِ بعزمه على الرحيل :

لئن تركنا ضُميراً عن ميامننا ليحدثنّ لمن ودّعته ندم

وهذه القصيدة شهيرة وفيها تتجلى نفسية هذا الرجل الغريبة .

ومن أدلة شجاعته بل تهوّره ما ذكره ابو نصر الجبلي للخالديتين عن مقتله ، والرجل شاهد عيان رأى الشاعر قبيل مقتله وحادثه ، وقد حذّره من فاتك الاسدي ورجاله ونصح له ان يستصحب معه من يخفّره ، فأجابه المتنبي : « والله لا ارضى ان يتحدث الناس اني سرت في خفارة احد غير سيفي - معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين » . قال فقلت له قل : ان شاء الله . فقال : « هي كلمة مقولة لا تدفع مقضيّاً ولا تستجلب آتياً » ، ثم ركب فكان آخر العهد به . ذكر ذلك البديعي في حديث طويل ^١ . وقد حاول بعضهم ان ينسب اليه الخوف والحذر ولكن سيرته لا تدل على ذلك ، وقد صدق الباقلاني اذ قال : « وكان المتنبي من اهل الشجاعة ^٢ » .

طموحه الى المجد

خُلِقَ المتنبي طموحاً الى المراتب العالية طامعاً بالحصول على مجد الدنيا .

أهمّ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد

وحيد من الخلان في كل بلدة اذا عظم المطلوب قلّ المساعد

صفة ظاهرة في كل حركاته وأقواله : فمنذ كان فتى في السابعة عشرة من عمره يحدثنا شاهد عيان بهذيانه في ذلك ^٣ . وما الحركة التي سجن لاجلها إلا دليل على هذه النزعة في نفسه . ولما فشل في اول عهده تحوّل نظره الى المال ، والى وجوب حشده لا بخلا او حباً بالمال لنفسه ،

١ الصبح المنبي ج ١ من ٢٢٨ - ٢٣٩ .

٢ اعجاز القرآن ١٢٤ .

٣ الصبح المنبي ١ - ٢٥ .

ولكن توصلاً به الى غاياته . ولعلته تذكر حادثة جرت له في الكوفة وهو غلام رواها البديعي في الصبح المنبي ^١ . وخلصتها انه أراد ان يشتري بطيخاً من بائع فلما ساومه على الثمن جبهه البائع واحتقره ، ثم جاء تاجر غني فرحب به البائع وباعه البطيخ محمولاً الى البيت بأجنس مما عرض عليه المتنبي . ولما رجع كلثمه المتنبي في ذلك فقال : اسكت ، هذا يملك مئة الف دينار . فوقع في نفس شاعرنا من ذلك الحين حب المال والحرص عليه ، وان الناس لا يحترمون غير صاحبه . وفي شعره ما يدل على ما كان في نفسه من ذلك كقوله :

واتعب خلق الله من زاد ممة وقصّر عما تشتهي النفس وجده
فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحلّ مجد كانت بالمال عقده
ودبرّه تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الاعداء والموت زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وقد ذكروا بعض حكايات عن حرصه وجشعه ^٢ ، ولكنها عند التدقيق لا تدلّ إلا على حزمه وحسن تقديره للمال ومعرفته بأحوال الدنيا . ولعل بعضها من تلفيق حساده كقصته مع سيف الدولة ، رؤيت عن ابي الفرج الببغا وصور فيها المتنبي أولاً رجلاً ذا كبر واباء لا يمدّ يده كما فعل سائر الشعراء ، ثم تتغير الصورة بغتة فيظهر فيها دينياً جشعاً - كل ذلك في مدة لا تتجاوز الدقائق القليلة .

كلا لم يكن المتنبي حشداً للمال مخافة الفقر وقد قال :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ولكنه كان يعرف قيمته وتأثيره في اكرام الناس له . كان شاعرنا معجباً بنفسه حريصاً ان يعجب الناس بها ايضاً ، ورأى في المال وسيلة لبلوغ ذلك فصار بعد خروجه من السجن يحوب الاقطار للحصول عليه ، ولكنه بقي

١ الصبح المنبي ١ - ٨٣ .

٢ اليتيمة ١ - ٨٥ والصبح المنبي ١ ص ٧٣ - ٨٣ .

حتى اتصاله بسيف الدولة لا ينال من ممدوحه الا الشيء اليسير . ورأى سني شبابه تطوى على الفقر والفشل فغلب عليه الكدر من الناس ولا سيما اولي الامر منهم ، وكثر تشكبه من الزمان واشتداده عليه ، فظهر ذلك في شعره كما سيجيء .

ولما اتصل بسيف الدولة أخذت الدنيا بتقسم له ، ونال عند ممدوحه ما كان يصبو اليه من كرامة ومال ، فطابت نفسه وقصر شعره على ذلك الامير العربي يصف غزواته ويمدح اخلاقه . وباقبال الدنيا عليه لم يحمده في نفسه ذلك الكبر الذي طبع عليه ، فكثر حساده ومبغضوه . ولم يكن دمثاً أو لين العريكة بل غلبت عليه صلابه الرأي ، مما أدى الى فتور الامير نحوه واشتداد الحساد عليه ، فاضطر كما ذكرنا الى ترك حلب وقصد مصر طامعاً بالمجد عن طريق الامارة - وقد مرت بنا ما كان من أمره في مصر ثم بالعراق وفارس .

ولم يكن فشله في مصر كافياً للقضاء على آماله قضاءً مبرماً ، ولكنه شلّ مطامعه الى حين ، ودفعه الى استجهاج القوى في الكوفة وبغداد نحواً من ثلاث سنوات .

ثم تراءت له فارس ورأى الفرصة السانحة فقصد عضد الدولة ورأى في حضرته ما جدد آماله . ولا نعلم ما كان يدور في خلد يومئذ ، وقد نال الغنى الوافر وأصبحت شهرته تملأ الخافقين . يتحدثنا المؤرخون انه ترك عضد الدولة قاصداً الكوفة - لأي غرض ؟ لا ندري . ولكن البديهي يروي في الصبح المنبى^١ انه استأذن عضد الدولة في المسير ليقضي حوائج في نفسه ثم يعود اليه فاذن له . فما الذي كانت تسوّل له نفسه ؟ وما كان يؤمل ان يبلغه على يد هذا الملك البويهي الكبير ؟ ذلك ما أسدل عليه الحمام حجاباً لا سبيل الى نفاذه .

١ هامش المكبري ١ - ٢٢٢ .

عصبيته ونسبه

في نفس المتنبي وفي شعره نزعة عربية شديدة . ولا غرابة فهو عربي يعني ينتمي الى قبيلة جُعْفى من جهة الاب ومهدان من جهة الام . زد على ذلك انه كان في عصر ضعفت فيه شوكة العرب واصبحت اكثر البلدان الاسلامية في ايدي أمراء من الفرس والترك ، فأوقد ذلك في نفوس العرب غيرة قومية زادها اضطراباً تلك المشادة بين الشعوبية والعربية ، وما كان يرمي اليه الفريقان من الانفرد بالذكر والفخر : ولا نعلم هل كان شاعرنا من الذين اشتبكوا في هذه المعركة الكلامية ام لا ، ولكننا نعلم انه كان متعصباً للعرب والحياة العربية . وقد قوى هذا التعصب فيه اقامته في البادية مدة طويلة وتعود عاداتها ، ثم اتصاه بسيف الدولة زعيم العرب في عصره . ولذا يكثر في شعره الفخر بأصله العربي وذم الاعاجم ، كقوله وقد جرى ذكر ما بين العرب والاكراد من الفضل ، فقال مخاطباً سيف الدولة :

ان كنت عن خير الانام سائلاً فخيرهم اكثرهم فضائلاً
من كنت منهم يا همام وائلاً الطاعنين في الوغى اوائلاً
والعاذلين في الندى العواذلاً قد فضلوا بفضلك القبائلاً

وفي قصائده لسيف الدولة تراه يكرر كثيراً ذكر العرب مفاخراً بهم كقوله :

رفعت بك العرب العماد وصيرت قم الملوك مساوفاً النيران
انساب فخرهم اليك وإنما انساب اصلهم الى عدنان
ومثل ذلك كثير في شعره . ومن أمثلة تعصبه للعرب قوله يمدح علي ابن ابراهيم التنوخي :

احق عافٍ بدمعك الهمم احدثُ شيء عهداً بها القدم
وانما الناس بالملوك وما تصلح عُربُ ملوكها عجم

لا أدبٌ عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
لكل ارض وطئتها امم تُرعى بعبد كأنها غنم

وتظهر نزعة البدوية في مدحه للاعرابيات ومقابلتهن بالحضریات ، وله
في ذلك أبيات مشهورة نذكر بعضها هنا وهي من قصيدته « من الجآذر
في زي الاعارب » :

ما اوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الآرام ناظرةً وغير ناظرة في الحسن والطيب
افدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
وقوله :

إن الذين اقمتم وارتحلوا أيامهم بديارهم دول
الحسن يرحل حينئذ رحلوا معهم ، وينزل حينئذ نزلوا
في مقلتي رشاً تديرهما بدوية فتفت بها الحلل
تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها ومن الذي تصل ؟
ما أسأرت في القعب من لبن تركته وهو المسك والعسل

فالمتنبى يمثل في شعره عواطف العرب وخيالاتهم ، وهو كثير التحنان
الى معيشتهم فخور بنسبه اليهم (وقد دعا نفسه في قصيدته - مقاني
الشعب - « الفتى العربي ») . يرى في فرسانهم منتهى الشجاعة وفي حسانهم
غاية الجمال . فتراهم من هذا القبيل يخالف ابا نواس وسواه من الذين عاشروا
الجواري الاعجميات وانغمسوا في اللهو معهن .

وعلى ذكر الجواري واللهو نقول انك لا تجد في حياة المتنبى او شعره
ما يدل على ميل الى ترف او عبث ، فقد عاش منذ صباه جاداً رزيناً
لا يهتم بما كان يتم به اكثر الشعراء من شرب مدام او مغازلة حسان ،
او انصراف الى المطربات من الالحان .

كقوله :

وغير فؤادي للغواني رميّة و غير بناني للزجاج ركاب^١
تركنا لاطراف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهن لعاب
أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

و خلاصة المعنى اني غير غزل بالنساء او محب للخمر قد قصرت نفسي
على الجد في طعمان الاعداء وتركت ما تشتهي الانفس من الملاهي .

وكان جدّه مقروناً بالصدق والصراحة . قال ابن جنّي : « ما عرفت
المتنبي إلا صادقاً^٢ » .

وهنا لا بد من القول ان بعض المؤرخين يزعمون ان اباه كان سقّاءً في
الكوفة^٣ . وبما قيل فيه :

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرةً وعشياً
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيّا

على اننا اذا دققنا في ذلك نجد ان أهم الثقات الذين دوّنوا سيرة المتنبي
يمرّون بهذا الزعم مرور المشكك . فالثعالبي مثلاً ، وهو كما مرّ بنا
قريب العهد بالشاعر (بل يكاد يكون معاصراً له) لم يزد على ان قال :
« وبلغ أبا الحسين ابن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقعة
شعراء بغداد فيه واستحقارهم له ، وكان حاسداً له طاعناً عليه زاعماً ان
اباه كان سقّاءً « بالكوفة^٤ » . وفي رواية الثعالبي ما يُشعر بشكه في صحتها .
ومثل الثعالبي ابن خلكان فانه لما أورد هذا الخبر قال : « ويقال ان ابا
المتنبي كان سقّاءً بالكوفة ثم انتقل الى الشام بولده^٥ » . ويقول البديعي

١ وروى ابن جنّي للرخاخ (من أدوات الشطرنج) .

٢ الخصائص ١ - ٢٤٨ .

٣ وفيات الاعيان ١ - ٦٥ واليتيمة ٨٦ .

٤ اليتيمة ١ - ٧٦ .

٥ وفيات الاعيان ١ - ٦٥ .

وكان والده الحسين يعرف بعبدان السقاء ، ثم ينقل عن ابن خلكان ما ذكره عن ابن لنكك وطعنه على المتنبي^١ . وفي ايضاح المشكل للاصبهاني « انه كان في الكوفة يختلف الى كتاب فيه اولاد الاشراف^٢ . فاذا دقت في هذه الروايات لم تجد فيها خبراً مجزوماً فيه ، بل لا تجد الا أقوالاً يصح ان نشكك فيها ، ويزيدنا تشكيكاً ان سقاء بالكوفة لا يحظى عادةً بوضع ولده في مكاتب الاشراف ، ولا ينتقل به الى بلد بعيد ، فبرّده بين المدن والقبائل . ولسنا هنا بمعرض الدفاع عن والده وتزيمه عن تعاطي مهنة كالسقاية ، ولكننا لا نستطيع الا ان نظهر شكنا بذلك اعتماداً على الروايات التي بين أيدينا .

على ان الرجل كان على ما يظهر فقير الحال مغمور الذكر ، ومع ذلك لم يتأخر عن تسهيل وسائل العلم لولده ، فنشأ الولد (شاعراً) بين المكاتب والوراقين . ولما ترعرع ونال من الادب قسطاً ظهرت عليه بوادر الطموح الى العلى ، ورأى تطاول الممالك والموالي على أسيادهم ، وكثرة القائين بالدعوات في المملكة العباسية والامارات المختلفة ، فحدثته نفسه ان يقوم بأعراب البادية ، وملكه هذا الوم حتى حبس وتاب . ولكن حب الرئاسة والولاية بقي يدور في رأسه^٣ ، وهو القائل من قصيدة لكافور :

وفؤادي من الملوك وان كان لساني يُرى من الشعراء

شهرته الشعرية

لم ينل شعر عربي من الشهرة ما ناله شعر المتنبي ، فهو بعيد الأثر في حلقات الادب شائع بين جميع الطبقات . ولم يكن حظه في عصره

١ الصبح المتنبي ١ - ٦ و ١٧٨ .

٢ راجع خزائن الادب ج ١ - ٣٨٢ .

٣ اليتيمة ١ - ٨١ .

بأقل من حظه اليوم . قال الثعالبي : « فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس ، ولا أقلام كتاب الرسائل أجري به من ألسن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد ألفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديته ، وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن ابكار كلامه وعونه ، وتفرقوا فرقا في مدحه والقدح فيه ، والنضح عنه والتعصب له وعليه . وذلك أول دليل دل على وفور فضله وتقدم قدمه ، وتفرداه عن أهل زمانه بملك رقاب القوافي ورق المعاني »^١ . وبعد موت المتنبي بأكثر من قرن نرى الواحدي يقول في مقدمة شرحه : « وان الناس منذ عصر قديم قد ولّوا جميع الاشعار صفحة الإعراض مقتصرين منها على شعر أبي الطيب ثابثين عما يروى لسواه » .

ومن دلائل شهرته ان كبار المترسلين في زمانه وبعده كانوا يستعينون بالفاظه ومعانيه ، ومنهم خصمه ابن عباد ، وابو بكر الخوارزمي ، وابو اسحق الصابي ، وابو العباس ابراهيم الضبّي^٢ . وقال ابن خلكان : « واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ، وقال لي احد المشايخ الذين أخذت عنهم : وقفت على اكثر من اربعين شرحا ما بين مطوّلات ومختصرات ولم يفعل هذا بديوان غيره »^٣ .

ولما تناول البديعي شهرته نقل ما أوردناه من كلام الثعالبي وزاد عليه اسماء شراحه ونقاداه (مثبتا بذلك كلام ابن خلكان) ومنهم :

ابن جنّي - وهو تلميذه وأول من شرحه .

أبو العلاء المعري - وله في ذلك : اللامع العزيزي ، ومعجز احمد ،

١ البيهقي ١ : ٧٨ .

٢ راجع أمثلة ذلك في البيهقي ١ : ٨٧ .

٣ وفيات الاعيان ١ - ٦٣ .

وكان من المعجبين بالمتنبي .

الواحدي - المتوفى ٤٦٨ - صاحب الشرح المشهور .

ابو زكريا التبريزي - ٥٠٢ - تلميذ المعري وشارح المعلقات والحماسة .

القاضي ابو الحسن الجرجاني - ٣٦٦ - صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه .

المكبري - ٦١٦ - صاحب الشرح المشهور .

ومنهم ابن فورجه البروجردي ، والصاحب ابن عباد ، والمغربي صاحب الانتصار ، والحاقمي ، والعميد صاحب الابانة ، وابن الاثير صاحب الاستدراك على ابن الدهان . ويسوق البديعي اسماءهم الى آخر القائمة ثم يقول : « سوى الشروح التي لم نسمع بذكرها . ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الاسلام شرح مثل هذه الشروح الكثيرة ولا تدوول في ألسنة الادباء من نظم ونثر أكثر من شعر المتنبي » .

ولابن رشيق القيرواني صاحب العمدة جملة مشهورة في المتنبي وهي : « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس » . وطبيعي انه لم يشغل الناس على غير طائل ، وما تصدّى له خصومه او دافع عنه مريدوه إلا لعلو مكانته ولبعد صيته ، حتى أصبح غرضاً لأقلامهم وغاية لتسابق اليها جيادهم .

وإذا رجعت الى قائمة شرّاحه ونقّاده العديدين تجدهم ثلاث فرق :

١ - الذين تحاملوا عليه وراموا الخط من قدره ، ومنهم صاحب بن عباد والحاقمي والعميدي وابو هلال العسكري وابو الفرج الاصفهاني ، ولعل ذلك كان سبباً لاغفال ذكره في كتابه الاغاني .

٢ - الذين لهجوا بفضله وبالغوا باكرامه ، ومنهم ابن جنس وابن

رشيق والواحدى والمعري وابن وكيع والعكبري وابن خلكان
والبديعي .

٣- المعتدلون الذين راموا التوفيق بين الطرفين ومنهم الجرجاني
والشعالبي وابن الاثير وهم الى قائمة مدّاحه أميل .

تناول هؤلاء العلماء شعر المتنبي وأسهبوا في ذكر حسناته وسيئاته -
والغالب فيهم ان يحذو المتأخر حذو المتقدم - حتى لم يتركوا زيادة
لستزيد على انهم قصرُوا همّهم على النقد اللغوي والبياني ولا سيما على
السركات الشعرية ، ولهم في هذه الاخيرة خبط وأوهام لا طائل تحتها .
وقد أجاد البديعي في التمييز بين المدح والمذموم من ذلك ، وبحث
في هذه المسألة بحث المنطقي المحقق^١ . وخلاصة ما ذكره ان للتنبي
حسنات وسيئات ، وان حسناته تنحصر فيما يلي :

(١) دقة الاشارة (٢) حسن التخلص (٣) حسن اختراع المعاني
(التشابه والاستعارات) (٤) وصف القتال وادواته (٥) حسن ضرب
المثل .

ويقابلها من السيئات :

(١) التعمية او الابهام في الكثير من أبياته (٢) شذوذه اللغوي^٢
(٣) تكلفه وتعسفه (٤) جمعه بين البليغ والسفاسف في القصيدة الواحدة .
وأمثلة الوجعين كثيرة تجدها في اليتيمة والوساطة والصبح المنبي
وسواها . والليازجي رسالة وافية في ذيل شرحه (العرف الطيّب) تناول
فيها أقوال النقدة وعرضها عرضاً بليفاً .

وقد اشتهرت أقوالهم في ذلك فلترجع في مظانها ، على انه لا بد من
القول ان ما ذكره من حسنات وسيئات يصدق على كل شاعر تقريباً وقد

١ الصبح المنبي ١ : ٢٧٤ - ٣١٩ .

٢ راجع قول ابن رشيق العمدة ١ - ٨٧ . وقال العكبري في الصاعتين ١١٩ « لا أعرف
أحدًا كان يتتبع الميوب فيأتيها غير مكثرت لها إلا المتنبي » .

ورد معنا أمثلة ذلك في الكلام على أبي تمام والبحري مما يعدّ العود إليه الآن تكراراً لا فائدة منه .

شخصيته الشعرية

بقي علينا ان ننظر في شعر المتنبي من حيث انه مظهر لشخصية تاريخية تتأثر بالمؤثرات الخارجية .

وهو عند التحقيق أربعة أطوار :

الطور الاول - يمثل عواطف الشباب ونفثات الألم من الزمان ، وقد نظم في أنحاء مختلفة من بلاد الشام وفلسطين والعراق ، ويمتدّ من زمن الحداثة الى الرابعة والثلاثين من عمره .

الطور الثاني - شعره في حلب . نظمه وهو بين الرابعة والثلاثين والثالثة والأربعين ، وهو يمثل : (١) عواطف العظمة والجهاد القومي كما يظهران في سيف الدولة (٢) عواطف الفوز بالدنيا والقلق من الحساد كما تظهر في نفسه .

الطور الثالث - شعره في مصر . نظمه بين الثالثة والأربعين والسابعة والأربعين ، وهو يمثل غيظه من الماضي وآماله الكبيرة بالمستقبل ثم مرارته لفشله .

الطور الرابع - شعره في العراق وفارس . نظمه بين السابعة والأربعين والحادية والخمسين ، أمّا في العراق فذكريات سيف الدولة ، وأمّا في فارس فانتعاش أمل لم يلبث ان اخذه الحما . واليك بيان ما تقدم والتدليل عليه من شعره .

عواطف الشباب ونفثات الألم من الزمان

رأبنا في سيرته انه ولد طموحاً متهوراً بالمجد ، وانه ظل بعد خروجه من السجن حتى الرابعة والثلاثين من عمره فقير الحال يحوب الاقطار معرّضاً

نفسه للأخطار والاهوال ، فلم ينل من الدنيا مراماً . في هذا الطور يكثر في شعره ذكر المجاهدة والاقدام والفخر بالرجولة ، ويقرن ذلك بدم الزمان وأهله والسخط على أولي الأمر من رؤساء وأمرأه ، حتى جعل ابن رشيق أهمّ مزاياه الامثال وذم الزمان ' .. وفيه نرى الكثير من الحكم البالغة التي تهيب بالشباب الى طلب العلم وتحمل المشاق والبعد عن مواطن الذل والضم . فمن قوله في الإقدام وتحمل المشاق :

ومهمه جبهته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلّ
بصارمي مرتدي بمخبرتي مجترىء بالظلام مشتمل
إذا صديق نكرت جانبه لم يُعيني في فراقه الحيل
في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من اختها بدل

ومن هذا القبيل يذكر سيره في البوادي ويصف عزة نفسه وشجاعته ويذم الزمان :

أواناً في بيوت البدو رحلي وآونة على قتد البعير
أعرّض للرماح الصمّ نحري وانصب حرّ وجهي للهجير
وأسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمر منير
فقل في حاجة لم أقض منها على شففي بها شروى نقير
ونفس لا تجيب الى خسيس وعين لا تدور على نظير
وقلّة ناصر - جوزيت عني بشرّ منك يا دهر الدهور

ومثل ذلك قوله يصف جلده ومضاء عزمه :

يحاذرني حتفي كأني حتفه وتنكرني الأفمى فيقتلها سمي
طوال الردينيات يقصفها دمي وببيض الشريحيات يقطعها لحمي
برتني السرى بري الملى فرددني أخف على المركوب من نفس جرمي
وأبصر من زرقاء جوّ لأنني متى نظرت عينايا ساواها علمي

كأني دحوت الارض من خبرتي بها كأني بنى الاسكندر السد من عزمي
وقال في أهل زمانه مستخفاً بهم وبأمرائهم وهو في هذا الطور يكثر
اللهج بذلك ويفلو فيه :

فؤاد ما تسلّيته مدام وعمر مثل ما تهب اللثام
وما انا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير انهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
خليلك انت - لا من قلت خلتي وان كثر التجميل والكلام
وشبه الشيء منجذب اليه وأشبهنا بدنينا الطغام

وعلى هذا الوتر يضرب في قصيدته الشهيرة « بأبي الشموس الجانحات
غوارباً ، فيذكر الزمان وتحامله عليه ويقول :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصاً من بعد ما أنشبن فيّ غالبا
أوحدنتي ووجدن حزناً واحداً متناهياً فجعلنه لي صاحباً
ونصبني غرض الرّماة تصيبني عن أحد من السيوف مضارباً
اظمتني الدنيا فلما جثتها مستسقياً مطرت عليّ مصائباً

وللمتني ثلاث قصائد تمثل خوالج نفسه في هذا الطور أفضل تمثيل :
الاولى في علي بن أحمد المرّي ومطلما - لا افتخار إلا لمن لا يضام -
نقتطف منها هنا الابيات التالية :

ليس عزماً ما مرّض المرء فيه ليس ممّا عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضيء به الأجسام
ذلّ من يغبط الدليل بعيشه ربّ عيش أخفّ منه الحمام
من يهنّ يسهل الهوان عليه ما لجرح يمتّ لإسلام
ضاق ذرعاً بأن اضيق به ذرعاً زمانى واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخصى قدر نفسي واقفاً تحت أخصى الانام

أقراراً ألدَّ فوق شرارٍ وراماً أبغي وظلمي يُرامُ
دون أن يشرق الحجاز ونجدٌ والعراقان بالقنا والشَّامُ

والثانية في أبي عبيد الله الحصيني قاضي انطاكية - مطلعها : « افاضل
الناس أغراض لذا الزمن » يذم فيها الناس وأمرأهم ، ويصف عزمه
ودهاءه وصحبته للاعراب ومضاهه في طلب العلي ومنها :

لا افتري بلداً الا على غررٍ ولا أمرٌ بخلق غير مضطفرٍ
ولا اعاشر من املاكهم ملكاً الا احقٌ بضرب الرأس من وثق
قد هوّن الصبر عندي كل نازلة ولين العزم حدّ المركب الحشن
كم مخلص وعلى في خوض مهلكة وقتلة قرنت بالذمّ في الجبن
لا يعجبني مضيماً حسن بزّته وهل تروق دفيناً جودة الكفن
لله حال ارجيها وتخلفني واقتضي كونها دهري ويمطلني
مدحت قوماً وان عشنا نظمت لهم قصائد من - اثاث الخيل والحصن

والثالثة في علي بن أحمد بن عامر الانطاكي - وفيها تتجلى خوالج
الشباب بأجلى ظواهرها : ترى نفسه تنفض كبراً وتبهاً ، ويتجسم لديك
ما فيها من مطامع وآمال . والقصيدة مشهورة نذكر منها على سبيل
المثال الثانية الابيات الاولى :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعني الصبرُ
وأشجع منّي كل يوم سلامتي وما ثبتت الا وفي نفسها أمر
تمرستُ بالآفات حتى تركتها تقول ألمات الموت ام ذُعر الذعر
وأقدمت إقدامَ الآتي كأن لي يسوى مهجتي او كان لي عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبنّ المجد زقاً وقينةً فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وان تُرى لك الهبوات السود والعسكر الجهر
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما تداول سمعَ المرء اغله العشر

* * *

وما يلاحظ هنا تلك المرارة التي صبغت كل أيام حياته ، وكانت منشأها طمعه وما تكبّده من المشاق على غير طائل ، ولا سببا في هذا الطور من حياته . فكان شعره الوجداني الحقيقي ، أعني الذي يعبر عن عواطف نفسه مظهراً لما في نفسه من كبرياء حوّّلها الفشل الى نقمة وسوء ظن . كقوله :

فما لي وللدنيا طلابي نجوما ومسعاي منها في شقوق الأرقام
ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رحمة غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

شعره في حلب

وهو كما ذكرنا يظهر في مظهرين كبيرين : (١) الجهاد القومي والشجاعة الحربية (٢) شعور الشاعر بالفوز وحمله على الحساد .

ترى روح الجهاد القومي والحربي في أكثر مدائحه لسيف الدولة ، ولا بدع فقد كان سيف الدولة مجاهداً شجاعاً وكانت حياته حرباً متواصلة على الروم . وقد صحبه المتنبي واختبر بنفسه عظام الحرب وأهوال الوقائع : رأى الجيوش في ساحة الحرب وخاض غمار القتال مع المجاهدين ، فشهد الأبطال تشبّك بالأبطال والفرسان تطارد الفرسان ، والسيوف والرماح تسيل بدماء الأعداء - هبط الأودية وصعدت في النجود وذاق مرارة الهزيمة ولذّة الظفر فأبدع في وصف ذلك غاية الإبداع . ولقد صدق ابن الأثير إذ قال في الحكم على شعره : « انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا . فطريقه في ذلك تضلّ بسالكة وتقوم بعذر تاركه . ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان فيصف لسانه ما أدى عيانه »^١ .

وقال ابن رشد في ترجمة كتاب الشعر لأرسطو ذاكراً وصف الحروب والوقائع « والمنتني أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخيل . وذلك كثير في أشعاره ، ولذلك يحكى عنه انه كان لا يريد ان يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة ' » .

ولقد ترك لنا من شعره الحربي كثيراً من القصائد الخالدة : يقف فيها معلناً عظمة الاسلام في شخص الممدوح ، حاملاً على أعداء الخلافة ، مثيراً للحماسة القومية . ويتخلل كل ذلك من الحكم البليغة ما يناسب المقام وينفذ الى اعماق النفوس . ولولا شهرة هذه القصائد وتوفّر طلاب الأدب على تدارسها وحفظها لأنينا بالأمثلة الكثيرة على شعر المنتني في هذا الطور ، ولكننا نجتزئ هنا بالإشارة الى القصائد التي مطلعها :

غيري بأكثر هذا الناس يتخدع
فدينناك من ربع وان زدتنا كرباً
لياليّ بعد الظاعنين شكول
لكلّ امرئ من دهره ما تعودا
دروع للملك الروم هذي الرسائل
على قدر أهل العزم تأتي المزائم
الرأي قبل شجاعة الشجعان
عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم
ذي المال فلّيعلون من تعالى

وكلها مما يجب على المتأدب درسه وحفظه والتأمل في روائع معانيه . أما شعور الشاعر بالفوز والتفوّق وحمله لذلك على الحساد فيظهر في مثل قوله لسيف الدولة :

انا السابق الهادي الى ما أقوله اذ القول قبل القائلين مقول

أعادي على ما يوجب الحب للفتى واهدأ والافكار في تجول
سوى وجع الحساد داوئ فإنه اذا حلّ في قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد في مودة وان كنت تبديها له وقنيل
وانّا لتلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
وقوله :

أزل حسد الحساد عني بكتبهم فأنت الذي صيرتهم لي حسدا
اذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا
وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

وأقواله في ذلك كثيرة ، وأشدّها قصيدته الميمية - واحرّ قلباء -
وقد نشأ هذا الشعور مع المتنبي ورافقه كلّ أيام حياته ، ولكنه يظهر على
أشدّه في هذا الطور ، وفيه أكثر ما تركه المتنبي من هذه النفثات
الأليمة .

شعره في مصر

وهو يمثل لنا عواطف الغيظ من الماضي والأمل بالمستقبل ، وفيه
تتجلى عبقرية المتنبي على أتمّها - من دقة في الإشارة وروعة في المعاني
وجمال في التوقيع .

فبينما ترى شعره في الطور الاول يكثر فيه التعميد اللفظي والمعنوي ،
وفي حلب يتكلف أحياناً استعمال الغريب للدلالة على غزارة علمه ، تراه
في مصر صقيلاً خالصاً من هذه الشوائب جارياً على الطبيعة . فهو يمثل
غاية ما بلغه المتنبي من البلاغة . وقد أخطأ البديعي اذ قال : « وان
احسن شعره في سيف الدولة وقد تراجع شعره بعد ذلك »^١ ، فان المدقق
يرى في « كافورياته » من جلال المعنى وجمال الصياغة ما يشهد انه بلغ
به كمال النضج . واننا نجاري في ذلك البارزي اذ قال : « على انك اذا

تفقدت تلك المعجمات من أبياته فأكثر ما تجدها في أوائل شعره حين لم تستحكم فيه ملكة النظم ولم تطرّده وجوه التعبير . وما أحسب المتنبي إلا كان في صدر أمره يتوخى طريقة أبي تمام ، فكان ينحو نحوه في الحوم على موارد الاغراب والتنقيب عن الوحشي من حِكَم الجاهلية ، والتورك على الصيغ الشاذة والتحدلق في اسلوب الخطاب ، - الى ان يقول عن شعره في حضرة سيف الدولة : « انه كان هناك في محفل حافل بالعلماء والشعراء والمتنقدين ، ولذلك لم يكن بدّ من حشد القريحة في مدح سيف الدولة والاكتثار من التنطّس في ألفاظه ومعانيه . ثم اذا انتقلت الى شعره في كافور وجدته قد عاد الى السهولة والرشاقة ' » .

ويكفي للدلالة على ذلك ان تراجع القصائد التالية :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

فراق ومن فارقت غير مذمم

من الجأذر في زي الاعارب

أودّ من الايام ما لا تودّه

اغالب فيك الشوق والشوق اغلب

مُنَى كن لي ان البياض خضابُ

فان هذه القصائد « الكافورية » من أسلس قصائده واملاها معنى وأجلها إيقاعاً . ومن بدائمه في هذا الطور ميميته المشهورة في وصف حاله في مصر ووصف حمى أصابته ، نظمها وهو في الخامسة والاربعين فجاءت غاية الغايات من حسن الانسجام ودقة التعبير وحسن الاختراع ، وقد أدرجت في باب المختارات من شعره فلتراجع هناك .

الطور الأخير

ويمثله شعره في العراق وفارس ، وهو عموماً أحط من شعره في حلب

وفي مصر . يشعر فيه المتأمل بتراخي نَفْسِهِ الشعري ورجوعه أحياناً الى
التعسف والتكلف ، فكأنه بلغ أوجه الشعري في الخامسة والأربعين من
عمره ثم أخذ بالانقلاب البطيء : قد يكون للسبب تأثيرها في ذلك ولكن
بما لا شك فيه انه كان لفشله في مصر ، ثم ما لاقاه في بغداد أثرٌ في
خضد شوكته ، وتخفيف تلك النائرة الشعرية فيه .

خاتمة في شعره الحكمي

أجاد المتنبي في كل انواع الشعر العربي من مدح وغزل وفخر ورثاء
ووصف وهجاء ، وله في الرثاء مكانة سامية تشهد له بذلك مراثيه
التي تعد من أفضل المراثي في الأدب العربي ومنها :

نعد المشرقية والعوالي

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب

الحزن يقلق والتجمل يردع

وكلتها مشهورة تجري أكثر أبياتها على ألسنة الأدباء .

على ان المتنبي الحقيقي انما هو تلك الصورة التي نرسمها من قراءة
حكمه ، وفهم علاقتها بالزمان ، تلك الحقائق الأدبية والاجتماعية الناصعة
المعمودة في أرشق الألفاظ وألسن التعابير . نعم انها منتشرة في تضاعيف
قصائده ، متفرقة بين أغراضه المختلفة ، ولكن لها علاقة حيوية بكل
مقام يكون فيه الشاعر . واذا ألقينا عليها نظرة عامة وحاولنا ان نستخلص
منها صورة لشاعرنا الكبير وجدنا فيها ألواناً مختلفة تنعكس عن شيء واحد
هو « نزعة الفطرية » ، تلك الطبيعة التي كانت تحاول التعالي والحصول
على القوة ، ثم لا تلبث ان تعود وفيها شيء من المرارة والألم .

كان للمتنبي غرض كبير في الحياة - المجد - لأجله ظهر غروره
صغيراً ، ولأجله جاب الأقطار كبيراً ، ولأجله صحب الملوك وحشد
المال حتى تعالي عن طبقة الشعراء ، وساوى نفسه بمدوحيه من الأمراء .

ولكنه فشل ، وفي سعيه وفشله عرف الحياة واختبر حقيقة المجتمع البشري ، فنظم ذلك لنا حكماً غالية أدرك الناس صحتها ، فتداولتها ألسن الزمان في كل مكان ، وأصبحت على كرور الأيام أمثالا يرددها الخاص والعام .

غرة المتلبي سراب الدنيا فسمى وراءه ، وطوى في ذلك السعي شبابه ورجوليته . فإذا الدنيا سراب وإذا السعي وراء الباطل باطل . على اننا لنحمد الأقدار على هذا السراب وهذا الباطل ، فلولاها لما كانت لنا شاعر الحكمة الكبير ، ولما تحدّر البنا منه ذلك الميراث الأدبي الخالد .

المختار من شعر المتنبي

نفس عزيزة شديدة المطامع تدفعها شهوة الدنيا الى طلب المجد والقوة،
فتندفع اليها بعزم الفارس المقدام . ثم لا تلبث ان تصطدم بالفشل فترتد
على أعقابها دقيقة المعرفة بمحوادث الزمان ، صائبة النظر في عواطف
الانسان - تلك هي حكم المتنبي البليغة وخوارج نفسه الكبيرة .

نزعَات شِبابه

كم قتيلٍ كما قُتلت شهيدٍ لبياض الطلى وورد الحدودِ
وعيون المهي ولا كميون فتكت بالمتيم المعمود
درّ در الصّبَاء - أيامَ تجوير ذيولي بدار ائله ، عودي^١
عمرّك الله هل رأيت بدوراً طلعت في براقع وعقود
رامياتٍ بأسم ريشها الهد ب'تشق' القلوب قبل الجلود
يترشّفن من فمي رشقاتٍ هنّ فيه حلاوة التوحيد^٢
كلّ خمّصانةٍ ارقّ من الحمر بقلبٍ أقسى من الجلود^٣

١ ايام منادى اي أيتها الايام التي كنت اجرو فيها ذيولي مرحاً في دار ائله ، عودي الي .

٢ التوحيد نوع من التمر .

٣ الخمصانة الضامرة او النحمة .

ذات فرع كأنما ضُرب العنبر فيه بماء ورد وعود^١
 حالك كالفداف جثل^٢ دجوجي^٣ أثيث^٤ جعد^٥ بلا تجعيد^٦
 تحمل المسك عن غداؤها الريح وتفتّر عن شبيب برود^٧
 جمعت بين جسم أحد^٨ والسقم وبين الجفون والتسديد^٩

* * *

هذه مهجتي لديك لحيني فانقصي من عذاها او فزيدي
 كل شيء من الدماء حرام شربه ما خلا ابنة^{١٠} المنقود
 فاسقنيها فدى لعينيك نفسي من غزال^{١١}، وطارفي وتليدي
 شيب رأسي وذلتني ونحوي ودموعي على هواك شهودي
 أي يوم سررتني بوصال لم ترعني ثلاثة^{١٢} بصدود

* * *

ما مقامي بأرض نخلة إلا^{١٣} ك مقام المسيح بين اليهود^{١٤}
 مفرشي صهوة الحصان ولكن^{١٥} قميصي مسرودة^{١٦} من حديد
 أين فضلي اذا قنعت من الدهر بعيش معجّل التنكيد
 ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقل^{١٧} عنه قعودي
 أبداً أقطع البلاد ولجمي في نحوس^{١٨} وهمي في سعود
 عش عزيزاً أومت وانت كريم بين طعن^{١٩} القنا^{٢٠} وخفق البنود
 فروؤوس الرماح اذهب للغيظ واشفى لغل^{٢١} صدر الحقود
 لا كما قد حييت غير حميد واذا مت^{٢٢} مت^{٢٣} غير فقيد
 فاطلب العز^{٢٤} في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود
 يُقتل العاجز الجبان وقد يعجز عن قطع^{٢٥} بُخُنْتُ^{٢٦} المولود

١ والفرع الشعر .

٢ الفداف الغراب .

٣ شبيب برود أي ثمر لطيف عذب الماء .

٤ أحد اسم الشاعر .

٥ أرض نخلة قرية لبني كلب .

٦ البخنق خرقه يفتح بها الرأس .

ويَرْقَى الْفَتَى الْمَخْشَى وقد خَوْضَ فِي مَاءِ لَبَّةِ الصَّنِيدِ ١
 لَا بِقَوْمِي شَرَفْتُ بَلْ شَرَفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا يَجْدُودِي
 وَبِهِمْ فَخَرْتُ كُلَّ مَنْ نَطَقَ الضَّادَ وَعَوَّذَ الْجَانِي وَغَوَّثَ الطَّرِيدَ
 إِنْ أَكُنْ مَعْجَبًا فَمَعْجَبٌ عَجِيبٌ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ
 أَنَا تَرِبَ النَّدَى وَرَبَّ الْقَوَافِي وَسَمَامَ الْعَدَى وَغَيْظَ الْحَسُودِ
 أَنَا فِي أُمَّةٍ - تَدَارَكُهَا اللَّهُ - غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُودٍ ٢

وصف الأسد

وكيف صرعه بدر بن عمار ، وذلك على ضفاف الاردن قرب طبريا

فِي الْحَدِّ أَنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلًا مَطَرُ تَزِيدَ بِهِ الْخُدُودُ مُحُولًا ٣
 يَا نَظْرَةً نَفَتِ الرِّقَادَ وَغَادَرَتْ فِي حَدِّ قَلْبِي مَا حَيَّيْتُ فَلُولًا
 كَانَتْ مِنَ الْكَحْلَاءِ سُوْلِي أَنَّمَا أَجَلِّي تَمَثَّلَ فِي فَوَادِي سُولًا ٤
 أَجِدُ الْجَفَاءَ عَلَى سَوَاكِ مَرُوءَةً وَالصَّبْرَ الْأَيَّ فِي نَوَاكِ جِيلًا
 وَأَرَى تَدَلُّكَ الْكَثِيرَ مُحِبًّا وَأَرَى قَلِيلَ تَدَلُّلٍ مَمْلُولًا
 حَدَقُ الْحَسَانَ مِنَ الْقَوَانِي هَجْنًا لِي يَوْمَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً وَغَلِيلًا
 حَدَقُ يُذِمُّ مِنَ الْقَوَاتِلِ غَيْرَهَا بَدْرُ بْنُ عَمَارٍ بْنُ إِسْمَاعِيلًا ٥
 الْفَارِجُ الْكَرْبَ الْعِظَامَ بِمَثَلِهَا وَالتَّارِكُ الْمَلِكَ الْعَزِيزَ ذَلِيلًا
 رَقَّتْ مُضَارِبُهُ فَهَنْ كَأَنَّمَا يَبْدِينُ مِنْ عِشْقِ الرِّقَابِ نَحُولًا

* * *

امعفّر اللّيت الهزبر بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصقولا

- ١ أي يرقى الشجاع المفار وقد خاض في دماء الأبطال .
- ٢ صالح نبي أرسل إلى ثمود فلم يؤمنوا به ولم يصنوا إلى أقواله .
- ٣ لأن المشراء عزموا على الرحيل هطل مطر الدموع على خدي فزاده عولا (بمكس مطر السماء الذي يزيد خصب الأرض) .
- ٤ كانت هذه النظرة كل ما أسأله ولكن ما أسأله كان السبب في هلاكه .
- ٥ يذم يحير - أي ان المدوح يحيرنا من كل قاتل سوى نظرات الحسان .

وقمتُ على الأردنّ منه بليّةٌ
 وردّ إذا ورد البحيرة شارباً
 متخضبٌ بدم الفوارس لابس
 ما قوبلت عيناه الا ظنّنا
 في وحدة الرهبان الا انه
 يطاء الثرى مترفقا من تبه
 ويردّ عفرته الى يافوخه
 وتظنه - مما يزجر - نفسه
 قصرتْ غفافته الخطى فكأنما
 ألقى فريسته وبربر دونها
 فتشابه الخُلُفان في إقدامه
 أسد يرى عضويه فيك كليها
 ما زال يجمع نفسه في زوره
 ويدقّ بالصدر الحجار كأنه
 وكأنه غرّته عين فادّنى
 أنفُ الكريم من الدنيّة تاركٌ
 والعار مضاض وليس بخائف
 سبق التقاءكه بوثة هاجم
 خذلته قوّته وقد كافحته
 قبضتْ منيته يديه وعنقه

١ هذا الاسد فتك بالناس وتخضب بدماء الفرسان وكنت تراه في غابة كأنما عليه غابة من شعره .

٢ وتظنه نفسه لكثرة زجرته انه مشغول عنها .

٣ من شدة الخوف أصبح الجواد غير قادر على الجري .

٤ تشابهها في الاقدام وتحالفها في انك كريم تبذل ما تصيده لسواك .

سمع ابن عمته به وبجالة فنجأ يهرول أمس منك مهولا^١
وأمر بما فر منه فراره وكفّله ان لا يموت قتيلًا
تلف الذي اتخذ الجراءة خلّة وعظ الذي اتخذ الفرار خيلًا

* * *

نطقت بسؤددك الحمام تغنيًا وبما تجشّمها الجياد صهيلًا
ما كل من طلب المعالي نافذًا فيها ولا كل الرجال فحولًا

بعض مدائح في سيف الدولة

وهو يصوره في شعره بصورة البطل القومي والمجاهد الأكبر ضد الروم

قال يذكر بناءه مرعش سنة ٣٤١ هـ

فدينك من ربع وان زدتنا كربًا	فانك كنت الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا	فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبنا
نزلنا عن الاكوار غشي كرامة	لمن بان عنه ان نلّم به ركبا
ننذم السحاب الغرّ في فعلها به	ونعرض عنها كلما طلعت عتبا
ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت	على عينه حتى يرى صدقها كذبا
وكيف التذاذي بالاصائل والضحي	اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبّا
ذكرت به وصلا كان لم أفز به	وعيشاً كأني كنت اقطعه وثبا
وفتانة العنين قتالة الهوى	اذا نفعت شيخاً روائحها شبا
فيا شوق ما أبقي ويا لي من النوى	ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى
لقد لعب البين المشت بها وبى	وزودني في السير ما زود الضبّا ^٢
ومن تكن الأسد الضواري جدوده	يكن ليله صباحاً ومطعمه غضبا
ولست أبالي بعد ادراكي العلى	أكان تراثاً ما تناولت ام كسبا
فرب غلام علم المجد نفسه	كتعلم سيف الدولة الطعن والضربا

١ يشير الى أسد آخر هرب منه بعد هذه الحادثة .

٢ الضب حيوان معروف ويضرب به المثل في الحيرة . اي ان البين الذي فرقنا جمعني حاراً .

إذا الدولة استكفت به في ملّة
تُهاب سيوف الهند وهي حدائد
ويُرهب ناب الليث والليث وحده
ويُخشى عُبَاب البحر وهو مكانه
هنيئاً لاهل الثغر رأيك فيهم
وانك رعت الدهر فيها وربيّه
فيوماً بجيلٍ تطرد الروم عنهم
سراياك تترى والدُمستقّ هارب
أتى مرعشاً يستقرّب البعدَ مقبلاً
كذا يترك الاعداء من يكره القنا
وهل ردّ عنه باللّثاق وقوفه
مضى بعدما التفّ الرماحان ساعة
ولكنه ولّى وللطعن سورة^١

كفاها فكان السيف والكف والقلبا
فكيف اذا كانت نزارية^٢ عرباً^١
فكيف اذا كان الليث له صحبا
فكيف بمن يفسى البلاد اذا عبّا
وأنتك حزب الله صرت لهم حزبا^٣
فان شكّ فليحدث بساحتها خطبا
ويوماً يجود قطرد الفقر والجدبا
وأصحابه قتلى وأمواله نهبي^٤
وادبر إذ أقبلت يستبعد القربا
ويقفل من كانت غنيمته رعبا
صدور العوالي والمطهمة القبّا^٥
كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا^٥
اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا

* * *

أرى كلنا ينبغي الحياة لنفسه
فعبّ الجبان النفس أورده البقا
ويختلف الرزقات والفعل واحد^٦
حريصاً عليها مستهماً بها صبا
وحب الشجاع الحرب أورده الحربا
إلى ان ترى احسان هذا لذا ذنبا^٦

* * *

فأضعت^٧ كأن السور من فوق بدنه
الى الارض قد شقّ الكواكب والتربا^٧

١ فكيف لا تُهاب وهي عربية كريمة الاصل (اشارة الى سيف الدولة) .

٢ لبناً أهل الثغر بحسن رأيك وانك يا حزب الله قد صرت حزباً لهم .

٣ الدُمستقّ زعيم الروم .

٤ وه اللقان اسم مكان . والرماحان اي رماح الفريقين .

٦ في هذه الايات الحكيمية يشير الى هرب الدُمستقّ واقدام سيف الدولة فيقول ان حب الحياة يدفع الشجاع الى الحرب والجبان الى الهرب . غايتها واحدة ولكن فعل الجبان ذميم وفعل الشجاع حميد .

٧ أضعت ، أي مرعش ، وسورها يتناطح النجوم علواً وهو راسخ في أحشاء الارض .

نصدّ الرياح الهوج عنها مخافة
كفى عجباً أن يعجبَ الناس أنه
وما الفرق ما بين الانام وبينه
لأمرٍ أعدّته الخلافة للعدي
ولم تفرق عنه الأسنة رحمة
ولكن نفاها عنه غيرَ كريمة
وجيشٌ ينثي كلّ طودٍ كأنه
كانَ نجوم الليل خافت مُغارَه
فمن كان يرضي اللؤم والكفر ملكه

فهذا الذي يرضي المكارم والربا

وقال يذكر فوزه على الروم

في قلعة الحدث (بالاناضول) وكان المتني قد صاحبه
في هذه المعركة

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ
وتعظم في عين الصغير صفارُها
يكلّف سيفُ الدولة الجيشَ مه
ويطلب عند الناس ما عند نفسه
يفدّي أتمّ الطير عمراً سلاحه
وما ضرّها خلقٌ بغيرِ مخالبِ
وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتصغرُ في عين العظيم العظائمُ
وقد عجزت عنه الجيوش الحضارمُ
وذلك ما لا تدّعيه الضراغمُ
نسور الفلا أحداثها والقشاعمُ
وقد خلّقت أسافه والقوائمُ

* * *

هل الحدثُ الحمراء تعرف لونها
سقتها الغمام الغرّ قبل نزوله
وتعلم أيّ الساقين الغمامُ
فلما دنا منها سقتها الجماجمُ

١ ولو ان النسور بغير غالب فما ضرها ذلك لأن سيوفه تغنيها بحث القتل .

٢ وصفها بالمرء لما تلطخت به من دماء القتل وكانت قد أصيبت بطر قبل ذلك .

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
وكان بها مثلُ الجنون فأصبحت
طريدة دهرٍ ساقها فرددتها
تفتتُ الليالي كلَّ شيءٍ أخذته
إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
وكيف ترجتي الروم والروس هدمها
وقد حاكموها والمنايا حواكمُ

* * *

أتوك يحرّون الحديد كأنما
إذا برقوا لم تُعرف البيض^١ منهم
خيسُ بشرق الأرض والغرب زحفه
تجمع فيه كلَّ لسنٍ وأمةٍ
فله وقتٌ ذوب الغشّ ناره
تقطع ما لا يقطعُ الدرعَ والقنا
وقفت وما في الموت شكٌ لواقفٍ
تمرّ بك الإبطال كلنمي هزيمةً
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي
ضمت جناحيهم على القلب ضمة
بضرب أتى الهامات والنصر غائبٌ
حقرت الردينيات حتى طرحتها

وموج المنايا حولها متلاطمٌ
ومن جثث القتلى عليها تائم^٢
على الدين بالخطسي^٣ والدهر راغم^٤
وهنّ لما يأخذن منك غوارم^٥
مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم
وذا الطعنُ أساسٌ لها ودعائم
فما مات مظلوم ولا عاش ظالم

سروا يجياد ما لهنّ قوائمُ
ثيابُهم من مثلها والعائم
وفي أذن الجوزاء منه زمام
فما يفهم الحداث إلا التراجم
فلم يبق إلا صارمٌ أو ضبارم^٦
وفرّ من الفرسان من لا يصادم
كأنك في جفن الردى وهو نائم
ووجهك وضاحٌ وثرعك باسم
إلى قول قومٍ انت بالغيب عالم
تموت الخوافي تحتها والقوادم^٧
وصار إلى اللبّات والنصر قادم
وحتى كأنّ السيف للرمع شاتم

١ التائم هي التمايذ التي كانوا يتوقعون بها من الجن .

٢ أي كان الدهر قد سلط الروم عليها فرددتها برماحك رغم أنه .

٣ تفتت الليالي أي فكروها على تركه . وغوارم أي ملزمة بدفع غرامته .

٤ البيض السيوف . أي مدرعون بالحديد وظل رؤوسهم خوذ الحرب .

٥ ضبارم شجاع .

٦ أي أهلك الجيش جميعه .

ومن طلبَ الفتحَ الجليلَ فلأما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارمُ

* * *

نثرهم فوق الأحيدِبِ كلته كما نثرت فوق العروس الدراهم^١
تدوس بك الحيل الوكورَ على الذرى

وقد كثرت حول الوكور المطاعم
أفي كلِّ يومٍ ذا الدمستقُ مُقدّمٌ قفاه على الاقدام للوجه لاثم
أيُشكر ريحَ الليث حتى يذوقه وقد عرفت ريحَ الليث البهائم
وقد فجعتنه بابنه وابنِ صهره وبالصهر حملاتُ الأمير الفوائم^٢
مضى يشكر الأصحاب في فوته الظبي

لما شغلها هامهمُ والمعاصم^٣
ويفهم صوتَ المشرفيّة فيهم على أن أصوات السيوف أعاجم
يسرّ بما أعطاك لا عن جهالة ولكنّ مفنوماً نجاً منك غانم

* * *

تشرّف عدنان^٤ به لا ربيعة
لك الحمد في الدرّ الذي لي لفظه
واني لتعدو بي عطايك في الوغى
على كل طيّارٍ إليها برجله
ألا أيها السيف الذي ليس مفعداً
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلی
وليمّ لا يقي الرحمن حدّيك ما وقى
وتفتخر الدنيا به لا العواصم^٥
فإنك معطيه واني ناظم
فلا أنا مذمومٌ ولا أنت تادم^٥
إذا وقعت في مسميه الفهاغم
ولا فيه مراتبٌ ولا منه عاصم
وراجيك والاسلام انك سالم
وتفليقه هامَ العدى بك دائم

١ الاحيدب اسم جبل .

٢ إشارة الى فوز سابق للممدوح على هؤلاء .

٣ مضى يشكر أصحابه لأنهم شغلوا برؤوسهم السيوف فلم تنله .

٤ ربيعة قبيلة سيف الدولة . والمعاصم هي البلاد المتاخمة للروم وعاصمتها انطاكية .

٥ إشارة الى عطايه من الخيول .

وقال يمدحه ويعاتبه

على حيف لحقه منه ويظهر ما كان في نفسه من تحامل حساده عليه

واحرّ قلباه بمن قلبه شيم
ما لي أكتّم حباً قد برى جسدي
وتمدعي حبّ سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حبّ لفرقه
قد زرتّه وسيف الهند مغمدة
فكان أحسن خلق الله كلهم
فوت العدو الذي يمتّه ظفري
في طيه أسف في طيه نعم
قد تاب عنك شديد الخوف واصطنعت

لك المهابة ما لا تصنع البهم^١
ألزمت نفسك شيئاً ليس يكزها
أن لا يوارهم أرض ولا علم
أكلّمنا رمت جيشاً فانشى هرباً
أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفري
تصافحت فيه بيض الهند والشم

* * *

يا أعدل الناس الا في معاملتي
أعيدها نظرات منك صادقة
فك الخصام وأنت الخصم والحكم
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم
سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا
بأنني خير من تسمى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلامي من به صمم

* * *

وجاهل مدّه في جهله ضحكي
إذا رأيت نيوب الليث بارزة
حق أته يدّ فراسة^٢ وفم
فلا تظنّ ان الليث يتسم

١ شيم بارد .

٢ البهم الجيوش .

ومهجة مهجتي من همّ صاحبها
ومرهف سرت بين الجحفلين به
الحيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

يا من يعزّ علينا أن نفارقهم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
ان كان سرّكم ما قال حاسدا
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
ليت الغمام الذي عندي صواقه
أرى النوى يقتضيني كلّ مرحلة
لئن تركن ضميراً عن ميامننا
إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا
شرّ البلاد مكاناً لا صديق به
وشرّ ما قنصته راحتي قنص
بأي لفظٍ تقول الشعرَ زعنفة
هذا عتابك ألا أنه مِقة

وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم
لو أن أمرّكم من أمرنا أمم
فما لجرّ إذا أرضاكم ألم
انّ المعارف في أهل النهى ذمم
ويكره الله ما تأتون والكرم
أنا الثريا وذات الشيب والهزم
يزيلهنّ الى من عنده الدائم
لا تستقلّ بها الوخادة الرثم
ليحدثنّ ليمن ودعتهم ندّم
أن لا تفارقهم فالراحلون هم
وشرّ ما يكسب الأيام ما يصم
شبه البزاة سواء فيه والرخم
تجوز عندك لا عُرْب ولا عجم
قد ضمنّ الدرّ إلا أنه كلم

١ أي ورب مهجة هم صاحبها اتلاف مهجتي ادركتها مجوادي فقصيت عليها .

٢ أمم قريب .

٣ يشبه سيف الدولة بالغمام وسخطه بالصواعق ، والدائم بمطايه - أي ليت غضبه يكون على من غرهم بمطايه وهم لا يستحقونها .

٤ ضمير جبل وهو يشير الى سفره وإلى ان المددوح سيندم على ذلك .

٥ يشير الى ان سيف الدولة سوى عنده بين المتني وسواه من صمالك الشعراء .

٦ مِقة من فعل ومتى منهاها الحب .

قال سنة ٣٤٦ وهي أولى قصائده في مصر وكان كافور

قد تلقاه بحفاوة وحمل اليه آلافاً من الدراهم

كفى بك داءً ان ترى الموت شافياً
تمنيتها لما تمنيت ان ترى
إذا كنت ترضى ان تعيش بذلة
صديقاً فأعيا أو عدواً مداجياً^١
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى
فلا تستجيدن العتاق المذاكياً^٢
حببتك قلبي قبل حبك من نأى
ولا تستقى حتى تكون ضوارياً^٣
واعلم انّ البين يشكيك بعده
وقد كان غداراً فكن أنت واقياً^٤
فلست فؤادي إن رأيتك شاكياً
فلمت دموع العين غدر بربتها
إذا كنّ إثر الغادرين جوارياً
إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى
فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً
وللنفس أخلاق تدل على الفتى
أكان سخاء ما أتى أم تساخياً
أقلّ اشتياقاً أهما القلب ربما
رأيتك تصفي الودّ من ليس صافياً
خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبي
لفارقت شيبى موجع القلب باكياً
ولكنّ بالفسطاط بجرأ أزرته
حياتي ونصحي والهوى والقوافيا^٥
أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً
اليه وذا اليوم الذي كنت راجياً^٦

١ مخاطب الشاعر نفسه ويقول الشدة التي ما وراها شدة ان تكون في حالة تحسب الموت شافياً لك أو أمنية تمنهاها .

٢ أعياك ذلك أي أعجزك . ومداجي أي مداري .

٣ العتاق المذاكي أي الحيول الكريمة .

٤ الطوى الجوع .

٥ أي أحببتك يا قلبي قبل حبك لن في حلب فلا تكن غير وفي لي .

٦ الفسطاط مصر . ويريد بالبحر كافور .

٧ ابو المسك كنية كافور .

أَبَا كُلِّ طَيْبٍ لَا أَبَا الْمَسْكِ وَحْدَهُ
يُذِلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كُلِّ فَآخِرِهِ
إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِي بِالْمُنَى
وغيرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ
فَقَدْ تَهَبُ الْجَيْشُ الَّذِي جَاءَ غَازِيَا
وَتَحْتَقِرُ الدُّنْيَا احْتِقَارًا مَجْرَبٍ
وَمَا كُنْتَ مِنْ إِدْرَاكِ الْمَلِكِ بِالْمُنَى
مَدَى بَلَّغِ الْأَسَاذَ أَقْصَاهُ رَبُّهُ
دَعْتَهُ فَلَبَّاهَا إِلَى الْمَجْدِ وَالْعُلَى
فَأَصْبَحَ فَوْقَ الْعَالَمِينَ يَرُونَهُ
وَكُلِّ سَحَابٍ لَا اخْصَصَ الْغَوَاذِيَا
وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا
فَأَنْتَ تَعْطِي فِي نَدَاكَ الْمَعَالِيَا
فَيَرْجِعُ مُلْكًا لِلْعِرَاقِينَ وَالْيَا
لِسَائِلِكَ الْفَرْدِ الَّذِي جَاءَ عَافِيَا
يَرَى كُلَّ مَا فِيهَا وَحَاشَاكَ فَانِيَا
وَلَكِنْ بِأَيَّامِ أَشْبَنَ النُّوَاصِيَا
وَنَفْسٌ لَهُ لَمْ تَرْضَ إِلَّا التَّنَاهِيَا
وَقَدْ خَالَفَ النَّاسُ النَّفُوسَ الدُّوَاعِيَا
وَإِنْ كَانَ يَدْنِيهِ التَّكْرَمُ نَائِيَا

وقال أيضاً يمدحه

أَوَدَ مِنْ الْإِيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ
يَبَاعِدُنَ حَبِيبًا يَحْتَمِعُنَ وَوَصَلَهُ
أَبَى خُلُقِ الدُّنْيَا حَبِيبًا تَدْبِيهِ
وَاسْرِعْ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغْيِيرًا
رَعَى اللَّهُ عَيْسًا فَارَقْتَنَا وَفُوقَهَا
بِرَادٍ بِهِ مَا بِالْقُلُوبِ كَأَنَّهُ
إِذَا سَارَتْ الْإِحْدَاجَ فَوْقَ نَبَاتِهِ
وَحَالَ كِلْإِحْدَاهُنَّ رَمَتْ بُلُوغَهَا
وَإَتَعَبُ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ زَادِ هَمِّهِ
وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهِيَ جُنْدُهُ
فَكَيْفَ بِحَبِّ يَحْتَمِعُنَ وَصَدَّهُ
فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيبًا تَرَدُّهُ
تَكَلَّفَ شَيْءٌ فِي طَبَاعِكَ ضَدَّهُ
مَهْيَ كُلَّهَا يُولَى بِجَفْنِيهِ خَدَّهُ
وَقَدْ رَحَلُوا جِيدُ تَنَازُلٍ عَقْدُهُ
تَفَاوَحَ مَسْكُ الْغَانِيَاتِ وَرَنْدِهِ
وَمِنْ دُونِهَا غَوْلُ الطَّرِيقِ وَبَعْدُهُ
وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِي النَّفْسُ وَجَدَهُ

١ قد تهب الجيش الغازي لسائل واحد يأتيك طالباً لمعرفتك .

٢ رعى الله نياقاً فارقتنا وفوقها ظباء (حسان) تستقي خدودها من دموعها .

٣ براد به من الجوى ما بقلوب الهيين .

٤ وحال صعبة الخال كاحدى هذه الحسان .

٥ هم اي همته ووجده ماله . اي اتعب الناس من عظمت مطامعه وقصر ماله عن ادراكها .

فلا ينحلل في المجد مالك كله
 ودبره تدبير الذي المجد كفته
 فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله
 وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
 ولكنّ قلباً بين جنبيّ ما له
 يرى جسمه يُكسى شفوفاً ترُّبه
 وأمضى سلاحٍ قلّدت المرء نفسه
 هما ناصرا من خانه كلُّ ناصر
 أنا اليوم من غلمانه في عشيرة
 فمن ماله مال الكبير ونفسه
 نجرّ القنا الخطيّ حول قبابه
 ابو المسك لا يفنى بذنبك عفوه
 فيا ايها المنصور بالجدّ سعيه
 تولّى الصبى عني فاخلفت طيبه
 لقد شبّ في هذا الزمان كهوله
 ألا ليت يوم السير يخبر حره
 وليتك ترعاني وحيرانُ معرضُ
 واني إذا باشرت أمراً أريده
 وما زال أهل الدهر يشتهون لي
 يقال إذا أبصرت جيشاً وربّه
 والقي الفمّ الضحّاك أعلم انه

فينحلّ مجدّ كان بالمال عقده
 إذا حارب الاعداء والمال زنده
 ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
 ومركوبه رجلاه والثوب جلده
 مدىّ ينتهي بي في مرادٍ احده
 فيختار ان يكسى دروعاً تهدّه
 رجاء أبي المسك الكريم وقصده
 وأسرة من لم يكثر النسل جدّه
 لنا والدّ منه يفدّيه ولده
 ومن ماله درّ الصغير ومهده
 وتتردي بنا قبّ الرباط وجرده
 ولكنه يفنى بمذكرك حقدّه
 ويا ايها المنصور بالسعي جدّه
 وما ضرّني لما رأيتك فقدّه
 لديك وشابت عند غيرك مرّده
 فتسأله والليل يخبر برّده
 فتعلم اني من حسامك حدّه
 تدانت أقاصيه وهان أشدّه
 اليك فلما لحّت لي لاح فردّه
 امامك ربّ ربّ ذا الجيش عبده
 قريب بذى الكفّ المقدّاة عبده

١ يرى جسمه مغطى بالحرير فيفضل ان يكسوه الدروع بدل الحرير .

٢ وتجري بنا الخيول .

٣ الجد ، الحظ .

٤ حيران اسم جبل اي ليّك كنت تراني وانا أمير مقابل حيران لنعم مضائي وعزمي .

٥ و ٦ وكلما أبصرت جيشاً على الطريق كان يقال لي أترى هذا الجيش ان قائده عبد لمن أنت

تقصده ، وكلما رأيت فما ضحاكاً اعلم انه قريب العهد بتقبيل يدك المقدّاة .

فزارك مني مَن اليك اشتياقه
فإن نلتُ ما أملتُ منك فربما
ووعدك فعلٌ قبل وعدٍ لانه
فكن في اصطناعي محسناً كمجرب
إذا كنت في شكٍّ من السيف فابله
وما الصارم الهندي كغيره
وانك للشكور في كلِّ حالةٍ
فكل نوالٍ كان أو هو كائن
واني لفي بحر من الخير أصله
وما رغبت في عسجدٍ أستفيدة
يحود به من يفضح الجودَ جوده
فإنك ما مر النحوس بكوكب

وفي الناس إلا فيك وحدك زهدُه
شربت بماء يعجز الطير ورده
نظير فعالٍ الصادق القولَ وعده
بين لك تقريب الجواد وشده^١
فأما تنفيهِ وإما تُعده
إذا لم يفارقه النجادُ وغدُه
ولو لم يكن إلا البشاشةَ رفته
فلحظة طرف منك عندي نده
عطايك أرجو مدّها وهي مده
ولكنها في مفخرٍ أستجده
ويحمده من يفضحُ الحمد حمده
وقابلته إلا ووجهك سعه

ومن مدائح

مَن الجاذر في زيِّ الأعرابِ
إن كنتَ تسألُ شكاً في معارفها
ما أوجهُ الحضرِ المستحسنات به
حسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطرية
أين المميز من الآرامِ ناظرةً
أفدي طباءَ فلاةٍ ما عرقنَ بها

حمرَ الحلى والمطايا والجلابيبِ^٢
فنُ بلاك بتسديدٍ وتعذيب
كأوجه البدويات الرعابيبِ^٣
وفي البداوة حسنٌ غير مجلوبٍ^٤
وغير ناظرةٍ في الحسن والطيبِ^٥
مضغُ الكلام ولا صبغُ الحواجيب

١ التقريب نوع من عدو الفرس .

٢ الجاذر أولاد بقر الوحش تشبه بها النساء لجمال عيونها . يقول من هؤلاء البدويات الحسان حمر

الحلى والثياب والراكبات على النياق الحمر (هي أكرم النياق) .

٣ الرعابيب الطويلات الممتلئات الجسم .

٤ التطرية للتكلف والصنعة .

٥ يقصد بالمميز نساء الحضر وبالأرام « الطباء » البدويات .

ومن هوى كل من ليست بموهبة^١ تركت لون مشيبي غير مخضوب^٢
ومن هوى الصدق في قلبي وعادته رغبته عن شعر في الرأس مكذوب

* * *

ليت الحوادث باعني الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي^٣
فما الحداثة من حلم بمائة^٤ قد يوجد الحلم في الشبان والشيب
تعرع الملك الاستاذ مكنه^٥ قبل اكتهال أديبا قبل تأديب^٦
يُدبّر الملك من مصر الى عدن الى العراق فأرض الروم فالنوب
يصرف الأمر فيها طين خائنه ولو تطلّست منه كل مكتوب^٧
قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم الى غيوث يديه والشايب^٨
الى الذي تهب الدولت راحته ولا يمن على اثار موهوب^٩
ولا يروع بمقدور به أحدا ولا يفزع موفورا بمنكوب^{١٠}
وجدت أنفع مال كنت أفخره ما في السوابق من جري وتقريب^{١١}
لما رأين صروف الدهر تغدري وفين لي ووفت صم الأنايب^{١٢}
وكيف أكفر يا كافور نعمتها وقد بلغتك بي يا كل مطلوبي^{١٣}
أنت الحبيب ولكني أعوذ به من ان أكون محبا غير محبوب

وقال يمدحه سنة ٣٤٧

فراق ومن فارقت غير مذمم وأم ومن يمت خير ميمم

١ التمويه أي الطلي ويراد به التزيين .

٢ ليت الحوادث ترجع لي ما سلبتي من الشباب وتأخذ ما اعطيتني من العقل والتجربة .

٣ أي نشأ حاصلا على عقل الكهول قبل أن يكون كهلا .

٤ يدبر الامور بطين خائنه الذي يختم به رسائله ولو أعى النقش الذي فيه .

٥ قالوا مجرت المطر بتركك سيف الدولة فقلت الى امطار يدي كافور الساكبة .

٦ أي لا يفدر بأحد ليروع به غيره ولا يسلب أحدا ليفزع غير المألوف .

٧ وجدت أنفع مال جري الخيول .

٨ النون في رأين واجمة الى الخيل أي لما رأيت الخيل غدر الدهر بي وفت لي بحلمي عن مواطن

الغدو وكذلك وفت لي الرماح .

وما منزل اللذات عندي بمنزل
سجية نفس ما تزال مليحة
رحلت فكم باك بأجفان شادن
وما ربة القُرط المليح مكانه
فلو كان ما بي من حبيب مقنع
رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى
إذا لم أيجل عنده واكرم
من الضيم رمياً بها كل مخرم^١
عليّ وكم باك بأجفان ضيفم^٢
بأجزع من ربّ الحسام المصنم
عذرت ولكن من حبيب معتم^٣
هوى كاسر كفتي وقوسي وأسهمي

* * *

إذا ساءَ فعلُ المرء ساءَت ظنونهُ
وعادى محبّته بقول عداته
أصادق نفسَ المرء من قبل جسمه
واحلّم عن خلي واعلم انه
وإن بذلَ الإنسان لي جود عابس
وأهوى من الفتیان كلّ سَمِذع^٤
خطت تحته العيس الفلاةَ وخالطت
ولا عفةً في سيفه وسانه
وما كلّ هاوٍ للجميل بفاعل
فدى لأبي المسك الكرامُ فانها
اغرت بمجدٍ قد شخصن وراءه
إذا منعت منك السياسة نفسها
وصدق ما يعتاده من قوهم
وأصبح في ليلٍ من الشك مظلم
وأعرفها في فعلهِ والتكلّم
متى اجزّه حلاً عن الجهل يندم
جزيت يحود التارك المتبسم
لحبيب كصدر السميري المقوم
به الخيل كبّاتِ الخيس العرمم
ولكنها في الكفّ والطرف والفم
ولا كلّ فعّال له يتمم
سوابق خيلٍ يتدين بأدهم^٥
الى خلقٍ رحبٍ وخلقٍ مطهم
فقف وقفةً قدّامه تتعلم

١ مليحة من الضيم اي خائفة منه . مخرم طريق في الجبال .

٢ رحلت فكم حسناء تبكي عليّ وكم بطل .

٣ الحبيب المقنع كتابة عن المرأة والحبيب المغم عن الرجل (يقصد سيف الدولة) .

٤ السميدع : الشريف الشجاع .

٥ ابو المسك أي كافور . جعل الكرام جياداً وهو الادم في مقدمتهم .

يضيق على من رآه العذرُ ان يرى ضعيفَ المساعي او قليل التكرم^١
ومن مثلُ كافور اذا الخيل احجمت وكان قليلاً من يقول لها اقدمي
شديد ثبات الطُرف والنقع واصلُ الى لهواتِ الفارس المتلثم^٢

* * *

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى

وآملُ عزّاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يفيظ الحاسدين وحالة
ولم ارجُ الا أهل ذاك ومن يردُ
فلولم تكن في مصر ما سرت نحوها
ولا نبحت خيلي كلابُ قبائل
ولا اتبعت آثارنا عين قائفٍ
وسمنا بها البيداء حتى تغمّرت
من النيل واستذرت بظلّ المقطم

* * *

وابلجَ بعصي باختصاصي مشيرَه
فساق إليّ العُرفَ غير مكدرٍ
قد اخترتُك الأملاك فاختر لهم بنا
فاحسن وجهٍ في الوري وجه محسن
واثرفهم من كان أشرف همةً
لن تطلب الدنيا اذا لم تردُ بها
عصيت بقصديه مشيري ولؤمي
وسقتُ اليه الشكرَ غير مجهم
حديثاً وقد حكمت رأيك فاحكم^٣
واينُ كفّ منهم كفّ منعم
وأكثر اقداما على كل مُعظم
سرورَ محبٍ او مساءة مجرم

* * *

١ راءه بمعنى رآه .

٢ الطرف المهر اي شديد الثبات حين اشتداد الرغى .

٣ اي ولولاك لما قطعت القفار حتى نبحت خيلي كلاب القبائل كافي من بعض عصابات الديلم

٤ القائف هو الذي يتتبع الاثر ليعرف صاحبه .

٥ أي قد اخترتك واستغنيت بك عن كل الملوك فأحسن إلي احساناً يلهمون به .

ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها وصيرتُ ثلثيها انتظارك فاعلم
ولكنّ ما يمضي من الدهر فائتُ فجُدّ لي بخطّ البادر المتفنّم
رضيتُ بما ترضى به لي محبةً وقدتُ اليك النفس قود المسلم
ومثلك من كان الوسيط فؤاده فكلّمه عني ولم أتكلّم

مرثاته في أبي شجاع فاتك الرومي

وكان من المشهورين بالمكارم وقد توفي بمصر سنة ٣٥٠

الحزن يُقلق والتجمل يردعُ والدمع بينها عصي طبعُ
يتنازعان دموعَ عينٍ مسدّرٍ هذا يجيءُ بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافر والليلُ معي والكواكب ظلّعُ
اني لأجبن عن فراق أحبتي وتحسّ نفسي بالحمام فاشجع
ويزيدني غضب الأعادي قسوةً ويُلّمّ بي عتب الصديق فأجزع
تصفو الحياة لجاهلٍ أو غافلٍ عما مضى منها وما يتوقع
ولن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب الحال فقطع
أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع ؟
تنخلف الآثار عن اصحابها حيناً ويدركها الفناء فتلبع
لم يرض قلبَ أبي شجاع مبلغُ قبل المات ولم يسعه موضع
كنا نظنّ دياره مملوءةً ذهباً فمات وكلّ دار بلقع
واذا المكارم والصوارم والقنا وبناتُ أعوج كلّ شيء يجمع
المجد أخسرُ والمكارم صفقةُ من أن يعيش لها الهامُ الأروع
والناس انزلُ في زمانك منزلاً من ان تعايشهم وقدرك أرفعُ

١ النوم بعده لا يألف العين والليل يطول كأنه منهوك من التعب والكواكب عرجاء لا تحسن السير.

٢ كنا نظن دياره مملأ بالذهب والاموال ولكنه لجوده لم يترك فيها شيئاً ولم يجمع في حياته غير

المكارم والسلاح والحيول .

٣ الناس في زمانك أقل قدراً من أن تعيش بينهم .

برء حشاي ان استطعت بلفظة
ما كان منك الى خليل قبلها
ولقد أراك وما ظمّ ملتة
ويدك كانت نوالها وقتالها
يا من يبدل كل يوم حلة
ما زلت تخلمها على من شاءها
فظالت تنظرا رماحك شرع
بأبي الوحيد وجيشه متكاثر
واذا حصلت من السلاح على البكا
وصلت اليك يد سواء عندها
من للمحافل والمحافل والسرى
ومن اتخذت على الضيوف خليفة
قبعا لوجهك يا زمان فإنه
أيموت مثل أبي شجاع فأنك
أبقيت أكذب كاذب أبقيته
ولتى وكلّ مخالم ومنادم
من كان فيه لكل قوم ملجأ
ان حلّ في فرس ففيها ربها
او حلّ في روم ففيها قيصر
قد كان أسرع فارس في طعنة
لا قلبت أيدي الفوارس بعده

فلقد تضرّ اذا تشاء وتنفع
ما يستراب به ولا ما يوجع
الا تفاها عنك قلب أصم
فرهض يحق عليك وهو تبرع
اننى رضيت بحلة لا تنزع
حتى لبست اليوم ما لا تخلع
فيا عراك ولا سيفك قطع
يبكي ومن شرّ السلاح الادمع
فحشاك رعت به وخدك تقرع
بازي الأشيب والغراب الأبقع
فقدت بفقدك نيتراً لا يطلع
ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيّع
وجه له من كل قبج برقع
ويعيش حاسده الخصي الأوكع
وأخذت أصدق من يقول ويسمع
بعد اللزوم مشيع ومودع
ولسيفه في كل قوم مرتع
كسرى تذلل له الرقاب وتخضع
أو حلّ في عرب ففيها تبع
فرساً ولكنّ المنية أسرع
رحاً ولا حملت جواداً أربع

١ يقصد بالوحيد الفريد . وقوله بأبي للتفدية .

٢ وصلت اليك يد الموت التي يتسارى بها العظيم والحقير .

٣ الخصي الأوكع يقصد به كافرراً .

٤ أي انه عظيم تظهر عظيمته أينما حل في الفرس أو في الروم أو العرب .

وقال يرثي والده سيف الدولة ويعزيه عنها

سنة ٣٣٧

نُعدتْ المشرفيّة والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتالٍ
ورنبتُ السوابقَ مُقرباتٍ وما يُنجين من خبيب الليالي
ومن لم يعشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل الى الوصالِ
نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيالِ
رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرتُ اذا اصابني سهامُ تكسرت النصال على النصالِ
وهذا أول الناعين طُراً لأول مينة في ذا الجلالِ
كان الموت لم يفجع بنفسٍ ولم يخطر لمخلوقٍ ببالِ
صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمالِ
على المدفون قبل التراب صونا وقبل اللحد في كرم الخلالِ
أطابَ النفسَ أنكِ متٌ موتاً تمتته البواقي والحوالي
وزلت ولم تَرَي يوماً كريهاً تسرّ النفس فيه بالزوالِ
رواق العزّ فوقك مسبطرٌ وملك عليّ ابنك في كمالِ
سقى مثواك غادي في الغوادي نظيرُ نوال كفك في النوالِ
يمرّ بقبرك العافي فيبكى ويشغله البكاء عن السؤالِ
وما أهداك للجدوى عليه لو انتك تقدرين على فعالِ
بعيشك هل سلوتِ فانّ قلبي وان جانبك أرضك غير سالِ
نزلتِ على الكراهة في مكانٍ بعدت عن النعامي والشمالِ
تحجّبُ عنك رائحة الخزامى وتمنّع منك انداء الطلالِ
بدارٍ كلّ ساكنها غريب بعيد الدار منبت الحبالِ

١ . علي أي سيف الدولة .

٢ . سقى قبرك معاب ما طل يشبه جود كفك .

٣ . نزلت في مكان بعدت فيه عن ريح الشمال وريح الجنوب (يعني القبر) .

حَصَانٌ مِثْلُ مَاءِ الْمِزْنِ فِيهِ كِتْمُ السَّرِّ صَادِقَةٌ الْمَقَالِ
يَعْلَمُهَا نَطَاسِيَّ الشُّكَايَا وَوَاحِدَهَا نَطَاسِيٌّ الْمَعَالِي ١
إِذَا وَصَفُوا لَهُ دَاءً بِشَفَرٍ وَلَيْسَتْ كَالْأَنَافِثِ وَلَا اللَّوَاتِي
وَلَا مِنْ فِي جَنَازَتِهَا تَجَارٌ مَشَى الْأَمْرَاءُ حَوْلَهَا حَفَاةً ٢
وَلَوْ كَانَتِ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا وَمَا التَّائِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مِنْ وَجَدْنَا يَدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمَشَّى
وَكَمْ عَيْنٍ مَقْبَلَةٌ النَّوَاحِي وَمَفْضٍ كَانَ لَا يَفْضِي لِحُطْبٍ
أَسِيفُ الدَّوْلَةِ اسْتَنْجَدُ بِصَبْرِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ النَّاسَ التَّمَزِّي
وَحَالَاتِ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى رَأَيْتَكَ فِي الَّذِينَ أَرَى مُلُوكًا
فَإِنْ نَفَقَ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَانِ الْمَسْكُ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ ٣

وَقَالَ يَصِفُ حَمِيَّ أَصَابَتِهِ وَيَعْرُضُ بِالرَّحِيلِ عَنْ مِصْرَ
مَلُوكِمَا يَحِلُّ عَنْ الْمَلَامِ وَوَقَعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ ٤

١ يَدَاوِيهَا طَبِيبُ الْأَمْرَاضِ وَلَكِنْ ابْنُهَا طَبِيبُ الْمَعَالِي .

٢ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْعَامَةِ فَيَسِيرُ وَرَاءَهَا أَهْلُ السُّوقِ وَالتِّجَارِ وَلَكِنْ الْأَمْرَاءُ مَشَوْا حَفَاةً وَرَاءَهَا كَأَنَّمَا الْحِجَارَةُ كَانَتْ مِنْ دِرِّبِ النَّعَامِ .

٣ وَكَمْ عَيْنٍ كَانَتْ تَقْبَلُ دَلَالًا أَصْبَحَتْ مَكْتَحِلَةٌ بِالْغُرَابِ وَكَمْ رَجُلٍ كَانَ لَا يَنْكَسُ رَأْسَهُ لِحُطْبٍ أَصْبَحَ مَنكَسًا فِي الْقَبْرِ . وَكَمْ مِنْ كَانَ يَفْكُرُ كَثِيرًا فِي صِحَّتِهِ وَأَصْبَحَ الْآنَ بَالِيًا بِتَأْثِيرِ الْحَمَامِ .

٤ لَيْسَ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ تَفُوقَ النَّاسَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمَسْكُ هُوَ مِنْ دَمِ الْغَزَالِ يَفْضُلُهُ كَثِيرًا .
٥ يَخَاطَبُ صَاحِبِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ مِنْ تُلُومَانِهِ (عَلَى رُكُوبِ الْأَسْفَارِ) هُوَ أَعْلَى مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ الْمَلَامُ .

ذراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام
 فاني أستريحُ بذِي وهذا وأتعبُ بالاناحة والمقام
 ولا أُمسي لاهل البخل ضيفاً وليس قرى سوى مخّ النّعام^١
 ولما صار ودّ الناس خبئاً جزيت على ابتسام بابتسام^٢
 وصرتُ أشكّ فيمن أصطفيه لعلي انه بعض الانام
 يحبّ العاقلون على التصافي وحبّ الجاهلين على الوسام^٣
 وآنف من اخي لابي وامي اذا ما لم اجده من الكرام
 أرى الاجداد تغلبها كثيراً على الاولاد اخلاق اللّثام^٤
 ولستُ بقانع من كل فضل بان أعزى الى جدّ ممام^٥
 عجبت لمن له قدّ واحد وينبو نبوة القضم الكهام^٦
 ومن يحدّ الطريق الى المعالي فلا يذرّ المطيّ بلا سنام^٧
 ولم ارَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على السّتام^٨

* * *

أقمت بأرض مصر فلا وراني تحبّ بي الركاب ولا أمامي^١
 وملّتي الفراش وكان جنبي يملّ لقاءه في كل عام
 قليلٌ عاندي سقيم فؤادي كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي

١ وليس لي زاد البتة . إشارة الى ان النعام لا مخ له .

٢ خبئاً اي خداعاً .

٣ الوسام حسن النظر . يقول ، العاقل يحب لاجل تصافي الرّد بينه وبين محبوبه اما الجاهل فيهمّ بالهيئة الخارجيّة .

٤ اي ان الاخلاق اللّثيمة قد تغلب الاصل الكريم فيجئ الولد لثيماً .

٥ اي لا اقنع ان ألسب الى جد كريم بل ادرك الفضل بنفسي .

٦ اي عجبت من الشباب القوي الذي اذا عرض له الامر العظيم رجع عنه رجوع السيف الذي لا يقطع .

٧ من لا يذيب اسنمة الابل يجاهده في سبيل المعالي .

٨ تحب بي الركاب أي تسيّر في الابل ، ويريد بهذا البيت انه لزم الإقامة بها .

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام.

* * *

وزائري كأت بها حياء	فليس تزور الا في الظلام ^١
بذلت لها المطارف والحشايا	فماقتها وباتت في عظامي ^٢
يضيق الجلد عن نفسي وعنهما	فتوسعه بأنواع السقام
كأن الصبح يطردها فتجري	مدامها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق	مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدا والصدق شر	اذا القاك في الكرب العظيم
أبينت الدهر عندي كل بنت	فكيف وصلت انت من الزحام ^٣
جرحت مجرحاً لم يبق فيه	مكات للسيوف ولا السهام
يقول لي الطبيب اكلت شيئاً	وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه اني جواد	اضر يحسمه طول الجمام ^٤
تمود أن يُغَبَّر في السرايا	ويدخل من قَتام في قَتام ^٥
فأمسك لا يطال له فيرعى	ولا هو في المليك ولا اللجام ^٦

١ إشارة الى الحمى .

٢ المطارف : اردية الخز . والحشايا الفرش .

٣ يريد ببلت الدهر الحمى وبنات الدهر شدايقه فيقول : ايها الحمى ، عندي كل نوع من انواع الشدائد فكيف لم يمنعك ازدحامهن من الوصول الي .

٤ الجمام : الراحة .

٥ تمود ان يشير الغبار بين الجيوش ويخرج من غيرة الى غيرة اي من معركة الى اخرى .

٦ فأمسك لا يرعى له الحبل فيرعى ولم يقدم له المليك فيأكل ولم يكن تحت اللجام في السفر وقد شبه حالته مع كنفور بحالة هذا الجواد .

المري

ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان

٣٦٣ هـ - ٤٤٩ هـ

٩٧٤ م - ١٠٥٨ م

•

مصادر دراسته - عصره ونشأته - زندقته وإيمانه - شاعريته -
شعره في سقط الزند واللزوميات - مواقفه الشعرية —

مصادر دراسته

- نزہۃ الالباء للانبیاء ٤٢٥
کتاب الانصاف والتحري - لکمال الدين ابن العديم
وهو منشور ضمن کتاب اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ من ص ٧٨
معجم الادباء لياقوت ج ١ ص ١٦٢ - ٢١٦
وفيه ما دار من المراسلات بين المعري وداعي الدعاة
وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٧ (تحت حرف احمد)
ترجمة المعري للذهبي منشورة في ذيل رسائل المعري (اكسفورد)
مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج ١ ص ١٩١ - ١٩٢
رسائل المعري (طبع اكسفورد)
اللزوميات مطبعة المحروسة (مصر ١٨٩١) وبومباي ١٣٠٣ هـ
د مصر ١٧٢٤
شرح التنوير على سقط الزند مطبعة الاسلام (مصر) ١٣٣٤ هـ .

وبما كتب عنه حديثاً :

- ترجمة مسهبة بالانكليزية للاستاذ مرغوليوث في مقدمة رسائل المعري
ترجمة للاستاذ نكلسون في دائرة المعارف الاسلامية .
ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين
اعلام النبلاء للطباخ ج ٤ ص ١٧٥ - ١٨٠
المهرجان الالفى للمعري نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٥
ورسائل وترجمات شتى في كتب الأدب والتاريخ لعرب ومستشرقين منها :
ترجمة وشرح بعض اللزوميات لفون كريمير في Z. M. D. G.
المجلد ٣٠ و ٣١ و ٣٨ .

عصره وبينته

ذكرنا في فصل سابق ان اماره بني حمدان كانت أيام سيف الدولة في حروب متواصلة وان هذا الامير كان كثير السخاء على الادباء والعلماء ، وقد اضطره كل ذلك الى الانفاق والتشديد في جمع الاموال من رعيته . ولما مات خلفه ابنه ابو المعالي ثم ابنه ابو الفضائل ، وفي ايامها تفاقمت الخطوب وأصبحت اماره حلب يوم نشأ شاعرنا معتركا لاربع قوى رئيسية :

الاولى - الحمدانية وكانوا قد ضعف أمرهم وأخذت السيطرة تخرج من أيديهم .

الثانية - الفاطمية أصحاب الامر في مصر وكان لهؤلاء مطامع في حلب ، فلم يألوا جهداً في دس الدسائس وارسال الجيوش لفتحها .

الثالثة - قبائل البادية ، ومنهم المرداسية التي كان لها شأن يذكر في هذا الاضطراب السيامي .

الرابعة - الروم ، وغاراتهم على اماره بني حمدان معروفة . على انهم بينا كانوا ايام سيف الدولة يُعدّون أعداء المسلمين عموماً ، أصبحوا أيام المعري - بسبب تطاحن امراء المسلمين - عوناً لبعض هؤلاء الامراء على بعض وسبباً في توسيع شقة الخلاف بينهم . فمن ذلك انهم ناصرُوا ابا الفضل ابن حمدان على الفاطميين ، وكان هؤلاء يحاصرون حلب^١ . وبهم استنجد حسان بن المفرّج ولؤلؤ مولى ابي الفضل . فكان بين المسلمين

١ ذيل تجارب الامم للروذراوري (امندرز ١٩١٦) حوادث سنة ٣٨١ .

حروب داخلية أدت الى تدخل الروم وانحيازهم الى أحد الفريقين ، مما زاد الطين بلة في تلك الفوضى السياسية . وانك لتلمح في شعر المعري شيئاً من ذلك فقد قال في مدحة له لاحد الامراء :

ابعدنا بالروم ناس وانما هم التبت والبيض الرقيق سوام
كأن لم يكن بين الخاض وحارم كئائب يُشجعين الفلا وخيام^١
كئائب من شرق وغرب تألبت فرادى ائها الموت وهو توام

ويؤخذ من هذه الابيات ان بلدة الشاعر كانت في يد أمير معاد للروم ، والارجح انها كانت قد استقلت يومئذ عن حلب ، وان اعداء ذلك الامير كانوا يتوعدونه باستتجاد الروم عليه ، فنظم الشاعر قصيدته مشيراً الى بأس الامير والى انهزام كئائب الروم بين هذين المكانين وانهم لذلك لا يخشون بأسهم ولا يبالون بوعيدهم .

فاذا نظرنا الى الاحوال السياسية التي نشأ فيها ابو العلاء : نراها كثيرة الاضطراب والفتن والاهوال ، ولا شك ان ذلك شديد التأثير في أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فاشتدت فيها الضائقة والفساد وبرزت في الرؤساء الروح الاشعبية ، روح التكالب على المال والامارة مما يُعكس لنا جلياً في شعر شاعرنا الكبير :

مثلّ المقام فكم اعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

* * *

مولده ونشأته

وُلِدَ المعري في المعرة وفيها نشأ . والمعروف من كتب التاريخ انه أصيب بجدري وهو في الرابعة من عمره ذهب بنظره . على ان عماء لم

١ الخاض نهر قرب المعرة ، وحارم بلدة قرب انطاكية . يشجين الفلا أي يفص بهم الفلا لكثرتهم .

يكن في أول الامر كلياً ، فان النصوص كلها تشير الى ان الجديري ذهب
بيسرى عينه وغشي يمناهما بياض . ويقول الانباري : « انه كان ضريراً اعمى
ولم يكن اكمه كما توهم من لا علم له ^١ » . وقد روى ابن العديم عن
بعض اهل الادب حكاية نقلها عن رجل اسمه ابو منقذ انه رأى
ابا العلاء وهو صبي دون البلوغ فقال في وصفه : وهو صبي دميم الخلق
مجدور الوجه وعلى عينه بياض من الجديري وكأنه ينظر باحدى عينيه
قليلاً ^٢ .

والذي يترجح لدينا من ذلك ان الشاعر لم يفقد بصره تماماً الا بعد
بضع سنوات من مرضه . على ان ما فقدته من بصرته استعاض عنه بمجدة
بصيرته ، فقد اجمع المؤرخون على شدة ذكائه وقوة حافظته ، ولهم في
ذلك أقاصيص وروايات معروفة ^٣ .

والمرتب من بيت علم ورياسة ^٤ - فأبوه من العلماء ، وجدّه وأبو
جدّه وجدّ جدّه كلهم تولّوا قضاء المعرة . وقد بقي القضاء في بني أخيه
الى ان دخلها الافرنج سنة ٤٩٢ هـ - أي الى ما بعد موت الشاعر بأكثر
من اربعين سنة .

ومن آلّه (آل سليمان) فضلاء وعلماء وشعراء لا يتسع المقام لذكرهم ،
وكانت الفتاوى (على ما يستفاد من ياقوت وابن العديم) في بيتهم على
المذهب الشافعي أكثر من مئتي سنة .

في وسط علمي ديني كهذا الوسط نشأ شاعرنا فأخذ العلم والادب أولاً
عن أبيه ثم عن جماعة من علماء المعرة ، وزار في حياته بعض المدن
الشامية المعروفة بالعلم كإنطاكية واللاذقية وطرابلس ، فأخذ العلم من علماءها

١ طبقات الادباء ٤٢٥ .

٢ الانصاف والتعري (في اعلام النبلاء ج ٤ - ١٠٤) .

٣ راجع ترجمته في معجم الادباء ، وفي الانصاف والتعري (طبائخ ٤ - ١٠١) .

٤ مفتاح السعادة ١ - ١٩١ .

٥ معجم الادباء ١ - ١٦٤ .

ومما وجدته في مكاتبتها . ويؤخذ من رسالته الى خاله ابي القاسم ابن سبيكة انه لم يقصد بعد العشرين احداً اجتداءً لعلم^١ . بقي في ذلك بضع سنوات ثم عاد الى المعرة ، والظاهر انه بدأ حياته العلمية كسائر العلماء والشعراء (في قرص الشعر للامراء) ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى عدل عنه . فليس له في سقط الزند الا بضع مدائح فيمن يرجى عطاؤهم كسعد الدولة بن حمدان وسواه . وهذه المدائح من أوائل شعره ، أما سائر مديحه ففي فقهاء أو أدباء من طبقته اختصهم بالوداد والاطراء .

فهايه الى بغداد

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره (أي سنة ٣٩٨) قام برحلة اولى الى بغداد ، ولا نعرف كثيراً عن هذه الرحلة . ثم رحل اليها ثانية سنة ٣٩٩ وأقام فيها سنة وسبعة اشهر^٢ .

وهنا لا بدّ من ان نتساءل لماذا رحل الى بغداد ولماذا لم يقيم فيها طويلاً ؟ والذي يؤخذ من مراجعة شعره ورسائله ومقابلتها بأقوال المؤرخين ان الاضطرابات السياسية في حلب والمرة أهابت به الى ترك وطنه وقصد بغداد^٣ . وكان ينوي الإقامة فيها واستخدام مواهبه في سبيل العلم ، ولكنه لم يوفّق الى امنيته ففي رسالته الى خاله ابي القاسم التي كتبها على اثر رجوعه من بغداد يقول : « وكنت ظننت ان الايام تسمح لي بالإقامة ، فاذا الضارية احباً بعراقها ، والعبد أشحّ بكرّاعه ، والغراب اضنّ بثمرته » . الى أن يقول : « فلما زبنت الضروس الحالب ، ونزّت العنود تحت الراكب ، ومنعت القلوع النازع ، وخيبت رائداً سحاب ، وكذب شاماً برق ، عادت ليعترها لئيمس^٤ وذكر وجاره ثعالة » . ثم

١ رسائل المعري (اكفورد) ٣٢ .

٢ ابن خلكان ١ - ٤١ .

٣ ويروي الذهبي انه ذهب الى بغداد متظلاً من أمير حلب لمعارضته لإياه في وقف له .

٤ مثل يضرب لمن يرجع الى ما كان عليه ويشير هنا الى رجوعه الى وطنه .

يقول : « ولما فاتني المقام بحيث اخترت ، اجمعت على انفرادي يجعلني كالظي في الكناس الخ »^١ .

ولعلّ ما في طبع المعري من الأنفة منعه من ان يحصل رزقه في بغداد على طريقة الدّاحين المستجدين من الشعراء ، فكان ذلك من الاسباب التي عجلت في رجوعه . فقد ذكر في الرسالة الأنفة الذكر ان أهل بغداد قابلوه بالاكرام وانهم لما أحسّوا بتأهبه للرحيل اظهروا كسوف بال ، ثم يقول : « وانصرفت وماء وجبي في سقاء غير سرب ، ما أرقّت منه قطرة في طلب أدب ولا مال » . وتظهر انفته الشديدة أيضاً في ما جرى له في مجلس الشريف المرتضى ، وكان هذا يفيض المتنبّي ، وكان المعريّ يتمصّب له . فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبّي فتناقّصه المرتضى ، فقال المعري لو لم يكن للمتنبّي من الشعر الا قوله « لك يا منازل في القلوب منازل » لكفاه فضلاً ، ففضّب المرتضى وأمر فسُحب برجله وأخرج من مجلسه^٢ ، وقال لمن بحضرته : أراد هذا الاعمى قوله :

واذا اتكّ مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل
وفي شعره كثير مما يشير الى هذا الطبع فيه ، كقوله من قصيدة كتب بها الى الفقيه ابي حامد الاسفراييني عند دخوله بغداد :

ولا اثقل في جاءٍ ولا نشبٍ ولو غدوت اخا عُدُم واقناع
وما كتبه في بغداد يخاطب اهل بلده :

أإخواننا بين الفرات وجلّتي يد الله لا اخبرتك بحال
انبتكم اني على العهد سالم ووجهي لما يبتذل بسؤال
فاصبحت محسوداً بفضلٍ وحده على بُعد انصاري وقلّة مالي
رجل عزيز النفس مثله يأنف من السؤال ومن التزلف الى كبار القوم

١ راجع رسائل المعري (اكسفورد ٣٠ - ٣٢) .

٢ معجم الادباء ١ - ١٧٠ .

في عصر كان التزلف هو جادة الاديب الى الرزق ، لا يُستغرب ان
تضيق به الحال في عاصمة الخلافة حتى تحمله الى ان يقول :

تَنَيْتُ ان الحمر حَلَّتْ لنشوة تجهلني كيف اطمانت بي الحال
فاذهل اني بالعراق على شفا رزي^١ الاماني لا انيس ولا مال
مُقلّ من الاهلّين يسرّ واسرة كفى حَزَنًا بينْ مشتَ واقلال
وكم ماجدٍ في سيف دجلة لم اشم له بارقاً والمرءُ كالزن هطال
سيطلبني رزي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ واقبال

وبرغم ما في قصيدته التي ودع فيها بغداد من مدح لاهل تلك المدينة ،
فان في قصائده الاخرى التي قالها في بغداد ما ينمّ على ما كان يشعر به
من ضيق ومن تحنان الى وطنه^١ . وفي قصيدة بعث بها الى القاضي
التنوخى يذكر ان الذي اهاب به الى تركها رجاؤه بقاء والدته ونفاذ ماله :
اثارني عنكم امران ، والدّة لم ألقها وثرأ عاد مسفوًا

أما والدته فماتت قبل وصوله الى المعرة فجزع لذلك ورثاها رثاء ابن
مفجوع .

ولما عاد الى المعرة لزم منزله وعاش فيه على طريقة الفلاسفة المتقشفين .
ويظهر من بعض رسائله انه فكّر كثيراً في ذلك ، فقد قال من رسالته
لأهل المعرة : « فوجدت ما اصنعه في ايام الحياة عزلة تجعلني من
الناس كبارح الأروى من سانح النعام . وما ألوّث نصيحة^٢ لنفسي .
فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد صلاته على نقر يوثق بخصائلهم ،
فكلهم رآه حزماً ، وعدّه اذا تمّ رشداً ، وهو أمر ليس بنتيج الساعة
ولا ربيب الشهر والسنة ولكنه غذي الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر
الطويل الخ^٢ . »

على ان زهد المعري لا يعني انقطاعاً عن العمل ، بل ترفعاً عن

١ ولا يستبعد ان يكون اكثر ذلك في اثناء رحلته الاولى .

٢ رسائل المعري .

حطام الدنيا وغرورها . فالرجل كان كثير العمل حريصاً على التعليم والتأليف . وفي هذا الطور من حياته نظم لزومياته وصنّف أكثر كتبه ورسائله ^١ . وكان منزله محجة الطلاب يقصدونه من كل الآفاق ^٢ ، وإلى ذلك يشير في الزوميات :

يزورني الناس هذا ارضه يمنّ من البلاد وهذا داره الطّبس

وقد خرج منهم ائمة وقضاة ورؤساء في العلم : منهم الخطيب ابو زكريا التبريزي وابو المكارم الابهري وابو تمام ابن عيسى الانصاري وابو ظاهر الانباري وابو القاسم التنوخي وسوام .

وبرغم تقشفه ولزومه منزله كان له من الوجاهة اسمى مقام . قال ابن العديم : « وما زالت حرفة ابي العلاء في علاء وبحر فضله مورداً للوزراء والامراء . وما علمت ان وزيراً مذكوراً وفاضلاً مشهوراً مرّ بمعرة النعمان في ذلك العصر الا وقصده واستفاد منه ^٣ » . وما يدلّك على وجاهته ما نقله ياقوت والذهبي ^٤ من ان أهل المعرة لما اشتد عليهم صالح بن مرداس لم يحدوا بداً من ايفاد المعري مستشفعاً فيهم ، فقصد الامير ولما دخل عليه قال الامير : انت ابو العلاء ؟ فقال انا ذاك . فرقمه الى جانبه ، وبعد ان خاطبه المعري بأمرهم قال له اني قد وهبتها لك ايها الشيخ .

ولما أصبحت المعرة وحلب تحت سطوة الفاطميين بذل له المستنصر الفاطمي ما بييت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئاً ، وكذلك داعي الدعاة لما عرف تزهّد المعري وقلّة دخله كتب الى نائب الفاطميين بحلب بأن يُجري ما تدعو اليه حاجته وان يضاعف حرمة ويرفع منزلته عند الخاص والعام ،

١ من اراد ان يعرف عدد مؤلفاته فليراجع معجم الادباء والانصاف والتحرّي وما نقله الذهبي عن القطبي .

٢ ابن خلكان ١ - ٤١ .

٣ أعلام النبلاء ٤ - ٢٤٤ .

٤ معجم الادباء ١ - ٢١٦ ورسائل المعري (اكسفورد) ١٣٠ .

فامتنع عن قبول ذلك^١ . وبين المعري وداعي الدعاة رسائل ومكاتبات نستدل منها على ما كانت لشاعرنا من الميزة الرفيعة عند زعماء ذلك العصر .

ويؤيد كل ذلك ما ذكره الشاعر الفارسي ناصر خسرو الذي زار المرة سنة ٤٣٩ هـ أي قبل موت المعري بعشر سنوات ، فوصفه بقوله « انه رجل ذو نفوذ عظيم في بلده وذو غنى ، ينفق على الفقراء والمعوزين ، مع انه يعيش عيشة الزهد والتقشف »^٢ .

وفي شعر المعري ورسائله ما قد يزكّي شهادة ناصر خسرو ، كقوله في اللزوميات مثيراً الى ما يعتقدّه الناس من حسن حاله :

مَنْ لِيَ ان لا أقيم في بلد أذكر فيه بغير ما يجبُ
يُظنّ بي اليسر والديانة والعلم وبينها حجبُ
ومن قصيدته :

تفهم يا صريع البين بشرى أنت من مستقلّ مستقل
يُستدل انه ارسل قدراً من المال الى أديب اسمه صريع البين ، ويسأله المَعذرة على قلة ما ارسل اليه .

وكذلك في قصيدته :

اييسط عذري منعم ام يخصني بما هو حظّي من ألم عتاب
يعتذر لفقيه عن ان الهدية التي ارسلها اليه أقلّ من قدره وكان المعري يومئذ في الخمسين من عمره فقال :

فيا ليتني اهديت خمسين حبة مضت لي فيها صحي وشبابي
وقلّت له - فاترك ثلاثين اسوداً متى ما تكشّف تُلّفَ غير لباب
لعل الذي انفذتْ يكفيه ليلة لاسباغ طهر حان أو لشراب
وفي البيت الثاني اشارة الى ان الهدية ثلاثين درهماً فقط .

١ الانصاف والتحري ٤ - ١٤٤ .

٢ نقل عن Encyc. of Islam من فصل للاستاذ نكلسون .

ومثلها قوله في رسالة أرسلها الى علوي « وقد بعثت بشيء من النفقة ،
نفسي من قلته كل المشفقة »^١ .

ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن المديم مما قرأه بخط ابي الفرج محمد بن
أحمد بن الحسن الكاتب الوزير « روزنامج » انشأه لولده الحسن يذكر
فيه رحلته سنة ٤٢٨ الى الحجّ وعبوره بمصرة النعمان ، ويذكر اجتماعه بابي
العلاء ومن قوله فيه : « وقصر همه على أدب يفيده وتصنيف يجيده ،
ومتعلم يفضل عليه ومسترفد صعلوك يحسن اليه » . قال : « وله دار حسنة
يأويها ومعاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون
عليه ويكتبون له ، ووراثق برسمه مستأجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل
معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على أخيه وأولاده واللائنين
به والفقراء والقاصدين له من الغرباء »^٢ .

ولما قصده الخطيب التبريزي ليقراً عليه دفع اليه صرّة فيها ذهب ،
وقال : « اوثر من الشيخ ان يدفعها الى بعض من يراه ليشتري لي ما تدعو
اليه الحاجة مدة مقامي للقراءة واتوفر بذلك على الاشتغال » . وعلم المعري
ان هذا الطالب كان فقيراً فأخذ الصرة وخبأها وتقدم الى وكيله ان يجري
للخطيب ما تدعو اليه الحاجة مدة اقامته بالمعرة . ولما اتم دروسه وهمّ
بالانصراف ودّع الشيخ ، فدفع اليه صرّته بعينها . ولما اصر عليه الخطيب
قال المعري : لا سبيل الى رد الصرة عليّ ، وهذا ذهبك بعينه^٣ .

وهناك قصة نقلها الصفدي في نكت الهميان عن ابن سبط الجوزي
عن رجل دخل المعرة أيام المعري وقد « وشي » بشاعرنا الى محمود بن
صالح انه زنديق - قال : فأمر محمود بحمله اليه وبعث خسين فارساً
ليحملوه ، فأنزلهم ابو العلاء دار الضيافة .

١ رسائل المعري (اكفورد) ٣٥ .

٢ الانصاف والتحري ٤ - ١٥٢ .

٣ الانصاف والتحري ٤ - ١٥٢ .

ولا نعلم مبلغ هذه القصة من الصحة ولكنها اذا قرنت بما ذكرناه
عن جاه ابي العلاء وحسن حاله في المعرة - بما لا سبيل الى الشك
فيه - ترجح لدينا تصديقها .

ومع كل ذلك فأكثر الذين يترجون للمعري من قدماء ومحدثين يذهبون
الى فقر شاعرنا ، وانه كان يعيش من وقف له لا يتجاوز الثلاثين ديناراً
يعطي نصفه لخدمته . فكيف نجتمع بين القولين - بين وجاهة المعري
وكرمه من جهة ، وفقره وزهده من جهة أخرى ؟ - والجواب : ان
المعري بعد ان استقر في المعرة وعكف على العلم والتعليم قصده الطلاب من
الآفاق وكتبه الكبراء والامراء ، فعمم شأنه وحسنت حاله . ولكنه لم يكن
يستعمل من ماله إلا النزر اليسير ، وينفق الباقي في سبيل اللانذين
والمعوزين . وهنأمر العظمة في حياة المعري الزهدية . عاش عيشة الحكماء
المتورعين عن الدنيا ، ولكنه لم يكن في ذلك كأبي العتاهية وأضرابه من
الحريصين على المال المقبلين على حطام الحياة ، بل قنع باليسير اعتقاداً
بحكمة القناعة ، وأحسن بما كان يفضل عنه اعتقاداً بشرف الاحسان .

زندقته وإيمانه

اختلف الناس في المعري فمن ناعت إياه بالتقى وحسن العقيدة ، ومن
ناسب اليه الضلال والالحاد . وسبب ذلك ما يحذونه في لزومياته من النقد
الموجه الى الزعماء والرؤساء ، وما يهاجم به أحياناً بعض المذاهب والعقائد
الدينية . فممن اتهموه في دينه ياقوت وابن الجوزي والصلاح الصفدي ،
وجارهم الذهبي فقال : « مات متحيراً لم يحتم بدين من الاديان نسأل
الله ان يحفظ علينا إيماننا بكرمه » .

ومن ذهب الى انه صحيح العقيدة ابو الحسن الهكاري وابن العديم
صاحب « الانصاف والتعري في دفع التجري عن المعري » . ومنهم السلفي
فقد لخص أقوال الناس فيه ثم ختم ذلك بقوله : « ففي الجملة كان من

أهل الفضل الوافر ، قرأ القرآن بروايات وسمع الحديث بالشام على ثقات . وله في التوحيد واثبات النبوة وما يخصّ على الزهد واحياء طرق الفتوة والمروءة شعر كثير^١ .

* * *

ولا يزال الناس الى اليوم مختلفين في هذا الامر ، على انه لا بدّ قبل الحكم على المعرّي من ان نلقي نظرة على عصره وعلى ما كان له من الاثر في نفسه . فقد عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس الهجري - أي في ابدان الحركة الفكرية عند العرب . في ذلك العصر تمّ نقل العلوم اليونانية ونبغ بين المسلمين كثيرون من العلماء والمفكرين والنقادين ، فكانت بغداد وكثير من المدن الشرقية الاخرى مراكز علمية احتكت فيها « الروحانية » السامية التي حملت الى الناس الايمان بالتوحيد والمعاد والآداب الدينية ، « بالعقلية » اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات العلمية . وكان من جراء ذلك الاحتكاك اشتداد الفرق الكلامية وتعدّد المنازعات الفكرية بين مناصر للنصوص الدينية أو مضاد لها . ومن الانصاف هنا ان نقول ان هذا النزاع بين النقل والعقل كان يضعف أو يشتد بالنسبة الى الاحوال الاجتماعية او السياسية . على ان العصور الوسطى مدينة^٢ للغة العربية في انها (أي العربية) اتسمت يومئذ للتفكير العلمي ، فكانت الموثل الذي حفظت فيه ثمار العقول القديمة .

ولا شك ان هذا النزاع الفكري احدث في العقول ميلاً الى النظر النقدي في الكون والحياة والدين والمعاد ، فتسرب الشك الى عقول بعض المفكرين ، واستولى عليهم روح الانكار ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن ، ونادوا بالرجوع الى المبادئ الاولى في الحياة الروحية والاجتماعية . ومن

١ راجع القول في عقيدة المعري واختلاف الناس فيه (اعلام النبلاء ، ص ١٦٣ الى ١٦٧ والنهي في رسائل اكسفورد ص ١٣٠ - ١٣٥) ، وراجع مفتاح السعادة ج - ١ - ١٩١ و ١٩٢ .

هؤلاء شاعرنا - فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب تواقاً الى المعرفة والى بلوغ الحقائق ، وفي نفسه اصطدمت «تقاليد» الدين بأحكام العقل فاضطرب وصار يتلّس طريقه توصلًا الى ما يشفي أومه ، فلم يوفّق تمام التوفيق : كان الايمان أساس حياته ولكنه قضى الحياة حائراً تتقاذفه لجج الشك والتشاؤم . ومن هنا هذا الاختلاف في الحكم عليه .

على اننا اذا دققنا في حياته وشعره وحاولنا ان نخترق الضباب الذي يحيط به رأينا يظهر لنا في طورين مختلفين تفصل بينهما مدة اقامته في بغداد .

فالطور الاول طور الشباب ويمتد الى سنة ٤٠٠ هـ . وفي هذا الطور نراه مسلماً حقيقياً ، وبرغم ما قد تمّ عليه بعض اشعاره من روح التفكير لا نراه يختلف في تصرفه العادي عن سائر المؤمنين .

والطور الثاني طور العزلة . يبتدىء عقب رجوعه من بغداد ، ويمتد الى آخر حياته وفي هذا الطور يقف موقفين رئيسيين :

١ - تجاه الآخرة . وهو هنا حائر يجمع في نفسه التفكير الفلسفي والعاطفة الدينية الموروثة جمعاً غير محكم - فتارة تراه مؤمناً وطوراً مشككاً - ولهذا نجد في شعره بعض المتناقضات ، وسيأتي معنا تفصيل ذلك .

٢ - تجاه الحياة والانسان . وهو هنا صريح ثابت الرأي يغلب عليه التشاؤم والمرارة ، ويلخص هذا الموقف بالمبادئ التالية :
ان الطبيعة ثابتة لا تتزول (وهو مذهب الفلاسفة الطبيعيين)
ان الانسان فاسد بطبيعته ولا يمكن اصلاحه .
ان الطمع أساس كل تصرفاته ومعتقداته .
ان الدين انما هو حسن الاخلاق وشرف المعاملة (لا مجرد الفروض والسنن والايمان) .
ان حقيقة الحياة هي القناعة والبساطة .

ان الوجود علة الشقاء فالأفضل ان تتخلص منه بعدم التناسل .
وله في المرأة آراء لا تخرج عن آراء عصره ، وسيظهر لنا كل ذلك
في تحليلنا لشعره .

شاعريته وشعره

للمعري مقام فريد بين شعراء العربية - لا من حيث أسلوبه وفنه -
ولكن من حيث روحه ونظره الى الدنيا . وقد رأينا ان حياته الفكرية
تظهر في طورين مختلفين . وفي هذين الطورين تظهر حياته الشعرية أيضاً -
الاول يتناول شعر الشباب منذ بدء عهده بالنظم الى اعتزاله ، ويدخل
فيه أيضاً بعض ما نظمه بعد ذلك . وقد دوّن لنا هذا الشعر في سقط
الزند - والثاني شعر العزلة ويتمثل لنا في لزومياته أو ديوانه المعروف
بلزوم ما لا يلزم . ولنتقدم الى تحليل كل من هذين الطورين .

الطور الأول - سقط الزند

في هذا الطور نجد المعري جارياً في سنن الأقدمين من الشعراء ، فيكثر
في شعره ذكر النياق والرحيل والأحبة . ولكي تعرف مقدار ذلك نقول :
خذ الجزء الاول من سقط الزند فهو يشتمل على أكثر من ثلاثين قصيدة ،
وفي أكثر من ثلثها نجد القصيدة مقدمة يصف بها المطايا أو يتكلف
الغزل على الطريقة القديمة . أما الجزء الثاني من الديوان فإذا استثنيت
« درعياته » رأيت نصفه على هذا المنوال القديم .

ومن أمثلة وصفه للمطايا قوله يذكر سرها في الليل :

وأسود لم تعرف له الانس والدأ كساني منه حلة وخمارا
سرت بي فيه ناجيات مياها نجم اذا ماء الركائب غارا
فخرقن ثوبه بالليل حتى كأنني اطرت بها في جانبيه شرارا

الى ان يقول :

إذا قُيِّدَتْ في منزل بكنوفةٍ حسبت مُناخاً أو طنته مئاراً
تظن غطيظ النوم نومة زاجرٍ فتقطع قيداً أو تبت هيجاراً
ثم يقول :

ولست تحسّ الأرض منها بوطأة فتفزع سرباً أو تروع صواراً
تدوس أفاحيص القطا وهو هاجد فتمضي ولم تقطع عليه غراراً
وينسج مقدّمته على هذا الفسق البدوي في نحو عشرين بيتاً ، ثم يتقدم
إلى الممدوح ويصف بأسه في الحرب ، ثم يتناول وصف خيله وكرّها
في اثني عشر بيتاً لا تقول إذا قرأتها إلا إن ناظمها فارسٌ من الفرسان
البادية ^١ .

وقس على ذلك عشرات من قصائده . وقد يلفت النظر متابعتها لأبي
تمام في وصف المركب الذي حمله إلى الأنبار ، وتشبيهه إياه بالناقة السريعة ،
كقوله من قصيدة مطلعها « يا ناق جدّي فقد أفنت أناثك لي » .

على نجاة من الفرصاد أيدها ربّ القدم بأوصال وأضلاع
تطلى بقرارٍ ولم تجرب كأن طليت بسائل من ذفاري العيس مُنباع ^٢
ولا تبالي بمجلدٍ انت ألمّ بها ولا تهش لإخصاب وامراع
أما غزله فظاهر الصناعة قليل الروتق ولا ينتظر من كان كالعمري
غزل خارج من قلب متأثر يجمال الحبيب . فمن قوله في ذلك :

لله إيماننا المواضي لو أن شيئاً مضى يعود
أبلى ودادي لكم زمان ألين أحداه حديد
لم يبيل من بذله ولكن يبلى على طيّبه الجديد

فانظر إلى هذا الحب الذي يبلى لتقدم العهد عليه وقابله بشعور محب
صادق الحب متم القلب . ومن غزله :

١ راجع هذه القصائد في سقط الزند ١ - ١٧٥ .

٢ تطلى بقرار كأنه لسواده عرق سائل من ذفاري الأبل (الذفاري مؤخر الأذن) وعرق الأبل
أسود . ورب القدم أي النجار . نجاة : ناقة سريعة .

ما يوم وصلك وهو أقصر من نفس بأطول عيشه غالي
 علقت حبال الشمس منك يدي وجددها في الضعف كالباي
 وأردت وِرْد الوصل من قمر فصدرت عنه كوارد الآلِ
 وطلبت عندك راحة وعلى قدر اعتقادي كانت ادلاي
 وظننت في البلوى مناي ولم تكن المنية لي على بالِ
 ما زلت أبلغ ما أهمّ به حتى هممتُ بكوكب عالِ
 ان فات سلوان الحياة فكل الناس بمعد ممانته سالِ
 إلى آخر الأبيات وأكثرها على هذا النسق من قلّة الطلاوة . وليس
 غزل المعري بقليل في شعره ، ولكنه فتيّاً دون غزل المتنبي أو البحتري
 أو أبي تمام - ناهيك بشعراء الحب المعروفين . ولا نرى الا ان المعري
 كان يجري فيه جرياً صناعياً متبعاً فيه طريقة من تقدمه في النظم .
 وما يلزم ذكر المطايا والحبيب ذكر السيف والرمح والدرع ، وله
 في ذلك أقوال كثيرة تدل على مهارته اللغوية في الوصف كقوله :

وكل أبيض هنديّ به شُطَب مثل التكرّس في جاري بمنحدرِ
 تغايرت فيه أرواح تموت به من الضراغم والفرسان والجزرِ
 روض المنايا على ان الدماء به وان تخالفن أبدالاً من الزهرِ
 ما كنت أحسب جفنًا قبل مسكنه في الجفن يطوى على نار ولا نهر
 ولا ظننت صفار النمل يمكنها مشي على اللجّ او سعي على السمر
 وما يبرز في شعره ذكر الضواري والطيور ، فهو كثير التمثيل بالذئب
 والضبع والأسد والأرقم والقطا والحمام والنعام والنسر والوعل والغراب .
 ومثل ذلك كثرة ذكره للنجوم والأفلاك والصباح والظلام ، ونجّزىء
 منه بما يلي ، وهو من قصيدته « أرى العنقاء تكبر ان تصادا » :

لي الشرف الذي يطأ الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا
 ولو ملأ السهى عينيه مني أبرّ على مدى زحل وزادا
 وقد أثبت رجلي في ركاب جعلت من الزماع له بدادا

إذا أوطأتها قدَمي سهيل فلا سقيت خناصرة المهادا^١
كأن ظلماء من بنات نعش يردن إذا وردن بنا الثمادا

* * *

ومما يلاحظ في شعر المعري عموماً كثرة استشهاده بالحوادث الماضية ورجاها . ففي الجزء الثاني من سقط الزند مثلاً نحو ثلاثين شاهداً من هذا القبيل^٢ .

وفي هذا الطور من شعر المعري نراه شديد الشعور بأهمية نفسه كثير التفاخر بها ، يستلذ مدح المادحين ويؤله حسد الحساد .
كقوله :

تماطوا مكاني وقد فُتُّهم فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجّتهم كما نبّح الكلب ضوء القمر
وله كثير من الشعر الفخري ، وهو بذلك غير المعري في اللزوميات حيث تعدّى طور الشباب وأنفضجه اختبار الدنيا ، فلزم التواضع والزهد وصار يبتعد عن السخائف والظواهر^٣ .

أما أسلوبه فيكثر فيه الغريب من الألفاظ وغير المألوف من المصطلحات وهو كثير الولوج بأنواع البديع والمجاز ولا سيما الجناس والتمثيل وسنرى ذلك في كلامنا عن لزومياته .

* * *

وإذا نظرنا إلى الرجل نفسه فأنّا نراه في سقط الزند متمسكاً بمقائد

١ خناصرة محل بالشام .

٢ راجع من ذلك الصفحات التالية ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ،

٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ .

٣ راجع فقره في الجزء الاول ٨٧ ، ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٨٢ . ومقابلة لذلك راجع من أمثلة تواضعه في اللزوميات ٢ - ١٥ و ٢٤٢ و ٢٤٧ و ج ١ - ٩٣ و ٩٧ و ١٠٠ .

دينه كسائر أهل زمانه . واذا كنت تلح فيه شيئاً من روح الشك
والتأمل الفلسفي كقوله في مرثاة والده :

طلبت يقيناً يا جهينة^١ عنهم ولن تخبريني يا جبين سوى الظن
فلئن تمهدينني لا أزال مسائل^٢ فاني لم أعط الصحيح فاستغني

فذلك ضئيل جداً لا يكاد يظهر ازاء ما يظهر فيه من روح الاسلام
والتعصب له والذود عن تعاليمه . وقد كان قبل سفره الى بغداد وقبل
عزلته يناضل عن وجود الله وحدوث الكون والبعث ، وكلامه في ذلك
ثابت صريح ، كقوله يرد على الدهريين القائلين ان العالم قديم وانه لا
بعث ولا حساب :

ضلّ الذي قال البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كنبثها
وأمامنا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورفتها
وعلى كلّ فان التأمل والتشكيك ليسا للطابعين اللذين طبع بها شعره
قبل رجوعه من بغداد .

بقي علينا ان نذكر درعياته وهي قصائد في وصف الدرع يصفها
على لسان رجل أسنّ فترك لبسها أو على لسان رجل رهنها ، وقد يصفها
على لسان درع تحاطب سيفاً ، او رجل يبيع درعاً ، او رجل خانه
آخر في درع ، او فارس سأل عن درع أبيه الى غير ذلك مما له علاقة
بهذا الموضوع .

وان الذي يطالع هذه الدرعيات يعجب من رجل كأبي العلاء ينصرف
الى موضوع كهذا الموضوع ، فيبذل جهده ويكدّ نفسه في اوصاف
ومجازات وعبارات لا طائل تحتها ، وليس لها أقل علاقة بنفسه او حياته .
ولا يسعنا ان نقول فيها الا انها في الارجح أداة استعملها لظهار مقدرة
اللغوية . ولعل له فيها غرضاً آخر .

اللزوميات

ينفرد هذا الديوان بمزيتين : خلوه من أبواب الشعر المطروقة (المديح والثناء والفخر وما إليها) ، وانصراف ناظمه الى نقد الحياة . وقد نظم كله ، كما عرفنا سابقاً ، بعد رجوع المعري من بغداد ولزومه في المعرة ، ولذا فهو يمثل لنا نضج القوة الشعرية في الشاعر ونظراته الفلسفية في الكون وال عمران . على انه مع ذلك قلما يختلف من حيث الصناعة عن شعره السابق ، فانك ترى الشاعر هنا - في هذا الجو الفكري الانتقادي - شديد الكلف بالصناعة وقد قيّد نفسه تقييداً شديداً بلزوم ما لا يلزم ، فاضطر الى كثير من القوافي الغريبة والالفاظ الغامضة . وقد يستغرب الذي يطالع ديوانه من جمعه بين النقيضين : فحينما تراه يتجنب كد النفس ويسلس للعاطفة القياد فيأتي شعره من الطبقة الاولى متانة وعذوبة كقوله :

يرتجي الناس ان يقوم إمامٌ ناطقٌ في الكتبية الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

وقوله :

قالوا فلانٌ جيّد لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيّد
فأميرهم نال الامارة بالحنّا وتقيّمهم بصلاته متصيّد

وقوله :

يا علّتي عليك مني سلام سوف امضي وينجز الموعود
أرجتو ان اعود اليهم لا ترجّوا فانتني لا اعود
ولجسمي الى التراب هبوط ولروحي الى الهواء صعود
وعلى حالها تدوم الليالي فنحوسٌ لمعشر وسعود

وهذا الضرب من شعره كثير . ومنه ما لا يحاربه فيه إلا القليلون كقوله :

رويدك قد غررت وأنت حرّ بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء

يقول لكم غدوت بلا كساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى
وفي لذاتها رهن الكساء
فمن جهتين لا جهة اساء
وقوله :

يسوسون الامور بغير عقل
فأف من الحياة وأف مني
فيُنفذ أمرهم ويقال ساسه
ومن زمن رئاسته خساسة
وحيناً هم في أودية الغرائب
اللفظية فيتمسّف ويأتيك بالمكدود
المتكلف كقوله :

ترى الهم لا شيء سوى الاكل مه
يُقلّ العصا مستثقل الطمر بعد ما
له جسد ما اسطاع حرّاً ولا بردا
علا فرساً واجتاب ماذية سردا
ولا تترك الايام مردى لظبية
ولم يُلّف منها فارد القمر مخلصاً
وقد بلغت احداثها القمر الفرداً^١
وقوله :

لعمري ابيك ما خالي بخال
فان أعطى القليل يكن هنيئاً
لشائمه ولا شهدي بهف
يجيء المستببح بغير شف
اذا ورد الفقير على احتياجي
ولو كان الكثير لقلّ عندي
اغث لهيفه بالمستدف
وأهون بالضعيف المستطف^٢
وقوله :

فقد لاحت مخايل صادقات
فمن لك بالغريريات سارت
تروق العين بالدمع الولا ف
بأشباه نسين الى علاف
واذا علمت ان الولا ف هو البرق اللامع لمعتين وان علاف اسم رجل
من قضاة تنسب اليه الرجال ، علمت ما جناه عليه تقيدته ولا سيما في
قوله : أشباه نسين الى علاف .

١ الهم الشيخ الهرم . الطمر الثوب البالي . الماذية السرد الدرع . مردى مهلك . الكبكاث والمرد
من ثمر الاراك . فارد القمر الحمار في بطنه بياض .
٢ المستدف القليل . والمستطف المستقل .

ومن هذا القبيل قوله :

فأمنح ضعيفك ان عراك ولو نزرأ ولا تصرفه بالكهر
وارفع له شقراء تُرمَح في دهاء مثل تارت المهر
أي أمنح الضعيف ولا تصرفه بوجه عبوس وارفع له ناراً تتأجج في الظلام .
وقوله :

غُبِقْنَا الْأَذَى وَالْجَائِشِيَّةُ هَمْنَا ونادى ظلامٌ لا سبيل إلى الجسر
انكتب سطرأ ليس فيه تخوفٌ لربك ما أولى بنانك بالآسر
وان بُتكت عشر فمن بعد ما جنت بكل فسيطٍ قصّ أكثر من عشر
وقوله :

كبرت فأصبحت للراشدين كبرت بعد هدي دليلا
كبرت فما زال هذا الزمان كبرت يحذّ قليلا قليلا
وإذا تأملت هذين البيتين لا تجد فيها الا تكلفه الجناس بين كبرت :
الفعل ، وكبرت : الجار والمجرور (أي كدليل) في البيت الاول ، وبين
الفعل ايضاً ولفظة برت (بمعنى الفاس) في البيت الثاني .
وأمثال هذا الكلام المصنوع كثير جداً في شعر شاعرنا . فلا جرم
إذا جاء القسم الوافر منه صعباً مبهماً حتى على اهل الادب . وإذا
أردنا التدقيق في أسباب صعوبته وإيهامه وجدناها ترجع الى ما يلي :
١ - شغفه بالهسنات البيانية ولا سيما الجناس والطباق والتورية .
٢ - كثرة الاشارات الى الحوادث التاريخية والى رجال التاريخ -
المشهور منهم وغير المشهور .

٣ - استعماله لأوابد الكلام وشواذه .

٤ - اضطرابه الى القوافي الغريبة للزومه ما لا يلزم .

فاذا أضفت الى ذلك ما في مواضعه الفلسفية الاخلاقية من معان

١ الغبوق الشرب مساء والجائشيرة شرب السحر . الاثر القطع . بتكت اي قطعت . فسيط
قلامة ظفر .

مجرّدة هي بطبيعتها صعبة المتناول ، علمت السر في هذا الاهتمام العام من معانيه .

ولا نذهب الى ما ذهب اليه بعض أعلام الباحثين من ان المعري كان يقصد ذلك ليخفي أغراضه^١ عن العامة . فان شاعرنا كان صريحاً ، وله في لزومياته كثير من النقد المرّ الذي بلغت به الصراحة أبعد مدى كبحض ما ذكرنا له آذناً ، وكقوله :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فلانما دياناتكم مكر من القدماء
أو قوله :

قد حُجب النور والضياء وإنما ديننا رياء
يا عالم السوء ما علمنا ان مصلّيك اتقياء
وقوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارت والمجوس مضلّة
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر ديتن لا عقل له
وقوله :

في البدو خُرّاب أذواد مسومة وفي الجوامع والأسواق خُرّاب
فهؤلاء تسموا بالعدول او التجار واسم أولاك القوم أعراب
وقوله :

مُلّ المقام فكم اعائثر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
وقس على ذلك مبات الأبيات في ديوانه .

ويمتاز المعري في لزومياته بدقة تشابيه وروعة حكمه : أما دقة التشبيه فيه فتليج الخيال وحسن التعبير عن النفس ، واما الحكم فليما في طبعه من صدق التأمل في الحياة والموت . ويختلف عن المتنبي ان حكم المتنبي ناشئة عن نفس رجل خاض غمرات الحياة سعياً وراءها ، أما

١ راجع ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين ص ٢٦٧ .

حكم المعري فناشئة عن نفس حكيم مفكّر عرف الحياة فزهدا .
وليس من الانصاف ان نقرنه من هذا القبيل بأبي العتاهية ، فإن للمعري
من دقة التأمل وصدق التضحية ومعرفة الكون ما لا نزاه لشاعر القبور
والنشور : كان أبو العتاهية واعظ الموت ، والمتنبّي خطيب الحياة ، أما
المعري فحكم الموت والحياة .

المواقف الشعرية في اللزوميات

تتناول اللزوميات مفشاً الانسان ومصيره وما بينها . وللشاعر فيها
موقفان رئيسيان : (١) تجاه الغيبيات (الله والبعث والحساب)
(٢) تجاه الانسان والطبيعة . واليك بيان ذلك :

الغيبيات

هنا نرى موقفه مضطرباً ، ولكن اضطرابه اضطراب مؤمن يحاول
ان يجمع بين العقل والنقل ، فيقع في شيء من الارتباك . ومن الخطأ
ان نحكم عليه من شعره بالبحود فان الشواهد فيه على ايمانه بالله
وبشكل من أشكال الخلود كثيرة ، بل هي اكثر من أضدادها .
ويتضح ذلك من الامثلة التالية :

قال مستهزئاً بالتنجيم ومثبتاً قوة الله :

مضى ينزل الامر السماوي لا يفدُ سوى شبح رمح الكمي المناجد
وان لحق الاسلام خطب يفضه فما وجدت مثلاً له نفس واجد
إذا عظّموا كيوان عظمت واحداً يكون له كيوان أول ساجد
وقال :

والله حقّ وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب

وقال :

الله لا ريب فيه وهو محتجب بادٍ وكلّ إلى طبع له جذبا

وقال :

فَلَّكَ يدور بحكمة وله بلا ريب مدير

وقال :

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لاهي خائف راجي
رب السماك ورب الشمس طالعة وكل أزهر في الظلماء خراج
وفي الحشر يقول :

إذا كنت من فرط السفاه معطلا فيا جاحداً أشهد اني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلاً وازعم ان الأمر في يد واحد
ويقول :

ان أدخل النار في خالقي يحمل عني مثقلات العذاب
يقدر ان يسكنني روضة فيها نزامي بالمياه العذاب
ومن ذلك هذان البيتان المشهوران :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشم الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فليست بخاسر أوضح قولي فالحسار عليكما
وبلي هذين البيتين خمسة أبيات كلها على هذا النمط .
وله مثل ذلك قصيدة مطلعها :

عجبي للطبيب يلحد في الخالق من بعد درسه التشريحاً

وليس الذي ذكرناه الا نزرأ مما ورد في أثناء الديوان من هذه المعاني
الايمانية . ولكن شاعرنا في هذا الموقف كما قلنا مضطرب متعير - تراه
آونة مؤمناً صريح الايمان - ثم تراه وقد غشيت الشكوك والأوهام . فهو
بين مدّ وجزر لا يستقر على حال واحدة .

ومن شكته هذه الأمثلة القليلة ، وهي قلّ من كثير :

أما الجسوم فللتقارب مآلها وعييت بالارواح انتى تسلك

* * *

دفنّام في الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون

وَرَوِّمُ الْفَتَى مَا قَدْ طَوَى اللَّهُ عِلْمَهُ بَعْدَ جُنُونًا أَوْ شَبِيهِ جُنُونٍ

* * *

قَدْ قِيلَ أَنَّ الرُّوحَ تَأْسَفُ بَعْدَمَا تَنَاضَى عَنِ الْجَسَدِ الَّذِي غَنِيَتْ بِهِ
أَنَّ كَانَ يَصْحَبُهَا الْحُجَا فَعَلِمَهَا تَدْرِي وَتَأْبَهُ لِلزَّمَانِ وَغِيْبِهِ
أَوْ لَا فَكَمْ هَذِيانِ قَوْمٍ غَابِرٍ فِي الْكُتُبِ ضَاعَ مَدَادُهُ فِي كُتُبِهِ

* * *

تَقْدَمُ النَّاسُ فَيَا شَوْقَنَا إِلَى اتِّبَاعِ الْإِهْلِ وَالْأَصْدِقَاءِ
مَا أَطْيَبَ الْمَوْتَ لَشَرَّابِهِ أَنَّ صَحَّ لِلْأَمْوَاتِ وَشَكَ التَّقَاءِ

* * *

أَمَّا الْبَقِيْنَ فَلَا يَقِيْنَ وَإِنَّمَا أَقْصَى اجْتِهَادِي أَنْ أَظُنَّ وَأَحْدَسَا

* * *

أَمَّا الْقِيَامَةُ فَالْتَنَازَعُ شَائِعٌ فِيهَا وَمَا لِحَبِيثِهَا أَصْحَارُ
وَمَا يَكَادُ يَكُونُ انْكَارًا قَوْلُهُ :

قَلَمْتُ لَنَا خَالِقٌ حَكِيمٌ قَلْنَا صَدَقْتُمْ كَذَا نَقُولُ
زَعَمْتُمُوهُ بَلَا مَكَانَ وَلَا زَمَانَ أَلَا فَقُولُوا
هَذَا كَلَامٌ فِيهِ خَبِيءٌ مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ

وَقَوْلُهُ :

ضَحَكْنَا وَكَانَ الضَّحْكُ مَنَا سَفَاهَةً وَحَقٌّ لِسَكَانِ الْبَسِيطَةِ أَنْ يَبْكُوا
يُحِطُّنَا صَرَفُ الزَّمَانِ كَأَنَّا زَجَاجٌ وَلَكِنْ لَا يَعَادُ لَهُ سَبْكُ
وَقَوْلُهُ :

خُذِ الْمَرَاةَ وَاسْتَجِدِّي نَجْمًا تَمِيرُ بِمَطْعَمِ الْأَرْضِيِّ الْمَشْشُورِ
تَدُلُّ عَلَى الْحَيَاةِ بَلَا ارْتِيَابٍ وَلَكِنْ لَا تَدُلُّ عَلَى النُّشُورِ

عَلَى أَنَّنَا إِذَا دَقَّقْنَا فِي هَذِهِ الْحَيْرَةِ وَهَذَا التَّنَاقُضِ ، وَرَاجِعْنَا كُلَّ مَا قَالَهُ
الْمَعْرِي بِهَذَا الصَّدَدِ ، ثُمَّ عَارَضْنَاهُ بِسِيرَتِهِ وَأَقْوَالِ النَّاسِ فِيهِ ، تَرَجَّحَ لَدَيْنَا
أَنَّ شَاعِرَنَا لَمْ يَنْقُطِعْ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالْآخِرَةِ . وَلَكِنْ صَوَّرَهُ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ

لم تكن صورته في نفس المؤمن العادي ، وإنما كان نظره إلى ما وراء الطبيعة نظرياً « لا أدرياً » متأثراً بالاسلام .

الطبيعة والحياة البشرية

ويتلخص ذلك بما يلي :

الأديان ورؤساؤها - الشعب وزعماؤه - الانسان وطبيعته ومصيره .
وفي كل ذلك تراه ثابت النظر مستقرّ الرأي مقتنعاً بصحة ما يقول ،
وإلى القارىء زبدة هذه النظريات :

الاديان

إذا قوبل الاسلام بسائر الاديان فهو عند المعري مفضلّ على الجميع
وانك لترى المعري في بعض مواقفه يتعرض للجدل ، فيهاجم اليهود
والنصارى والفرق الاسلامية المختلفة (كالمعتزلة والمرجئة وبعض الشيعة
والصوفية) ، وله فيها أشعار كثيرة لا يتسع لها المقام ^١ .

ومع كل ذلك فله في الدين نظر عام يشمل كل الاديان على السواء
وهو يتناول الدين من وجهتين : (١) العقائد والفروض او هيكل الدين .
(٢) الفضائل والاعمال او روح الدين . اما الاولى فيحمل عليها حلة
شعواء فيحذّر الناس من السنن والمذاهب ، ويزعم ان الدين من هذه
الوجهة أداة يستعملها الرؤساء لجذب الدنيا اليهم .

أما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا الى الرؤساء

وأقواله في ذلك لا تحصى فنكتفي بالإشارة اليها وإلى ما ذكر منها
في غير هذا المقام .

وأما الوجهة الثانية فهي الدين الحق عنده . وعلى قدر استهزائه
بخرافات الاقدمين وأوهامهم المذهبية ترى تعظيمه للروح الدينية التي يراد

١ راجع من ذلك اللزوميات ١ - ١٢٩ و ٢ - ١٧٢ .

بها التنزه عن الجشع والظلم والشهوات ، وبذلك يشارك المصلحين الروحانيين
في كل مكان وزمان . ومن أقواله في هذا الباب :

الدين هجر الفنى للذات عن يُسر في صحّة واقتدار منه ما عمرا

* * *

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطّرحاً ونفضك الصدر من غلّ ومن حسد

* * *

الدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لا يلى الحق ان وجبا
فالدين عنده ترك الشر وانصاف الجميع ، ولا دين لمن يرفض الحق .
وقد كرّر هذا المعنى كثيراً في لزومياته ، ونجّزىء هنا بقوله التهكمي فيه :

توهمت يا مغرور انك ديتن عليّ يمين الله ما لك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بائس وخدين
وقوله :

سبّح وصلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فليست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له أطاعه لم يُلَفّ بالتاسك

الشعب وزعماءه

ولا يختلف نظره هنا عن نظره الى الدين ورؤسائه ، فهو يهاجم الأمراء
والحكام وأصحاب الزعامة السياسية منهم أياهم بالجهل والجشع والاستبداد .
فشان ملوكهم عزف وتزف وأصحاب الامور جباة خرج

* * *

مُلّ المقام فكم اعاشر أمة أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

* * *

ساس الانام شياطين مسلّطة في كل مصر من الوالين شيطان

مق يقوم إمام يستقيد لنا فتعرف العدل أجالٌ وغيطان
ومع اشفاقه على الشعب لا يرى فيه غير الفساد العام كقوله :
قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
وكلّ حيّ فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

* * *

كلّنا غادرٌ يميل إلى الظلم وصفو الأيام للتعكير
ورجال الانام مثل الغواني غير فرق التأنيث والتذكير

* * *

عشٌ بخيلٌ كأهل عصرك هذا وتبّاله فان دهرك أبله
قومٌ سوء فالشبل منهم يقول الليث فرساً والليث يأكل شبله
وقس على هذا القول كثيراً من الامثلة التي تعكس لنا بيئته او نظره
الاسود إلى أهل زمانه عموماً ، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم أو
غني وفقير .

هم السباع إذا عنّت فرائسها وان دعوت لخير حوّلت حمراً
وكا انه يهاجم الرجال فينعتهم بالجشع والفدر واللؤم كذلك يهاجم
النساء فينعتهن بالضعف والرياء والخيانة والمكر ، ولا يرى لهنّ الا
الاحتجاب التام والتزام المنزل والانصراف الى شؤونهن . وانك لترى سوء
ظنه بهن إذ يقول :

فوارسٌ فتنّة اعلامٌ غيّى لقينك بالاساور معلّمات
ودفنّ - والحوادث فاجعات - لاحداهنّ إحدى المكرمات
وهذان البيتان من قصيدة تفيف على التسعين بيتاً في كل بيت منها
ذم للمرأة وتحقير لسانها . ومثلها في اللزوميات كثير . ولا ندرى ما
الذي حمل المعري على الازدراء بالمرأة ووصفها بكل الشوائب ، ولكنه ولا
شك جارى عصره ، بل تمادى في هذه الآراء الى الحد الاقصى - على انه
عطف على الوالدات وأوصى بهن خيراً .

الطبيعة البشرية

أما الطبيعة البشرية ففسادة عنده لا أمل باصلاحها ، والانسان مسير بقوتين : قوة داخلية هي الغريزة الوحشية التي لا يمكن تهذيبها : واللبّ حاول ان يهذب أهلها فاذا البرية ما لها تهذيب

* * *

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومنّ للأقوام تهذيباً ولا تصدّق بما البرهان يبطله فلستفيد من التصديق تكذيباً

* * *

وجبلت الناس الفساد فضل من يسمو بحكمته الى تهذيبها وقوة خارجية هي قضاء جبار يدفع الانسان أمامه فلا ارادة له ولا اختيار . لكن كيف نجتمع بين «حكمة الله» كما نراها في شعر المعري وبين جبروت القضاء ، وكيف نوفق بين القدر والحساب ؟ مسألة فلسفية دقيقة لا نرى الشاعر يوضحها او يهتم بتطبيقها تطبيقاً صحيحاً ، وإنما همه من ذلك ان يصف ما يشعر به أو يتوهمه ، ولذا لا ينتظر ان نراه هنا ملتسق الخواطر مطرد الفكر .

ومن هذا القليل ذكره للعقل والنقل ، فانك تراه يهيب بالناس الى رفض الشرائع ناسباً اليها كل أسباب الفتن والاضطراب كقوله :
ان الشرائع ألفت بيننا إحناً وأودعتنا افانين العداوات ولا يرى من هادٍ غير العقل :
كذب الظنّ لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

* * *

تستروا بأمور في دياتهم وانما دينهم دين الزناديق
نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق

* * *

إذا رجع الحصيف إلى حجاب تهاون بالشرائع وازدراها

ولكن أي عقل تتبع وأي نقل ترفض ؟ هنا لا بد من الحذر .
فالمعري يندفع بتأثير التأمل الفلسفي الى تقديس العقل دون النظر الى
عاقبة ذلك التقديس ، وهو بذلك هدام ونعم الممول العقل ، على شرط
ان يستخدمه فيما يفيد - في تهذيب الشرائع ورفعها الى مستوى الكمال
الممكن ، لا في التخلص منها تبعاً لنزعات الفوضى . والذي يلوح لنا ان
المعري لم يكن فوضوياً ، ولم يقصد الهدم المطلق ، بل قصد الاصلاح
الاجتماعي . على انه اندفع الى ذلك متأثراً من طبيعته ومن الفساد الذي
حوله ، فلم يسلك طريقاً يصح ان نسميها طريق الهداية العملية .

وليس من أثر واضح للفوضى في شعره إلا حمله على النسل ، ودعوته
الناس الى الفناء وأقواله في ذلك معروفة نذكر منها هذين البيتين :

لو ان كل نفوس الناس رائية كراي نفسي تناءت عن خزايها
وعطّلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا ، واستراحوا من رزايها

كلمة ختامية

وهنا لا بدّ ان نسأل : ما العوامل التي أحلّت المعري هذا المهل
الرفيع في تاريخ الادب العربي وخلّدت له هذا الاحترام في نفوس
المتأدبين ؟ والجواب عن ذلك :

- ١ - صراحته في مهاجمة ما كان يراه فاسداً .
- ٢ - صرفه الشعر الى مواضيع عمرانية أخلاقية لم يسبق اليها .
- ٣ - تطبيقه الحكمة على نفسه واطهاره مبادئها في حياته .
- ٤ - زهده الحقيقي وترفعه عن أغراض الدنيا .

نعم قد يؤخذ عليه بعض شذوذه الفكري الذي حمله أحياناً الى
أقصى التطرف وجعله هداماً لا يحسن البناء ، وتحرّجه اللغوي الذي
دفعه مراراً الى ركوب أخشن المراكب توصلاً الى معانيه . على ان المعري

برغم ذلك الشذوذ وذلك التحرّج ، هو تلك الشخصية التي تجمع بين
الاخلاص والشدة - الاخلاص في خدمة الحقيقة كما تترأى له ، والشدة
في مهاجمة أهل الفساد . وهو بذلك يختلف عن سائر الشعراء الذين لمعوا
في تاريخ الادب العربي إذ ليس لاحدهم معها تسامت مكانته الفنية ما
للمعري من النظر الى الحياة التي تعجّ حوله ومحاولة نقدها . كان الشعراء
قبله لا يرون في الحياة إلا أنفسهم ولا يرون في الادب إلا ما يوصل الى
أغراضهم ، فجاء المعري ينظر الى البيئة التي تحويه محاولاً رفعها واصلاح
شؤونها . على انه لم يرَ فيها غير أوجه الفساد والظلام - ولم ينتبه الى
مجالي الجمال التي تزيّن وجه الطبيعة والحياة - فجاء شعره قائم اللون
كأنما هو مصباح تنفذ أشعته إلينا من وراء زجاجة سوداء .

المختار من شعر المهري

قارب في خضمّ مضطرب تتقاذفه الرياح وتترامى به الامواج - ذلك هو المهري في نظره الى الحياة .

ظلمات من كل جانب ، وعقل مفكر يحاول ان يرى من ورائها ما لا يرى ، فيرتد خائباً ناقماً على الدهر وجوده ، ناعياً على الحياة مسراتها ، مهيباً بالناس : الى الفناء الى الفناء ، فما الوجود إلا شقاء في شقاء .

نخبة من مقتط الزند

في المراثي

قال يرثي والده

نقمتُ الرضا حتى على ضاحك المزنِ فلا جادني الا عبوس من الدجنِ
فليت فما ان شام سنتي تبشمي فم الطعنة النجلاء تدمي بلا سن
كان ثناياه اوانس يُبتغى لها حسن ذكرٍ بالصيانة والسجن

* * *

أبي حكمتُ فيه الليالي ولم تولِ رماح المنايا قاداتٍ على الطمن
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى وسهد المنى والجيب والذيل والرّدن

١ كرمتم الرضا حق على السحاب المتألق . فسوف يبقى فمي مطبقاً كأن اسنانه لساء مصونات في خدورهن .

فيا ليت شعري هل يخفُّ وقاره إذا صار أحدٌ في القيامة كالمن^١
 وهل يرد الحوضَ الروي مبادراً مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني
 حباً زاده من جرأةٍ وسماحةٍ وبعض الجعاداعِ الى البخل والجبن^٢

* * *

على ام دفر غصبةُ الله انها لأجدرُ أنثى ان تخونَ وان تُخني^٣
 كعابٌ دُجاها فرعها ونهارها عينا لها قامت له الشمس بالحسن
 رآها سليل الطين والشيب شامل لها بالثريا والسماكين والوزن^٤
 زمانَ تولتْ وأد حواءَ بنتِها وكَم وأدت في إثر حواءَ من قرن

* * *

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي يراد بنا والعلم لله ذي المن^٥
 إذا غيَّبَ المرء استسرَّ حديثه ولم تخبر الافكار عنه بما يفني
 تفضلَ العقول الهبرزيَّات رشدَها ولم يسلم الرأي القوي من الآفن^٦
 وما قارنتُ شخصاً من الخلق ساعة من الدهر الا وهي افتك من قرن
 وجدنا أذى الدنيا لذيداً كأنما جنى النحل اصناف الشقاء الذي نجني
 فما رغبت في الموت كدُرَ مسيرها الى الورد خمس ثم يشربن من أجن^٧
 يصادفن صقراً كلَّ يوم وليلة ويلقين شراً من نخاله الحُجن
 وخوف الردي آوى الى الكهف أهله وكلَّف نوحاً وابنه عمل السفن^٨

١ أحد اسم جبل ، والمن القطن .

٢ في هذا البيت وما قبله يصف أباه بالوقار ويقول : هل يخف وقاره يوم القيامة (يوم يصبح جبل أحد كالقطن) وهل يتسارع مع الناس ويذاهم الى الحوض . ان عقله قد زاده جرأة وسماحة في حين ان العقل يدعو أصحابه الى الحذر الشديد .

٣ ام دفر كناية عن الدنيا . وتخني تهلك .

٤ شبه الدنيا بالحسناء في قلة الوفاء وقال انها قديمة رآها آدم وهي شائبة وعلامات شبيها هذه النجوم - الثريا والسماكين والوزن .

٥ الهبرزيات القوية . والآفن النقص والضعف .

٦ فما رغبت في الموت قطعاً تسير خمسة أيام حتى تصل الماء فتشربه فاسداً أسناً .

٧ اشارة الى قصة اصحاب الكهف وقصة نوح .

وما استعذبتَه روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنَّتَي عدنِ

* * *

أُمولى القوافي كم أراك انقيادُها
هنيئاً لك البيتُ الجذيدُ موسداً
مجاوِرَ سَكَنٍ في ديار بعيدة
طلبتُ يقيناً من جهنّةٍ عنهم
فان تمهدينني لا أزال مسائلًا
لك الفصحاء العربَ كالعجم اللكن
يمنك فيه بالسعادة واليمن
من الحيّ سقياً للديار وللسكن
ولن تخبريني يا جهنُّ سوى الظن
فاني لم أعطَ الصحيح فاستقني

* * *

أمرٌ بربع كنتَ فيه كأنما
وما أكثرُ المشني عليك ديانةً
يوافيك من رب العلا الصدق بالرضا
فيا قبر واهٍ من ترابك ليتنا
لأطبقتَ إطباقَ السحارة فاحتفظ
سأبكي اذا غنّى ابنُ ورقاء بهجةً
ونادبةً في مسمعي كل قينةٍ
واحمل فيك الحزن حياً فان أمتُ
وبعدك لا يهوى الفؤاد مسرّةً
أمرٌ من الاكرام بالحجر والركن^١
لو ان حياماً كان يثنيه من يثني
بشيراً وتلقاك الامانة بالأمن
عليه وآهِ من جنادِلك الحشن
بلؤلؤة المجدِ الحقيقة بالحزن^٢
وان كان ما يعنيه ضدّ الذي أعني
تغرّد باللحن البري عن اللحن^٣
وألقك لم أسلك طريقاً الى الحزن
وان خان في وصل السرور فلا يهني

داليتَه المشهورة

برثي صديقه أبا الخطاب الحبّلي وكان اديباً وفقياً وقد مات شاباً

غير مجدٍ في ملتّي واعتقادي نوحُ بالكِ ولا ترنّمُ شادٍ
وشبيهُ صوتِ النعي اذا قيس بصوت البشير في كل نادٍ

١ الحجر ما حول الحطم في مكة . والركن ركن البيت الحرام .

٢ انك ايها القبر كالصدقة وهو فيك كاللؤلؤة .

٣ اللحن الخالي من الخطأ .

أَبَكْتُ فَلَكُمْ الْحَمَامَةُ امْ غَنَّتْ عَلَى فَرْعِ غَضْنِهَا الْمِيَادِ
صَاحِ هَذَا قَبُورُنَا تَمَلُّ الرَّحْبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفَّتِ الْوُطَاءُ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْأَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
وَقَبِيحَ بَنَاتِ وَأَنْتَ قَدُمُ الْعَهْدِ هَوَانُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
سَرَّ أَنْ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رَوِيداً لَا اخْتِيَالاً عَلَى رَفَاتِ الْعِبَادِ
رَبِّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لِحْداً مَرَاراً ضَاحِكٌ مِنْ تَزَاحُمِ الْأَضْدَادِ
وَدَفِينِ عَلَى بَقَايَا دَفِينِ فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْآبَادِ
فَاسْأَلِ الْفَرَقْدِينَ عَنْ أَحْسَا مِنْ قَبِيلِ وَأَنْسَا مِنْ بِلَادِ
كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارٍ وَأَنَارَا لِمُدْلَجٍ فِي سُودِ
تَعَبٍ كُلِّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْجَبُ إِلَّا مَنْ رَاغِبٍ فِي إِزْدِيَادِ
إِنْ حَزَنًا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
خَلَقَ النَّاسَ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمُ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لِي إِلَى دَارِ شَقْوَةٍ أَوْ رِشَادِ
ضَجَعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الْجَسْمُ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ السَّهَادِ

أَبْنَاتِ الْهَدِيلِ^٢ اسْعِدْنَ أَوْعِدْنَ قَلِيلَ الْعِزَاءِ بِالْإِسْعَادِ
إِيهِ اللَّهُ دَرَكْنَ فَانْتَنَ اللَّوَاتِي تَحْسِنَ حِفْظَ الْوَدَادِ
مَا نَسِيتَنَ هَالِكَا فِي الْأَوَانِ الْخَالِ أَوْ دَى مِنْ قَبْلِ هَئِكَ إِيَادِ^٣
بِيدَ أَنِّي لَا أَرْضِي مَا فَعَلْتَنَ وَأَطَوَّقْتَنَ فِي الْأَجْيَادِ
فَقَسْلِبَنَ وَاسْتَعْمَرْنَ جَمِيعاً مِنْ قَبِصِ الدَّجَى ثِيَابِ حِدَادِ
ثُمَّ غَرَّدْنَ فِي الْمَآثِمِ وَانْدَبْنَ بِشَجْوٍ مَعَ الْغَوَاثِي الْخِرَادِ

١ فاسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من أحوال الناس .

٢ بنات الهديل الحمام .

٣ إشارة إلى الخرافة أن الحمام لا تزال تبكي على هديلها الذي هلك قديماً .

قصده الدهر من أبي حمزة الأو^١ بـ مولى حجى^٢ وخذن اقتصاد^٣
وفقيهاً افكاره شدة للنعمان ما لم يشده شعر زياد^٤
فالعراقى بعده للحجازي^٥ قليل الخلاف سهل القياد
انفق العمر ناسكاً يطلب العلم بكشف^٦ عن أصله وانتقاد
ذا بنان^٧ لا تلس^٨ الذهب الأحمر زهداً في المسجد المستفاد

* * *

ودعا إليها الحفيان ذاك الشخص^٩ ان^{١٠} الوداع أيسر زاد
واغسله بالدمع ان كان طهراً وادفناه بين الحشا والفؤاد
واحبوا^{١١} الاكفان من ورق المصحف كبيراً عن أنفـس الابراد
واقلوا النعش بالقراءة والتسبيح لا بالتحبيب والتعداد
اسف^{١٢} غير^{١٣} نافع^{١٤} واجتهاد^{١٥} لا يؤدى الى غناء اجتهاد
طالما اخرج^{١٦} الحزين جوى الحزن^{١٧} ن^{١٨} الى غير لائق بالسداد
مثلاً فانت^{١٩} الصلاة سليماً ن^{٢٠} فأنحى على رقاب الجياد
وهو من سُخِرَتْ له الانس والجن بما صح^{٢١} من شهادة صاد^{٢٢}

* * *

كيف أصبحت في محلّك بعدي يا جديراً مني بحسن افتقاد^{٢٣}
قد اقر^{٢٤} الطبيب عنك بعجز وتقصى تردد^{٢٥} العواد
وانتهى اليأس منك واستشعر الوجد^{٢٦} بأن لا معاد حتى المعاد
هجد^{٢٧} الساهرون حولك للتمريض^{٢٨} ويح^{٢٩} لأعين الهجاء
كنت^{٣٠} خل^{٣١} الصبا فلما أراد^{٣٢} البين وافقت^{٣٣} رأيه في المراد^{٣٤}

١ ابو حمزة هو الفقيه المروزي . قصد الدهر منه رجلاً صالحاً عاقلاً .

٢ في لفظة نعمان هنا تورية فالنعمان ملك الحيرة ، والنعمان الامام ابو حنيفة وهو المراد . وزياد هو الثابتة المشهور وكان شاعر ملك الحيرة .

٣ ان الحزن قد يخرج الانسان عن صوابه كما فعل سليمان من ضرب الخيل وذلك لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة . وهو الذي شهد له في سورة صاد اذ قيل - « فسخرنا له الريح تجري بأمره » - الآية .

٤ الضمير في أراد راجع الى الصبا .

ورأيت الوفاءَ للصاحب الأول من شيمة الكريم الجوادِ
 وخلعت الشباب غضاً فيا ليتك أبلية مع الانداد
 فاذهباً خير ذاهبين حقيقتين بسقياً روائحِ وغواد
 ومراثٍ لو أنهنّ دموعٌ لهُونَ السطور في الانشاد

* * *

زحلٌ أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
 ولينار المريخ من حدّان الدهر مطفٍ وان علتُ في انتقاد
 والثريا رهينةٌ بافتراق الشمل حتى تُعَدَّ في الافراد
 كل بيت للهدم ما تبتني الورقُ قاء والسيد الرفيع العماد
 بان أمر الإله واختلف الناس فداعٍ الى ضلال وهاد
 والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلُّ السدر ضرب الاطناب والاولاد
 والذي حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جماد
 والليب اللبيب من ليس يفتّر بكونٍ مصيره للفساد

قصيدته الحكيمية

في رثاء جعفر بن عليّ بن المهذب

أحسنُ بالواجد من وجده	صبرٌ يعيد النار في زنده
ومن أبى في الرزء غير الأسى	كان بكاه منتهى جُده
فليذرف الجفنُ على جعفر	اذ كان لم يُفْتَح على نِده
والشيء لا يكثر مدّاحه	الا اذا قيس الى ضده
لولا غضى نجدٍ وقلّامه	لم يُثَنّ بالطيب على رنده
ليس الذي يُبكي على وصله	مثل الذي يُبكي على صده

١ والانسان راحل يغنيه ظل السدر عن ان يبتني الحيام - اي انه قليل الاقامة في الدنيا فيجب
 ان لا يتم . والسدر شجر النبق .

٢ اي ان الرند خص بالثناء لمقابلته بسائر الاشجار التي لا طيب لها . كالفص والقلام .

كان الأسى فرضاً لو أنّ الردى قال لنا افدوه فلم نَفدِه
هل هو الا طالعٌ للهدى سار من الترب الى سعدِه

* * *

يا دهرُ يا منجزَ إيعاده ومخلفَ المأمول من وعده
أيُّ جديد لك لم تبده وائيَ أقرانك لم تُردِه ١
أرى ذري الفضل وأضدادهم يجمعهم سبيلك في مدّه
ان لم يكن رُشد الفتى نافعا ففِيه أنفع من رشده
تجربةُ الدنيا وأفعالها حثتُ أخا الزهد على زهدِه
والقلب من أهوائه عابِدٌ ما يعبدُ الكافرُ من بُدّه ٢
إنّ زماني برزايه لي صيرني أُمّرح في قِدّه ٣
كأنّنا في كفه ماله ينفق ما يختار من نقده
لو عرّف الانسان مقداره لم يفخر المولى على عبده
أمس الذي مرّ على قربه يعجز أهل الأرض عن ردّه
أضحى الذي أُجّل في سنّه مثل الذي عوجلَ في مهده
والواحد المفرد في حتفه كالخاشد المكثّر من حشده
وحالة الباكي لأبائه كحالة الباكي على ولده

* * *

ما رغبة الحيّ بأبنائه عمّا جنى الموت على جدّه ٤
ومجده أفعاله لا الذي من قبله كان ولا بعده
لولا سجاياه وأخلاقه لكان كالمعدوم في وجده

١ رده ، تهلّكه .

٢ البد الصنم .

٣ اي لكثرة اثنائي رزايا الدهر وقرني عليها صرت لا أبالي بها بل ازداد نشاطاً ومرحاً
والقد سير يقد من جلد يوثق به الأسير .

٤ كيف يحترز الحيّ بأبنائه من الموت وهو الذي فتك بأجداده .

تشتاق إيتارَ نفوس الورى
تدعو بطول العمر أفواهنا
يُسَرَّ ان مُدَّة بقاء له
كم صائن عن قبلة خدّه
وحامل ثقل الثرى جيدّه
ورُبّ ظمآن الى موردٍ
وانما الشوق الى ورده^١
لمن تناهى القلب في ودّه
وكل ما يكره في مدّه
سَلَّطَتِ الأرض على خدّه
وكان يشكو الضعف من عقدّه
والموت لو يعلم في ورده

* * *

فيا أخا المفقود - في خمسة
جاءك هذا الحزن مستجدياً
سلمم الى الله فكلّ الذي
لا يعدم الأسمر في غابه
ان الذي الوحشة في داره
لا أوحشت دارك من شمسها
كالشهب ما سلاك عن فقده^٢
اجرك في الصبر فلا تجده
ساءك او سرّك من عنده
حتفاً ولا الأبيض في غمده^٣
تؤنس الرحمة في لحدّه
ولا خلا غابك من أسده

أمثلة من وصفه وفخره

قال متبرماً من بغداد ومتشوقاً إلى وطنه

مفاني اللوى من شخصك اليوم أطلال
وأبفضتُ فيك النخل والنخل يانع^٤
وحملتُ من الشامين أطيب جرعة^٥
وفي النوم مغنى من خيالك محلال^٦
وأعجبنى من حبك الطلح والفضال^٧
وانزرها والقوم بالقفر ضلال^٨

١ كما ان النفوس تشتاق ايار لاجل ورده كذلك الانسان انما هو اخلاقه وسجاياه .

٢ يعزي اخا الفقيد ويقول ان في أولادك الحمة ما يسليك عن فقده .

٣ الاسمر الرمح ، والابيض السيف .

٤ يخاطب الحبيبة ويقول ان المنازل منك خالية ولكن خيالك كثير الحلول في هيوثنا عند النوم .

٥ وابفضت لاجلك النخل وأحببت أشجار البادية لانك بدوية .

٦ أي حملت من الشام والجزيرة أطيب جرعة وأقلها (أي رضابك) .

فسقياً لكأسٍ من فمٍ مثل خاتمٍ
 كأنّ الحزامى جمعت لك حلةً
 أتعلم ذات القُرطِ والشنف أني
 فيا دارها بالحزن أن مزارها
 بكت فكان العِقْدُ نادى فريده
 تحلّى النقا دُرّين دمعاً ولؤلؤاً
 وغنت لنا في دار سابور قينة
 فقلت تغنّي كيف شئت فلانما

* * *

تمنيت أن الحرّ حلت لنشوة
 فأذهل أني بالعراق على شفا
 مقل من الاهلين يسرٍ واسرة
 طويت الصباطي السجل وزارني
 متى سألت بغداد عني وأهلها
 اذا جنّ ليبي جنّ لبّي وزائد
 وماء بلادي كان النجم مشرباً
 فيا وطني ان فاتني بك سابق
 فان استطع في الحشر آتاك زائراً
 وكم ماجد في سيف دجلة لم أضم

تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
 رزيء الاماني لا انيس ولا مال
 كفى حزناً بين مشت واقلال
 زمان له بالشيب حكم وإسجال
 فلاني عن أهل العواصم سأل
 خفوق فؤادي كلما خفق الآل
 ولو ان ماء الكرخ صباه جريال
 من الدهر فلينعم لساكنك البال
 وهيئات لي يوم القيامة اشغال
 له بارقاً والمرء كالمنز هطال

١ الحال : هنا الخائل أي المدل بعظم شأنه .

٢ أتعلم هذه الفتاة المتحلية في اذنها بالقرط والشفن ان لي فيها خصماً يتهددني ويؤر علي كالاسد .

٣ بكت الحبيبة للفراق وقطرت دموعها على قدمها فصار القلب (الاسوار) والخلخال يتاديان

الفريد في المقدمه لم تتحالف مع الدموع .

٤ وغنت لنا في هذا المكان مغنية من الحمام .

٥ الآل : السراب .

٦ ماء بلادي أطيب ولو ان ماء بغداد كالصباه .

٧ سيف دجلة أي شط دجلة . وكم من كريم هناك لم اقصدته ولم أطمع بيوحه .

من الغُرِّ ترّاك الهواجر معرّضٌ عن الجهل قذّاف الجواهر مفضالٌ
 سيطلّبُني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظٌ واقبالٌ
 اذا صدقَ الجدُّ افترى الممّ للفتى مكارم لا تُكري وان كذب الخال¹

وقال في الشريف موسى بن اسحق مجيباً اياه عن قصيدة

علاني فان بيض الاماني فنيت والظلام ليس بفاني
 ان تناسيتا وداد أناس فاجعلاني من بعض من تذكّر ان
 ربّ ليلٍ كأنه الصبحُ في الحسنِ وان كان اسود الطيلسان
 قدر كضنا فيه الى اللهو لما وقف النجم وقفة الخيران²
 كم اردنا ذاك الزمان بمدحٍ فشغلنا بدمٍ هذا الزمان
 فكأنني ما قلت والبدر طفل وشباب الظلماء في عنفوان
 ليلتي هذه عروسٌ من الزّنج عليها قلائدٌ من جمان
 هرب النوم عن جفوني فيها هرب الامن عن فؤاد الجبان
 وكان الهلال هوى الثرى فهما للوداع معتقان
 قال صحي في لجّتين من الخندسِ والبيدِ اذ بدا الفرقدان
 نحن غرقى فكيف ينقذنا نجمان في حومة الدّجى غرقان³ ؟
 وسهيلٌ كوجنة الحب في اللو ن وقلب الحب في الخفقان
 مستبداً كأنه الفارس المعلم يبدو معارض الفرسان
 يسرع الملح في احمرار كما تسرع في الملح مقلة الغضبان
 ضرّجته دماً سيوف الأعادي فبكت رحمة له الشّمران

١ اذا خدم الحظ أحداً اخترع له الناس (المم) من المكارم ما ليس في مخايله . وقد تلاعب في جد وعم وخال تلاعباً بيانياً ظاهر التكلف .

٢ تكلف المطابقة بين الجري والوقوف فقال كم جرينا فيه الى اللهو والنجم في الليل واقف حائر . (يصف الليل بالطول) .

٣ قال صحي وقد دخلنا في أحشاء الظلام والغفر : نحن غرقى فكيف ينقذنا الفرقدان وهما غرقان .

قدّماهُ وراءَهُ وهو في العجزِ كساعٍ لست له قدمان^١
ثمّ شاب الدّجى وخاف من الهجر فغطّى المشيب بالزّعفران
ونضا فجره على نسرهِ الواقع سيفاً فهمّ بالطيران
وعلى الدهر من دماء الشهيدن عليّ ونجمله شاهدان^٢
فهما في أواخر الليل فجرا ن وفي أولياته شفقان^٣
وجمالُ الأوانِ عقبُ جدودٍ كلّ جدّ منهم جمال أوان

* * *

يا ابن مستعرض الصفوف ببدرٍ ومبيد الجموع من غطّافان^٤
أحدِ الخمسة الذين هم الاغراض في كل منطقٍ والمماني^٥
والشخوص التي خلّقن ضياءً قبل خلق المريخ والميزان^٦
قبل ان تخلق السموات أو قو مر أفلا كهنّ بالدّوران
لو تأتّى لنطحها حملُ الشهب تردّى عن رأسه الشرطان^٧
أو أراد السماك طعنًا لها عا د كسير القناة قبل الطعان^٨
أو عصاها حوتُ النجوم سقا حنّفه صائد من الحدّاثان

١ خلف سهيل نجمان يقال لهما قدما سهيل . فهو معكوس الحال يمشي عاجزاً كمن لا قدمان له .
والشمريان نجمان .

٢ النسر الواقع اسم نجم . قال ويلوح على الدهر من دماء الشهيدن الامام علي وابنه الحسين شاهدان .

٣ هذان الشاهدان هما الفجران الكاذب والصادق أي الحمرة التي ترى أول الصبح وكذلك الشفقان أي الحمرة أو الصفرة التي تبقى في أفق المغرب بعد الغروب . ويزعم انها من آثار ما اريق من دم الشهيدن (يريد بذلك انها تلوح مدى الدهر) .

٤ يا ابن النبي الذي عرض صفوفه بواقعة بدر وابد هذه القبائل .

٥ يريد بالخمسة الذين هم موضوع كل ثناء أعضاء العترة الشريفة - النبي وعلياً وفاطمة والحسن والحسين .

٦ المريخ والميزان من النجوم .

٧ الشرطان كوكبان مضيئان من برج الحمل يقال لهما قرنا الحمل .

٨ يقصد السماك المعروف بالرامح .

انت كالشمس في الضياء وان جا وزت كيوان في علو المكان^١
وسجايا محمد أعجزت في الوصف لطف الافكار والاذهان
وجرت في الانام اولاده الستة مجرى الارواح في الابدان
اقبلوا حاملي الجداول في الاغناد مستلثمين بالفدران^٢
يضربون الاقران ضرباً يعيد السعد نحساً في حكم كل قران
وجلوا غمرة الوغى بوجوه حسنت فهي معدن الاحسان
قد أجبنا قول الشريف بقول واثبنا الحصى عن المرجان
أيا الدر انما فضت من بحر مخلص الطريق للجريان
ما امرؤ القيس بالمصلي اذا جا راه في الشعر بل سكيت الرهان^٣

وقال من قصيدة يفتخر ويذم الزمان

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندي وقد مارست كل خفية بصدق واش أو يخيب سائل
تعد ذنوبي عند قوم كثيرة ولا ذنب لي إلا العلا والفواضل
كأنني اذا طلعت الزمان وأهله رجعت وعندي للأنام طوائل^٤
وقد سار ذكرني في البلاد فمن لهم بلخفاء شمس ضوءها متكامل
هم الليالي بعض ما أنا مضر ويثقل رضوى دون ما أنا حامل^٥
واني وان كنت الاخير زمانه لآتي بما لم تستطع الاوائل
وأغدو ولو أن الصباح صوارم وأسري ولو ان الظلام جحافل
واني جواد لم يحل لجامه ونضو يان أغفلته الصياقل^٦

١ كيوان اسم لرحل .

٢ يقصد بالجداول السيوف والفدران الدروع .

٣ المصلي هو الثاني في السباق . وسكيت الرهان الاخير .

٤ كأنني اذا فقت أهل الزمان عادوني فأصبحت وفي نفوسهم علي ثارات .

٥ رضوى اسم جبل بالمدينة .

٦ قوله لم يحل من التحلية . والنضر الياني السيف الياني . والصياقل الذين يصقلون السيوف .

وان كان في لبس الفتى شرف له
ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي
لدى موطن يشاققه كل سيد
ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا
فوا عجباً كم يدعي الفضل ناقص
وكيف تنام الطير في وكناتها
ينافس يومي في أمسي تشرقا
وطال اعترافي بالزمان وصرفه
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي
إذا وصف الطائي بالبخل مادر
وقال السهي للشمس انت خفية
وطاولت الارض السماء سفاهة
فيا موت زر ان الحياة ذميمة
فما السيف الا غمده والحبائل
على أنفي بين السماكين نازل^١
ويقصر عن ادراكه المتناول
تجاهلت حتى ظن أني جاهل
ووأسفا كم يظهر النقص فاضل
وقد نصبت للفرقدين الحبائل^٢
وتحسد اسحاري علي الاصائل
فلست أبالي من تفول الفوائل
ولو مات زندي ما بكته الانامل
وعير قسا بالفهامة باقل^٣
وقال الدجى يا صبح لونك حائل
 وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
ويا نفس جدي ان دهرك هازل

أصله من لزومياته

وفيهما تظهر نزعته الى التشاؤم من أعمال الانسان والزمان

١

أولو الفضل في اوطانهم غرباء
وتشذ وتناى عنهم القرباء
وحسب الفتى من ذلة العيش أنه
يروح بأدنى القوت وهو حباء
وما بعد مرّ الخمس عشرة من صبا
ولا بعد مرّ الاربعين صباء

١ الساكان نجهان معروفان .

٢ شبه نفسه بالفرقدين في علو المقام وقال إذا كان مثلي تنصب له الحبائل فما قولك فيمن هم دوني .

٣ الطائي هو حاتم المشهور بكرمه . ومادر رجل من بني هلال معروف بالبخل . وقس هو الخطيب الجاهلي المشهور . وباقل يضرب به المثل في العي .

تواصلَ حبلَ النسل ما بين آدم وتشاءب عمرو^١ إذ تشاءب خالد وزهدني في الخلق معرفتي بهم إذا نزل المقدار لم يك للقطا على الولد يخني والد ولو انهم وزادك بعداً من بنيك وزادهم

٢

إذا كان علم الناس ليس بنافع قضى الله فينا بالذي هو كائن^٢ وهل يأتى الانسان من ملك ربه وقد بان ان النحس ليس بغافل ومن كان ذا جود وليس بمكثر^٣ ولا دافع فالحُسْر للعلماء فتم وضاعت حكمة الحكماء فيخرج من أرض له وسما له عمل في أنجم الفهماء فليس بمحسوب من الكرماء

* * *

افيقوا افيقوا يا غواة فاما أرادوا بها جمع الحطام فادركوا يقولون إن الدهر قد حان موته وقد كذبوا ما يعرفون انقضاه^٤ ديانا لكم^٥ مكر من القدماء وبادوا وماتت سنة اللؤماء ولم يبق في الايام غير ذماء^٦ فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

٣

يرتجي الناس ان يقوم امام^٧ ناطق في الكتيبة الخرساء^٨

١ و ٢ يريد بهذين البيتين ان حبل النسل انقطع فيه (أي انه لم يتزوج) وان التزوج كالثوباء عدوى تصيب الناس بعضهم من بعض اما هو فبقي سليماً منها .

٣ التحدرات الاسود في آجاسها .

٤ المكثر اي الكثير المال .

٥ لا يقصد بالديانة هنا الايمان الحقيقي بل النظم والظواهر والطقوس الخارجية التي هي من وضع الانسان .

٦ ذماء بقية الروح في الجسد .

٧ إشارة إلى القول بظهور المهدي .

كذب الظنّ لا إمامَ سوى العقل مشيراً في صحبه والمساء
 فاذا ما اطعمته جلب الرحمة عند المسير والإرساء
 إنما هذه المذاهب أسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء
 فانفرد ما استطعت فالقائل الصا دق يضحى ثقلاً على الجلساء

٤

يحسُن مرأى لبني آدمٍ وكلهم في الذوق لا يعذب
 ما فيهم برٌّ ولا ناسكٌ إلا الى نفعٍ له يحذب
 افضل من افضلهم صخرةٌ لا تظلم الناس ولا تكذب

٥

من لي أن لا اقيم في بليدٍ أذكر فيه بغير ما يجب
 يظنّ بي اليسرُ والديانة والعلم وبيني وبينها حُجب
 كلّ اموري عليّ واحدة لا صفرٌ يُتقى ولا رجب
 اقررت بالجهل وأدعى فسهي قومٌ فامري وامرهم عجب

٦

قد قيل ان الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
 ان كان يصحبها الحجى فلعلها تدري وتفتن للزمان وعته
 أو لا فكم هذيان قوم غابر في الكتب ضاع مداده في كتبه

٧

انا صائم طول الحياة وإنما فطري الحمام ويوم ذاك أعيدُ
 لوان من ليل وصبح لوّنا شعري واضعفني الزمان الأيدُ
 والناس كالاشعار ينطق دهرهم هم فطلق معشري ومقيّد
 قالوا فلانٌ جيّدٌ لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيّد
 فاميرهم نال الامارة بالحنّا وتقيتهم بصلاته متصيّد
 كن من تشاء مهجناً أو خالصاً واذا رزقت غنى فانت السيد

٨

لا تبدأوني بالعداوة منكم فسيحكم عندي نظير محمد

أبغيت ضوءُ الصبحِ ناظرَ مدلجٍ أم نحن اجمع في ظلامِ سرمدٍ
 أن السيوف تراح في اغمارها وتظلّ في تعب إذا لم تقمدا
 روح إذا اتصلت بشخص لم يزل
 هوَ وهي في مرض العناء المكمد
 أن كنت من ربحٍ فيا ربح اسكني
 أو كنت من هبٍ فيا هب اخمد

٩

جرُّ يا غراب وأفسد لن ترى أحداً إلا مسيئاً وايّ الخلق لم يحجّر؟
 فخذ من الزرع ما يكفيك عن عرض
 وحاول الرزق في العالي من الشجر
 وما ألومك بل أوليك معذرة إذا خطفت دبال القوم في الحجر
 قال حواء راعوا الأسد مخدرةً ولم يغادوا بسلم ربة الوجر^١
 ومن اتاهم بظلم فهو عندهم كجالب التمر مغترّاً إلى هجر^٢
 هم المعاصر ضاموا كل من صعبوا من جنسهم وأباحوا كل محتجر
 لو كنت حافظ أثمار لهم ينعت ثم اقتربت لما أخلوك من حجر

١٠

العالم العالي^٣ برأي معاشر كالعالم الهاوي يحس ويعلم
 زعمت رجال أن سيّاراته تسقى العقول وانها تتكلم
 فهل الكواكب مثلنا في ديننا لا يتفقن فهائد أو مسلم؟
 والنور في حكم الخواطر محدث والأولي هو الزمان المظلم
 والخير بين الناس رسم دائر^١ والشر نهج والبرية معلم

١ أي اخافوا الأسد في عرينها وأقلقوا سائر الحيوانات في اوجرتها .

٢ هجر : بلد مشهور بثمره في مقاطعة « الاحساء » .

٣ يريد بالعالم العالي عالم الافلاك والعالم الهاوي عالم الانسان والطبيعة .

طبع "خلقت عليه ليس بزائل طول الحياة وآخر متعلم"

* * *

ان جارت الامراء جاء مؤمراً
ان شئت ان تكفى الحيام فلا تمش
أحسين بدنيا القوم لو كان الفتى
يتشبه الطاغى بطاغٍ مثله
في الناس ذو حلم يسفه نفسه
وكلاهما تعبٌ يحارب شيمةً

اعتى واجور يستضم ويكلم^١
هذي الحياة الى النية سلم
لا يقتضى وأديمه لا يحلم^٢
واخو السعادة بينهم من يسلم
كما يهاب وجاهل يتحلّم
غلبت فأض بجرها يتالم^٣

١١

اركان دنيانا غرائزُ اربع
والله صير للبلاد واهلها
والدهر لا يدري بما هو كائن
والمرء ليس بزاهد في غارةٍ
والحي تخلق جسمه حركاته
نبي ونضعك والقضاء مسلط^٤
نشكو الزمان وما اتى ينجايةٍ
متوافقين على المظالم ركبت
يمضي بنا الفتيان ما أخذنا لنا

جعلت لمن هو فوقنا اركاناً
طرفين : وقتاً ذاهباً ومكاناً
فيه فكيف بلام فيما كانا
لكنه يترقب الامكانا
فيكل وهو يحاذر الاسكانا
ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا
ولو استطاع تكلماً لشكانا
فيما وقارب شرنا ازكانا
نفساً على حالٍ ولا تركنا^٤

١٢

قد اختلّ الانام بغير شك
وودّوا العيش في زمن خوون

فجيدوا في الزمان أو العبوه
وقد عرفوا أذاه وجرّوه

١ يكلم أي يدمي .

٢ أديمه لا يحلم أي جلده لا يفسد والمعنى لو كان الانسان لا يصير الى زوال .

٣ آخ أي رجع .

٤ الفتيان : الليل والنهار .

وينشأ ناشئ^١ الفتيانِ منّا
وما دان الفتى بحجبي^٢ ولكن
لعلّ الموت خيرٌ للبرايا
أطاعوا ذا الخداع وصدقوه
وجاءتنا شرائعُ كلِّ قومٍ
وغير بعضهم أقوال بعضٍ
فلا تفرحْ إذا رُجبت فيهم
صحبنا دهرنا دهرأ^٣ - وقديماً
وغيظاً - به بنوه وغيظ منهم
وهل ترجى الكرامة من اوانٍ
وهل من وقتهم أبني وأطفى
أجلتوا كثيراً وتنصفوه

على ما كان عودُه أبوه^٤
يعلمه التدينَ أقربوه
وان خافوا الردي وتهيبوه
وكم نصح النصيحُ فكذبوه
على آثار شيء رتبوه
وأبطلتِ النهي^٢ ما اوجبوه
فقد رفعوا الدنيء ورجبوه^٣
رأى الفضلاء ان لا يصحبوه
فعذبَ ساكنيه وعذبوه
وقد غلب الرجال مغلبوه
على أيّ المذاهب قلبوه
وغابوا من اقل^٤ وأنشبه^٤

١ الناشئ : الحدث اليافع .

٢ النهي : العقل .

٣ رجبه : عظمه وهابه .

٤ المكثر : الغني . تنصفوه أي خدموه .

ابن الفارض

ابو القاسم (ابو حفص) عمر بن علي بن مرشد

٥٧٧ هـ - ٦٣٢ هـ

١١٨١ م - ١٢٣٥ م



— نشأته — شخصيته — اثر الصوفية في شعره — اسلوبه الشعري — غزله

مصادر دراسة شعره وتصوفه

- اللمع لابن السراج الطوسي ليدن ١٩١٤
الرسالة القشيرية دار الكتب المصرية ١٣٣٠
كشف المحجوب للحجويري ترجمة Nicholson 1911
الاحياء للغزالي وبهامشه عوارف المعارف للسهروردي مصر ١٣٠٢
وفيات الاعيان لابن خلكان الطبعة الميرية
الخطوط والآثار للمقريزي مطبعة النيل ١٣٢٥
حسن المحاضرة للسيوطي ١٣٢١
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي مصر ١٣٥١
قوانين حكم الاشراق لابي المواهب الشاذلي مطبعة ولاية سوريا ١٣٠٩
شرح الديوان للبوريي والناقلي مصر ١٣١٠
د د د (شرح الدحداح) مرسليليا ١٨٥٣
التائية الكبرى شرح الفرغاني (١٢٩٣ هـ) والقاشاني (١٣١٠)
التائية الكبرى تحرير Von Hausman فيينا ١٨٥٤
Nicholson, Studies in Islamic Mysticism, Cambridge, 1911
Massignon-Encyc. of Islam. Tasawwuf.
ابن الفارض والحب الإلهي لمحمد مصطفى حلبي مصر ١٩٤٥
ومقالات شتى لأدباء عرب ومستشرقين .

نشأته

يرجع ابن الفارض بنسبه الى بني سعد^١ . ووالده حمويّ الاصل قدم مصر يقطنها ، وكان يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام فلُقّب بالفارض^٢ . ويستدل انه (الوالد) كان رجل فضل وجاء يتصدر مجالس الحكم والعلم ، حتى سئل ان يكون قاضي القضاة فامتنع ونزل عن الحكم . واعتزل الناس وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة في الجامع الازهر الى ان توفاه الله^٣ .

وفي مصر ولد شاعرنا ، ولا شك انه كان لوالده يد كبيرة في ثقافته وفي تكييف نزعاته النفسية . قال ابن العماد الحنبلي : « فنشأ تحت كنف أبيه في عفاف وصيانة وعبادة ، بل زهد وقناعة وورع ، وأسدل عليه لباسه وقناعه . فلما شب وترعرع اشتغل بفقهِ الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر »^٤ .

وقد ظهر فيه منذ أوائل شبابه ميل الى التدين والتلذذ بالتجرد الروحي على طريقة المتصوفين . فكان يستأذن والده في الانفراد للعبادة والتأمل . ويظهر انه كان في جبل المقطم مكان خاص يعرف بوادي المستضعفين يختلف اليه المتجردون^٥ ، فحُبّب الى ابن الفارض الخلاء فيه ،

١ قبيلة السيدة حليلة مرضعة النبي العربي .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ .

٣ عن سبطه في الديوان ص ٧ .

٤ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ . وابن عساكر هذا غير الحافظ الشير صاحب التاريخ الكبير .

٥ الديوان ٦ .

فترهّد وتجردّ وكان يأوي الى ذلك المكان أحياناً^١ . ثم انقطع عنه ولزم اباه . فلما توفي الوالد عاد الولد الى التجريد والسياسة الروحية او سلوك طريق الحقيقة فلم يفتح عليه بشيء^٢ (اي لم يكشف له من المعرفة ما يستغني به وللمتة يريد هنا لم يوح اليه من الشعر شيء) ثم قبض له رجل من الاتقياء أشار عليه ان يقصد مكة . فقصدها وأقام فيها مجاوراً نحواً من ١٥ سنة . وهناك بين المناسك المقدسة نضجت شاعريته وكملت مواهبه الروحية . ثم عاد الى مصر ، وكانت يومئذ تحت سيادة الايوبيين ، وقد عثوا كل العناية بفتح المدارس والمعاهد فيها ، فتجددت في أيامهم الروح الدينية والتعاليم السنية . حدث ذلك على أثر انتصاراتهم على الصليبيين تلك الانتصارات التي وطدت مركزهم في مصر والشام والحجاز ، وتركت لهم في تاريخ الشرق الاسلامي ذكرى خالدة .

والذي يلفت النظر ان عطف الايوبيين على السنة كان مقروناً بتزايد عدد الصوفية^٣ في مصر ، فكان التصوف يومئذ كان يعتبر مظهراً من مظاهر التدين ليس إلأ . ولذلك نرى الجمهور يكرمون مشايخ الطرق ويعظمون شأنهم ، ونرى الحكام والامراء يقفون لهم « الخوانك »^٤ . ويذكر المقرئ ما ملخصه^٥ : ان صلاح الدين خصّص سنة ٥٦٩ بمصر داراً للصوفية كانت قبلاً لوزراء الفاطميين ، ووقف لهم وقفاً كبيراً ، فكانت اول خانكاه عملت بديار مصر ، وعُرفت بدويرة الصوفية . وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم . وولي مشيختها الاكابر والاعيان . قال : « وأخبرني الشيخ احمد بن علي القصّار انه أدرك الناس في يوم الجمعة يأتون من مصر الى القاهرة ليشاهدوا الصوفية عندما

١ شذرات الذهب ٥ - ١٤٩ .

٢ الديوان ٧ . شذرات الذهب ١ - ١٥٠ .

٣ راجع قائمتهم في حسن المحاضرة ١ ص ٢٤٣ - ٢٥٤ .

٤ جمع خانكاه وهي فارسية معناها البيت ويقصدون بها محلات خاصة لاقامتهم .

٥ الخطط (بولاق) ٢ - ٤١٥ .

يتوجهون منها الى صلاة الجمعة ، كي تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم ، ثم يصف موكبهم الفخم ويسقب على ذلك بقوله : « انه كان من أجل عوايد القاهرة ، وقد بقي الامر كذلك الى أوائل القرن التاسع الهجري .

فلا نستغرب إذن ما نسمعه عن اكرام الناس لابن الفارض وقد رجع من مكة شيخاً متصوّفاً وشاعراً كبيراً ، حتى كان إذا مشى في المدينة يزدهم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ، ويقصدون تقبيل يده^١ . قال ولده^٢ : « وكان إذا حضر في مجلس يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ، وسكينة ووقار . ورأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء (المتصوفة) واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه وهم في غاية ما يكون من الادب معه والانتضاع له . وإذا خاطبوه فكأنهم يخاطبون ملكاً عظيماً » . وقال ابن الهادي الحنبلي^٣ : « فأقام بقاعة الخطابة في جامع الازهر ، وعُكفت عليه الائمة وقُصد بالزيارة من الخاص والعام ، حتى ان الملك الكامل كان ينزل لزيارته » .

قلنا اننا لا نستغرب ما رواه ولده ، وما نقله صاحب شذرات الذهب عن منزلة شاعرنا الدينية والاجتماعية ، على انه لا بدّ من القول انصافاً للتاريخ ان ابن خلكان الذي أدرك الشاعر وترجم له^٤ لا يذكر شيئاً من هذا القبيل . وكل ما يقوله من ذلك : « سمعت انه كان رجلاً صالحاً كثير الخير على قدم التجرد » . فهو يزكّي قول سبطه وولده ومن نقل عنها انه كان معروفاً بالصلاح والكرم وسلوك طريقة التصوّف على انه يسكت عما ذهبوا اليه من تعظيم الخاصة والعامة له . ولا يلزم عن

١ الديوان ٦ .

٢ الديوان ٦ .

٣ شذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

٤ كان ابن خلكان في الرابعة والعشرين لما توفي ابن الفارض .

سكوته انكار ما ذهبوا اليه ، ولكنّ فيه ما يجوز لنا التحرّز بما قد يكون من قبيل القلو او التفرّض .

شخصيته

يجمع مؤرخوه على انه كان ورعاً وقوراً طيب الاقوال والافعال . والذي يراجع سيرته ويتفهم روح قصائده يتجلّى له في نفسه ثلاث مزايا بارزة :

انه كان شديد التأثر (وخصوصاً بالجمال) الى درجة الانفعال العصبي يسحره جمال الشكل حتى في الجمادات . ومن ذلك ما يروونه عن تأثره بحسن بعض الجمال ، أو ببرنية حسنة الصنعة رآها في دكان عطّار^١ . وقد يسحره جمال الالحان - فاذا سمع انشاداً جميلاً استخفّه الطرب فتواجد ورقص ولو على مشهد من الناس . نقل عن ولده ان الشيخ كان ماشياً في السوق بالقاهرة فمرّ على جماعة من الحرسية يضربون بالناقوس ويفغنون ، فلما سمعهم صرخ صرخة عظيمة ، ورقص رقصاً كثيراً في وسط السوق ، ورقص جماعة كثيرة من المارّين . وتواجد الناس الى ان سقط اكثرهم الى الارض . ثم خلع الشيخ ثيابه ورمى بها اليهم وحل بين الناس الى الجامع الازهر ، وهو عريان مكشوف الرأس ، وفي وسطه لباسه . وأقام في هذه السكر (النوبة العصبية) ملقى على ظهره مسجّى كاليت^٢ .

وبما يذكر من هذه السكرات او النوبات التواجدية انه كان مرّة جالساً في الجامع الازهر على باب قاعة الخطابة ، وعنده جماعة من الفقراء والامراء ، وجماعة من مشايخ الاعجام المجاورين بالجامع وغيرهم . وكلما ذكروا حالاً من أحوال الدنيا مثل الطشت او الفرش قالوا هذا من زخم

١ شذرات الذهب ٥ - ١٥١ .

٢ الديوان ١٤ .

(أي وضع) المعجم . فبينما هم يتفارضون في ذلك ويفخّمون « زخم المعجم » رفع المؤذنون أصواتهم بالأذان جملة واحدة فقال الشيخ : « وهذا زخم العرب ، وتواجد ، وصرخ كل من كان حاضراً حتى صار لهم ضجة عظيمة ^١ .

فالرجل كان شديد التأثر العصبي وسرى اثر ذلك في شعره ولا سيما في قصيدته الكبرى نظم السلوك . والظاهر ان للطريقة الصوفية وما يلازمها من رياضة وأذكار وتأملات روحية تأثيراً بيّناً من هذا القبيل . وقد روي في كتاب « كشف المحجوب » كثير من أخبار الصوفيين الذين ماتوا لشدة وجدهم ^٢ .

٢ - ميله الى الخلوة والتقشف . وهو ظاهر منذ حوادثه في ما ذكرناه سابقاً من اختلافه الى وادي المستضعفين ، وظاهر أيضاً في مجاورته بمكة ، وما روه عن هيامه بأوديتها يستأنس بوحشتها . وقد عبّر عن ذلك بقوله :

وابعدني عن اربعي بُعد اربعٍ شباي وعقلي وارتياحي وصحتي
فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وبالوحش انسي اذمن الانس وحشتي
وكان أيام النيل يتردد الى المسجد المعروف بالمشتى في الروضة ، ويحب مشاهدة البحر (اي نهر النيل) مساءً ^٣ . وفي ذلك ما يشير الى حبه التأمل بالجمال الطبيعي والبعد عن ضجيج الناس ومتاعهم .
وقد قرن كل ذلك بقهر النفس ثَقْشاً وصياماً حتى نقل عن ولده انه كان للشاعر اربعينيات ^٤ يحببها بالصيام والتأمل . وكانت تلك طريقة

١ الديوان ١٥ .

٢ كشف المحجوب (نقله نكلسون من الفارسية الى الانكليزية) راجع في النسخة الانكليزية الصفحات ٤٠٦ - ٤١٠ .

٣ شذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

٤ الديوان ١٧ وشذرات الذهب ٥ - ١٥٠ . ومعنى الاربعينية اربعون يوماً .

عتمدها بعض المتصوّفين . ولهم في ذلك الحديث التالي يرفعونه الى النبي « من اخلص لله تعالى العبادة اربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ^١ » . وقد عقد السهروردي فصلاً في هذه الطريقة ومعانيها وكيف يدخلها المريد وما يتطلب منه ، فليراجعه من يريد التعمق في ذلك ^٢ . وخلاصته ان مشايخ الصوفية متفقون على ان بناء امرهم على اربعة أشياء : قلة الطعام ، وقلة المنام ، وقلة الكلام ، والاعتزال عن الناس . فمن استطاع ان يحتمل الجوع ابتغاء الفرح الاعلى الذي ينسبه لهب الجوع فله ذلك . ولا يتحتم عليه الانقطاع التام عن الطعام والشراب طيلة الاربعين يوماً بل الاكتفاء بالقليل القليل من خبز وملح أو ما شاكل ، والقيام بما تتطلبه الخلوة من رياضة روحية حتى يفتح عليه ويكشف بشيء من المنح الالهية .

ويظهر مما رواه ان شاعرنا كان يقوم بهذه الرياضة الزهدية أحياناً ولعله الى ذلك يشير في قوله :

في هواكم رمضان عمره ينقضي ما بين احياء وطي

ومهما حاولنا غربلة الاخبار التي يروونها عن تقشفه وصيامه فاننا لا نرى محيصاً عن القول ان الرجل كان متصوّفاً وكان يسلك طريقة اهل الورع والزهد ^٣ ، وقصائده ولا سيما التائية الكبرى تنضح بذلك نضحاً لا سبيل الى إنكاره .

٣ - كرم سجيته وحسن عشرته . قد يكون في امرىء ما كان في شاعرنا من حدة التأثير والميل الى الطريقة الزهدية ، ويكون مع ذلك سيئ العشرة قليل الخير . اما ابن الفارض فقد اجمع الكل على نعته بسمو الخلق من رقة وايناس وكرم وترفع عن حطام الدنيا ^٤ . فهو لم يكن من الذين

١ عوارف المعارف (هامش الاحياء) ٢ - ٢٢٣ .

٢ « » « الفصل الثامن والعشرون .

٣ راجع قصته مع السلطان الملك الكامل . الديوان ١٥ .

٤ ابن خلكان في ترجمته ، وشذرات الذهب ٥ - ١٥٠ .

يصطنعون التدين طمعاً بالحصول على المال أو شرف المقام ، بل كانت التدين طبعاً فيه يرفعه عن الشهوات والاطماع المعيبة . وقد عرف الناس له ذلك فأكرموه ورفعوه الى مصاف الصالحين .

ومن مزاياه البارزة السخاء . رُوي انه ركب مرة مع مكارٍ الى جامع مصر واشترط المكارى ان تكون اجرتة « على الفتوح » اي بقدر ما يفتح على الشاعر من العطايا . قال الراوي - وكان يرافقه - وتبعنا فارس من جهة الامير فخر الدين فاستند إليّ فقال لي : قل للشيخ هذه مئة دينار يقبلها من الامير على الفتوح . فقلت ذلك للشيخ . فقال نحن ركبنا مع المكارى على الفتوح وأمر له بها . فرجع الفارس الى الأمير وأخبره بذلك . فبعث اليه مثلها ، فقال اعطها للمكارى . ولما وصلنا الى الجامع اعتذر الشيخ الى المكارى ودعا له ^١ .

وكان شديد المؤاخذة لنفسه . قال لولده ^٢ : « حصلت مني هفوة انحصرت بسببها باطناً وظاهراً حتى كادت روحي تخرج من جسدي ، فخرجت هائماً كالهارب من أمر عظيم ففعلته وهو مطالبٌ به ، فطلعت المقطّم وقصدت مواطن سياحتي وأنا أبكي واستغيث واستغفر فلم ينفرج ما بي . وقصدت مدينة مصر ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعوراً ، وجددت البكاء والتضرّع والاستغفار ، فلم ينفرج بالي ، فغلب عليّ حال مزعج لم أجد مثله قط ، فصرخت وقلت :

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ،
قال فسمعت قائلاً يقول بين السماء والارض ، اسمع صوته ولا أرى
شخصه :

« محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط ،

١ الديوان ١٦ .

٢ الديوان ٣١ .

ولا ننكر انه لا يجوز التقيد بمثل هذه القصص والاستناد اليها في الحكم على شاعرنا ولكنها ترينا على الأقل رأي الذين ترجوا له ، او كيفية تأثرهم بأخلاقه . والقصة الاخيرة ترجع الى أيام الشاعر فقد رواها ابن خلكان عن بعض أصحابه وانه ترنم يوماً وهو في خلوة بيت الحريري « من ذا الذي ما ساء قط ، فسمع البيت الثاني من قائل لم يرَ شخصه . ولا يذكر ابن خلكان دقائق القصة كما يرويها ولد الشاعر . وليس بالعجيب ان يكون ابن الفارض كما ذكرنا وان يومه الانفعال النفسي انه يسمع صوت شخص لا يراه . فما ذلك الشخص الا نفسه الواحدة ، التي كثيراً ما كان الوجد يفصلها عن العالم المحسوس .

* * *

فرجل كابن الفارض شديد الاحساس والتأثر ، كثير الخلوة والتأمل ، ورع مترفع عن حطام الدنيا ، محبّ حسن الصحبة كثير الخير ، لا يُستغرب ان تفيض نفسه بقصائد الوجد والهيام ، وان ينال من معاصريه ومن تبعهم جميل الذكر والاكرام .

اثر الصوفية في شعره

مرّ معنا في القسم الاول من هذا الكتاب شيء عن الطريقة الصوفية ومنشأها ، فلا لزوم لاعادته هنا . على انه لا بدّ لنا لدرس ابن الفارض وتفهم شعره ، من النظر في الصوفية ومصطلحاتها العامة فنقول :

« للقلب بابان ، باب مفتوح الى عالم الملكوت ، وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . فعمل الاولياء والانبياء يأتي من الباب الاول ، وعلم الحكماء (العلماء والفلاسفة) يأتي من الثاني . والفرق بين الفريقين ان الحكماء يعملون في اكتساب العلوم واجتلابها الى القلب ، واما الاولياء (الصوفية) فيعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها

وتصقيها فقط حتى تتلأأ فيه جليّة الحق بنور الاشراف ، وهذا هو الكشف ، ١ .

فالصوفية اذن مجاهدةٌ لتطهير القلوب من الادران والانفراد بذكر الله توصلاً الى الحصول على الالهام النوراني - او الاتحاد الكامل بالحق الاعلى .

وفي خلال هذه المجاهدة تمرّ نفس الصوفيّ في تطوّرات شتى ، منها ما يدعى مقامات ، ومنها ما يدعى احوالاً . ويراد بالمقامات قيام العبد بين يدي الله والانقطاع اليه ، ولزوم العبادات والمجاهدات والرياضات الروحية . وبكلمة اوضح هي المسالك التي يتدرج فيها المتصوف نحو غايته المنشودة ، كالنوبة - والورع - والزهد - والفقر - والصبر - والتوكل - والرضا وغير ذلك ٢ .
واما الاحوال فهي ما يحلّ بالقلوب من صفاء الذاكر - او هي اختبارات النفس اذ تمرّ في شتى المقامات . ومن ذلك القرب - المحبة - الخوف - الرجاء - الشوق - الانس - الطمأنينة - المشاهدة - اليقين ٣ .

وللصوفية مصطلحات يكثر من ترديدها في اشعارهم ، وقد افرد لها ابن السراج الطوسي في اللّمع باباً خاصاً ذكر فيه نحواً من ١٥٩ نوعاً ، ثم شرّحها شرحاً وافياً فليراجعها من شاء ٤ . وإنما نجتزئ هنا باشهرها واكثرها تردداً في الشعر الصوفي ، وخاصة في شعر ابن الفارض - ومنها :

الجمع والتفرقة : فالجمع هو اتحاد الواجد بالله عن سبيل الوجد ٥ ،

١ ملخصاً عن الاحياء للقراني ٣ - ٢١ .

٢ من اراد معاني هذه الالفاظ من الوجهة الصوفية فليراجع اللع ٤٣ - ٤٤ او كتاب قوانين حكم الاشراف لابي المواهب الشاذلي .

٣ راجع معانيها في اللع ٥٤ - ٧٢ .

٤ اللع ٣٣٣ - ٣٧٦ .

٥ وفي جامع البدائع (مصر ١٩١٧) ص ٨٧ ان كل واحد من الموجودات يمشق الخير المطلق عشقاً غريباً ، وان الخير المطلق يتجلى لماشقه وان غاية القربى منه هي قبول تجليه على اكمل ما في الامكان . وهو المعنى الذي يسميه الصوفية بالاتحاد .

والتفرقة تعلقه بالبشرية :

فالاول عن طريق القلب والثاني عن طريق العقل - فمثال الجمع قوله :

لها صلواتي بالمقام اقيمها واشهد فيها انها لي صلت

كلانا مصل واحد ساجد الى حقيقته بالجمع في كل سجدة

الفناء والبقاء - الفناء رؤية حركات العبد ، والبقاء رؤية عناية الله .

كقوله :

وتلافي ان كان فيه اثتلافي بك عجل به - جعلت فداكا

وقوله :

ان كان في تلفي رضاك صباية - ولك البقاء - وجدت فيه لذاذا

الحب والهوى - وما يتعلق به من كتمان - والم - ونحول - وشوق -

وهجر - ووصل - وتهتك - وعذل وغيره من الوجهة الصوفية

وهو الموضوع العام في شعر ابن الفارض ، والامثلة اكثر من ان

تحصر هنا .

الوجد - ان ينقطع القلب عن العلاقات الدنيوية فيشاهد ويسمع ما لم

يكن يتبيها له من قبل :

يا اخا العذل في من الحق مثلي هام وجدا به عُدمتُ إخاكا

لو رأيت الذي سباني فيه من جمال - ولن تراه - سباكا

القبض والبسط - وهما حالان شريفان لاهل المعرفة (الصوفية) . اذا قبضهم

الله حشهم عن تناول المباحات حتى الاكل والشرب والكلام ،

واذا بسطهم ردهم الى هذه الاشياء حتى يتأدب الخلق بهم .

وفي راحوت البسط كلتي رغبة بها انبسطت آمال اهل بسيطتي

وفي رهوت القبض كلتي رهبة ففيا اجلت العين مني اجلت

السكر والصحو - (الغشية والحضور) فالسكر غيبة القلب عن مشاهدة

الخلق ومشاهدته للحق بلا تغير ظاهر على العبد . ويختلف عن

الغشية بانها تظهر) .

تهذب اخلاق الندامى فيتهدي بها لطريق العزم من لاله عزمُ
وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ترى الدهر عبداً طائعاً ولكل الحكمُ

والصحو رجوع القلب الى ما غاب عن عيانه لصفاء اليقين ،
ويختلف عن الحضور بأن هذا دائم والصحو حادث .

المحو وصحو الجمع - وهما حالان تتلوان السكر والصحو . فالمحو
صعقة السكر ثانية بعد الصحو الاول يتلوها صحو الجمع وهو
الرتبة العليا وفيها يتم الاتحاد بالله واذ ذاك تتساوى الطوالع
وتجتمع الاضداد فيصبح العابد والمعبود واحداً ، وكذلك
الرسول والمرسل والمحب والمحبوب ، والحاضر والماضي ، والليل
والنهار ، والصفة والذات .

فالوجود واحد - وليس هنالك زمان ، او سابق ذوات ،
أو اختلاف أديان ، أو أنا وأنت وهو ، بل روح واحدة
هي حقيقة الحقائق التي تتجلى بمظاهر مختلفة في الوجود
الحسي .

ففي الصحو بعد المholm أك' غيرها وذاتي بذاتي إذ تحلت فجلت
فكل الذي شاهده فعل واحد بمفرده لكن بحجب الأكنة
إذا ما ازال الستر لم ترَ غيره ولم يبق بالأشكال إشكال ربية
وإذا بزغت أنوار التوحيد على قلب الصوفي كسف سلطانها سائر
الانوار .

وفي حبها بعث السعادة بالشقا ضللاً وعقلي عن هداي به عقلُ
وقلت لرشدي والتنسك والتقى تخلتوا وما بيني وبين الهوى خلوا
الكشف - بيان ما يخفى على الفهم فيكشف عنه للعارف كأنه

رأي عين :

وما برحوا معنىً ارام معي فإن نأوا صورةً في الذهن، قام لهم شكل

* * *

فالدجاجي لنا بك الآن غرٌ حيث أهديت لي هدى من سناكا
واقْتباس الانوار من ظاهري غير عجيب وباطني مأواكا
التجريد - ما تجرّد للقلب من شواهد الالوهية اذا صفا من كدور
البشرية :

ابمبنيه عمى عنكم كما صمّ من عدله في أدنسي
أو لم ينه النهى عن عدله زاوياً وجه قبول النصح زي

* * *

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرّ ارقّ من النسيم اذا سرى
واباح طرفي نظرة امّلتها فغدوت معروفاً وكنت منكراً
فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عني مخبرا
السطح - كلام غريب يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن قلب
الواجد كما يفيض الماء الغزير اذا جرى في مجرى ضيق
كقوله :

فخمرٌ ولا كرم وآدم لي أبٌ وكرم ولا خر ولي امها أم
وقوله في حالة الاتحاد :

فأتلو علوم العالمين بلفظة واجلو عليّ العالمين بلحظةٍ
واستعرض الآفاق نحوياً بخطوة واخترق السبع الطباق بخطوة
فمن قال أو من طال او صال انما يمتّ بامدادٍ له برقيقة
وما سار فوق الماء او طار في الهواء أو اقتحم النيران ألا يهتني
ومنتي لو قامت ببيتٍ لطيفة لرُدّت اليه نفسه وأعيدت

اسلوبه الشعري

نشأ ابن الفارض في عصر بلغت فيه الأناقة البديعية نثراً ونظماً أعلى درجاتها . فهو عصر القاضي الفاضل ، والعماد الاصبهاني ، وابن التعاويذي ، وابن النبيه ، والبهاء زهير ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتي ، وسوام ممن عاصروا شاعرنا او سبقوه قليلا . وقد عُرِفَت هذه الطبقة جميعها بولعها الشديد بالصناعة اللفظية وتكلف أنواع البديع . ولم يشذ عنهم ابن الفارض ، بل لعله أبعدهم شأواً في ذلك . فالتأنق البديعي عامٌ في جميع قصائده بل في اكثر أبياتها . وأكثر ما يظهر في ما يلي :

الجناس (في أنواعه المختلفة) — ومنه :

التام :

ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي
والملفتق :

جنة عندي رباها احلت ام حلت عجلتها من جنتي
المشتق او شبهه :

دار خلد لم يدر في خلكدي انه من ينأ عنها يلق غي
وكثيراً ما يعنى يجمع عدد من ضروب الجناس في بيت واحد . كقوله :
وباينت بانات كذا عن طويلع بسلمِ فصل عن حلةٍ فيه حلت
ففيه الملفتق والمحرّف وشبه المشتق .
فذاك هوى اهدى اليّ وهذه على العود إذ غنت عن العود اغنت
وفيه شبه المشتق والتام والناقص .

الطباق :

فلي بين هاتيك الخيام ضنينة عليّ يجمعي سمحة بلشتتي

* * *

وبسط طوى قبض التناي بساطه لنا بطوى ولّى بارغد عيشة

* * *

منى له ذل الخضوع ومنه لي عزّ المنوع وقوّة المستضعف
الطبيّ والنشر :

فضعفي وسعفي ذا كراي عواذلي وذاك حديث النفس عنها برجمة

* * *

فقلبي وطرفي ذا بمعنى جاهها معنى وذا مغرى بلين قوام

* * *

وعقدي وعهدي لم يحلّ ولم يحل ووجديّ وجدي والغرام غرامي
وقد يحمله الشغف بهذه الصناعة على جمع بضعة من أنواع البديع -
كقوله :

وقالوا: جرت حُمرأ دموعك قلت عن امورٍ جرت في كثرة الشوق قلتِ
نحرت لضيف الطيف في جفني الكرى قرى فجري دمعي دماً فوق وجنتي
ففي هذين البيتين جناس وطباق ومراعاة نظير ومجاز مرسل .
وقوله :

أيّ صبا أيّ صبا هجت لنا سَحَرًا من ابن ذيناك الشذّي
ذاك أن صافحت ريان الكلا وتحرّشت بمخوذات كُليّ
فلذا تُروى وتروى ذا صدا وحديثاً عن فتاة الحميّ حيّ
ففيه من الجناس التام والمحرّف، وفيه تناسب، والطباق، والطبيّ والنشر .
ومن مزايا أسلوبه توهّم التناقض ، وهو ان يوهك بوجود تناقض في
المعنى ، والحقيقة غير ذلك . كقوله :

ما بين ضال المنحنى وظلاله ضلّ المتيم واهتدى بضلاله

* * *

فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وللوحش انسي اذ من الانس وحشتي

* * *

فلعلّ نأر جوائحي ان تنطفي بهوبها وأودّ ان لا تنطفي

* * *

وقلت لرشدي والتنسك والهوى تخلّوا وما بيني وبين الهوى خلّوا

* * *

ومن أجلها أسمى لمن بيننا سعى واعدو ولا اغدو لمن دأبه العذل
ومنها لطف العبارة والاشارة وحلاوة الجرّس - ويكاد يكون مذهبه
العام . ولا بدع فموضوعه حبّي والفاظه رقيقة مألوفة ، وهو يجمع بين سلاسة
البحثري وصنعة ابي تمام جمعاً لطيفاً قد يعلمو به عن كليهما . نعم
تلك صفات الشعر الغزلي في كل زمان ، ولكن لابن الفارض نفساً
خاصاً يمتاز به : انه لطف روحي ينعكس على اسلوبه فيحبّبه الى القلوب
برغم ما فيه من عيوب سيأتي ذكرها . ولو أردنا التدليل على ذلك لاتينا
بأكثر ديوانه وانما نكتفي هنا بقوله :

يا اخت سعدٍ من حبيبي جئتني برسالةٍ اديتها بتلطّفٍ
فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرتُ ما لم تنظري وعرفتُ ما لم تعرفي
وقوله :

زدني بفرط الحب فيك تحميراً وارحم حشاً بلطى هواك تسعراً
واذا سألتك ان اراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي ، لن ترى
ومن حسناته دقّة الوصف والتمثيل . وتظهر في بلاغة تشابيه ،
ووضوح رسومه الفكرية كقوله :

خافياً عن عائد لاح كما لاح في برديه بعد النشرطي
فتشبيهه ما صار اليه من النحول باثر الطي في الثوب يدلّ على
دقّة في الرسم تذكّر للشاعر . وقوله يصف شيوع الجمال الاسنى في
كل شيء :

تراه ان غاب كلّ جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والثناي الرخيم اذا تألفا بين ألحانٍ من الهزج

وفي مسارح غزلان الخائل في برد الاصائل والاصباح في البلج
وفي مساقط انداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج
الى آخر هذه الابيات المشهورة .

وقوله يشبه تواجده بحال الطفل الذي يبكي من شدّة القهط ويحن الى
الخلاص منه فيناغى ويهزّ فيجد في ذلك ما يسكّنه ويلبسه شدّة القهط -
(الثانية) :

إذا أنّ من اشدّ القهط وحنّ في نشاطٍ الى تفريج افراط شدّة
بُناغى فيلغى كلّ كلٍّ اصابه ويُصفي لمن ناغاه كاللنصتِ
يُسكّن بالتحريك وهو بمهده اذا ما له ابدي مربّيه هزّت
وجدت بوجدٍ آخذي عند ذكرها بتعبير ثالٍ أو بالخان صيّتِ

وقس على ما ذكر كثيراً من لطائفه التي يشرح بها حاله فيصف تأثير
الحب او جمال المحبوب او ضلال العذل ، وما الى ذلك بما يبلغ فيه
الطبقات العليا من الخيال الشعري .

* * *

عيوب اسلوبه

على ان في شعر ابن الفارض عيوباً لا يحوز الاغضاء عنها أهمّها :
تكرير المعاني - وذلك طبعي في قصائد تدور على موضوع واحد ،
وما اشبه في ذلك بأبي العتاهية . على ان شاعرنا لا يكتفي بتكرير المعنى
بل كثيراً ما يكرر العبارة وقد يكرّر البيت في أماكن شتى . كقوله :

اخذتم فؤادي وهو بمضي فما الذي

يضرّكم لو كانت عندكم الكلّ

فقد جاء في قصيدة أخرى :

أخذتم فؤادي وهو بمضي فما الذي يضرّكم لو تلعبوه يجملي

وورد هذا المعنى مراراً في مواضع اخرى .
وقوله :

كهلال الشك لولا انه انت عيني عينه لم تتأي
وتراه في موضع آخر :

كأنى هلال الشك لولا تأوهي خفيت فلم تهدّ العيون لرؤيتي
وقوله :

ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي
وقد ورد أيضاً بقوله :

قد كفى ما جرى دماً من جفون بك قرحى فهل جرى ما كفاكا
وقوله :

فلو بسطت جسمي رأيت كل جوهر به كل حسن فيه كل محبة
ومثله :

ولو بسطت جسمي رأيت كل جوهر به كل قلب فيه كل غرام
وقوله عن العين :

فانسانها ميت ودمعي غسله واكفانه ما ابيض حزناً لفرقتي
ومثله :

فسهدي حيّ في جفوني مخلد ونومي بها ميت ودمعي له غسل
وقس على ما ذكر ما لم يذكر .

وقلما تجد قصيدة من قصائده تخلو من مخاطبة سائق الظعن ، والتقدم
اليه انت يحمل السلام الى الاحباب ، وان يذكر لهم صباً صريعاً نحيل
الجسم الى درجة الخفاء .

ويكثر في شعره التنقص من العذّل واللائقين ، وذكر ربح الصبّا التي
يخصّها بحمل أخباره أو اخبار الحبيب .

ومن عيوبه الغموض - وهو امّا لبعده اشاراته وشطحاته أحياناً ، أو
لتعسفه في الصناعة ؛ خذ قوله مثلاً :

تاب بدر التام طيف محيّاك لطرفي بيقظني اذا حكاكا
فتراءيت في سواك لعين بك قرّت وما رأيت سواك
وكذاك الخليل قلب قبلي طرفه حين راقب الافلاك

ومعنى الايات : ظهر لي البدر نائباً عنك مشبهاً محيّاك ، فما ظهر
لي سواك لأن عيني لا تشاهد إلا جمالك . وكذا ابراهيم الخليل كان
يراقب النجوم باحثاً عن مبعتها العظيم . وفي هذا التركيب من التعسف
ما ترى .

وله من هذا القبيل ما يلفت النظر : واغمض منه شطحياته وهي
راجعة الى غرائب ما يصفه من أحواله الصوفية وهذه لا يفهمها إلا
ارباب هذه الطريقة او المطلعون على اسرارها .

أما غموض البديع فمعروف وهو يشارك فيه كل أهل الصناعة ، وربما
فاقهم أحياناً لمحاولته الجمع بين عدة ضروب في معنى أو بيت واحد .

* * *

وبرغم مقدرة اللغوية وشاعريته الممتازة لا يخلو ديوانه من هفوات
لغوية أو اعرابية كقوله :

لو طويتم نصح جار لم يكن فيه يوماً يالُ طيّا يالَ طي
وصحيحه يالو طيّا يا آل طي (وقد تقرأ يالطي) .
وقوله :

يضرّم لو تلبعوه يحملتي - الصواب : لو تلبعونه .

وقوله : تاب بدر التام طيف محيّاك - وصوابه : عن طيف محيّاك .
وقوله : لعلّ اصبحاي بمكة يبردوا بذكر سليمى ما تجن الاضالع -
وصوابه : يبردون .

وقوله : فان لها في كل جارحة نصلُ وصوابه نصل . وقد يخرجونه
بتقدير ضمير الشأن فتصبح فانه الخ .

وهو يكثر من استعماله لفة « اكلوني البراغيث » كقوله :

وان كثروا اهل الصباية او قتلوا وقوله : وان مزجوه عذلي
وما الى ذلك مما يلاحظ في تضاعيف ديوانه .

ومن تساهله اللغوي قوله :

لم يرق لي منزل بعد النقا . وهو لطيف على ان فعل راق يتعدى
رأساً فيقال راقني ذلك .

وليس ما ذكرناه بالذي يتفرّد به ابن الفارض ، فقد مرّ معنا ما
عيب على المتنبي وغير المتنبي ، وقلما يخلو ديوانه من مثل هذه الهفوات .
واكثرها للمحافظة على الوزن .

غزله

عُرف ابن الفارض بأنه شاعر الحب . والناس في ذلك طائفتان، اهل
الظاهر ، واهل الباطن . فأهل الظاهر هم القائلون بأنه لا يخرج عن سبيل
العشاق او الغزلين الذين وصفوا الجمال الانساني (ولا سيما جمال المرأة)
وتأثيره في نفوس المحبين . وقد عزا اليه بعضهم ولعه بسماع الفناء من
جوارٍ له وانه كان يرقص لذلك ويتواجد^١ . وعلى هذا الظاهر يفسّرون
حبه وسماعه او على الاقل لا يتعرّضون لما في ذلك من رموز صوفية .
ذكروا ان بعضهم في عصر الحافظ بن حجر كتب عن الثانية شرحاً ،
وأرسله الى بعض عظماء صوفية الوقت ليقرّظه ، فأقام عنده مدة ، ثم
كتب اليه عند ارساله الجواب اليه :

سارت مشرّقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

« ف قيل له في ذلك فقال : مولانا الشارح اعتنى بارجاع الضمائر والمبتدأ
والخبر والجناس والاستعارة ، وما هنالك من اللفّة والبديع ، ومراد
الناظم وراء ذلك كله »^٢ .

١ شذرات الذهب ٥ - ١٥٢ .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٥١ .

ومن نظر إلى الديوان نظراً ظاهرياً ابن أبي حجلة . وقد قال في وصفه^١ : « هو من أرق الدواوين شعراً ، وأنفسها درأً برأً وبحراً ، وأسرعها إلى القلوب جرحاً ، وأكثرها على الطلول نوحاً - إذ هو صادر عن نفثة مصدور ، وعاشق مهجور ، وقلب بحر النوى مكسور » .

ولا يقصد ابن أبي حجلة بالمعنى هنا النوع الصوفي الذي يرمز إلى الجمال الإلهي ، إذ المعروف عنه أنه كان من سيئي الاعتقاد بآب الفارسي^٢ بل يقصد ما يذهب إليه كثيرون من أن غزله غزل عادي كغزل ابن أبي ربيعة ، وعباس بن الاحنف ، والبهاء زهير وسوام . ولا ينكر أن شهرة شاعرنا قائمة عند الجمهور على هذه الوجهة الظاهرية ، فهم يحفظون قصائده ويرددونها لضربها على أوتار الغرام ، ولأنها تلائم ما يشعرون به من خوالج الوجد والهيام . على أن شعور الجمهور لا يحتم علينا أن ننظر إليها كذلك . ومهما حاولنا أن نضرب صفحاً عن تصوّفه فإن من قصائده ما لا يفسر إلا تفسيراً باطنياً أو رمزياً (صوفياً) . ومن ذلك قصيدته الخمرية ، واليك مثلاً منها :

ولو جليت سرّاً على اكمة غدا بصيراً ومن راووقها بسمع الصم
ولو أن ركباً يتموا ترب أرضها وفي الركب ملسوع لما ضرّه السم
تقدّم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم
وهامت بها روحي بحيث تمازجا اتحاداً ولا جرم تخلّله جرم
وقالوا شربت الإثم كلّاً وانما شربت التي في تركها عندي الإثم

والذي يقرأ هذه القصيدة ويتفهم معانيها ومراميتها ، ثم يقابلها بمخمرات أبي نواس مثلاً يرى فرقاً واضحاً برغم ما قد يتوهم من تشابه الصفات في الخمرين النواسية والفارضية .

١ شذرات النعب ١٥١ .

٢ الديوان ١١ .

وامم من هذه الحمزية واسمى تصوفاً تأثيته الكبرى « او نظم السلوك »
التي مطلعها :

سقتني حيتا الحب راحة مقلتي وكأسي عيتا من عن الحسن جلّت
وهي قصيدة فريدة في الادب العربي ، أو كما يقول المستشرق العلامة
هامر في مقدمة ترجمته لها : « انها اسمى ما وصل الينا من هذا القبيل
في أدب الشرق والغرب » . ويقابلها « بنشيد الانشاد » في التوراة فيقول :
« هي نشيد انشاد العرب في الحب الصوفي ولئن قصرت عن « نشيد
الانشاد » في الصور الطبيعية ، فانها تفوقه في الرموز التصوفية » .

* * *

والمروي انه لم ينظمها على حدّ نظم الشعراء اشعارهم بل كانت
تحصل له جذبات يغيب فيها عن حواسه فاذا أفاق أملى ما فتح الله
عليه منها ، ثم يدع حتى يعاوده ذلك الحال ^٣ .

ويصف ولده هذه الغيبوبة فيقول : « كان الشيخ في غالب اوقاته لا
يزال دهشاً ، وبصره شاخصاً ، لا يسمع من يكلمه ولا يراه : فتارة
يكون واقفاً ، وتارة يكون قاعداً ، وتارة يكون مضطجماً على جنبه ،
وتارة يكون مستلقياً على ظهره مسجى كلميت . ويمرّ عليه عشرة أيام
متواصلة ، أو أقلّ من ذلك وأكثر ، وهو على هذه الحالة - لا يأكل ولا
يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك - ثم يستغيث وينبعث من هذه الغيبة ، ويكون
اول كلامه انه يملي من القصيدة « نظم السلوك » ما فتح الله عليه » ^٤ .

وعلى ما رووه من غيبته يعقّب المستشرق الاستاذ نكلسون بقوله :
« اننا لا نرى لزماً ان نشك في صحة ما رووه ففي التاريخ ما يزكّيه
- هذا بلايك (Blake) فقد قال عن نفسه ان سكرة روحية كانت تغشاها

١ مقدمة الترجمة XX (فيينا ١٨٥٤) .

٢ مقدمة الترجمة VIII .

٣ و ٤ الديوان ١١ .

كلما أمسك القلم أو المرقم - وسانت كلارين أوف سيانا كانت تملي أحاديثها على كتبها وهي في حالة الوجد أو الغيبة (Ecstasy). وكان جلال الدين الرومي، إذا غاص في بحر المحبة، أمسك بعمود في داره وأخذ يدور حوله وفي خلال ذلك ينظم ويملي،^١.

فليس من الغريب أن تأخذ «الحال» شاعراً رقيق الشهور شديد التأثر كابن الفارض. والذي يتأمل تأنيته العجيبة يرى فيها آثار تلك الحال، كقوله:

ودلتني منها ذهولي ولم أفق عليّ ولم أقفُ التماسي بظنّي
فاصبحت فيها والهاً لاهياً بها ومن ولّيت شغلاً بها عنه ألهت
وعن شغلي عني شغلت فلو بها قضيت ردىّ ما كنت أدري بنقلتي
وما زلت في نفسي بها متردداً لنشوة حسني والمحسن خمرتي
وقوله:

يشاهدها فكري بطرف تخيلي ويسمعا ذكري بسمع فطني
ويحضرها للنفس وهي تصوّراً فيحسبها في الحسن وهي نديتي
فاعجب من سكري بغير مدامة واطرب في سرّي ومنّي طربتي

ومما يشير إلى أنه نظم كثيراً منها على أثر تواجده أو «حال» أن المعاني تتكرر فيها على طرق شتى. ففي نفس الشاعر شوق مستمر يحمله إلى العلى، وكثيراً ما يحجب عنه أبواب التأمل المنطقي. على أنه يثير شعوره فيظهر في أبيات أو قطع قد تختلف لفظاً عما نظم قبلاً ولكنها لا تختلف معنى. ومن ذلك معظم ما نظم في الجمع والاتحاد والفناء والصحو وما شاكل من هذه المعاني التي كانت تشغل عقله فإذا غاب تسارعت إلى خاطره فلم يلب لسانه. وإذا اعتُرض أن الصنعة البديعية فيها تعارض ذلك لتطلبها الدقيق في التركيب وامتلاك الحواس في اختيار الالفاظ المناسبة، قلنا قد يكون ذلك صحيحاً، ولكنه ليس بمحتم. وإذا كان رجل كابن

الفارض مشبع الروح بالتأملات الصوفية ، وكان مع ذلك واسع الاطلاع على لغة عصره الشعرية يخزن في ذاكرته الكثير من أوضاعهم وأساليبهم ، لم يستحل عليه حتى في حال ذهوله ان يبت شعوره بواسطة تلك الاوضاع والاساليب .

فالتائية الكبرى نشيد الوجد الروحي . فيها نشر بذلك الحب الاسنى الذي يملك على الناظم حواسه فيسكره وينقله من عالم المادة الى عالم الروح . فيها نرى ذلك العراك المستمر بين الصلاح والشرّ وذلك الفوز النهائي الذي انما ينال بمشاهدة الجمال الإلهي :

وما هو الا ان ظهرت لناظري بأكمل اوصاف على الحسن اربت
فحلّيت لي البلوى فخلّيت بينها وبينني فكانت منك اجل زينة
وما الحبّ الحقيقي إلّا الذي ينتهي بتلاشي ارادة الحب او اتحاده
في حقيقة المحبوب .

وغُيِّبَت عن أفراد نفسي بحيث لا يزاحمني ابداء وصفٍ بحضرتي
وها انا أبدي في اتحادي مبدأي وأنهى انتهائي في تواضع رفعتي
أما الجمال فهو الجمال المطلق الذي يتجلّى في كل ما هو جميل في الطبيعة والانسان .

وصرّحُ باطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلاً لزخرف زينة
فكلّ مليح حسنه من جاهها مُعارٌ له بل حسن كلّ مليحة
وحب الجمال هو حب الله نفسه وهو عند ابن الفارض أعلى من عبادة النساء ومن عبادة المثقلين أنفسهم بظواهر التقليد والنقل .

وطب بالهوى نفساً فقد سُدتْ انفس العباد من العباد في كل أمة
وفُزّ بالعلو وافخر على ناسكٍ علا بظاهر اعمالٍ ونفس تزكّت
وجز مثقلاً لو خفّ طف مؤملاً بمنقول أحكام ومعقول حكمة
وحزّ بالولا ميراث ارفع عارف غدا همّة ايثار تأثير همّة
وتيه ساحباً بالسحب اذبال عاشق بوصلٍ على أعلى المجرّة جرّت

على ان الجمال الانساني لا يمكن مشاهدته الا بعد التجرد من اُثواب العقل والحس .

الى ان بدا منّي لعيني بارقُ وبان سنا فجري وبانت دجنّتي
هناك الى ما احجم العقل دونه وصلت وبني مني اتصالي ووصلتي
واستارُ لبس الحسّ لما كشفتها وكانت لها امرارٌ حكمي ارخت
رفعت حجاب النفس عنها بكشفي النقابَ وكانت عن سؤالي مُجيبتي
ومنى شاهدت النفس المتجرّدة الجمال الاسنى تساوت لديها الاسماء
والصفات وأصبحت هي والوجود الالهي شيئاً واحداً ، فرأت في كل
الاشكال معنى واحداً .

ترى صور الاشياء تجلى عليك من وراء حجاب اللبس في كل خِلقة
تجمّعت الازداد فيها لحكمة فاشكالها تبدو على كل هيئة
وكل الاديان مظاهر لدين واحد حتى عبّاد الاوثان ليست عبادتهم في
الحقيقة إلاّ اتجاهاً نحو الجمال الإلهي المطلق .

فما قصدوا غيري وان كان قصدم سواي وان لم يظهروا عقد نيّة
ولشروع مثل ذلك في شعره اتهمه البعض بالحلول^١ وكفّروه ، حتى
قال المناوي وهو من المدافعين عنه^٢ : « والحاصل انه اختلف في شأن
صاحب الترجمة (ابن الفارض) وابن عربي ، والعفيف التلساني (وفلان
وفلان يعددهم) من الكفر إلى القطبانية ، وكثرت التصانيف من الفريقين
في هذه القضية ، على ان شاعرنا يدافع عن نفسه فيقول :

وكيف وباسم الحق ظلّ تحقيقي تكون اراجيف الضلال تخيفتي
ولي من أصحّ الرؤيتين اشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي
وفي الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر ولم اعدُ عن حكمي كتاب وسنة
فابن الفارض لا يعتمد في شعره الطريقة الجدلية ، ولا يدخل في نضال

١ الديوان ١٢ .

٢ شذرات الذهب ٥ - ١٥٢ .

فلسفي يدعمه بالادلة والبراهين ، بل هو يصور الوجود بالوان الجمال المطلق ، وينسج من عواطفه حلة سداها ولحمتها الحب المسكر ، حلة تلبسها النفس فتحتجب عن علاقاتها المادية ، وتعلو في لوح الفضاء الى حيث تمتزج بروح الكون . وفي ذلك المقام تطل على الوجود فلا ترى فيه إلا شكلا واحداً ولونا واحداً وقوة واحدة .

الحب هو نشيد ابن الفارض . وهو - سواء نظرت اليه من جهة الظاهر أو جهة الباطن - حب سام يرفع النفس الى المثل العليا ، ويكشف لها عن جمال الوجود الاعظم .

وما ميّ ، وعُتب ، وريّا ، وسلمى ، وليلى وسواهنّ عنده إلا مرايا تعكس لنا نور المحبوب الاسنى .

وما الوجد ، والشوق ، والوصل ، والهجر ، والعذل ، والتعذيب ، والدّل ، والنحول ، والموت ، والفدر ، والوفاء ، واللوم ، والعتاب ، والرضا ، واضراب هذه الاوضاع الغزلية الا اختبارات نفس شديدة الاحساس في سعيها نحو مصدر الجمال .

وما مرابع الحجاز الا رمز للمرابع العلوية ، ولذلك تراه يردد ذكرها في أكثر قصائده ، فيقول مثلاً :

يا ساكني البطحاء هل من عودة احبا بها يا ساكني البطحاء

* * *

لا تمّلني عن هوى مرتبعي عدوّي تسيما لربع بتّمي

* * *

قسماً بمكة والمقام ومن اتى البيت الحرام ملتباً سيّاحا

مارتحت ربيع الصبا شيخ الربى ألا واهدت منكم افراحا

تلك هي عاطفته الحجازية التي تبرز في أكثر قصائده . ومهما غلا المشككون فان في تلك العاطفة ما يبرّر قولنا بصوفية شاعرتا ونبالة حبّه .

المختار من شعر ابن الفارض

نفس رقيقة ترتفع على اجنحة الحب الى العلى ثم تذوب في الفضاء
الواسع تاركة وراءها نغماً لطيفاً يرجعه الشعر فيطرب السامعين .

يأثيته المشهورة

سائق الاطمان يطوي البید طي
وبذات الشیخ عني ان مر
وتلطفت واجري ذكری عندهم
قل تركت الصب فيكم شبعاً
خافياً عن عائِد لاح كما
كهلال الشك لولا أنه
مسبل للنأي طرفاً جاد إن
بين اهليه غريباً نازحاً
منعماً عرج على كشان طي^١
تبحي من غريب الجزع حي^٢
علتهم أن ينظروا عطفاً الي
ما له مما يراه الشوق في
لاح في برؤيه بعد النشر طي
أن عيني عينه لم تنأي^٣
ضن نوء الطرف أن يسقط خي^٤
وعلى الاوطان لم يعطفه لسي^٥

١ طي الاول مصدر طوى . والثانية اسم قبيلة .

٢ ذات الشیخ : موضع . الجزع : منعطف الوادي . والحي (الثانية) أي سلم .

٣ هو في الحفاء كاهلال الذي لم تثبت رؤيته ولولا انينه لما رأت عيني ذاته (عينه) .

٤ ساكباً دموع طرف يحود بالبكاء وان بخل نجم « الطرف » عند سقوطه بالمطر .

٥ لي أي عطف .

نشرَ الكاشحُ ما كان له
 في هواكم رمضانَ عُمُرُهُ
 حائراً في ما إليه امرُهُ
 يا أهيلَ الودِّ أنتى تنكرو
 وهوى الغادةِ عَمري عادةً
 ومتى اشكُ جراحاً بالحشا
 عجباً في الحرب أدعى بأساً
 هل سمعتم أو رأيتم أسداً
 وضعَ الآمي بصدري كفته
 سقمي من سقمِ اجفانكم
 رجسَ اللاحي عليكم آئساً
 أبمينيه عمى عنكم كما
 ظلَّ يهدي لي هدىً في زعمه
 ذابت الروح اشتياقاً فهيَ بعدَ
 نفاذِ الدمعِ أجرى عبرتي
 فهبوا عيني - ما اجدى البكا -
 او حشا سالى وما أختاره
 بل أسيثوا في الهوى أو أحسنوا

طاويَ الكشحَ قُبَيْلَ النَّايِ طي
 ينقضي ما بين إحياءِ وطي
 حائرٌ والمرء في المحنةِ عي
 ني كهلاً بعد عرفاني فُتي
 يحلبُ الشيب إلى الشاب الأحي
 زيد بالشكوى إليها الجرح كي
 ولها مستبسلًا في الحب كي
 صاده لحظ مهارةٍ أو ظبي
 قال ما لي حيلةٌ في ذا الهوى
 وبمعسول الثنايا لي دوى
 من رشادي وكذاك العشق غي
 صممٌ عن عذله في أذني
 ضلَّ كم يهذي ولا أصفي لغي
 عين ماءٍ فهي إحدى منيتي
 إن تروا ذاك به متاعاً علي
 كل شيء حسنٌ منكم لَدَي

* * *

روح القلب بذكر المنحنى وأعدهُ عند سمعي يا أخي
 لم يرق لي منزلٌ بعد النقا لا ولا مستحسنٌ من بعدِ مي
 آهِ واشوقي لضاحي وجهها وظها قلبي لذيك اللّمي

١ بين سر وجوع .

٢ الاحي أي الاسود الشعر .

٣ كي : جبان .

٤ هل عبت عينه عن جمالكم كما صمت أذني عن سماع عذله .

٥ تصغير لمى وهو سمرة في باطن الشفة أو ماء الثغر .

فبكلّ منه والاحاظ لي سكرة^٢ واطربا من سكرتي
جنة^١ عندي رباها أعلت^٣ أم حلت - عجلتها من جنتي^٤
دار خلدي لم يدُر في خلدي أنه من ينأ عنها يلقَ غي

* * *

خاطبَ الخطب دع الدعوى فما بالرقي ترقى الى وصل رقي^١
رُحْ معافى^٢ واغتم نصحي وإن شئت ان تهوى فليلوى تهى
كم قتيل من قبيل ماله قود^٣ في حبنا من كل حي
أي تعذيب سوى البمد لنا منك عذب^٤ حبنا ما بعد أي^٥
ان تشي راضية^٦ قتلي جوى^٧ في الهوى حسي افتخاراً أن تشي
ما رأت مثلك عيني حسناً وكمثلي بك صبا لم تزي
نسب^٨ أقرب في شرع الهوى بيننا من نسب من أبوي
ليت شعري هل كفى ما قد جرى مذ جرى ما قد كفى من مقلتي
ميركُم^٩ عندي ما اعلته^{١٠} غير دمع عندمي^{١١} عن دمي^{١٢}
مظهِراً ما كنت أخفي من قديم حديث صانه مني^{١٣} طي
يا أصبحابي تمادي بيننا ولبعد بيننا لم يقض^{١٤} طي
عللوا^{١٥} روحي بارواح الصبا فبريتاها يعمود الميت^{١٦} حي
أي صبا أي صبا هجت لنا سحراً من أين ذيتاك الشذي^{١٧} ؟
ذاك ان صافحت ريتان^{١٨} الكلا وتحرّشت^{١٩} يجوذات^{٢٠} كلي^{٢١}
فلذا تُروى وتروى ذا صدى^{٢٢} وحديثاً عن فتاة الحي^{٢٣} حي^{٢٤}
سائلي ما شفتني ، في سائل^{٢٥} الديمع لو شئت غنى عن شفتي

١ هي عندي جنة سواء اجدت أم تحلت بالخصب ويشير بالجنة الثانية إلى السماء .

٢ رقي اسم فتاة ويكنى بها عن الجمال الاسنى .

٣ أي حبنا للتعذيب .

٤ عندي أي أهر . في تصغير دم أي سال سائل من دمي .

٥ و أي انما ذلك الشذا لأنك لمست الكلا الناضر وتحوشت بنبات الموذان في وادي الحبيب .

ولذا فانت تروي صاحب المعش وتروي الخبر الصادق (الحي) عن فتاة الحي .

عُتِبَ لَمْ تُعْتَبِ وَسَلَى اسَلَمْتُ وَحَى أَهْلَ الْهَى رُؤْيَا رَيَّ

هو الحب

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

فما اختارَه مَضْنَى به وله عقل
وعش خالياً فالحب راحته عنا
ولكن لدي الموت فيه صابة
نصحتك علماً بالهوى والذي أرى
فان شئت أن تحيا سعيداً فت به
فمن لم يميت في حبه لم يعيش به
تمسك بأذيال الهوى واخلم الحيا
وقل لقتيل الحب وفيت حقه
تعرض قوم للغرام واعرضوا
رضوا بالاماني وابتلوا بمحظوظهم
وخاضوا بحار الحب دعوى فابتلوا

* * *

أحبة قلبي والمهبة شافمي
عسى عطفة منكم علي بنظرة
احبائي أنتم أحسن الدهر أم أسا
فكونوا كما شتم انا ذلك الحيل
إذا كان حظي المهجر منكم ولم يكن

بِعَاد فذاك المهجر عندي هو الوصل
وتعذيبكم عذب لدي وجوركم
وصبري صبر عنكم وعليكم
أرى أبداً عندي مرارته تحلو

١ يا من تسألني عما أصابني انظر الى الدمع السائل تجد فيه جوابي . وعتب وسلى وري أحما
فتيات .

٢ إن حب الجمال الأسنى والتأدي فيه (على طريقة الصوفية) هو أفضل الطرق فسر به ولو
خالفت أهل الطرق الاخرى .

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي

يضرّكم لو كان عندكم الكلّ

نأيتم فغير الدمع لم أرَ وافيًا سوى زفرةٍ من حرّ نارِ الجوى تعلو

فسهديّ حيّ في جفوني مغلّدٌ ونومي بها ميتٌ ودمعي له غُسل

هوىّ طلّ ما بين الطلولِ دمي فين

جفوني جرى بالسفح من سفحه وبلّ

تباله قومي إذ رأوني متيمًا وقالوا بمن هذا الفقى مَسَّهُ الحبل؟

وماذا عسى عني يقال سوى غدا بنُعمٍ له شغلٌ نَعَم لي بها شغل

وقالت نساء الحيّ عَنّا^٢ بذكر من جفانا وبعد العزّ لذّة له الدلّ

إذا انعمتْ نَعَم عليّ بنظرةٍ فلا اسمعتْ سَعدي ولا اجملت جل

وقد صدئت عيني برويّةٍ غيرها ولثم جفوني ترهبها للصدأ يحلو

وقد علموا أنّي قتيل لجأظها فانّ لها في كل جارحةٍ نصل^٣

حديثي قديمٌ في هواها وما له كما علمت بعدّ وليس له قبل

وما لي مثلٌ في غرامي بها كما غدت فتنةً في حسنّها ما لها مثل

به قسمت لي في الهوى ودمي حلّ فحالي وإن ساءت فقد حسنت به

ولي همةٌ تعلو إذا ما ذكرتها وروحٌ بذكراها إذا رخصتْ تغلو

جرى حقها مجرى دمي في مفاصلي فاصبح لي عن كلّ شغل بها شغل

فنافسٌ ببذل النفس فيها أخا الهوى فان قبلتها منك يا حبّذا البذل

فمَنْ لم يحدّ في حبّ نَعَم بنفسه ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل

ولولا مراعاة الصيانة غيرةٌ ولو كثّروا أهل الصباية أو قلتوا

لقلت لمشاق الملاحاة اقبلوا إليها على رأيي وعن غيرها ولّوا

١ هوى مدر دمي بين طلول الاحبة فجرى من جفوني لذلك وابل من الدموع .

٢ عنا به أي ابعدوا ذكر من جفانا .

٣ الاصل فان لها نصلا ولكنهم يخرجون الاعراب بتقديم ضمير الشأن فكانه يقول فانه

لها الخ .

وان 'ذكرت يوماً فخرتوا' لذكرها
وفي حبها بعث 'السعادة' بالشقا
وقلت لرشدي والتنسك' والتقى
وفرغت قلبي عن وجودي مخلصاً
واصبو الى العذال حباً لذكرها
فان حدّثوا عنها فكلتي مسمع
تخالفت الاقوال' فينا تبايناً
فشنع قوم' بالوصال ولم تصل
فما صدق التشنيع' عنها لشقوتي
وكيف ارجي وصل' من لو تصوّرت

حاما المني وهما لضاقت بها السبل
تري مقلتي يوماً ترى من أحبهم
وما برحوا معنى' أراهم' معي فان
فهم نصب عيني ظاهراً حيثما سرّوا
لهم أبداً مني حنو' وان جفّوا
ولي أبداً ميل' اليهم وان ملّوا

أنا القاتل

ما بين معتزك الاحداق والمهج
ودعت قبل الهوى روعي لما نظرت
للـ أجفان' عين' فيك' ساهرة
واضلع' نخلت' كادت' تقوّتها
وادمع' هملت' لولا التنفس' من
وحبذا فيك اسقام' خفيت' بها
أصبحت' فيك كما أمسيت' مكتئباً

أنا القاتل بلا إثم ولا حرج
عيناى' من حُسن' ذاك المنظر البهج
شوقاً اليك وقلب' بالفرام شجـ
من الجوى كبدي الحرّى من العوج
نارِ الهوى لم أكّد' أنجو من اللّـجج
عني تقوم' بها عند الهوى حججي
ولم أقل جزعاً يا أزيمة' انفرجي

أهفو إلى كل قلب بالفرام له
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد
شغل وكل لسان بالهوى لهج

أوفى محبة بما يرضيك مبتهج
لا خير في الحب إن أبقى على المهج
وخذ بقية ما أبيت من رمق
من لي باتلاف روحي في هوى رمل
حلو الشامل بالأرواح بمهج
من مات فيه غراماً عاش مرتقياً
ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج
عجب لو سرى في مثل طرته
وان ضللت بليل من ذوائبه
أغنته غرته الفراء عن السرج
أهدى لعيني الهدى صبح من البلج
وان تنفس قال المسك معترفاً
لعارفي طيبه من نشره أرجي
يا ساكن القلب لا تنظر إلى سكتني

واربح فؤادك واحذر فتنة الدعج
تبارك الله ما أحلى شمائله
فكم أماتت وأحيت فيه من مهج
هوى لذكر اسمه من لج في عذلي
معني ، وان كان عذلي فيه لم يلج
وأرحم البرق في مسراه منتسباً
لثغره وهو مستحي من الفلج
تراه ان غاب عني كل جارحة
في نعمة العود والناي الرخيم إذا
في كل معنى لطيف رائق بهج
وفي مسارح غزلان الخائل في
تألفا بين الحان من الهزج
برد الاصال والاصباح في البلج
بساط نور من الازهار منتج
أهدى إلي سحيراً أطيب الارج
وفي مساحق انداء الغمام على
ريست المدامة في مستزده فرج
وخاطري أين كنا غير منزعج
وفي التثامي نغم الكأس مرتشفاً
لم أدر ما غربة الاوطان وهو معي

١ أي لو سرى في ليل أسود كشمه لكان من غرته نور يفنيه عن السرج .

٢ أي هوى معني ان يسمح كلام العاذل لأنه يذكر الحبيب وان كان (معني) لا يقبل العذل .

قلي يحدثني

روحي فداك عرفت أم لم تعرف
لم أقض فيه أسمى ومثلي من يفني^١
في حب من يهواه ليس بمسرف
يا خيبة المسعى إذا لم تسعف
ثوب السقام به ووجدني المتلف
من جسمي المضى وقلبي المندف
والصبر فاني واللقاء مسوّي
سهرى بتشجيع الخيال المرجف
جفني وكيف يزور من لم يعرف
عيني وسحت بالدموع الذرف
ألم النوى شاهدت هول الموقف^٢
أملّي وماطل ان وعدت ولا تقي
يخلو كوصل من حبيب مسمف
ولوجه من نقلت شذاه تشوّي
ان تنطفي ، وأود ان لا تنطفي
ناداكم يا أهل ودي قد كفي
كرماً فاني ذلك الخلل الوفي
عمري بغير حياتكم لم أحلف
لمبشري بقدمكم لم أنصف
كلّفي بكم خلّق بغير تكلف
حتى لعمري كدت عنه اختفي
لوجدته أخفى من اللطف الخفي

قلبي يحدثني بانك متلفي
لم أقض حقّ هواك ان كنت الذي
ما لي سوى روحي وبازل نفسه
فلئن رضيت بها فقد اسفنتني
يا مانعي طيب المنام وما نحي
عطفاً على رمقي وما أبقيت لي
فالوجد باقي والوصال مما طلي
لم اخل من حسد عليك فلا تضع
واسأل نجوم الليل هل زار الكرى
لا غرو ان شحت بغمض جفونها
وبما جرى في موقف التوديع من
ان لم يكن وصل لديك فعد به
فالطل منك لدي ان عزّ الوفا
أهفو لانفاس النسيم تعلّة
فلعل نار جواحي يهويها
يا أهل ودي أنتم أملّي ومن
عودوا لما كنتم عليه من الوفا
وحياتكم وحياتكم قسماً وفي
لو أن روحي في يدي ووهبتها
لا تحسبوني في الهوى متصنّعا
أخفيت حبكم فأخفاني أسمى
وكتمته عنّي فلو أبديته

١ اقضي الاول اودي . والثانية اموت .

٢ الموقف يوم الحساب في الآخرة .

ولقد أقول لمن تحرّش بالهوى
 أنتَ القَتيلُ بأيّ من أحببته
 قل للعذول اطلتْ لومي طامعاً
 دع عنك تمنّيفي وذقْ طعم الهوى
 برح الخفاء بحبّ من لو في الدجى
 وهواه وهو أليّتي وكفى به
 لو قال تيهاً قف على جمر الغضا
 لا تنكروا شغفي بما يرضى وان
 غلب الهوى فاطمت أمر صابقي
 منّي له ذلّ الخضوع ومنه لي
 أليف الصدود ولي فؤاد لم يزل
 لو اسمعوا يعقوب ذكر ملاحه
 او لو رآه عائداً ايتوب في
 كلّ البدور اذا تجلّى مقبلاً
 ان قلتُ عندي فيك كل صباية
 كملت محاسنه فلو أهدى السنا
 وعلى تفنّن واصفيه بحسنه
 ولقد صرفتُ لجه كلفتي على
 اسعد أخيّ وغتني بمحدثه
 لأرى بعين السمع شاهد حسنه
 يا أخت سعدٍ من حبيبي جئتني

عرّضتَ نفسك للبلا فاستهدفِ
 فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي
 أنّ الملام عن الهوى مستوقي
 فاذا عشقت فبعد ذلك عتفِ
 سفر اللثام لقلت يا بدرُ اختفِ
 قسماً أكادُ أجلّه كالمصحفِ
 لو قفت ممثلاً ولم اتوقّفِ
 هو بالوصال عليّ لم يتعطّفِ
 من حيث فيه عصيت نهي معتفي
 عزّ المَنوع وقوّة المستضعفِ
 مذ كنت غير وداده لم يالفِ
 في وجهه نسيّ الجمال اليوسفي
 سِنه الكرى قدماً من البلوى شفي
 قصبو اليه وكلّ قدّ اهيفِ
 قال الملاحه لي وكلّ الحسن في
 للبدر عند تمامه لم يخسّفِ
 يفنى الزمان وفيه ما لم يوصفِ
 يد حسنه فحمدت حسن تصرّفِ
 وانثر على سمعي حلاه وشتفِ
 معي فاتحفني بذاك وشرّفِ
 برسالة اديتها بتلطّفِ

١ اليّ أي قسمي . والمصحف القرآن الكريم .

٢ أي وكل الحسن في .

٣ غني بمحدثه لأرى جماله عن طريق السمع وقد جعل السمع عيناً عن طريق الحار .

فسمعتُ ما لم تسمعي ونظرت ما
 ان زار يوماً يا حشايَ تقطعي
 لم تنظري وعرفت ما لم تعرفي^١
 ان غاب عن انسان عيني فهو في^٢
 ما للنوى ذنبٌ ومن أهوى معي

زدني بفراط الحب

زدني بفراط الحب فيك تحبيرا
 واذا سألتك ان أراك حقيقة
 وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
 يا قلب أنت وعدتني في حبهم
 فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
 ان الغرام هو الحياة فت به
 صبرا فحاذر ان تضيق وتضجرا
 قل للذين تقدموا قبلي ومن
 صبا فحقتك ان تموت وتغذرا
 عني خذوا وبني اقتدوا ولي اسمعوا
 بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى
 ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
 وتحذثوا بصبابتي بين الوري
 واباح طرفي نظرة امتلتها
 سر ارق من النسيم اذا سرى
 ففدوت معروفا وكنت منكرا
 فدعشت بين جماله وجلاله
 وغانا لسان الحال عني مخبرا
 فادرك لحاظك في محاسن وجهه
 تلقى جميع الحسن فيه مصورا
 لو ان كل الحسن يكمل صورة
 ورآه كان مهلا ومكبيرا

١ أيتها الفتاة المتتمة إلى قبيلة سعد انك حملت لي رسالة الحبيبة ولكنك لم تسمعي منها ولم تعرفي ما سمعت وعرفت أنا .
 ٢ أي في القلب .

فهرس

٢٣	الزنج	٥	توطئة
٢٣	القرامطة		
٢٤	الحشاشون		العوامل السياسية
	العوامل الهدامة الخارجية -		في الدولة العباسية
٢٥	غارات الروم	٧	نظرة عامة
٢٦	غارات الصليبيين	١٠	التنافس بين العناصر
	تطور الحياة الاجتماعية	١٣	تجزؤ الخلافة
		١٥	الامارات المستقلة في بلاد فارس
٢٩	الحضارة في فجر الاسلام	١٦	الامارات التركية
٣١	الحضارة في الدولة الاموية	١٦	الامارات العربية
٣٨	ظواهر الحضارة في العصر العباسي	١٧	الدولة الفاطمية
٣٨	نشوء قومية عربية جديدة	١٨	الدولة الاندلسية
٤٢	الامتزاج بالزواج	١٩	تأثير هذا التجزؤ في الادب
٤٣	تعرب الأمم المغلوبة	٢٠	الحركات الهدامة الداخلية
٤٤	حضارة بغداد	٢١	حركات الخوارج
٤٤	الجباية والمصادرة	٢١	حركات العلوية

الشعر في العصر العباسي

- ٨٦ خصائص الشعر العباسي
٨٦ الشعر الوجداني والموضوعي
التجدد في صناعة الشعر - رقة
٨٧ العبارة
٩١ التفنن في المعاني
٩٥ البديع اللفظي
٩٧ التوسع في المصطلحات اللفظية

امراء الشعر المولد

ابو نواس - مصادر دراسته

- ١٠٤ بيثته وعصره
١٠٦ ميله إلى الشعبية
١١٠ مقامه الأدبي واسلوبه
١١١ شعره - المقلد والمحدث
١٢٢ شخصيته ونظره إلى الحياة

المختار من شعره

- ١٣١ دع عنك لومي
١٣٢ دع الربع ما للربع فيك نصيب
١٣٣ ذكر الصبوح بسحره فارتاحا
١٣٤ ما زلت استلّ روح الدنّ في لطف
١٣٤ عاج الشقي على رسم يسائله
١٣٤ خفيت عليك محاسن الخمر

أمثلة من بذخ العباسيين - ملابس

- ٤٨ الموفق والمكتفي
٤٨ جواهر المقتدر
٤٨ بذخ أم جعفر وأم المستعين
٤٩ بذخ الهادي والرشد والواثق
٤٩ الولائم والأفراح والمساكن
٥٠ العمران الزراعي والتجاري
بعض صور اجتماعية يمسها
٥٤ الأدب العباسي
٥٤ الجوّاري والغلمان
٥٦ مجالس الشراب
٥٧ التائق في الفنون العصرية
٥٨ انتشار المدارس والعلوم
٥٨ ظواهر الحركات الفكرية

مجري الحركات الفكرية

- ٦١ مصادرها الرئيسية - اليوناني
٦٥ المصدر الفارسي
٦٩ المصدر الهندي
المجري الفكرية الكبرى: الفلسفة،
٧٠ الكلام
المعتزلة - نشأتها - مبادئها
٧٢ الاشعرية وتعاليمها
٧٧ التصوّف، نشأته - مبادئه
٧٩

١٦٤	شاعريته	١٣٥	ودار ندامي عطّلوها وادجلوا
١٦٦	مزايا شعره - السهولة	١٣٥	وقتيان صدق قد صرفت مطيهم
١٦٧	رشاقة التعبير	١٣٦	غدوت على اللذات منتبك الستر
١٦٨	سرعة الخاطر	١٣٧	يا شفيق النفس من حَكَم
١٧١	عيوب شعره	١٣٧	اذا خطرت منك الهموم فداوها

اختار من شعره

١٧٢	نصبت لنا دون التفكير يا دنيا	١٣٩	اذا التقى في النوم طيفانا
١٧٢	بكيت على الشباب بدمع عيني	١٣٩	بعض أقواله في جنان
١٧٣	لدوا للموت وابنوا للخراب	١٤٠	يا دار ما فعلت بك الايام
١٧٣	طلبت المستقر بكل أرض	١٤١	وعظمتك واعظة القدير
١٧٤	أخوي مرّا بالقبور	١٤٢	سخر الله للأمين مطايا
١٧٤	حتى متى يستفزني الطمع	١٤٣	أنت يا ابن الربيع الزمتني النسك
١٧٥	متى تنقضني حاجة المتكلف	١٤٣	أيا رب وجه في التراب عتيق
١٧٥	بليت وما تبلى ثياب صباكا	١٤٤	خلّ جنبيك لرام
١٧٦	نعم نفسي إليّ من الليالي	١٤٤	ألم ترني ابحت اللهو نفسي
١٧٧	لمن طلل اسائه	١٤٤	أيا من بين باطية وزقّ
١٧٨	ألا هل الى طول الحياة سبيل	١٤٥	دبّ في الفناء سفلا وعلوا
١٧٨	أتدري أيّ ذلّ في السؤال		
١٧٩	نادت بوشك رحيلك الايام		
١٨٠	سكن يبقى له سكن	١٤٩	نسبه ونشأته
١٨١	الدهر ذو دول والموت ذو علل	١٥١	حياته الأدبية - انصرافه الى الزهد

ابو تمام - مصادر دراسته

١٨٥	توطئة تاريخية	١٦١	حكمه
-----	---------------	-----	------

٢٤٤	شعره في ديوانه	١٨٨	أهم ممدوحيه
٢٤٤	مواضيعه الشعرية		شخصيته - عنفوانه - إعجابه
٢٤٩	مزيمته الفنية - الوصف	١٨٩	بنفسه
٢٥٦	غزله - حنينه الى وطنه	١٩٣	خصائصه الفنية
	المختار من شعره	١٩٣	التألق البديعي
		٢٠٠	تقننه الممنوي
٢٦٠	أجيدك ما ينفك يسري لزيبنا	٢٠٦	شفه بالاغراب ودواعي غموضه
٢٦٣	سلام عليكم لا وفاة ولا عهد		المختار من شعره
٢٦٤	انما الغي أن يكون رشيدا		السيف أصدق انباء من الكتب
٢٦٦	أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر	٢١٥	من سجايا الطلول الا تجيبا
٢٦٨	ألم تر تفليس الربيع المبكر	٢١٩	على مثلها من أربع وملاعب
٢٧١	صنت نفسي عما يدنس نفسي	٢٢١	اهن عوادي يوسف وصواحيه
٢٧٢	قل للسحاب اذا حدثه الشمال	٢٢٤	ديمة سمحة القياد سكوب
٢٧٣	ميلوا الى الدار من ليلي نحيبها	٢٢٥	غدت تستجير الدمع خوف نوى غد
٢٧٥	أفأق صب من هوى فأفيا	٢٢٦	الحق ابلج والسيوف عوار
٢٧٧	رحلوا فأبي عزيمة لم تكب	٢٢٨	أجل أيها الربع الذي خف آهله
	ابن الرومي - مصادر دراسته	٢٣١	كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
٢٨٣	سيرته	٢٣٢	دموع أجابت داعي الحزن مع
٢٨٥	حاله مع ممدوحيه		البحتري - مصادر دراسته
٢٨٨	حاله مع الزمان		توطئة تاريخه - أطوار حياته الثلاثة
٢٨٩	عقليته وأثرها في شعره	٢٣٧	ممدوحوه
٢٩٥	شعره وشاعريته	٢٣٩	ولعه بالخر
٢٩٥	القول بالوحدة في قصائده	٢٤١	مذهبه السيامي
٢٩٨	مزاياه الفنية - طول النفس	٢٤٢	

٣٤٦	عصبية العربية ونسبه	٣٠٠	استيفاء المعنى وتقضي الاغراض
٣٤٩	شهرته الشعرية		
٣٥١	شرّاحه ونقّاده		المختار من شعره
٣٥٣	شخصيته الشعرية	٣٠٧	كفى بالشيب من ناه مطاع
٣٥٣	عواطف الشباب ونفثات الألم	٣١٠	شاب رامي ولات حين مشيب
٣٥٧	الجهاد والبطولة - في حلب	٣١٢	بكاؤكما يشفي وان كان لا يجدي
	الغبط من الماضي والأمل بالمستقبل	٣١٤	أمامك فانظر أي نهجيك تنهج
٣٥٩	في مصر	٣١٥	ذاد عن مقلتي لذيد المنام
٣٦٠	شعره في العراق وفارس	٣١٨	يا أخي أين ربع ذاك اللقاء
٣٦١	المتنبي في حكمه	٣٢٠	يا خليلي تبمتني وحيد
		٣٢٢	مقطعاته الحكيمية
	المختار من شعره		
٣٦٣	كم قتيل كما قتلت شهيد		المتنبي - مصادر دراسته
٣٦٥	في الحد ان عزم الخليط رحيلاً	٣٢٧	نشأته الأولى في العراق والشام
٣٦٧	فدينك من ربع وان زدتنا كرباً	٣٢٨	أسباب سجنه وتلقيبه بالمتنبي
٣٦٩	على قدر أهل العزم	٣٣٠	تردّده في الاقطار الشامية
٣٧٢	واحرّ قلباه	٣٣٢	في حلقة سيف الدولة
٣٧٤	كفى بك داء ان ترى الموت شافياً	٣٣٤	في مصر - عند كافور
٣٧٥	أودّ من الايام ما لا تودّه	٣٣٧	بين العراق وفارس
٣٧٧	من الجآذر في زيّ الاعارب	٣٣٨	مقتله
٣٧٨	فراق من فارقت غير مذمّم	٣٣٩	مزاياه الخلقية - تماظمه
٣٨١	الحزن يقلق والتجمل يردع	٣٣٩	سوء سياسته
٣٨٣	نعدّ المشرفية والعوالي	٣٣٩	شعوره بالتفوق
٣٨٤	ملومكما يحل عن الملام	٣٤٣	طموحه الى المجد

المعري - مصادر دراسته	الا في سبيل المجد ما أنا فاعل
توطئة تاريخية - عصره	٣٨٩
بيئته - رحلاته - طبعه	٣٩٢
تزهده وجاهه وكرمه	٣٩٤
زندقته وإيمانه	٣٩٨
النزاع الفكري في عصره وأثره في	
الشاعر	٣٩٩
طوره الأول وطوره الثاني	٤٠٠
شاعريته وشعره - سقط الزند -	
لزومياته	٤٠١
سلاسته وتمتعهده	٤٠٤
دقة تشابيه وروعة حكمه	٤٠٥
المواقف الشعرية - الغيبيات	٤١٠
الطبيعة والحياة البشرية - الاديان	٤١٣
الشعب وزعماءه	٤١٤
الطبيعة البشرية	٤١٦
أسباب شهرته	٤١٧
المختار من شعره	
نشأته	٤٣٩
شخصيته	٤٤٢
أثر الصوفية في شعره	٤٤٦
اسلوبه الشعري ومزاياه الفنية	٤٥١
عيوب اسلوبه	٤٥٤
غزله	٤٥٧
غيوبته والثائية الكبرى	٤٥٩

المختار من شعره

سائق الاطمان

هو الحب

٤٦٤

٤٦٧

ما بين معترك الاحداق

قلبي يحدثني

زدني بفرط الحب

٤٦٩

٤٧١

٤٧٣

صدر عن دار العلم للملايين

- تاريخ الادب العربي (مجلد) للدكتور عمر مروح .
 المجلد الاول ١٦٠٠ ق.ل.
 المجلد الثاني ١٤٠٠ ق.ل.
 المجلد الثالث ٢٠٠٠ ق.ل.
- تاريخ الفكر العربي (مجلد) — للدكتور عمر مروح .
 ١٥٠٠ ق.ل.
- تاريخ الجاهلية — للدكتور عمر مروح .
 ٥٠٠ ق.ل.
- العرب في حضارتهم وثقافتهم — للدكتور عمر مروح .
 ٥٠٠ ق.ل.
- تطور الاساليب النثرية (الطبعة ٤) للاستاذ انيس المقدسي
 ٨٠٠ ق.ل.
- عبقرية ابي تمام (الطبعة ٢) للاستاذ عبدالعزيز سيدالاهل
 ٣٠٠ ق.ل.
- جولة في الشعر العربي المعاصر — للاستاذ ابراهيم العريش .
 ٣٥٠ ق.ل.
- افاني ترقيص الاطفال عند العرب تأليف الاستاذ احمد ابو سعد
 ٦٠٠ ق.ل.
- الانسان العربي وتحدي الثورة العلمية والتكنولوجيا — للدكتور حسن صعب
 ٥٠٠ ق.ل.
- التجزئية في المجتمع العربي تأليف تازك الملائكة
 ٦٠٠ ق.ل.